انيس صايغ

الهاشميّون
وقضيّة فلسطين

منشورات جريدة المحرّر والمكتبة العصريّة
صيدا - بيروت

١٩٦٦



الهاشميّون
وقضيّة فلسطين

حسين يوسف الدويكي



المقدمة



يمكن اعتبار هذا الكتاب كجزء ثان من سلسلة كتب انوي ان اعالج فيها موضوعا واسعا واحدا : علاقة الاسرة الهاشمية بالقضايا القومية العربية . وقد صدر الكتاب الاول منها منذ اسابيع فقط ، بعنوان « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » . وكما قلت في مقدمة الكتاب المذكور، لا تستطيع اية دراسة شاملة للفكرة القومية ان تتجاهل الدور الخاص الذي لعبه الهاشميون في تطورها ، ولا يستطيع مؤرخ العهود الهاشمية في كيانات عربية ثلاثة على الاقل (الحجاز والعراق وشرق الاردن) ان يتجاهل اثر الحركة القومية في قيام تلك العهود او في استمرارها او سقوطها . هذا ما حملني على دراسة العلاقات بين العائلة والفكرة المذكورتين في خمسين السنة الماضية . ولما كان الموضوع اشمل من ان يعالج في كتاب واحد ، اجتزأت منه الاقسام التي تنطوي تحت موضوعي « الثورة العربية الكبرى » و « قضية فلسطين » واصدرتها في كتابين منفصلين ، على امل اجتزاء مواضيع اخرى من صلب الموضوع العام لتصدر في كتاب ثالث ورابع في وقت قريب . ومن اجل ذلك قد يبدو في كتابي هذا بعض الفجوات وبعض التكرارات ، مما عصي علي سده او حذفه ، لان صفحاته انما كانت في الاصل فصولا من كتاب اكبر . وقد حاولت جهدي ان اسد هذه الفجوات وان امنع التكرارات قدر الامكان ، حتى يمكن للقارىء ان يقرأ الكتاب منفصلا او ان يقرأه كجزء في سلسلة ، كما شاء ، فلا يشكو من تقطع ان قرأه على حدة ولا يشكو من اعادة ان قرأه مع الكتاب الاول او مع ما سيصدر من كتب تالية .

معالجة موضوع علاقة الهاشميين بالقضية الفلسطينية ليست سهلة . فان ما تخلل هذه العلاقة من مواقف واجراءات واحداث كانت في بعض الاحيان تغاير ما ارتآه العرب وما ارتضاه رأيهم العام كسياسة قومية ازاء عدوهم السياسي الاكبر، الصهيوني – الاستعماري، يجعل الموضوع حرجا جدا ويجعل فضح بعض الخفايا مؤلما وجارحا وخاصة لمن يفضل طي الماضي على بشاعته ، ولمن يستسيغ خدع الذات على اعلان الحقيقة المؤلمة الجارحة . وللتعويض عن ذلك حاولت ، قدر المستطاع ، ان احصر المعالجة في جو البحث العلمي ، والنظري المجرد ، اذ ان غايتي من خوض الموضوع هي الاسهام في الكشف عن خفايا تاريخنا السياسي المعاصر ، ولا اسعى قط الى اية غاية سياسية آنية ولا اقصد ان ازيد من الخلافات السياسية العربية ولا احاول ان اتهم وان ادين . وقد حرصت، من اجل تحقيق هذه الغاية، ان اعتمد في مصادري، في الدرجة الاولى ، على المصادر الاولية التي وضعها اصحاب الاختصاص والصلة في الموضوع ، ممن لعبوا ادوارا مباشرة في هذه القضية .

اما لفظة ((الهاشميون)) في هذا الكتاب فاني اعني بها عددا محدودا معينا من ابناء الاسرة التي ترأسها الحسين بن علي (شريف مكة ، ثم ملك الحجاز) ولا اعني بها جميع افراد الاسرة ، ويبلغ عددهم العشرات من الملوك والامراء والملكات والاميرات . **الهاشميون الذين اقصدهم بالكلام هم فقط الحسين بن علي (المتوفي ١٩٣١) وابناه عبدالله (المتوفي ١٩٥١) وفيصل (المتوفي ١٩٣٣) وحفيده عبد الاله (المتوفي ١٩٥٨) . واقصد بالعراق الهاشمي العراق في عهدي فيصل (١٩٢١ – ١٩٣٣) وعبد الاله (١٩٣٩ – ١٩٥٣) ، واقصد بالاردن الهاشمي الاردن في عهد عبدالله (١٩٢١ – ١٩٥١)** . اما ابناء الاسر الهاشمية الاخرى ، واما ابناء الاسرة الهاشمية المذكورة الاخرون ، واما العهود الهاشمية الاخرى في العراق والاردن ، فهي خارج البحث في هذا الكتاب ولا تشملها لفظة « الهاشميون » ولا « العهود الهاشمية » باي شكل من الاشكال ، ما لم اذكر ذلك في النص وما لم اذكره بتحديد وبصراحة وبوضوح. وبدهي ان الهاشميين الاربعة الذين يتناولهم الكتاب قد اصبحوا ملك التاريخ، واصبح الكلام فيهم من حق التاريخ ، بعد ان فارقوا كلهم هذه الحياة منذ سنوات .

الفصل الأول

نشأة الأطماع الصهيونية والاستعمارية في فلسطين



لن نحدد تاريخا معينا لمولد الحركة الصهيونية . يرجع الصهيونيون انفسهم ذلك التاريخ الى ما قبل المسيح بستة قرون ، حينما سبى نبوخذ نصر خمسين الفا من يهود فلسطين الى مملكته في بابل . ومن الصهيونيين من يعود بمولد الحركة الى سبي اخر تعرض له يهود فلسطين حصل في القرن الاول بعد الميلاد ، على ايدي الرومانيين الذين احتلوا القدس ودمروا هيكلها . اما اكثر الصهيونيين تحفظا فيعتبرون طرد الاسبانيين لليهود من بلادهم في اواخر القرن الخامس عشر للميلاد هو اشارة انطلاق الحركة الصهيونية التي نشأت مع تدفق اللاجئين اليهود الى اراضي السلطنةالعثمانية. ولكن مهما يكن من امر هذه المبالغات التي يقصد منها اظهار الصهيونية بمظهر الحركة العريقة البعيدة الجذور في العالم المتحررة من اي ارتباط مع المقاصد الاستعمارية ، فان الصهيونية حركة حديثة ، اوربية الاصول والنشأة ، عاصرت عهود الاستعمار والاستغلال الحديثة وتأثرت بهما واثرت فيهما . وقد تطورت في القرن الماضي تطورا سريعا حتى اصبحت ، في اواخره ، حركة خطرة تهدد الكيان العربي في الصميم ، في عهدة ثيدور هيرتزل مؤسس الحركة التي جسمت الدعوة الصهيونية ومثلت اخطارها واشرفت على تحقيقها . وملخص دعوتها ان اليهودية قومية وليست مجرد دين ، وان ارض فلسطين هي المكان الذي يجب ان يتجمع فيه ابناء هذا الدين ــ القومية ليتحولوا الى امة بالمعنى الصحيح .

حمل الدعوة الصهيونية ، في اشكالها المختلفة ، عدد من يهود اوربة واصدقائهم من غير اليهود ، وخاصة من البريطانيين ، في مشاريع وجمعيات ودراسات متعددة ظهرت في اكثر من بلد اوربي في القرن الماضي . استغل هؤلاء ، في ذلك الوقت بالذات ، ظروفا سياسية معينة : منها عطف بريطانية ، بشكل خاص ، على الصهيونية ، لاسباب استعمارية ونفسية ، وطمع كبار الرأسماليين اليهود باستثمار اموالهم في بلد بكر يحولونه الى مركز لنشاطهم المالي في العالم ، وضعف السلطنة العثمانية واشرافها على دور الانحلال وتحدث الاوساط الدولية عن وجوب تقسيمها ، وقيام رد فعل عنصري في بعض دول اوربة (خاصة روسية وفرنسة والنمسة) لسوء تصرفات اليهود مع ابناء البلاد التي استضافتهم طويلا . عملت هذه الاحداث والظروف على تكتيل اليهود حول الحركة السياسية التي يزعمون انها بدات قبل خمسة وعشرين قرنا .

حري بنا الان ان نتوقف قليلا عند علاقة بريطانية بالحركة الصهيونية ، في وقت (في القرن الماضي) كانت بريطانية فيه ترسم الخطط للسيطرة على البلاد العربية ولتأسيس كيانات تحقق اغراضها في المنطقة . قال ناحوم سوكولو ، احد رؤساء المنظمة الصهيونية ، في تأريخه شبه الرسمي للحركة

الصهيونية ، **ان بريطانية كانت « المركز المالي للحركة الصهيونية ومكة نشاطها السياسي »** (١) .

ذلك ما برهنت على صحته تطورات القضية الصهيونية في قرن ونصف القرن . لكن الواقع ان البريطانيين لم يكونوا رواد فكرة تعاون اصحاب النوايا الاستعمارية مع الصهيونية . فقد سبقهم الفرنسيون الى ذلك ، اذا كنا نصدق الرواية الشائعة ، غير المثبتة اثباتا كاملا ، بان نبوليون اصدر في السنة الاخيرة من القرن الثامن عشر بيانا الى يهود اسية وافريقية يدعوهم فيه الى العمل معه ضد الانجليز ، ويعدهم بان « يعطيهم الارض المقدسة ويعيد الى القدس مجدها القديم » . ذلك البيان ، ان صح خبره ، هو اول وعد رسمي ناله اليهود من مسؤول اوربي بتحقيق اطماعهم في فلسطين ، واول تودد غربي لهم على حساب العرب ، واول مرة تدخل فلسطين فيها حلبة الصراع الدولي علنا (٢) .

ومن الشائع ايضا ان القائد الفرنسي المذكور كان ، قبل بيانه بسنة ، قد اتصل بيهود فرنسة وحاول ان يستميلهم الى جانب حملته التي كان يعدها للهجوم على مصر . وتأسس نتيجة لتلك المحاولات « المجلس اليهودي » ، اول حركة يهودية سياسية منظمة في العصور الحديثة . وقد ضم المجلس ممثلين عن يهود عدد من الدو لالاوربية . واصدر في تلك السنة (١٧٩٨) مذكرة مجهولة التوقيع بعنوان « رسالة من يهودي الى زملائه » ، دعت يهود العالم الى تأسيس وكالة تمثلهم في الاقطار المختلفة وتعمل لتأسيس **« وطن قومي »** يشمل **« مصر السفلى وفلسطين كلها الى البحر الاحمر »** وذلك بالتعاون مع الحكومة الفرنسية التي « ستعطينا المساعدة اللازمة لكي نعود الى بلادنا » .

مهما كانت حقيقة اتصالات نبوليون باليهود ، وسواء صدرت تلك التعهدات عنه أم ان اليهود زعموها لتبرير اطماعهم ، فانها تدل على ان بذور الصهيونية انما نشأت منذ البدء في تربة الاطماع الاوربية في الشرق ، نشأة ولدت تعاونا بين اليهود وبعض الحكومات الاوربية لتحقيق اطماعها على حساب العرب ، بمثل ما تعزز بها التعاون واصبح خطرا داهما . جدير بالذكر ان تلك الحكومات كانت ، في الوقت نفسه ، تعطي وعودا مماثلة للعرب ضد السلطنة العثمانية. فقد وعد نبوليون عرب مصر بالاستقلال التام. ووعد عرب فلسطين

---

(1) Nahum Sokolow, History of Zionism (London, 1919), V. 2 P. 43.

(٢) ذكر اكثر من مرجع ان البيان نشر في صحيفة Moniteur الرسمية في عدد ٢٢ مايو ١٧٩٩ .

بتحريرهم من امرائهم الاقطاعيين الموالين للسلطنة ووعد دروز لبنان بتأسيس امارة مستقلة لهم .

وعى الانجليز فكرة التعاون هذه من بعد نبوليون ، وقد هرع اسطولهم الى شواطىء مصر ليخرج غريمهم الفرنسي من البلاد وينزل قوات بريطانية فيها . ولعل ما اذيع واشيع عن اتفاق القائد الفرنسي مع يهود بلاده هو الذي نبه البريطانيين الى اهمية اليهود ، في الشرق والغرب على السواء ، اهمية سياسية في تنفيذ المخطط البريطاني لربط الشرق بعجلة الامبراطورية التي كانت قواعدها قد ارسيت في اكثر من مكان .

اذن كانت نشأة التعاون البريطاني الصهيوني في اعطاف السياسة الاستعمارية ، وفي وقت قوي فيه النفوذ اليهودي في بريطانية (وفي دول اوربية اخرى ايضا في نسب مختلفة) بواسطة كبار المتمولين اليهود في مصارف لندن ومحلاتها المالية الكبرى ، مما كانت لهم مصلحة مباشرة في تأمين طرق المواصلات الى الهند . وقد ادرك هؤلاء خاصة بعد ان تم حفر قناة السويس وانتقلت غالبية اسهم شركتها الى الانجليز، ان بريطانية اصبحت اقرب دول اوربة الى فلسطين سياسيا وجغرافيا (من قبرص ومصر) واكثرها اهتماما بصد الاطماع الاوربية الاخرى عن فلسطين .

اما على الصعيد الشعبي فقد عمل العامل الديني كثيرا في تعزيز الدعوة الصهيونية بين انجيليي بريطانية ، بسبب انتشار الاعتقاد المغلوط بان اليهود هم الان شعب مختار عند الله وان لهم في ارض فلسطين وعدا مقدسا وان مجيء المسيح الثاني لن يتم الا بعد ان يتحقق قيام « اسرائيل» . نتج عن ذلك الاعتقاد ، الذي اسهمت مدارس الاحد في غرسه في نفوس الناشئة قبل ان يتمكن الصغار من فهم وعود العهد القديم على حقيقتها ، اعتقاد اخر بان من واجب الحكومات المسيحية ان تساعد اليهود في تحقيق وعود الله لهم ، وان العمل « لاعادة » اليهود الى فلسطين انما هو من صميم العمل المسيحي ، لان « اصبع الله » يشير ، كما قال احد وزراء المستعمرات ، الى ان ذهاب اليهود الى فلسطين سيفتح الباب ليتنصروا فتكسب المسيحية بذلك كسبها الكبير .

نشأت عدة جمعيات بريطانية مسيحية تعنى « باعادة » اليهود الى فلسطين منذ مطلع القرن التاسع عشر ، اشهرها جمعية التوراة ١٨٠٢ ، وجمعية فلسطين ١٨٠٥، وجمعية لندن للتبشير بالمسيحية بين اليهود ١٨٢٥ . وقد تحدث افرادها عن واجب بريطانية الخاص بهذا الامر ، وحاولوا تفسير الحروب الصليبية كمقدمة لهذه المهمة . وبلغ الهوس ببعضهم ان زعم ان

الشعب البريطاني من سلالة الاسباط اليهودية الضائعة في التاريخ . وكانت المدارس الرسمية تعنى بالتاريخ العبري عناية خاصة ، حتى قال لويد جورج في تعقيب له على محاضرة في مايو ١٩٢٥ « **لقد علمت تاريخ اليهود اكثر بكثير من تاريخ بلادي . يمكنني ان اسمي كل ملوك اليهود ولكني اشك اذا كنت استطيع ان اسمي نصف دزينة من ملوك انجلترة** » .

احتاجت بريطانية الى سند تتكىء عليه في السلطنة العثمانية . وجد الفرنسيون سندهم في الكاثوليك عموما والموارنة خصوصا . ووجده الروس في الارثوذكس ، والاتراك في السنيين ، والايرانيون في الشيعة . ولم يكن في الوطن العربي انجيليون حتى يفكر البريطانيون في الاعتماد عليهم . لذلك فكروا باليهود . بل انهم استخدموا النشاط الانجيلي الذي بدأ المرسلون الاميركيون والبريطانيون والالمان يقومون به في العقد الثلاثيني من ذلك القرن لتقوية علاقاتهم باليهود . فاختاروا للجالية الانجيلية الصغيرة في القدس اول مطران لها رجلا يهودي الاصل كان قبل تنصره حاخاما لمدينة بلايمث ، اسمه ميشيل الكسندر . وقد اعتبر تعيينه ربحا لليهود . حتى قال ممثل حكومة بروسية في القدس ، دي بنسن « ... وهكذا بدء باعادة اسرائيل ، باذن الله» في رسالة بعث بها الى زوجه في اواسط يوليو ١٨٤١ . وكان زوج ابنة المطران المذكور احد اشهر قناصل بريطانية في فلسطين ، جيمس فن .

بقي اليهود السند الوحيد لبريطانية في عموم البلاد السورية مدة عشرين سنة ، الى ان نجح البريطانيون في استمالة دروز لبنان الى جانبهم ضد الطائفتين السنية والمارونية ، المتعاونتين مع الاتراك والفرنسيين . لكن مركز اليهود الخاص لم يسقط بل انه ازداد اهمية ، بعد ان بدأ الانجليز ينفذون مخططهم لاحتلال جزء من الوطن العربي .

كان قد صدر ، قبل السنة ١٨٠٠ ، اثني عشر كتابا انجليزيا عن وجوب « عودة » اليهود الى فلسطين . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تابع الكتابة في الموضوع العشرات من الكتاب ، من السياسيين (اشهرهم دزريلي ، رئيس الحكومة فيما بعد ، واللورد اشلي ، الايرل شفتسبري فيما بعد) والادباء والرحالة والاثريين . غير ان الجماعة الكبرى منهم كانت من القسس الانجيليين . اما القاعدة الرسمية للتعاون البريطاني اليهودي فقد ارسيت عام ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ حينما تبنت الحكومة البريطانية قضية يهود السلطنة العثمانية رسميا واسست اول قنصلية لها في القدس لحماية يهودها واعطائهم رعاية خاصة ، تحقيقا لتقرير بعثة كنسية ارسلتها الجمعية العمومية لكنيسة اسكتلندة الى فلسطين للبحث في اوضاع يهود السلطنة . ورافق تأسيس القنصلية حملة صحفية في بريطانية لتأييد اماني اليهود

في فلسطين ، ابرزها مقالات في التايمز في السابع عشر والسادس والعشرين من اغسطس ١٨٤٠ ، وقد تحدثت عن امكان اقامة دولة يهودية في فلسطين بجهد بريطاني .

حدد رئيس الحكومة البريطانية ، بالمرستن ، اهداف تلك القنصلية الاولى في القدس في رسائل بعث بها الى القنصل ، وليم ينج : « تأمين حماية اليهود عموما وارسال التقارير عنهم » . وقام بالمرستن ، في الوقت نفسه ، بحملة لفرض بريطانية على السلطنة كحامية لليهود . فبعث برسالة الى سفيره في القسطنطينية ، بنسنبي ، يحثه على الضغط على السلطان ليقبل باسكان يهود جدد في فلسطين ، بتاريخ الحادي عشر من اغسطس ١٨٤٠ . وقد قال في رسالته « ان شعورا قويا بان الوقت قد حان لعودة شعبهم الى فلسطين قد اخذ ينتشر حاليا بين اليهود المشتتين في اوربة . لقد اتضحت رغبتهم في الذهاب الى هناك . واتجهت اذهانهم نحو وسائل تحقيق تلك الامنية اكثر مما مضى . **ومعلوم ان ليهود اوربة ثروات كبيرة ، وان اي بلد يقدر عدد كبير منهم السكن فيه سوف يحصل على فائدة جمة من الخيرات التي سيحضرون معهم »** .

واتبع بالمرستن رسالته تلك برسالة اخرى بعد ثلاثة اسابيع ، في الرابع من سبتمبر ١٨٤٠ ، يأمر سفيره فيها بمواصلة السعي مع السلطان والضغط عليه . ثم كتب رسالتين اخريين في نوفمبر ١٨٤٠ وفبراير ١٨٤١ يعلن فيهما ان بريطانية اصبحت مسؤولة عن تحقيق مشروع اسكان اليهود في فلسطين . وارفق هذه الرسائل بتواص عممها على قناصله في غرب اسية ، ليضعوا اليهود تحت حمايتهم حتى وان كانوا لا يحملون الجنسية البريطانية (٣) . وقد كشف بالمرستن بنفسه عن سر اهتمامه المفاجىء باليهود . « **سيكون الشعب اليهودي اذا عاد [الى فلسطين] في رضى السلطان وتحت حمايته سدا بوجه اية رغبات شريرة يفكر بها محمد علي او خليفته في المستقبل** » كما كتب في رسالته الاولى الى سفيره في القسطنطينية .

كانت تلك الرسالة وما حملت من افكار ، اذن ، من وحي انتصارات عاهل مصر الالباني الاصل في طرد الاتراك من سورية وتوحيدها مع مصر ومع ممتلكات مصر في الحجاز ، مما اقام على ارض العرب وحدة سياسية شبه مستقلة بين منطقتي غرب اسية وشمال افريقية هي الاولى بعد تفتت الدولة الايوبية . كتبت الرسالة في وقت وصلت فيه البوارج الحربية

---

(٣) تجد القارىء نصوص هذه الرسائل مع دراسة حولها في كتاب من جزاين :
Albert M. Hyamson, The British Consulate in Jerusalem (London, 1939).

البريطانية الى شطآن لبنان لطرد القوات المصرية من سورية . وكانت مغامرة محمد علي قد هددت المصالح البريطانية في الشرق ، التي ضايقها قيام دولة عربية موحدة في اجزاء من اسية وافريقية تشكل حاجزا بين اوربة وشرق اسية ، تسابق اوربة على وراثة السلطنة المحتضرة وترتبط بعلاقات ودية مع فرنسة بشكل خاص . لذلك كان وصول ابراهيم باشا الى مناطق بعيدة من اسية الصغرى نفسها نذيرا اثار البرود الانجليزي وحوله الى بارود تمثل في قطع من الاسطول رست في ميناء بيروت وفي بنادق واموال وزعت في عدة مدن وقرى سورية لاثارة السكان على المصريين . وجدير بالذكر ان قنصل بريطانية في بيروت انذاك ، الكولونيل تشرتشل ، ارسل الى مجلس الممثلين اليهود في بريطانية يقترح عليه تأسيس وطن قومي في فلسطين ما دام محمد علي قد فشل في اخضاع البلاد لسلطانه . وقد سبق لتشرتشل هذا ان ابدى مخاوفه من حملة ابراهيم باشا ونتائجها القومية في سورية ، اذ خشي ان يؤدي فتحه مدينة دمشق ، قاعدة الخلافة الاموية العربية ، الى ان يستعيد العرب الخلافة ويبنوا دولة موحدة في غرب اسية وشمال افريقية . عبر عن هذه المخاوف بصراحة في كتاب له عن لبنان في القرن الماضي (٤) .

اي ان اقامة كيان رسمي لليهود في فلسطين كان يعني ، الى جانب كسب رضى يهود العالم وخدمة راسمالييهم ، اقامة شوكة في جانبي دولتي الشرق الكبيرتين انذاك ، الدولة العلوية الفتية الكبيرة قوة ومقدرة واموالا ، وسلطنة العثمانيين الكبيرة عمرا وحجما . وتعني ايضا الحيلولة دون قيام وحدة عربية . وتعني حماية خطوط المواصلات عبر البحر الاحمر التي امن احتلال عدن اشراف بريطانية عليها . ويعني ذلك كله ، ايضا ، قطع الطريق على الغريمة الكبرى لبريطانية ، فرنسة ، صديقة محمد علي وصاحبة الاطماع في الشرق وذات المركز الممتاز الخاص في القدس وبيت لحم ودمشق وفي لبنان المسيحي كله .

كانت فرنسة ، هي الاخرى ، تحاول ان تستعيد علاقاتها الحسنة مع اليهود ، بعد تقطع طويل . فاستوحى وزير خارجيتها ، ترنال ، رسائل بالمرستن انفة الذكر ، وكتب الى قناصله في السلطنة ، في ١٨٦٠ ، يأمرهم بنشر الحماية الفرنسية على اليهود وسحب الحماية البريطانية عنهم قدر الامكان . واذ ركزت فرنسة سلطاتها في المنطقة بفضل حمايتها للموارنة في احداث لبنان ١٨٦٠ وبفضل حفر قناة السويس وتملك قسم كبير من اسهم شركتها ، كتب سكرتير نبوليون الثالث كتابا يدافع فيه عن فكرة الوطن

---

(4) Col. Churchill, Mount Lebanon (London, 1853), 3 Vol.

القومي اليهودي في فلسطين ويشترط ان تقوم فرنسة بانشائه بدل بريطانية. وفي الوقت نفسه ترأست الامبراطورة اوجيني جمعية لتنفيذ المشروع ، وقد مول الجمعية المليونير اليهودي روتشلد .

اما الانجليز فقد وجدوا في السنوات العشر التي تلت تأسيس القنصلية في القدس عدة مناسبات لاظهار عطفهم الخاص على يهود الشرق . منحوا حمايتهم لكل يهودي نزعت روسية عنه جنسيته ــ وكانت روسية تنزع جنسية كل من يرفض العودة اليها من يهود الشرق الروس الاصل . والحوا على روسية بالسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين، لان الحكومة الروسية كانت تقاوم الهجرة وتمنعها . واسس القنصل البريطاني في القدس ، فن ، جمعية القدس الادبية للتمهيد لتهويد فلسطين . واشرف ايضا على بناء معسكرات لليهود المهاجرين الى فلسطين في انحاء مختلفة من البلاد . واظهر عطفا خاصا على اليهود في مؤلفاته . وسند الانجليز رحلة جديدة قام بها موسى منتفيوري الى الشرق ، ١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ . وكان هذا المتمول الكبير ، واول رئيس يهودي لبلدية لندن ، قد زار فلسطين مرتين على الاقل من قبل. حاول في زيارته الجديدة شراء رضى مصر وتركية معا لتأسيس مستعمرات يهردية في فلسطين وسيناء . وقد زوده بالمرستن برسائل توصية خاصة لانجاح مهمته . وفي مصر تولى احد الضباط الانجليز ، الكولونيل كامبل ، مهمة التوسط بينه وبين محمد علي . وقد وعده العاهل الالباني بتحقيق رغباته شفهيا ورفض تسجيل وعده خطيا . اما في اسية الصغرى ففشل الرجل بالرغم مما كان يحمل من تواص من رئيس الوزارة البريطانية .

تتابع النشاط البريطاني غير الرسمي لمصلحة اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فظهرت كتب جديدة لعدد من القسس والمبشرين في تبرير « حق » اليهود بارض فلسطين توراتيا وتاريخيا وانسانيا ، اشهرهم القسس الثلاثة بلاكستن وتمسن وهكلر . وظهرت جمعيات جديدة ، اشهرها جمعية التبشير الكنسي لكنيسة انجلترة ، مهدت لمشروع الوطن القومي بان اغلقت ابواب فلسطين في وجه الارساليات التبشيرية الاخرى غير المهتمة بالقضايا السياسية ، نسبيا (كالارساليات الاميركية التي توجهت الى لبنان بعد طردها من القدس واسست في بيروت اشهر جامعات الشرق حاليا) . وحصل اليهود على تأييد خطي من عدد من الاثريين والجغرافيين ، امثال ادورد روبنسن والسير تشارلز ولسن والسير تشارلز وارن وبورتر والميجور كندر ومساعده الذي عرف فيما بعد باللورد النبي . وقد حدد بعض هؤلاء الاماكن اليهودية في تاريخ فلسطين القديم للزعم بانها تعطي اليهود حقا ازليا بارض فلسطين . ودعوا في كتاباتهم الى هجرة اليهود الى ضفتي نهر الاردن .

ومد كل من روبنسن وبورتر حدود « اسرائيل » الشمالية الشرقية لتشمل لبنان كله وجزءا من سورية(٥) .

ونقل بعض اصدقاء اليهود في بريطانية نشاطهم الى حيز العمل السياسي المنظم . قدم الايرل شفتسبري في مايو ١٨٥٤ مذكرة الى وزير الخارجية اللورد كلرندن ، يقترح فيها الضغط على السلطان ليمنح اليهود فرمانا باقامة مستعمرات اخرى في فلسطين . ونتيجة للمشروع زار منتفيوري فلسطين مرة اخرى في ١٨٥٥ وحصل على الفرمان المطلوب بمساعدة سفير بريطانية في القسطنطينية واشترى اراضي بين يافا والقدس واقام فيها اقدم المستعمرات اليهودية في فلسطين – وكان عدد يهود فلسطين ، في ذلك التاريخ ، لا يتجاوز الثمانية الاف .

واخذ دزريلي ، اخبث سياسيي عهد الملكة فكتورية الطويل ، يطبق برنامجا عمليا لنقل فلسطين من السيطرة العثمانية الى السيطرة البريطانية لتهويدها ، واحتل قبرص ومصر وسيناء كخطوة في هذا السبيل . وتبنت الحكومة البريطانية عريضة قدمها كبار يهود بريطانية الى السلطان عبد الحميد لشراء اراض في فلسطين وشرق الاردن واسكان اليهود فيها ، وللسماح لليهود بالهجرة اليها بدون اذن خاص وبالتجنس بالجنسية العثمانية راسا ، وباعفائهم من الضرائب مدة سبع سنوات ، ومنحهم امتيازات خاصة تعطي مستعمراتهم نوعا من الحكم الذاتي . ولكن عبد الحميد رفض تلك المذكرة التي تولى اللورد روزبري الدفاع عنها .

اما الجهد الاوفى في سبيل اليهود فقد قام به بريطاني غريب الاطوار طريف السيرة لا تزال حياته لغزا في اكثر من ناحية بالرغم من كثرة ما كتب عنه : لورنس الفنت . وان كانت سير معظم المستعربين تحفل بالغرائب والطرائف (بلنت ، بكثل ، لورنس ، بل ، فلبي) فان الفنت هو بلا شك اكثرهم غرابة وطرافة ، ان في تصرفاته واعماله او ارائه في الدين والوطنية والجنس . كان الرجل ، في آن واحد ، سياسيا وفيلسوفا ووجيها تقليديا ومبشرا بدين جديد وصحفيا ورحالة وجغرافيا ومناضلا شعبيا ونائبا حرا وعاملا وخياطا . . . كرس جزءا من حياته للتعرف على العالم ، وانهى رحلاته بالاقامة في مسكن بناه في جوار حيفا ، بعد انتعرف في احدى الجولات على مدعي نبوة اميركي اسمه تمس هرس ، فآمن به واعلنه مسيحا جديدا ، وقدم له زوجته الى ان اختلف واياه فاخذ يبحث عن عقيدة جديدة يسد بها

---

(٥) راجع كتاب اولهما المسمى : Later Bible Research
وكتاب ثانيهما : Five Years in Damascus

فراغ حياته بعد ان خسر زوجته بسبب ذلك المسيح المزعوم .

وجد الفنت ضالته في الصهيونية . دعا لها كتعبير جديد عن الوحي الالهي القديم بعودة اليهود الى فلسطين وكوسيلة لتطوير حياة اهل الشرق ، من عرب ويهود ، ولتصنيع البلاد واستغلال ارضها البور باموال اليهودية العالمية ، وكأداة لترسيخ النفوذ البريطاني على طريق الهند ، وكمسرح لتطبيق نظرياته الخاصة في الاشتراكية (وهي اشتراكية غريبة لا تمت الى الماركسية بصلة) . زار فلسطين والاستانة في ١٨٧٩ كمحاولة لتحقيق المشروع . وقد زعم ان عبد الحميد وافق اولا ثم تراجع خوفا من الانزلاق بالبلاد الى مصيدة الامبراطورية . ولكن الفنت لم ييأس . سكن قرب حيفا يكتب ويخطط الى ان مات ١٨٨٨ . وخلاصة ارائه موجودة في كتابه « ارض جلعاد » — وهي **ان تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين برعاية بريطانية انما هو خدمة سياسية وعسكرية لبريطانية مثلما هو خدمة انسانية للعالم (٦) .**

سارت هذه المساعي جنبا الى جنب ، وبتعاون مباشر مع مساعي اليهود الصهيونيين انفسهم لنشر دعوتهم ومطاليبهم ولتحقيقها بالتدريج . وقد بدأت مساعيهم بكتابات ظهرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، اشهرها كتابات الالمانيين كلشر وهرش ، ثم لحقتها كتابات موسى هس ١٨٦٧ والمرأة المتخفية وراء اسم جورج اليوت في كتابها الشهير « دانيال درندا » المتأثرة بكتاب « تنكرد » لدزريلي . لاقت هذه المؤلفات رواجا شجع عليه قيام ضجة اصطنعها اليهود في فبراير ١٨٤٠ لان احتكاكا حصل بين عرب دمشق ويهودها اثر اختفاء قس كبوشي كاثوليكي من بيته واعتراف حلاق يهودي بان ابناء ملته قتلوا القس واستحلوا دمه في موسم الفصح . وزعم اليهود ان العرب يضطهدونهم في كل مكان وان ليس لهم من يحميهم غير الانجليز . واستطاعوا ان يؤلبوا اوساطا كثيرة لمصلحتهم ، كما استولوا ، بفضل تلك الضجة ، على اراض في فلسطين ، اشتراها يهود روس ، وانجليز غير يهود ، ومنحوها لعدد من المهاجرين الجدد .

تأسست ، في اعقاب تلك الحادثة ، جمعيات يهودية للاشراف على عملية شراء الاراضي وتأسيس المستعمرات وتأمين الهجرة . فأسس اليهودي الفرنسي كرميو جمعية الاليانس الاسرائيلي العالمي ، في ١٨٦٠ . وتبعتها جمعية الاليانس الاسرائيلي في فينه والاتحاد اليهودي الانجليزي في لندن ، ١٨٧١ — ١٨٧٣ . واسس هنري دومانت ، السويسري ، جمعية فلسطين

---

(٦) راجع الفصل الاخير من الكتاب :
Lawrence Oliphant, The Land of Gilead (London, 1880).

١٨٧٦ . واسس يهود روسية جمعية احبة صهيون . وفي ١٨٨٥ اسس يهود بريطانية جمعية كاديما ، اي « الى الامام » ، احياء لجمعية ظهرت بالاسم نفسه في فينه قبل ثلاث سنوات . وتسابقت كاديما مع احبة صهيون ومع جمعية ثالثة تأسست في القسطنطينية باسم بيلو (اختصارا لعبارة : يا بيت يعقوب لنذهب) في تأسيس الفروع ولم الاموال لمساعدة اليهود على استيطان فلسطين . وظهرت في لندن جمعية اخرى في ١٨٩١ باسم جمعية الاستعمار اليهودي .

انعشت هذه المؤسسات امال اليهود واخذوا يعملون علـــى زيادة المستعمرات حتى تخضع فلسطين كلها لهم . واتصل كبير زعمائهم في ذلك الوقت ، ابراهيم بنش ، بالفايكونت كننج ، وكيل الخارجية البريطانية ، وقدم اليه مشروعا بوضع المستعمرات اليهودية في فلسطين تحت حماية بريطانية رسميا ، وبجعل الافضلية لبريطانية في التعامل التجاري معها . ودعم يهود فلسطين الفكرة بان اوكلوا جيمس فن بان ينقل الى حكومته رغبتهم في الاحتماء بها. ويروي المربي الاميركي فردرك بلس ان يهود البلاد العربية تحمسوا لتحقيق المشاريع الصهيونية واخذوا يدفعون اتاوات شهرية للحركة الصهيونية (٧). ويقول زميله هنري جسب ان بعض يهود فلسطين اقسموا ، في ١٨٦٦، على ان لا يخلعوا ثيابهم عن اجسادهم قبل ان « يستعيدوا وطنهم » فـــي فلسطين (٨) .

غذى تلك الامال بناء المستعمرات واحدة بعد الاخرى : مكفه اسرائيل (قرب يافا) ١٨٧٠ ، موزة ١٨٧٣ ، بتاح تكفه ١٨٧٨ ، زخرون يعقوب ورشون صهيون وروش بينه ١٨٨٢ . ثم بنى اليهود اربعا وثلاثين مستعمرة بين ١٨٨٣ و ١٩١١ ، احداها في شرق الاردن (بن يهوذا ، ١٨٨٨) ومجموع سكانها كلها ، في ١٩١١ ، حوالي تسعة الاف شخص .

ومما حرض يهودا كثيرين على الهجرة اثارة قضية اضطهاد روسية لليهود ، اثر مقتل الكسندر الثاني ١٨٨١ ، على نطاق واسع . وقد استغل يهود اوربة تلك الحركة اللاسامية كعادتهم ، مثلما استغلوا حادثة دمشق من قبل ومثلما استغلوا قضية دريفس من بعد . فقد ضاعفوا نشاطهم للحصول على فرمانات من السلطان لبناء مستعمرات جديدة في ضفتي الاردن. واسسوا صحفا تنطق باسم دعوتهم وتحملها الى غير اليهود . وهكذا ، وبالتدريج ،

---

(7) Fredrick Bliss, The Religions of Modern Syria and Palestine (New York, 1912), P. 321.

(8) Henry Harris Jessup, 53 years in Syria (?) Vol. I, P. 311.

تحولت القضية الصهيونية ، في السنوا تالاخيرة من القرن الماضي ، من مجرد امنية للاقامة في فلسطين والاستقرار تحت الحكم العثماني الى طمع في الاستيلاء على فلسطين وما جاورها من ارض عربية واقامة كيان عنصري دخيل. اشرف على هذا التحول الخطر ثيدور هيرتزل والمؤتمر الصهيوني الذي عقده ، فحولا الصهيونية من جمعية احسان خيرية (ولو ظاهريا فقط) الى حركة سياسية عنصرية سافرة. ومع ان يهودا كثيرين دعوا لاستعمار فلسطين قبل اواخر القرن (مثل بنسكر في كتابه « التحرر الذاتي » ومثل اجتماع لبعض مفكري اليهود ١٨٨٢ قرروا فيه العمل على الهجرة الى فلسطين وطرد سكانها العرب منها) لم تكن الفكرة الصهيونية العدوانية تتضح. في كتاباتهم ومشاريعهم . المؤتمر الصهيوني ، بزعامة هيرتزل ، هو الذي رفع اخر حجاب عن وجه الصهيونية .

كتب ثيدور هيرتزل ، الصحفي الهنجاري الاصل النمساوي النشأة ، كتيبا بعنوان « الدولة اليهودية » في ١٨٩٥ . طالب فيه بانشاء دولة خاصة لليهود ترك تقرير مكانها لليهود انفسهم وللظروف ، « سنأخذ ما يعطى لنا وما يختاره الرأي اليهودي العام » (٩) . وقد اشار الكتيب الى فلسطين كمكان للدولة المنشودة اكثر من مرة واعتبرها « الوطن القومي الذي لا ينسى » . وعدد حسناتها ومميزاتها . وتمكن المؤلف ، بفضل كتيبه الذي ترجم من الالمانية الى الانجليزية والى عدة لغات اخرى وانتشر انتشارا واسعا ، من ان يتزعم الحركة الصهيونية الى حين وفاته .

عقد هيرتزل المؤتمر الصهيوني الاول في مدينة بال في الايام الاخيرة من اغسطس ١٨٩٧ ، بحضور مئتي يهودي . وقد حددت قرارات المؤتمر هدف الحركة الصهيونية « انشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين بحماية قانون عام » . اما الوسائل من اجل هذا الهدف فهي « تأسيس المستعمرات في فلسطين بمساعـدة العمال الصناعيين والزراعيين ، اولا . وتوحيد اليهود والتقريب بينهم بواسطة انشاء مؤسسات محلية وعالمية حسب قوانين كل بلد ، ثانيا . وتقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتنميته ، ثالثا. واتخاذ اجراءات تمهيدية للحصول على رضى الحكومات على اهداف الصهيونية ، رابعا » .

اصبح للصهيونية ، بالمؤتمر المذكور ، اهداف محددة ومؤسسة وتنظيم. وعهد المؤتمر الى رئيسه بمباحثة الحكومات في امكان تأسيس الدولة المنشودة

---

(9) Theodor Herzl, The Jewish State, translated by S. D'avigdor (London, 1934) P. 30.

فبدأ الاتصال بقيصر المانية في القسطنطينية والقدس (وكان يزورهما في ١٨٩٩) ثم بعبد الحميد ، ١٩٠١ – ١٩٠٢ . لكنه فشل معهما بالرغم من الاموال التي عرضها على السلطان. فلجأ عندها الى الحكومة البريطانية ووضع عليها اماله . وكتب يقول ((**منذ اللحظة الاولى انني دخلت فيها الحركة (الصهيونية) توجهت عيناي نحو انجلترة**)) (١٠) . واذ كانت سيناء وقبرص قد خرجتا عن الحكم العثماني صمم هيرتزل ان يقيم لليهود فيهما مستعمرات مؤقتة تكون خطوة اولى نحو الوصول الى فلسطين في الوقت المناسب ـ وكان هيرتزل ، منذ ١٨٩٨ ، قد بدأ يعلن ان فلسطين هي المكان المناسب الوحيد وكان زملاؤه في الحركة لا يزالون متأثرين بكتاباته السابقة ، بان لا ضرورة لان تكون المستعمرات في فلسطين . لذلك قبلوا بمبدأ اقامة الدولة في مكان اخر غير فلسطين : في الارجنتين او المكسيك او البرازيل ، ان كان ذلك عمليا.

اتصل الصهيوني البريطاني جرينبيرج بصديقه جوزف تشمبرلن ، وزير المستعمرات ، باسم اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية ، ثم جمع بينه وبين هيرتزل في ١٩٠٢ و١٩٠٣ للبحث في اسكان اليهود في سيناء ، في دويلة تتمتع بحكم ذاتي تحت الاشراف البريطاني . قبل الوزير المذكور الفكرة لانها ضمنت عزل مصر عن غرب اسية ، واضعاف السلطنة ، ووضع شوكة في صلب الوطن العربي ، مثلما ضمنت حماية الجانب الشرقي من قناة السويس وادخلت بريطانية دخولا مباشرا في صميم الرقعة الاسيوية من الوطن العربي. ووافق على الفكرة ايضا زميله لانسدن ، وزير الخارجية ، وارسل الى الوكيل البريطاني في مصر ، كرومر ، يستشيره . الا ان كرومر عارض المشروع لانه خشي ان يثير غضب السلطان والخديو معا على بريطانية ، وكان كلاهما قد مانع في اسكان يهود اوربة في سيناء . ومما حمس المسؤولين الانجليز على الترحيب بالفكرة في ذلك الوقت بالذات ان مخاوفهم من توسع المانية ، المنافسة التقليدية لبريطانية ، في السلطنة قد بلغت ذروتها ، لدرجة ان اسرع اولئك المسؤولون الى محالفة كل من فرنسة وروسية ، ١٩٠٤ و١٩٠٧، ضد حكومة القيصر الالماني .

كان تشمبرلن في هذه الاثناء قد زار افريقية الشرقية ، وخطر له خلال تفقده بعض مستعمرات بريطانية هناك ان يسكن اليهود فيها . ومع ان المقيمين البريطانيين هناك عارضوا الفكرة ، فاتح هيرتزل بها في يناير ١٩٠٣ وعرض عليه ما يسمى اليوم بكينيه . غير ان مؤتمري بال في ١٩٠٣ و ١٩٠٥ رفضا المشروع بالاغلبية ، بعد ان شكل اولهما لجنة لدرسه . وكان وايزمن يتولى زعامة الجناح المعارض .

---

(10) Nahum Sokolow, History of Zionism, Vol. I, P. 295.

بفشل المشاريع الاخرى وضع الصهيونيون توكيدهم على السلطنة العثمانية نفسها ، ونقلوا نشاطهم في السنوات العشر التالية (اي الى نشوب الحرب العالمية الاولى) الى عاصمة السلطنة . ولكن عبد الحميد كان عقبة ترتفع في وجه مشاريعهم واما لهم. ان سيطرة بعض افراد حاشيته من العرب (بينهم عزت العابد وابو الهدى الصيادي) ، من جهة ، وحرص السلطان على عدم اغضاب الراي العام الاسلامي الذي كان السلطان قد بدأ يتزلف اليـه ليستميله ضد اوربة ، من جهة ثانية ، حملا عبد الحميد على رفض الاغراءات المالية التي عرضها الصهيونيون عليه وعلى منع الهجرة اليهودية والتملك على نطاق واسع ، وان كانت تلك الاغراءات قد نجحت في حمله على اصدار فرمانات جزئية لصالح بعض اليهود ، فاذن لهم بشراء اقسام معينة من فلسطين . وقد استغل اليهود ذلك الاذن وبنوا عدة مستعمرات جديدة اشرفت عليها جمعية الكارن كايمت (اي « الرأسمال اليهودي القومي ») التي تأسست في ١٩٠٧ لتمويل الهجرة وبناء المستعمرات وتمكنت ، في مدى اربعين سنة ، من شراء مليون دونم باكثر من ستة ملايين جنيه . وقد ورثت الجمعية المذكورة مؤسسة البيكا (اي «جمعية الاستعمار اليهودي لفلسطين») التي اسسها ادمند روتشلد ١٨٨٣ .

لم تكتف الحركة الصهيونية بتلك الغنائم . كانت تريد البلاد باكملها . وكان البريطانيون يريدون البلاد ، لهم وللصهيونيين ، باكملها . لذلك اسهم الصهيونيون ، بتعاون قليل او كثير مع البريطانيين ، بتأليب الضباط الاتراك الناقمين على عهد عبد الحميد الاستبدادي ، وجلهم من اعضاء حزب الاتحاد والترقي الذي برز كرمز للمعارضة منذ عدة سنوات . لست ازعم هنا ما يردده كتاب عرب كثيرون من ان انقلاب ١٩٠٨ العثماني لم يكن الا مؤامرة صهيونية. فلعل في زعم كهذا مبالغة لا تبررها الحقائق المتوافرة . فقد كان الانقلاب ، في الدرجة الاولى ، حركة قومية اصلاحية ، عربية ـ تركية . غير ان اليهود اسهموا فيها وغذوها كوسيلة للتخلص من عبد الحميد ولوضع حكم عنصري يقصي المستشارين العرب ويسهل على السلطات الجديدة منح اليهود ما يطلبون من امتيازات .

رحبت الاوساط الصهيونية بثورة ١٩٠٨ وبالاحداث التي تبعتها الى ان اصبح للصهيونيين بواسطتها نفوذ كبير. واسسوا فروعا نشيطة في عدة اماكن من الامبراطورية باسم « المكتب الفلسطيني » باشراف الدكتور ربن كبير خبرائهم بالشؤون العثمانية . واستقدموا الدكتور وايزمن الى فلسطين يتجول ويدعو للحركة . واسسوا مكتبا ضخما في اسطنبول برئاسة فكتر جكبسن. وكان نشاط المكتب يجري في اتجاهين : بين الاتراك ، للحصول على امتيازات جديدة ، وبين العرب ، للحصول على تأييد عام والتمهيد لصفقات بيع . اما

الاتجاه الاول فقام به يهود اتراك وصل بعضهم الى الحكم واصبح احدهم الرجل الاول في الدولة (طلعت باشا ، واصله من الدونمة ، اي اليهود الذين اعتنقوا الاسلام في بعض الظروف) . وقد حاول هؤلاء ان يحملوا الحكومة على التسليم بمطاليب الصهيونيين . غير ان العرب داخل الحزب الحاكم وقفوا لهم بالمرصاد . اما النشاط بين العرب ، في العاصمة التركية ، فقد قام به جمع من الشبان اصبحوا فيما بعد من قادة الحركة الصهيونية ، بينهم ديفد جرين (بن جورين) وبن زفي وموسى شرتوك (شريت) . دخل هؤلاء كلية الحقوق ، حيث كان يدرس العشرات من الشبان العرب ، وجعلوها مسرحا لنشاطهم الدعاوي . وقد انتخب اولهم ناموسا لمجلس الطلبة في العاصمة الذي كان عبدالله بن الحسين عضوا بارزا فيه ، بعد ان كتب بحثا وزعه على الطلبة العرب عن تنظيم الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية . وقد ذاع خبر ذلك النشاط في صفوف العرب وعالجت جمعياتهم مسألته عدة مرات ، ووقفوا ضده وحذروا اخوانهم منه . ونجحوا ، بفضل تيقظهم ، في احباط محاولة قام بها جكبسن لشراء ممتلكات عربية في فلسطين بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه .

وعمل الصهيونيون في الوقت نفسه خارج اسية الصغرى . قاموا في بريطانية ، مثلا ، بحملة لكسب تأييد اعضاء مجلس العموم . **وفي احدى الانتخابات ، في مطلع القرن ، تعهد تسعون مرشحا ، من مختلف الاحزاب ، بخدمة اهداف ((الاتحاد الصهيوني البريطاني))** . ووصلت الدعاوة الصهيونية الى اماكن لم تصلها من قبل — الى اليمن ، مثلا ، حيث استطاع احد الدعاة ، صميول يفنيلي ، ان يقنع الفا وخمسمئة يهودي بالهجرة الى فلسطين في العام ١٩١١ . واشتدت الدعوة الصهيونية في ذلك البلد المنعزل حتى امر الامام يحيى في ١٩٢٠ بمصادرة اموال كل يهودي يترك البلاد .

اما في فلسطين فقد استمر العمل الرئيسي في شراء الاراضي وتأسيس المستعمرات واحياء اللغة والعادات العبرية وفتح المدارس والنوادي والجمعيات فتضاعف عدد اليهود في فلسطين مرتين تقريبا في ثلث قرن — من خمسة وثلاثين الفا في ١٨٨٢ الى سبعين الفا في ١٩١٧ . وانكشفت النوايا الدفينة واخذ يهود فلسطين يهتمون بالوطن القومي علنا ويغيظون العرب . روت سيدة عاشت في فلسطين مدة طويلة وفهمت وجهة نظر العرب وانصفتهم الى حد بعيد ، استل بلايذ ، ان خطيبا صهيونيا حدد دور عرب فلسطين في دولة اسرائيل العتيدة بدور « الحطابين وسقاة الماء » (١١) .

---

(11) Estelle Blythe, When We Lived in Jerusalem (London, 1927), P. 335

دخلت الحركة الصهيونية ، والقضية العربية في فلسطين ، مرحلة جديدة باندلاع نيران الحرب العالمية الاولى في ١٩١٤ . وجد الانجليز انفسهم في حاجة الى كل قوة يمكن ان تعضدهم والى كل جهد يمكن ان يقربهم من النصر . فتقربوا الى جهات كثيرة ، واصدروا في هذا السبيل تعهدات اكثر . وقد كان العرب احدى هذه الجهات ، فاغراهم البريطانيون بمساعدتهم على التحرر ان هم ساندوا الحلفاء. ومن قبل ان يتصل البريطانيون بالعرب،وخلال اتصالاتهم ، باحثوا الصهيونيين واعطوهم وعودا اكثر واحسن مما اعطوا العرب ، مما امكن الحركة الصهيونية ان تستند ، بعد الحرب ، على دعامة دولية رسمية بينما لم يكن يتعدى نجاحها من قبل نطاق العواطف .

ادرك الصهيونيون حاجة بريطانية اليهم فضغطوا على مسؤوليها ، منذ الاشهر الاولى لنشوب الحرب ، ليحصلوا على وعد بفلسطين مقابل ما يمكن ان يؤدوه من خدمات للحلفاء . وفي النهار نفسه الذي اعلنت بريطانية فيه الحرب على تركية ، في الخامس من نوفمبر ١٩١٤ ، اتصل (السير) هربرت صميول ، وكان وزيرا لشؤون الحكم المحلي ، اتصالا رسميا باللجنة الصهيونية في انجلترة ، وعرض عليها استعداد حكومته للنظر في امكان التعاقد بين الطرفين. فاشترطت اللجنة الحصول على التعهد المنشود. ونقل الوزير اليهودي الرغبة الى رئيس الحكومة ووزير الخارجية (لويد جورج والسير ادورد جري) فوافقا وعهدا الى زميلهما بتقديم المشروع مفصلا . فقدمه في يناير ١٩١٥ ، في مذكرة تقترح تأسيس الوطن القومي ووضعه تحت حكم بريطاني مباشر ، وتوسيعه ليتسع لثلاثة او اربعة ملايين يهودي .

وافق لويد جورج على المذكرة ، مع انها (وربما لانها) كانت تقضي على مصالح فرنسة في فلسطين التي اعترفت بريطانية بها في ١٩١٣ . وكان مارك سايكس قد بدأ يسعى لتوسيع منطقة النفوذ البريطاني في غرب اسية ، حتى ولو كان ذلك على حساب فرنسة التي عرف بصداقته معها والتي عقد مع ممثلها اتفاقيته الشهيرة في ١٩١٦ ، وقد نصت ، من جملة بنودها ، على وضع فلسطين تحت النفوذ الفرنسي . اي ان الحكومة البريطانية كانت على استعداد للتخلي عن تعهداتها لحليفتها في الحرب (ولبريطانية تقليد عريق للنكث بالعهود) ما دام الثمن يشمل ارض فلسطين ، جناح السويس الشرقي وقنطرة اسية الى افريقية ودهليز مصر .

كانت بريطانية تريد فلسطين وتطمع بها لمصلحتها في الحرب ولمصلحتها في ما بعد الحرب . ومن عادة بريطانية الا تنسى مصالح ما بعد الحرب وهي بعد في الحرب . وقد فكر ايدن في الجامعة العربية كحل لمشاكل بريطانية مع العرب في عالم ما بعد الحرب الثانية بينما كانت الغارات الالمانية تحول

نهارات لندن الى ليل ولياليها الى نهارات . وكانت احداث الحرب الاولى وهجوم جمال باشا على السويس دليلا جديدا على صواب النظرية الاستراتيجية القديمة بان حماية مصر انما تكمن في فلسطين . ثم ان بريطانية كانت تفكر بفلسطين كامكانية لحفر قناة ثانية بين البحرين المتوسط والاحمر تقوم مقام قناة السويس في حال خروج مصر عن منطقة النفوذ البريطاني واستقلالها . وقد كان هيرتزل في الواقع من اوائل الذين عملوا لهذه الفكرة . فراح يشجع زعيم الوطنيين المصريين ، مصطفى كامل ، في اجتماع بينهما اواخر القرن التاسع عشر على المضي بمطالبته بتحرير مصر . اراد هيرتزل ان يشعر الانجليز بضعف مركزهم في مصر فيهتمون اكثر باعطاء فلسطين لليهود ليحفروا فيها قناة ثانية . هذا ما كتبه هيرتزل صراحة في مذكراته يوم الرابع والعشرين من مارس ١٨٩٧ (١٢) . وبين مشاريع الوطن القومي اليهودي في فلسطين مشروع وضعه الضابط البريطاني ماينرتز هاجن في ١٩١٩ رفعه الى حكومته واقترح فيه تأسيس دولة يهودية تمتد من صور في الشمال الى عمان في الشرق وقناة السويس في الغرب ، يحفر فيها قناة ثانية لتبدأ بالعمل عند انتهاء عقد شركة قناة السويس في ١٩٦٦ . وكان الضابط المذكور ، الصهيوني غير اليهودي ، مستشارا لتشرتشل في ذلك الحين .

لذلك فمن السذاجة ومن الخطأ ان نصدق الزعم بان ارتباطات بريطانية بالصهيونية خلال الحرب انما كانت ارتباطات عفوية فرضتها ظروف وخدمات معينة . بل هي ، في الحقيقة ، حلقة من سلسلة صاغتها السياسة البريطانية لصالحها على حساب العرب ، ابتداء من تأسيس القنصلية في القدس ١٨٣٩ ومرورا بانشاء المستعمرات البريطانية في انحاء مختلفة من الوطن العربي ، ومحاربة الدولة التي بناها ابراهيم باشا بالسيف ، وتأسيس الكيانات والانتدابات بعد الحرب العالمية الاولى والتمهيد لانشاء « اسرائيل » ثم حمايتها وتشجيعها ضد العرب ، والهجوم على مصر ١٩٥٦ ، الى اخر تلك السلسلة الطويلة . وبالطبع يجد الانجليز « عذرا » لكل حدث من هذه الاحداث ، وكأن لا مؤامرة في الامر . لست ازعم ان هناك صداقة بريطانية ــ صهيونية ابدية، وان هناك عداء بريطانيا ــ عربيا ابديا . لكن مما لا شك فيه انه كان هناك مصلحة بريطانية املت على الحكومة البريطانية صداقة الصهيونيين وعداء العرب في قرن ونصف القرن من الزمان على الاقل .

على ضوء هذه الحقيقة يجب ان ننظر الى وعد بلفر الشهير . لقد نسب الوعد الى ظروف كثيرة ، منها حاجة بريطانية الى تأييد يهود اميركة ليضغطوا على حكومتهم لكي تدخل الحرب الى جانب الحلفاء ، مع ان اغلبية يهود

---

(12) Theodor Herzl, Diaries (London, 1958).

الولايات المتحدة كانت ضد الحركة الصهيونية ، ومع ان الولايات المتحدة دخلت الحرب قبل صدور الوعد باكثر من نصف سنة ، ومع ان سفير بريطانية في الولايات المتحدة كتب منذ ١٩١٤ ان اليهود هناك يميلون الى الالمان اكثر مما يميلون الى البريطانيين ، حتى انهم عارضوا تطوع بعض يهود اسية واوربة في الجيش البريطاني . ومنها ان الوعد منح لليهود كمكافأة لهم على خدماتهم للحلفاء ، مع ان المحاربين اليهود كانوا عدة الاف فقط ، ولم يتفوق عملهم ، لا نوعية ولا كمية ، على خدمات العرب للحلفاء ، ان في شبه الجزيرة او في سورية ومصر ، ومع ان الرأي العام اليهودي رفض بوجه عام التجند مع الحلفاء ورفض الانضمام للفرقة اليهودية التي شكلها الانجليز اواسط العام ١٩١٧ ، ومع ان الافا من اليهود وقفوا الى جانب الالمان والاتراك خاصة لما اعطوهم وعودا مماثلة لوعود الحلفاء لهم .

تقول الفكرة الشائعة بين الناس ان الحكومة البريطانية اصدرت الوعد مكافأة للدكتور وايزمن على خدماته هو بالذات لبريطانية،اذ كان هذا الكيماوي الروسي الاصل قد اخترع اسلوبا جديدا لانتاج مادة الاستون الاساسية في صنع متفجرات ت.ن.ت. انتاجا سهلا واسع النطاق ــ وكانت المانية تحتكر موارد انتاجه بينما احتاجت بريطانية الى ثلاثين مليون طن منه . يعود شيوع هذه الفكرة الى ما كتبه لويد جورج في مذكراته : بان وايزمن رفض ان يكافأ على جهوده مكافأة شخصية وطالب بجعل المكافأة عامة لشعبه ، بحيث كان ذلك الموقف ، على حد زعم لويد جورج ، « اساس الوعد المشهور بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين » (١٣) .

لكن الواقع ان رئيس الحكومة البريطانية لم يكن يهتم باليهود كثيرا ولم يكن يحبهم . يعترف مؤرخ حياته وصديقه اللورد اسكوت بان لويد جورج لم يأمر باصدار الوعد الا ليحصل على فلسطين لبريطانية . وقد اثبتت الاحداث العسكرية التي سبقت صدور الوعد على ان مركز بريطانية الحربي كان قد اخذ يتحسن ، فكانت القوات الحليفة قد انقذت السويس ودخلت فلسطين ، وانضمت الولايات المتحدة الى الحلفاء ، وبدأت القوات الالمانية والتركية تتراجع في بعض الجبهات .

ثم انعددا كبيرا من رجالات اليهود في العالم كانوا ضد فكرة تأسيس الوطن القومي في فلسطين . كتب سفير بريطانية الى الولايات المتحدة تقريرا الى حكومته في يناير ١٩١٨ تحدث فيه عن خصومة كبار يهود اميركة مع الحركة الصهيونية . وكانت نسبة الصهيونيين الاميركيين الى يهود اميركة

---

(13) David Lloyd George, War Memoirs (London, 1938), Vol. 2, P. 584.

اربعة في الالف فقط . ولم يكن عدد صهيونيي اميركة وبريطانية عند صدور الوعد يزيد على خمسة عشر الفا . وقد اعترف وايزمن نفسه بان الوعد احرج الصهيونيين اذ كانوا اقلية وكان الراي اليهودي العام يعارضهم . وكان احد اعضاء الوزارة البريطانية ضد المشروع مع انه كان يهوديا ، وهو السير ادون منتاجيو . وقد عارض هذا الوزير المشروع كثيرا وصدر الوعد في غيابه خارج البلاد . وكان معظم وجهاء اليهود في بريطانية يدعون الى وجوب اندماج اليهود مع الشعوب التي يعيشون بينها ، وخشوا ان يؤدي قيام الدولـــة اليهودية الى ازدياد عزلتهم عن جيرانهم . وكان بين كبار دعاة هذا الراي منتفيوري ورلف في بريطانية وهنري مورجنتو وماجنس في الولايات المتحدة وجاراهم بعض ال روتشلد . حتى انه لما قتل ابن احدهم في الحرب رفضت امه ان تذيع الخبر وتحملت احزانها صامتة حتى لا يستغل الصهيونيون الخبر لصالح حركتهم .

وعد بلفر امتداد لمشروع قدمه وايزمن الى الحكومة البريطانية فـــي مارس ١٩١٥ : وهو ان تؤسس بريطانية دولة لليهود في فلسطين تحت حمايتها ثم تستقل بعد خمسة عشر عاما . وقد برر وايزمن المشروع في رسالة بعث بها الى صحفي يناصر الصهيونية « ان اقامة دولة يهودية قوية الى جانب مصر يضع حاجزا ضد اي خطر يستهدف مصر من الشمال » (١٤) . وقد لاقى المشروع ترحيب المسؤولين الباحثين عن سبيل لتوطيد الاحتلال البريطاني في مصر . واعترف لويد جورج بان شخصيات كبيرة مثل (السير) جيمس بلفر واللورد ملنر واللورد روبرت سسل « كانوا يعطفون من كل قلبهم على المثل الصهيونية . الشيء نفسه ينطبق على كل قادة الرأي العام في بلادنا وفي الدمينيون ، سواء كانوا من المحافظين او الاحرار او العمال » (١٥)

بدات المفاوضات الاخيرة بين بلفر والصهيونيين في السابع من فبراير ١٩١٧ . واستغرقت تسعة اشهر تقريبا . ووضعت صيغة الوعد في اكثر من شكل ، كتب اولاها كبير ال روتشلد . وكان بلفر « ملكيا اكثر من الملك » : اراد اعطاء الصهيونيين اكثر مما طلبوا . لكن حكومته خففت من حماسه الزائد ، جسبما يروي لينرد شتاين صاحب احدث دراسة عن الوعد ، وهي دراسة مطولة جدا تتناول الموضوع في معزل تام عن العرب وكأنهم عنصر ثانوي في القضية (١٦) . وجدير بالذكر ان بلفر استمر ينادي باقامة الوطن القومي اليهودي في ضفتي الاردن ، رأسا وكاجراء اولي بعد الحرب ، ويرفض

(14) Chaim Weizmann, Trial and Error (New York, 1949), P. 177.

(15) David Lloyd George, Memoirs of the Peace Conference (New Haven, 1939), Vol. 2 P. 726.

(16) Leonard Stein, the Balfour Declaration (London, 1961).

وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، الى ما بعد ان انعقد مؤتمر الصلح في العام ١٩١٩ ، اي الى ان ارغمه لويد جورج على تبني قرار الحكومة البريطانية بان تنتدب على فلسطين وشرق الاردن معا . وكان بلفر قد خسر مقعد وزارة الخارجية قبل ان ينعقد مؤتمر سان ريمو الذي وضع الانتداب موضع التنفيذ . وله مجموعة من الخطب القاها في الدعوة للصهيونية تعبر للقارىء عن مدى انغماس هذا السياسي في خدمة الاغراض الصهيونية (١٧)

اما الوعد نفسه فقد اصدره بلفر في شكل رسالة بعث بها الى كبير يهود بريطانية ، يتعهد فيها بما يمكن ان نفسره ، بحق ، بأنه سلب فلسطين من اصحابها الشرعيين واعطائها الى غير اصحابها من الدخلاء . ولسنا هنا لنتحدث عن سيئات الوعد ومظالمه ولا شرعيته لان القارىء العربي يعرف عن ذلك ، بلا شك ، الشيء الكثير . يكفي ان نسجل ، في هذا المجال ، ان الوعد صدر دون ان يكون لبريطانية اي حق شرعي بفلسطين ودون ان تكون قد تملكتها بالفعل ، ولو تملكا غير شرعي ، وان شعب فلسطين لم يستشر في الموضوع ولا كان طرفا في المباحثات ، وان الوعد صدر كعطف وامان ولم يكن التزاما دوليا اذ وجه الى شخص لا صفة رسمية له ، وان عبارة « الوطن القومي » فيه غير محددة ، وان اشتراط عدم اذية المصالح العربية يتناقض مع الوعد نفسه .

مع كل ما حمله الوعد من اجحاف بحقوق العرب اعتبره الصهيونيون ناقصا بحقهم . ويروي الدكتور وايزمن ان مارك سايكس خرج من غرفة مجلس الوزراء وهو يحمل نص الوعد في يده . ونظر الى وايزمن الذي كان ينتظر في الغرفة المجاورة وقال له « انه صبي » . الا ان المولود لم يعجب الزعيم الصهيوني : « لم يكن ما توقعت » (١٨) .

غير ان ذلك لم يقلل من اهمية الوعد بالنسبة للبريطانيين والصهيونيين ففهموه ، على غموضه من حيث عبارة الوطن القومي ، خطوة رسمية نحو تأسيس الدولة اليهودية . وبينما فهمه لويد جورج وزملاؤه في الحكم كنواة دولة لا تقوم الا بعد ان يصبح اليهود اغلبية في فلسطين ، اعلن الصهيونيون منذ الحفلة التي اقاموها لبلفر بعد صدور الوعد بشهر واحد انهم يفهمون البيان تحويلا لفلسطين الى بلد يهودي **مثلما بريطانية بريطانية** (١٩) . وقد نقل ناحوم سوكولو بعض اقوال خطباء الحفلة التي جرت في دار الاوبرا في لندن : قال اللورد روبرت سسل « ان امالنا ان تصبح اليهودية لليهود » .

---

(17) Arthur James Balfour, Speeches on Zionism (London, 1928).
(18) Chaim Weizmann, Trial and Error, P. 208.
(19) David Lloyd George, Memoirs of the Peace Conference, Vol. 2, P. 736.

وقال الدكتور جاستر ان الوعد يتعهد « بتأسيس كمنولث يهودي ذاتي الحكم باوسع معاني الكلمة ... ويجعل من فلسطين يهودية وليس مجرد فلسطين لليهود » وقال ايضا ان غاية الصهيونيين هي « ان تصبح البلاد ما كانت عليه في السابق ... **بلاد** اسرائيل مرة اخرى . يجب ان تصبح الارض لهم » . ونقل سوكولو ، في مكان اخر من كتابه ، مقتطفات من اقوال صحف بريطانية كثيرة حول الموضوع ، تدل على ان اصحابها فهموا الوعد كمحاولة لتأسيس دولة يهودية كاملة . وقد حددت « الابزرفر » سكان الدولة العتيدة بمليوني نسمة . ودعت « السبكتيتر » الدولة لاصلاح الشرق العربي كله . واكدت « الجاردين » ، ان فلسطين ليست بلادا كاملة ولكنها ستصبح كذلك في ظل اليهود ، ولمصلحة اليهود (٢٠) .

انعش وعد بلفر امال الصهيونيين بتحقيق حلمهم اللاشرعي الذي بداوا يرونه في منامهم ويقظتهم منذ القرن الماضي ، بجعل فلسطين يهودية **« مثلما انجلترة انجليزية »** كما قال وايزمن ، بالحرف الواحد ، امام « لجنة العشرة » التي انبثقت عن مؤتمر الصلح ١٩١٩ ، وكما قال الدكتور ادر ، نائب رئيس الجمعية الصهيونية ، اما ملجنة هيكرافت للتحقيق باحداث ١٩٢١ . والواقع ان ذلك هو ما حلم به بعض يهود القرن الماضي . كتب يهودي مجهول اكتفى بتوقيع مقاله بحرفي ف. ب. في جريدة « التايمز » في السابع عشر من اغسطس ١٨٤٠. يدعو لتأسيس اسرائيل يهودية **مثلما مصر مصرية واليونان يونانية.** وردد القول بعده صهيونيون كثيرون ، يهود وغير يهود . من بينهم الاب اغناطيوس في خطاب القاه في ١٨٩٦ ونشرته مجلة احباء صهيون في ديسمبر من تلك السنة : « ليمنح العالم لليهود وطنهم . ان فلسطين مهد الشعب اليهودي . وهي وطنهم القديم الصحيح . وهي مركز تاريخهم العظيم المجيد . لليهود حق بفلسطين . فهي عطية الله لهم . وهذا حق اعظم من حق الانجليزي بانجلترة » .

لحق بالوعد مساع بذلها الصهيونيون لتثبيت اقدامهم في فلسطين التي كان اغلب سكانها من العرب ، ومساع اخرى بذلها البريطانيون لمد سيطرتهم على فلسطين مع انهم وعدوا العرب والفرنسيين بها . اما الصهيونيون فرفعوا رايتهم في فلسطين كأنها راية رسمية للبلاد ، وعمموا نشيدهم « هاتكفا » كأنه نشيد البلاد الرسمي . وفرضوا لغتهم لغة رسمية واسسوا جامعة بنوا اساساتها م ناثني عشر حجرا بعدد اسباط بني اسرائيل . والفوا اللجنة الصهيونية ، برئاسة وايزمن ، مثل مجلس وزراء لمشورة السلطات البريطانية المحتلة في كافة الامور ، وللجنة وزراؤها وسفراؤها وحكام الالوية والمدراء

(20) Nahum Sokolow, History of Zionism, Vol. 2, P. 73-99, 159.

والخبراء . وعنها انبثقت الوكالة اليهودية ، شبه الحكومية ، ومؤسساتها النشيطة في خدمة الاغراض الصهيونية، وابرزها « الهستدروت » ، اي اتحاد العمال العام ، « والكارن كايمت » صندوق تمويل لشراء الاراضي ، « والسولل بونه» للمشاريع الانشائية . ووضع الصهيونيون برامجهم لتهجير مليون يهودي الى فلسطين في سنة واحدة ، ١٩١٩ ، ثم تهجير كل من شاء الهجرة من يهود العالم في مدى عشر سنوات . واستولوا على وظائف البلاد العليا - اصبح احدهم اول مندوب سام لبريطانية . وحاولوا شراء حائط المبكي بتوسط حاكم القدس العسكري ، ستورز ، لمصلحتهم . ويعترف هـــذا الاداري البريطاني بان مخطط حكومته السياسي واوامر المسؤولين فيها لم تكن تعتبر اليهود مجرد اقلية مثل سائر الاقليات ، كما كانوا بالفعل . ويعترف ايضا ان حكومته لم تقف على الحياد في مشكلة فلسطين ابدا ، بل كانت تمارس سياسة منحازة لتنفيذ وعد بلفر (٢١) .

اما على الصعيد الدولي فقد نشط السياسيون البريطانيون ، منذ ان عقد الحلفاء الهدنة مع المانية في الحادي عشر من نوفمبر ١٩١٨ ، في الحصول على فلسطين كمنطقة نفوذ لهم ، وفي منع قيام دولة عربية تشمل فلسطين ، وفي منع فرنسة من الاستيلاء على فلسطين ومنع الولايات المتحدة من نوال حق الانتداب عليها . وقد بدات تلك الحملة بخطاب القاه اللورد كيرزن ، وزير الخارجية ، في مجلس الوزراء في ديسمبر ١٩١٨ ، طالب فيه بصراحة، باستخلاص فلسطين لبريطانية . وتوصل لويد جورج ، بعد مباحثات طويلة مع زميله الفرنسي كلمنصو ، بين ديسمبر ١٩١٨ وفبراير ١٩١٩ ، الى تعديل اتفاقية سايكس ــ بيكو تعديلا يحقق مصلحة بريطانية . كما حارب رئيس الحكومة البريطانية نفسه فكرة الانتداب الاميركي ، واوعز الى يهود فلسطين والى فيصل برفض الفكرة لما جاءت لجنة كنج ــ كرين للاستفتاء . ساعده على ذلك ان الرئيس ولسن نفسه لم يكن متحمسا لاخذ مسؤوليات صعبة في منطقة مضطربة .

لقد اسهم الصهيونيون والبريطانيون معا في الدعوة للانتداب ولاسرائيل في آن واحد . وظهرت عدة كتب تدعو للفكرتين معا ، اشهرها كتابا هربرت سايدبوثم « انجلترة وفلسطين » وهنري ساشتر « فلسطين اليهودية » . وقد صدر كلاهما في لندن في اعقاب الحرب . وفي فبراير ١٩١٩ قدم الوفد الصهيوني الرسمي الى مؤتمر الصلح عريضة تحمل هذا الطلب ، وكان هربرت صميول قد كتب مسودتها ، وعدلها مارك سايكس ، وصاغها حاييم وايزمن بشكلها النهائي .

---

(21) Sir Ronald Storrs, Orientations (London, 1937), P. 353.

مهما كانت الفروقات والاختلافات بين الصهيونية والاستعمار البريطاني من الناحية النظرية ومن حيث الدوافع ، فانهما كانا بالنسبة للعرب في فلسطين خطرا واحدا ، تعرضوا له منذ القرن الماضي ولم ينفكوا يقاسون منه الى اليوم.

وحري بنا ، قبل ان نختتم الكلام في نوايا الاستعمار البريطاني ، ان نستعرض المصالح البريطانية في البلاد العربية التي كانت وراء وقوف بريطانية في حلف مع اليهود .

المصالح (٢٢) البريطانية في المنطقة العربية من السلطنة العثمانية ، ومن الشرق الاوسط حسب تعريف القرن العشرين ، قديمة جدا . يمكن ارجاعها الى عهود الحروب الصليبية التي اشترك بها ملوك ومحاربون من الجزر البريطانية والى ما بعد تلك الحروب حينما استعمل الانجليز المنطقة ممرا الى الهند والشرق الاقصى . وجدير بالذكر ان اول قنصلية بريطانية في الخارج انما كانت في حلب .

تتشابك هذه المصالح في انواعها ، فهي استراتيجية وتجارية وسياسية ومعنوية ونفطية . وتتشابك في بقاعها الجغرافية ، بحيث تؤثر المصلحة الواحدة في البلد العربي الواحد في المصالح الاخرى في سائر البلدان العربية. ومع هذا يترك التشابك مجالا للتفاوت في الاهمية بين مصلحة واخرى وبين بلد واخر في وقت معين . وتتأثر درجات الاهمية ، بالطبع ، بالاكتشافات الحديثة وبتطور الاحداث الدولية وبتعرض المنطقة عموما لاخطار واطماع قوى اخرى . وسواء نظرنا الى هذا التشابك في المصالح من الزاوية النوعية او الجغرافية نجد ان بريطانية كانت القوة الرئيسية التي تسيطر على المنطقة بين سائر القوى العالمية الخارجية في القرن الماضي وفي النصف الاول من القرن الحاضر بحيث يستحيل ان نعالج تاريخ المنطقة في مئة وخمسين السنة الاخيرة دون ان نلم بالمصالح البريطانية التي املت على بريطانية مواقفها السياسية .

كانت البلاد العربية ، اول ما بدا لبريطانية انها ذات قيمة خاصة ، مجرد قنطرة الى مناطق اخرى كان لبريطانية فيها مصالح اضخم . لذلك كان اكثر اهتمامها باطراف المنطقة الجنوبية ، حيث ترسو السفن في رحلاتها الى الهند واسترالية ونيو زلندة . ولهذا السبب عقدت بريطانية اولى معاهداتها مع امارات الساحل الجنوبي : مع سلطان مسقط (١٧٩٨) ثم مع اميرين من زملائه (١٨٠٤ و ١٨٢٠) . وبعد ان سيطر الانجليز على عمان (١٨٢٠)

---

(٢٢) هذه الصفحات منقولة عن كتاب « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » الذي ورد ذكره في المقدمة . فهي مقتطعة من الحلقة الرابعة من القسم الاول من الكتاب المذكور .

واحتلوا عدن (١٨٣٩) وتوسعوا شرقا الى مقلا وشحر وسقطرة وبريم ثم الى البحرين (١٨٥٨) تحولت تلك العلاقات الى « حماية » رسمية . وتمكنت بريطانية في اقل من نصف قرن من الحصول على تنزل تركية عن منطقة تمتد من عدن الى الكويت ، وتشمل البحرين وقطر وعمان ومسقط .

يلاحظ القارىء ان الحلقات الاولى من سلسلة المساعي لوضع المنطقة تحت النفوذ البريطاني تتفق وتاريخ الحملة الفرنسية على مصر . فقد حاول نبوليون الثأر لفرنسة من بريطانية التي سلبتها اجزاء واسعة من امبراطوريتها في اميركة الشمالية واسية الشرقية . اختار الهند هدفا لهذا الثأر — وهي اغنى المستعمرات وافضلها لدى الانجليز انذاك . وعزم على قطع الطريق اليها اولا فجاء باسطوله وجيشه الى مصر وصمد فيها عدة سنوات . وللسبب نفسه حرضت بريطانية السلطان عليه وتعاونت معه ومع مماليك مصر على طرد الفرنسيين وعلى اعادة فتح الطريق البحري — البري بين البحر المتوسط والمحيط الهندي عبر مصر وسيناء والبحر الاحمر .

انذرت تلك الحملة بريطانية باهمية البلاد العربية كطريق للشرق . فاخذت تعزز مركزها بتأسيس المستعمرات في جنوب شبه الجزيرة ، تحت ستار الحماية . وحاربت ، من جهة ثانية ، كل محاولة لتأسيس دولة قوية على جنبات هذا الطريق . ومثلما اخافتها حملة نابوليون فقضت عليها اخافتها حملات محمد علي في سورية والحجاز والسودان اذ خشيت ان تقف الدولة العربية الجديدة في وجه مصالحها وتمنع قوافلها وتهدد مراكزها الحديثة في عدن والمحميات . لذلك عملت جهدها لطرد المصريين من غرب اسية . ولبست ، مرة اخرى ، ثوب صديق السلطنة المظلومة وتزلفت الى شعب سورية كنصير حنون . وارسلت اسطولها الى شرق المتوسط فاخرج من تبقى في سورية من المصريين ، بينما رعى القنصل رتشرد ود ثورة موارنة لبنان ودروزه على الامراء المتعاونين مع القوات المصرية .

بنت بريطانية ، بعد هذا الانتصار السلبي ، مخططا ايجابيا لمد نفوذها بين البحر المتوسط والمحيط الهندي ، عن طريق انشاء خطوط مواصلات برية وبحرية . بدا المحاولات الجنرال تشسني ثم السير جون مكنيل اواسط القرن التاسع عشر . ودرس كلاهما امكان مد خط حديدي بين ساحل شمال سورية ونهر الفرات لنقل الاحمال من هناك عبر النهر الى الخليج العربي ومع ان الفكرة راقت لخبراء كثيرين (ابرزهم توماس لنش الذي وضع دراسة شهيرة بعنوان « ملاحة الفرات ودجلة ») واجهت صعوبات جمة من الناحية العملية . فتحول النظر الى مصر نفسها ، الى الطريق القديم بين البحرين المتوسط والاحمر . واخذ رجال الاعمال البريطانيون في مصر (ومن بينهم

شبرد مؤسس الفندق المعروف باسمه) يبنون محطات صغيرة على طول هذا الطريق ويطالبون بامتيازات بناء خطوط حديدية تربط بين الطريق وبين القاهرة والاسكندرية . وقد انتبه الدبلوماسيون الاخرون الى هذه المحاولات وفهموا المقاصد البعيدة منها وكتب احدهم (جلدن ، قنصل الولايات المتحدة في القاهرة) في تقرير رفعه الى حكومته «ستصبح مصر جزءا من الامبراطورية البريطانية» .

وبالرغم من النشاط الانجليزي ظفر منافس رئيسي لرجال الاعمال البريطانيين ، المهندس الفرنسي فردنند دلسبس ، بامتياز حفر قناة لمرور السفن بين البحرين الابيض والاحمر . وتم المشروع في ١٨٦٩ بعد جهود وتضحيات ومصاريف باهظة ومخرته السفن في حفلة اسطورية لم ينسها التاريخ .

شكلت قناة السويس ، على اهميتها للمواصلات البريطانية الامبراطورية (بل بسبب تلك الاهمية) خطرا مباشرا فاق اخطار نبوليون ومحمد علي من قبل . فالمشروع فرنسي . وشركة القناة فرنسية الاسهم . وتمتع كلاهما بحماية حكومة فرنسة . وخديو مصر فرنسي الاهواء . مما يعني ان عنق خط المواصلات مع الشرق ، وعصبه الحساس ، كانا بيد فرنسة . غير ان دهاء دزريلي واموال اليهود كانا اقوى من النجاح الفرنسي المؤقت . انتقل المشروع في سنوات قليلة ، الى ايد بريطانية : اشترت الحكومة البريطانية القسم الاكبر من اسهم الشركة بعد افلاس الخديو المسرف ١٨٧٥ . وفرضت عليه وزيرا بريطانيا يشرف على اقتصاديات البلاد. ثم افتعلت حادثة الاسكندرية واحتلت مصر ، ثم السودان ، احتلالا عسكريا مباشرا طويل الامد .

احكم هذا الاحتلال الصلة بين مشروعين كبيرين وضعتهما بريطانية لتأمين بناء امبراطوريتها ، في القرن الماضي : مشروع تحويل افريقية الى قارة بريطانية تبدأ براس الرجاء الصالح في اقصى الجنوب وتنتهي بشطآن مصر المتوسطية في الشمال ، ومشروع تحويل المتوسط الى بحيرة بريطانية يتحكم الانجليز ببابيها الخارجيين جبل طارق وقناة السويس . هكذا امنت بريطانية فرض سلطانها فوق المتوسط وافريقية والطريق الى الشرق الاقصى واصبحت القناة،وهي الطريق الى مصالح بريطانية، مصلحة رئيسية بحد ذاتها . فتركزت السياسة البريطانية على حمايتها ثلاثة ارباع القرن . ولا حاجة بنا للاطالة بتبيان اهمية السويس لبريطانية . فقد اغنت سفنها ، الحربية والتجارية ، عن استعمال طريق راس الرجاء الطويل . وهي تختصر الطريق بين بريطانية وايران بثمانين في المئة من طريق راس الرجاء القديم . وتختصر الطريق الى الهند بخمسين في المئة من الطريق القديم ، والى سنجافورة

بخمسة واربعين في المئة . اصبحت السويس ، في وقت قصير ، اخطر طريق بحري في العالم . وارتفع عدد السفن التي تعبرها في السنة من ثلاثة الاف في ١٨٧٥ الى اربعة الاف في ١٩٢٠ الى ستة الاف في ١٩٣٥ الى اثني عشر الفا في ١٩٥٥ .

استردت قناة السويس اعتبار المنطقة العربية من راس الرجاء الصالح الذي استمال السفن اليه عدة قرون . وتحولت المنطقة ، مع شق القناة ، الى شريان رئيسي للامبراطورية البريطانية . ولا تزال كذلك الى اليوم ، باستثناء فترة الحرب العالمية الاخيرة حينما اضطرت الغواصات والطائرات الالمانية العاملة في المتوسط البحرية الملكية البريطانية الى العودة الى الطريق الطويل القديم الاكثر سلامة لها . واصبح المتوسط ، بفضل السويس ، طريق بريطانية الى القوة والسيطرة . فهو الذي يسهل نقل قواتها في حالة الحرب ، ونقل مواردها وبضائعها في السلم . وعززت القناة اهمية المتوسط كطريق لاوربة الى القوة . وهذه حقيقة استراتيجية وصل اليها الجغرافيون ــ العسكريون من زمن طويل ، وهي ان من يسيطر على المتوسط يسيطر على اوربة واسية وافريقية معا . وقد عمل نبوليون على ضوء هذه الحقيقة ، وهو القائل ان الجغرافية ام السياسة .

ليس غريبا اذن ان نجد الاستراتيجية البريطانية في الشرق العربي تنحصر ، في الربع الاخير م نالقرن الماضي والسنين الاولى من هذا القرن ، في البحث عن سبل لحماية منطقة السويس من شرقها ومن غربها . اما الحماية الغربية فقد توافرت باحتلال مصر ثم بالامتداد الى السودان . واما الحماية الشرقية فقد استلزمت السيطرة على سورية ، وهي دهليز مصر التقليدية . ولم يقدم التاريخ بعد تكذيبا واحدا للنظرية الجيوبوليتيكية بان حماية مصر في سورية وليست في وادي النيل نفسه ، في حين قدم التاريخ عشرات الامثلة على صدق هذه النظرية ، على اختلاف فنون الحرب والاتصال والدفاع والهجوم عبر الاجيال . وقد حملت النظرية المذكورة فراعنة مصر ، وحكامها في العهود الاسلامية من عرب واتراك ، الى تأمين حدود مصر في معارك وحملات في شمال سورية وشرقها .

ردد الكولونيل تشرتشل هذه النظرية من بعد بدء العمل بحفر قناة السويس وكتب يحذر حكومته من اغفال امر سورية وهي تعد العدة للسيطرة على القناة في مصر . وكان تشرتشل هذا مستعرِبا بريطانيا يقيم في لبنان ويخدم بلاده كدبلوماسي . وتبعه في الراي رحالة عسكري جال في سورية في اخر عقدين في القرن الماضي كعالم اثري وذاع اسمه خلال الحرب العالمية الاولى ، اللورد كتشنر . فردد على اسماع حكومته ان عليها ان تحتل فلسطين

على الاقل ، لحماية السويس لان خليج حيفا هو اخر خط دفاعي عن القناة . وقدم دراسة لبناء خط حديدي بين حيفا وشط العرب يكون عمودا فقريا ، في الحرب والسلم ، لمنطقة بريطانية النفوذ تشمل البلاد السورية والعراق وتشكل جسرا حيويا بين القواعد البريطانية في الهند ومصر . وحاول كتشنر ان يستغل النقمة العربية ضد الاتراك . وباحث عددا من السياسيين العرب في هذا المشروع قبل ١٩١٤ . وليس من الصدف انيكون هو السياسي العسكري البريطاني الذي وقف وراء العلاقات مع الهاشميين ١٩١٥ ــ ١٩١٦ ، بعد ان فشل مشروعه السابق لان حكومته لم تشأ ان تغضب فرنسة صاحبة المصالح التقليدية في سورية ، فاعلن وزير الخارجية البريطانية في ١٩١٢ ان لا مصالح لحكومته في سورية .

الا ان مصالح بريطانية كانت حقيقة واقعة ، سواء اعترف الوزير بها ام لم يعترف . ما ان احتلت بريطانية مصر حتى اخذت تطمع بسيناء . ومدت سيطرتها فوقها في مدى عشر سنوات ، واضطرت السلطان العثماني لان يسكت عن ذلك بحيلة من كرومر. ثم وسعت الحدود ، بعد اربعة عشر عاما ، الى مسافة عدة الاف من الاميال المربعة ، وجعلت خط رفح ــ طابة حدا شرقيا جديدا لسيناء . وقبل عبد الحميد صاغرا .

دخل ميدان الصراع في السنوات الاولى من القرن الحالي عنصر مهم جدا : النفط . اشترى الثري الاسترالي الاصل وليم نكس دارسي حقوق البحث عن نفط ايران واستخراجه وتكريره ونقله وتصديره وبيعه في السنة ١٩٠١ بعد ان اغرى الحكومة الايرانية بنصيب صفير واغرى الشاه برشوة كبيرة . وكانت تلك الصفقة ، التي تمت بخديعة اوقع الانجليز والشاه الروس بها ، فاتحة عهد النفط في الشرق الاوسط .

لكن الحظ تأخر في خدمة دارسي لما حاول عقد اتفاق مماثل مع السلطان عبد الحميد . ولم تسعفه الرشاوي التي التهمتها حاشية السلطان بنهم . ولما سقط السلطان خلفته حكومة اتحادية منحت دارسي الامتياز المطلوب قبل نشوب الحرب العالمية باشهر قليلة . وكان قد اشترك مع اثرياء انجليز واميركيين والمان وبلجيكيين وفرنسيين في تأسيس شركة نفط العراق . وتقاسم الجميع اسهم الشركة مع الارمني الذي اشترى لهم رضى الحكومة الاتحادية في تركية ، كالوست جلبنكيان .

لم يبدأ استخراج النفط في العرا قالا في ١٩٢٧ . ولم يحصل الانجليز على امتياز نفط البحرين الا في ١٩٢٥ . وتأخرت امتيازات النفط العربي الاخرى الى ما بعد ١٩٣٠ . ومع ذلك اشتد اهتمام الانجليز بالنفط منذ البدء

اذ اخذ النفط يفرض نفسه على سبل النقل والصناعة والقتال ، بعد ان ابدل ونستون تشرتشل (وكان وزيرا للبحرية) في ١٩١٣ ، ولاول مرة في التاريخ، الفحم بالنفط كوقود للبحرية البريطانية . وكان نفط ايران ، وقد بلغ نتاجه تلك السنة ربع مليون طن ، وما املت بريطانية به من نفط في العراق ، كافيين لان تتمسك بالمنطقة وتكذب مزاعمها الرسمية بان لا مصالح لها في شرق المتوسط . فان نقطة النفط كانت ، كما قال كلمنصو ، تساوي نقطة دم .

كان لبريطانية مصالح اخرى في البلاد العربية الى جانب النفط والسويس وخطوط المواصلات والتجارة . فهناك المصالح السياسية التي ترتبط بالمصالح الاخرى ارتباطا وثيقا : مصلحة السيطرة على حوالي عشرين مليون عربي في غرب اسية وشمال شرق افريقية ، والتأثير بواسطتهم وبواسطة السيطرة على الاماكن المقدسة في الحجاز والعراق وفلسطين على اكثر من مئتي مليون مسلم في اسية وافريقية . وهي مصلحة السيطرة على منطقة مهمة سياسيا، اذ تتصل ، نفسيا وجغرافيا وثقافيا ، بشعوب اخرى مجاورة لها .

وهناك مصلحة تخريب المصالح الاوربية الاخرى وتعطيلها . فكما كان لبريطانية دوافعها للسيطرة على المنطقة كان ايضا لفرنسة وروسية والمانية وايطالية دوافع مماثلة . وكان الصراع بين هذه القوى على اشده ، وخاصة منذ ان حاول الروس التغلغل عبر اخر المماليك في القرن الثامن عشر ، الى حملة نبوليون ، والى حرب القرم ، ثم الى ان انقسم العالم الى معسكرين متحاربين في ١٩١٤ .

على ضوء هذه المصالح المتضاربة نظر الانجليز الى القضية العربية ، والى دعاة الثورة ضد الاتراك بين العرب ، المدنيين والعسكريين ، والى العائلة الهاشمية في مكة . واتبعوا ، للوصول الى داخل المنطقة وصولا شرعيا بالرغم من استمرار الحكم العثماني ، سبيلين : سبيل مناصرة بعض الاقليات ضمن الامبراطورية والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة بحجة حماية تلك الاقليات وذلك في القرن التاسع عشر ، وسبيل مناصرة الحركات الوطنية التحررية الناقمة على الاوضاع السائدة وتشجيعها على الثورة، في مطلع القرن العشرين .

تختلف الاقليات التي تقرب الانجليز منها بين مكان واخر ، وبين وقت واخر . واذ كان الفرنسيون والروس قد حصلوا ، منذ اجيال ، على حق رعاية الطوائف الكاثوليكية والمارونية والارثوذكسية في السلطنة (واستطاعت الدولتان ، بواسطة هذه الرعاية ، ان تحصلا على امتيازات كثيرة بالحيلة والارهاب) فقد عجزت بريطانية عن العثور على اقلية تشترك واغلبية الشعب البريطاني بالمعتقد ، اذ لم يكن الانجيليون العرب الا اقلية ضئيلة جدا . هذا

ما دعاها الى البحث عن اقليات غير انجيلية، بل غير مسيحية في اغلب الاحيان. فوجدت ضالتها في بعض الدروز في لبنان وفي اليهود في فلسطين وسورية وفي بعض الاقباط في القدس لوحدها .

بدأ دور الاقليات يضعف وينحل في مطلع القرن الحالي ، بعد ان نشبت بسببها اكثر من حرب داخل السلطنة وخارجها . واخذت الحركات القومية الناشئة تحل محل المشاعر العنصرية والطائفية . وقد لمس الانجليز هذا التطور وسعوا لاستغلاله حتى لا تفوتهم فرصة التدخل في شؤون السلطنة .

اثار العرب في السلطنة ان تتحول دولتهم الى رجل مريض يهزأ العالم به ويحضر نفسه ليرثه ويتقاسم ثروته . واثارهم ، بوجه خاص ، ان تتقاعس الدولة عن حماية اراضيهم فتتساقط انحاؤها واحدة بعد الاخرى : استولت فرنسة على الجزائر بالتدريج بين ١٨٣٠ و١٨٤٧ . واستولت على تونس بمعاهدتي ١٨٨١ و ١٨٨٣ . واستولت على مراكش ١٩٠٧ . واستولت اسبانية على قسم من مراكش ١٩٠٩ و١٩١٢ . واستولت ايطالية على ولايتي طرابلس وبنغازي ١٩١١ و ١٩١٢ . وكانت بريطانية قبل ذلك احتلت مصر والسودان وعدن وفرضت حمايتها على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية . ورأى العرب اجزاء اخرى من السلطنة تنسلخ وتستقل ليعتدي بعضها على ما تبقى من السلطنة في اوربة : ضمت النمسة اقاليم بوسنيه ، وضمت روسية القوقاز ، وضمت بريطانية قبرص (١٨٧٨). واحتلت بلجاريه ثريس ، واحتلت اليونان كريت وجزر بحر ايجه ، وتقاسم البلدان مسدونية (١٩١٣) . اي ان قسما كبيرا من الامبراطورية سلخ بعد ذهاب العهد الحميدي ، في حكم الاتحاديين الذين امل العرب فيهم المحافظة على وحدة الدولة وهيبتها . وقد الم ذلك الفشل المتلاحق العرب واخذوا يلقون اللوم فيه على الاتراك ، كشعب متهاون ، بعد ان كانوا يحصرون اللوم في السلطان السابق وعهده الزائل . ولعل جريدة « المنار » اول صحيفة عربية حملت لواء الهجوم على الاتراك ككل وليس كنظام معين ، وذلك من قبل ان يسقط عبد الحميد ، بالرغم من الاتجاهات الاسلامية المتطرفة التي عرفت الجريدة بها . وحصلت مناقشات حامية حول الموضوع بينها وبين صحيفة « ترك » التي اصدرها احرار تركية الفتاة اللاجئون انذاك الى مصر .

اسهمت تلك الحالة النفسية في ايقاظ الشعور العربي القومي . ووجد الانجليز في هذا الشعور المتيقظ وفي هذه الحالة شبه اليائسة من امكان اصلاح الاوضاع تحت ظل الاتراك منفذا لتحقيق مصالحهم في المنطقة دون معاداة الدولة العثمانية علنا . كانت مصالحهم تقتضي تقوية نفوذهم داخل المنطقة ما دامت السلطنة قائمة ، حتى اذا انهارت كان لهم المجال الاوفـــر

اوراثتها قبل دول اوربة الاخرى .

لذلك عمل الانجليز اكثر من غيرهم على حماية السلطنة من فرنسة وروسية ، حتى لا تنهار قبل ان يؤمنوا حصة الاسد لانفسهم . وفي الوقت نفسه غذوا النقمة الشعبية التي حاول رجال الحركات الوطنية رفعها الى المستوى القومي ، مثلما غذوا الثورات الاقليمية في الجزيرة العربية . ولم يكن الاتراك والفرنسيون يغالون كثيرا حينما كانوا يتهمون الحركة العربية بأنها على تعاون وثيق مع السلطات البريطانية . وقد آوى الانجليز في مصر مئات اللاجئين السياسيين السوريين ، ودافعوا عن زعيم حزب العهد لما حكم الاتراك عليه بالاعدام ، وسخروا امكاناتهم لخدمة الاحزاب العربية في سورية منذ تأسيسها . ولم تذهب تلك المساعي عبثا . قبض الانجليز ثمنها بعد سنوات حينما وقف القوميون العرب الى جانبهم في الحرب العالمية الاولى وقوفا نقل سيادة المنطقة من الاتراك الى الانجليز .

برر الانجليز لانفسهم « عطفهم » على الحركة العربية وتأييدهم لها في فترة ما قبل الحرب بمجموعة من التبريرات . اولها ان الحزب الطوراني الحاكم في السلطنة اخذ يحيي صداقة البلاد التقليدية مع المانية ، العدو الاكبر لبريطانية ، منذ حوالي ١٩٠٩ . واخذ العسكريون الاتراك الذين استلموا زمام الامور من بعد طرد عبد الحميد ، ومعظمهم من خريجي المعاهد العسكرية الالمانية ، يعتمدون على الخبراء والمساعدات الالمانية ويقصون البعثات الاوربية الاخرى . وبلغ التعاون ذروته في السنة ١٩١٣ حينما استقدمت الحكومة التركية بعثة عسكرية المانية ثم حينما عقد البلدان معاهدة عسكرية في الثاني من اغسطس ١٩١٤ .

التبرير الثاني ان التنافس على النفط اشتد ، وازدادت معه قيمة العراق ومصر بالنسبة للمصالح البريطانية اكثر من اي وقت مضى .

التبرير الثالث ان وقوف الدولة التركية ، وهي بلد الخلافة ، ضد بريطانية يعني اثارة مسلمي الهند (والهند درة تاج الامبراطورية المرصع ومنبع الخيرات في زمن السلم والجنود في زمن الحرب) ضد بريطانية ، وهو امر يثير القلق ، ولا يبدد هذا القلق الا نجاح بريطانية في استمالة زعامة عربية اسلامية قوية الى جانبها تعمل على اقناع مسلمي العالم (وخاصة في مصر والهند) بان اعلان الجهاد المقدس الذي يصدره الخليفة العثماني لا يخدم المصالح الاسلامية .

اما التبرير الاخير فهو ان طبيعة الاحوال والمجرى التاريخي للامبراطوريات كانا يفرضان تقلص الامبراطورية العثمانية وانحسارها عن اجزاء واسعة

في اسية وافريقية . ولكن ثلاث دول كبيرة في اوربة ، على الاقل ، كانت تنتظر تلك اللحظة لكي تنقض على تلك الاراضي وتفترسها . ولذلك فعلى الحكومة البريطانية ، وهي تعمل بحذر لازاحة السلطنة ، ان لا تترك لغيرها مجالا واسعا لسد الفراغ الحاصل . وقد وجدت ان افضل وسيلة لتحقيق ذلك هو ان تستبق الاحداث وتحالف التيار العربي الذي لا بد ان يلعب دورا رئيسيا في عالم ما بعد الحرب .

الفصل الثاني

نشأة ردّ الفعل القومي العربي



اين كان العرب من النشاط الصهيوني الاستعماري مدة قرن من الزمان ؟

لم يكونوا في مستواه . لم يؤسسوا حركة رسمية للحفاظ على عروبة فلسطين . لم يقيموا مكاتب دعاوة وتوعية . لم يستغلوا اضطهاد الاتراك وطمع الاستعمار لاستمالة الراي العام العالمي . لم يؤلفوا ابحاثا تدعم وجهة نظرهم . لم يحموا الارض من البيع . لم يسيطروا على شخصيات العالم ومقرري مصيره . لكنهم مع هذا كله لم يجهلوا الخطر ولم يتجاهلوه كل الجهل والتجاهل . قام منهم من وعى المسألة وحذر اخوانه ودعا الى اتخاذ هذا الاجراء او ذاك قبل ان يتفاقم الخطر . قام منهم من خطب او كتب او اسس الجمعية او النادي لهذا الغرض . واوجد بعضهم تيارا سجل لنفسه فضل الجهاد الاول في سبيل عروبة فلسطين ، قبل ان يتولى الهاشميون ادارة دفة القضية ليجهلوا الخطر ويتجاهلوه ، وليجهلوا جهاد زملائهم ويتجاهلوه ، وليهملوا القضية احيانا وليفرطوا بها احيانا اخرى ، بعكس ما فعل اولئك المناضلون الرواد .

احتج اكثر من دبلوماسي بريطاني في الشرق العربي ، مثل جيمس فن في القدس ورتشرد برتن في دمشق والدردج في بيروت وتشارلز كندي المندوب المتجول لوزارة الخارجية في الشرق ، احتجوا على سوء تصرف اليهود تجاه سكان البلاد ، في تقارير رفعوها الى حكومتهم ١٨٥٠ — ١٨٨٠ ، وذلك بعد ان ضمن اليهود حماية بريطانية وبدات الحركة الصهيونية تثير كوامن الشر والعدوان في نفوسهم . وقد ادت تلك التصرفات الى تنبيه العرب على الخطر الصهيوني . وكان رد الفعل سريعا . ومن المؤسف ان يكون رد الفعل العربي هذا مهملا عند كتاب التاريخ العربي الحديث . وقد جمعنا المعلومات التي لدينا من كتاب اجانب ويهود عاشوا في تلك الفكرة ولم يكتموا خبر وجود تيار عربي يحاول انقاذ فلسطين من الهجرة التي اخذت تتدفق اواخر القرن .

واذ ان البوادر الاولى لغضب العرب على المؤامرات الصهيونية بدات بعد ١٨٩٠ فاننا نستشهد بذلك على انالقضية كانت وطنية ولم تكن طائفية . فقد عاش العرب واليهود من قبل عيشة مسالمة في معظم الاحيان . ولم يتخللها من الخصومات اكثر ما يتخلل عادة حياة اي مجتمع متعدد الطوائف والاجناس . ولم يحصل من قبل نهاية القرن مثل ذلك الغضب المركز الذي اشتد في اعقاب اشتداد الهجرة اليهودية الى فلسطين منذ الـ ١٨٨٠ ثم في اعقاب انتظام الحركة الصهيونية في حوالي نهاية القرن . ولم يذكر اي قنصل لبريطانية في المدن العربية في ثلاثة الارباع الاولى من القرن التاسع عشر شيئا من الاحتكاكات الرسمية بين العرب واليهود ، بينما ذكرت تقارير

اولئك القناصل عشرات الشكاوي اليهودية من الحكومة العثمانية ومن الباشوات المسؤولين ومن اقليات اخرى غير عربية ، كاليونانيين . اما المنازعات القليلة التي جاء ذكرها احيانا قليلة في بعض التقارير قبل ١٨٩٠ فكانت فردية ، وكانت تحصل بين العرب انفسهم احيانا كثيرة . غير ان الوضع تبدل في اواخر القرن بعد ان تنبه العرب للخطر الصهيوني . واصبح من المألوف ان تحصل اعتداءات عربية على اليهود ، واغتيالات من النوع الذي نسميه اليوم اغتيالات سياسية تأديبية .

سجل اول تذمر رسمي من عرب فلسطين على الهجرة اليهودية في صيف ١٨٩١ حينما ابرق جمع من زعماء القدس ، في الرابع والعشرين من يونيو ١٨٩١ ، الى الصدر الاعظم يطالبون بفرمان يمنع الصهيونيين من دخول فلسطين ومن شراء الاراضي فيها . ذكر قنصل بريطانية في القدس ، جون دكسن ، هذه البرقية في تقرير الى وزارة الخارجية ، عزى موقف العرب فيه الى ازدياد عدد المهاجرين حتى اصبح ثلثا سكان القدس يهودا (١) . وقد اضطرت السطات العثمانية الى الخضوع لهذا الطلب الذي لاحقه عرب يقيمون في العاصمة . ومنعت الهجرة . ولكن تدخل بريطانية جعل المنع حبرا على ورق . واستمر الصهيونيون يبعثون المهاجرين تحت سمع الحكومة العثمانية وبصرها . فاستنجد العرب في القسطنطينية بالسلطان من جديد واخبروه بواقع الحال . واصدر السلطان في ١٨٩٢ قرارا بمنع اليهود من شراء اراض في السلطنة ومنع السكان من بيع اراضيهم لليهود . ومرة اخرى تدخل البريطانيون لمصلحة اليهود ، واستمر البيع والشراء بمعرفة الحكومة . وعبثا حاول السلطان ان يفرض كلمته ، مدة عشر سنوات ، اي الى ان منع في ١٩٠١ دخول اي يهودي الى البلاد الا اذا كان سيغادرها في مدى ثلاثة اشهر . لكن السفير البريطاني في القسطنطينية حال دون تنفيذ القرار ، مما افسح مجال الهجرة امام يهود اوربة كالماضي .

وكان المسؤولون الاتراك يتواطأون مع الصهيونيين ضد العرب . وقد تحدث اثنان من الصهيونيين نشرا مذكراتهما عن تلك الفترة عن تحالف رجال الشرطة والادارة والولاة الاتراك مع صهيونيي فلسطين اواخر القرن الماضي ، وقد عمل كل من الكاتبين في بناء المستعمرات الجديدة . سمى احدهما حوادث الاصطدام بين العرب واليهود « **ثورة عربية قومية** » . وتحدث الاخر عن الفرق بين موقف ولاة الاتراك الودي من الصهيونية وموقف القائمقامين العرب العدائي . وهناك كتاب ثالث وضعه احد ضباط الهاجانه ايام الانتداب عن هجمات العرب على المستعمرات الصهيونية في مطلع القرن العشرين . وقد

---

(1) Albert Hyamson, The British Consulate in Palestine, Vol. 2, P. 461.

اشترك المؤلف في الدفاع عن مستعمرة بتاح تكفه التي هاجمها عرب فلسطين اكثر من مرة . كذلك كتب الكسندر اهرنسن في كتابه « مع الاتراك في فلسطين » بعض مشاهداته عن الاصطدامات العربية ـ الصهيونية (٢) .

و «احد همام » ، اي احد الناس ، اول من نبه زملاءه في الحركة الصهيونية الى خطورة رد الفعل العربي ضد الاهداف الصهيونية . وكان هذا المفكر روسي الاصل ، واسمه اشر جنزبيرج ، زار فلسطين في العام ١٨٩١ وتفقد مستعمراتها اليهودية بدعوة من جمعية « احبة صهيون » . ولما عاد الى اوربة كتب مقالا شهيرا في مجلة « هاملايت » بعنوان « الحقيقة من فلسطين ». حذر فيه الصهيونيين من ثورة عربية قومية ضد مستعمراتهم . واشار ، لاول مرة ، الى قيام « مشكلة يهودية » في فلسطين نفسها . وقد تحققت مخاوف هذا الرجل الذي تنسب اليه كتابة «مقررات حكماء صهيون» (وهو كتاب مشهور مجهول الاصل لم تثبت صحته علميا) . فعاد الى فلسطين مرة اخرى بعد عشرين سنة . وتجول بين مستعمراتها ثم كتب مقالا عن صعوبة المضي في المشاريع الصهيونية امام غضب العرب على هذه المشاريع بعد ان استيقظ العرب قوميا . وينتهي الكاتب الى ان حلم « تحرير فلسطين » قد يتبخر (٣) . واننا نجد الراي نفسه عند كاتب صهيوني اخر زار فلسطين ١٩٠٧ ، اسحق ابستن ، ونجده ايضا عند صديق بريطاني للصهيونيين ، ستون وتسن في مقال له في مجلة « المائدة المستديرة » عدد ديسمبر ١٩١٤ .

ذكر هنري جسب في احداث ١٨٩٨ ان اهل فلسطين وقفوا موقفا حازما ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية وامكان قيام « اسرائيل » في بلادهم لانهم اعتبروا ذلك « خطرا على حقوقهم وامتيازاتهم » . وقال ايضا ان هذا الشعور وصل الى عرب شرق الاردن ، فطردوا اليهود من بلادهم وهدموا بيوتهم وقلعوا اشجارهم . وكان بعض اليهود قد ذهبوا الى جرش واسسوا مستعمرة فيها (٤) . وقد اخذت المخاوف العربية في فلسطين تزداد اثر ما وصل الى اسماعهم من تنادي اليهود الصهيونيين الى عقد مؤتمر لهم في اوربة لتنظيم الحركة الصهيونية . ونستطيع ان نقول ان عرب فلسطين

---

(٢) راجع مثلا الكتب التالية :
Moshe Smilansky, Hadera (Tel Aviv, 1935).
Kalvariski, Jewish Arab Affairs (Jerusalem, 1931).
Eliahu Golombu, History of Jewish Self Defence in Palestine (?)
Alexander Aaronsohn, With the Turks in Palestine (London, 1917).

(٣) نشر المقال في مجموعة ابحاث للمؤلف :
Achad Haam, 10 Essays on Zionism (London, 1922).

(4) Henry Harris Jessup, 53 years in Syria, Vol. 2, P. 657.

وعوا الخطر الصهيوني ليس فقط منذ ان عقد المؤتمر المذكور في بال في سويسره ، بل من قبل عقده باشهر ، اي منذ بدء العمل التمهيدي لعقده . فمنذ يونيو ١٨٩٧ تباحث متصرف القدس مع قنصل المانية في المدينة في ضرورة وضع حد للخطر الصهيوني على فلسطين . ولم يمض على عقد المؤتمر اشهر قليلة الا وكانت الصحف العربية تفضحه ـ خاصة مجلة المنار في القاهرة، التي كتب صاحبها ، محمد رشيد رضا ، يحذر من الصهيونية (٥) .

انقذ العرب ارضهم من مؤامرة هيرتزل في مطلع القرن الحالي بفضل يقظتهم الجزئية . فقد ضغط المحيطون منهم بالسلطان على الحكومة العثمانية فرفضت اغراءات الزعيم الصهيوني بان تتبنى السلطنة مشروع اللجنة الصهيونية باقامة معسكرات يهودية في فلسطين وشرق الاردن. غير ان تقلب الاوضاع الداخلية وسقوط عبد الحميد عن عرشه عرض القضية العربية لاخطار جديدة. ذلك ان الصهيونيين استغلوا مجيء بعض اصدقائهم الى الحكم واشتروا اراضي جديدة في شمال فلسطين. فغضب اهالي الناصرة واحتجوا الى الحكومة بشكل جماعي في العام ١٩١٠ . واقتفى اثرهم سكان عدد من المدن الفلسطينية في العام التالي. وصدرت في حيفا جريدة الكرمل في اواخر ١٩٠٨ لفضح المؤامرة الصهيونية ولتبيان خطر بيع الاراضي لليهود . وكان لتلك الصحيفة القومية صداها في جرائد اخرى في فلسطين وخارجها ، كالاصمعي وفلسطين ، في فلسطين ، والمنار والاهرام في مصر والمقتبس في دمشق والمؤيد في بيروت . فتضايقت الحكومة التركية من الحملة واغلقت الصحف التي عالجت الموضوع بتهمة تعكير الامن . وقد قامت بالفعل عدة تظاهرات شعبية ضد الهجرة اليهودية وضد الحركة الصهيونية في ١٩٠٨ واخذ السكان ، من جهة اخرى ، وخاصة في شمال فلسطين يأدبون الصهيونيين فكانوا يعتدون على مستعمراتهم « ويسرقون مواشيها ويقطعون اغراسها ويفلتون مواشيهم على الحقول ويحطمون الاسوار » لانهم « اعتبروا اليهود الد اعدائهم » كما لاحظ الجغرافي الاميركي الزورث هنتنجتن الذي زار فلسطين في العام ١٩٠٩ (٦) . كما تنادى بعض الوطنيين وقرروا مكافحة الصهيونية ببناء وعي قومي ثقافي . فاسسوا معهدين علميين وطنيين كبيرين ، وكانت المدارس الحكومية قليلة جدا وسيئة النظام ، وهما معهدا الدستورية والروضة . وقد زرع المعهدان الفكرة القومية في نفوس الجيل الجديد زرعا مثمرا بدا ينمو خلال الحرب الاولى . وكان رد فعل السلطات التركية على هذا الوعي العربي ان اخذت تضيق الخناق على الحركة الوطنية الناشئة . لقد ظن عرب فلسطين ، عندما حصل انقلاب ١٩٠٨ ، ان الدولة اصبحت دولتهم وان الحرية التي تغنى

---

(٥) المنار سنة ١ (١٨٩٨) جـ ٦ ص ١٠٨

(6) Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation (London, 1911) P. 57.

الانقلابيون بها تعني حصولهم على حقهم بحماية اراضيهم . لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان اليهود قد سبقوهم الى السيطرة على الاوضاع الجديدة ، وان اكثر من عضو بارز في الحكم الجديد على اتصال وثيق مع الصهيونية. وقد برهن على ذلك التدابير التي اتخذتها السلطات التركية في فلسطين لحماية المستعمرات اليهودية، فبعد اشهر من مجيء الانقلابيين الى الحكم سمح موظفوهم في فلسطين للصهيونيين بتأسيس « جيش دفاعي » لحماية المستعمرات .

ومنذ صيف ١٩٠٩ بدأ النواب العرب في البرلمان التركي يتبنون القضية العربية في فلسطين بعد ان فضح بعض الصحف العربية علاقة رجال تركية الفتاة بالصهيونيين . واجبروا رئيس الحكومة على ان يعلن انه لن يسمح لليهود باستيطان فلسطين . واجبروا وزير الداخلية في ١٩١١ على ان يعلن معارضته للاهداف الصهيونية ـ وكان كلاهما متهما بمشايعة الصهيونيين. واثار النواب العرب موضوع الهجرة اليهودية في عدة جلسات في تلك السنة وحذروا الحكومة في السنة التالية ، بانهم سيحجبون ثقتهم منها اذا لم تبادر الى عرقلة مشروع تهديد اراضي النقب وسيناء . وكان وكيل قنصل بريطانية في غزة قد اشرف على تنفيذ المشروع الصهيوني واتصل مع ملاك مصريين وفلسطينيين في ربيع تلك السنة ليبيعوا اراضيهم ، حتى ان « التايمز » تسرعت واذاعت ان الصهيونيين حصلوا على عشرة الاف فدان في منطقة العريش في الاسبوع الاول من ابريل ١٩١٢ . ولكن المشروع فشل بسبب المقاومة العربية له .

الا ان الخطر لم يزل ابدا . ففي يناير ١٩١١ اعلن ان الياس سرسق ، الوجيه اللبناني ، باع القسم الاكبر من اراضيه في مرج ابن عامر ، اخصب اراضي فلسطين ، للصهيونيين. فبذل عرب فلسطين المستحيل لحمل الدولة على الغاء الصفقة . وقد تزعم الحملة ضد الصفقة قائمقام الناصرة ، شكري العسلي . فكافأه العرب في تلك السنة ذاتها بان انتخبوه نائبا عن دمشق واصبح بامكانه ، بالتالي ، ان يقود الحملة ضد الصهيونيين في مجلس المبعوثان في الاستانة منذ اواسط ١٩١١ .

وفي هذه الاثناء كان عرب فلسطين يواصلون جهادهم المحدود الذي بدأوه منذ ١٩٠٨ . فواصلوا حملة ارسال البرقيات الى المسؤولين لدعم النواب الناطقين باسمهم ، وواصلت الصحف الهجوم العنيف على الصهيونية وفضح مؤامراتها ، بينما تداعى عرب يافا الى الاجتماع لتأسيس اول حزب وطني في فلسطين ضد الصهيونية ، وقد سموه الحزب الوطني . وكان نتيجة لذلك ان اعلن في البلاد ان التعامل مع الصهيونيين جريمة قومية ، وحظر على السكان بيع الاراضي والتعامل مع كافة المؤسسات الصهيونية خاصة بنك

انجلو ـ بالستين الصهيوني . لكن هذه الوسائل عجزت على صد العدوان الصهيوني لسبب سياسي خارجي ، وهو افلاس الدولة العثمانية وتأمل المسؤولين فيها ان يسدوا العجز باموال الحركة الصهيونية . وكان هيرتزل من قبل قد تبرع بانعاش خزينة الدولة ان رضي المسؤولون فيها بالسماح لليهود بالهجرة والتملك . وقد قاد كل من انور باشا وطلعت باشا جناحا في حزب تركية الفتاة الحاكم يدعو للتعاون مع الصهيونيين . لذلك ما ان جاءت سنة ١٩١٤ حتى كان عرب فلسطين قد وقفوا موقفا حاسما ضد الصهيونية : اسسوا عدة جمعيات لمكافحة الاهداف الصهيونية ، وفرضوا على مرشحيهم لمجلس المبعوثان العمل الجدي ضد هذه الحركة مقابل التصويت لهم ، وعمموا التأديبات واعمال العنف ضد المستعمرات . وهذا ما دعا نفل ماندل ، صاحب اوسع دراسة عن وعي العرب للخطر الصهيوني قبل ١٩١٤ يختم دراسته بهذه الكلمات « كان هؤلاء العرب كلهم تقريبا يعارضون الاهداف الصهيونية التي اعتقدوا انها تتعارض مع اهدافهم القومية » (٧) .

ثم تطورت الاحداث بسرعة . اشتعلت نيران الحرب العالمية ، وازداد طمع بريطانية في فلسطين ، وعقدت اتفاقية سايكس ـ بيكو ١٩١٦ وصدر وعد بلفر ١٩١٧ . لم يجهل احرار العرب خطورة تلك الاحداث ولم يكتموا معارضتهم للمؤامرات . اما القول بان العرب رضوا باجراءات ما قبل نهاية الحرب فهو زعم هاشمي غير صحيح يراد منه تبرير موقف الهاشميين المهادن لهذه الاجراءات . والدليل على صمود عرب فلسطين في وجه الاطماع الصهيونية قبل ان احتل البريطانيون البلاد ١٩١٨ هو ان الصهيونيين بذلوا جهودا جبارة لاقناع العرب في فلسطين بان مشاريعهم لا تتعارض مع المصالح العربية ولكنهم منوا بالفشل مرة بعد اخرى. حتى ان المندوب السامي في مصر ابرق الى حكومته يناشدها ان لا تصدر وعدا يتناقض والمصلحة العربية لان اثر مثل هذا الوعد سيكون سيئا على علاقات بريطانية مع العرب . وكان الصهيونيون قد تعهدوا للحكومة البريطانية ، قبل ان يصدر وعد بلفر ، بان ينجحوا في كسب ود العرب ، باعتراف صهيونيين كبيرين : نورمن بنتوتش واللورد روتشلد (٨) . وتحقيقا لهذا الغرض جاء وايزمن الى البلاد العربية في اخر سنوات الحرب وتفاوض مع بعض زعمائها ، وهو موضوع نرجيء الكلام فيه الى صفحات لاحقة من الكتاب .

كان للوعد وقع سيء في الاوساط العربية في فلسطين وجاراتها . اذيع

---

(7) Neville Mandel, Turks, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, in A. Hourani, ed., Middle Eastern Affairs, No 17, P. 77-108.

(٨) راجع رسالة من اللورد روتشلد الى التايمز عدد ٢٨ مايو ١٩١٧ ، وكتاب Norman Bentwich, Zionism and the Jewish Faith (London, 1916).

الوعد بعد ان كان العرب قد وثقوا بالحلفاء وانضم عدد من عرب فلسطين الى القوات البريطانية ، آملين ان ينتهي تحرير بلادهم من الاتراك بضمها الى دولة عربية مستقلة . وقد اشار الى خيبة الامل هذه تقرير البعثة العسكرية التي اوفدتها الحكومة البريطانية لدرس اسباب ثورة ابريل ١٩٢٠ . ولا بد ان نتذكر ان عددا من الشهداء الذين امر جمال باشا بشنقهم في سورية ولبنان كانوا من اصل فلسطيني ، الى جانب اثني عشر شهيدا اخر شنقهم السفاح المذكور في القدس لارهاب الفلسطينيين . ولا بد ان نذكر ايضا ان البريطانيين كتموا خبر الوعد مدة ، وانهم حاولوا بعد ان انفضح الامر ان يخدعوا عرب فلسطين فزعموا ان الوعد صدر بصفة خاصة ولا يمثل الحكومة البريطانية ، بل ان بعض المسؤولين زعم ان حكومته تعارض الوعد ولا تنوي تحقيقه ، حسب اعتراف الانسة فرانسس نيوتن (وهي بريطانية) امام لجنة التحقيق ١٩٣٠ .

من ظلم الحقيقة ان يزعم بعض الناس ان الوعد لم يثر صدى خاصا عند المواطنين ولذلك لم يثر صدى خاصا عند الهاشميين انفسهم . اننا نلمس وجود رد فعل عربي عام لوعد بلفر في وصف كتبه الجنرال جلبرت كليتن ، رئيس المكتب السياسي الملحق (بالجنرال) النبي ، وابرق به الى مارك سايكس بعد ايام من نشر وعد بلفر : « **لقد احدث الاعلان الاخير حول المسالة اليهودية الذي اصدرته حكومة صاحب الجلالة اثرا عميقا في المسلمين والمسيحيين الذين يتطلعون على فلسطين وسورية بالم وخوف من اليهود** » . انقل نص هذه البرقية عن كتاب لينرد شتاين عن وعد بلفر ، وتاريخها هو الثامن والعشرين من نوفمبر ١٩١٧ . ويورد الكتاب في المكان نفسه شاهدا ثانيا على اثر الوعد في اهل فلسطين ، نقلا عن مجلة « النشرة العربية » التي كان « المكتب العربي » في القاهرة يصدرها في الحرب (عدد الثامن عشر من مارس ١٩١٨) : « **لا شك ان لا شيء يهدد علاقاتنا مع اهل فلسطين من غير اليهود مثل غموض تصريحاتنا لصالح الصهيونية** » (٩) .

ذلك ان كتمان الوعد عن عرب فلسطين ومنع الصحف من نشره لمدة طويلة لم يمنع الشعب من الاطلاع عليه من صحف مصر . لذلك فمع ان الوعد لم يذع رسميا في فلسطين الا في اواسط ١٩١٩ حينما اعلنه (اللفتننت جنرال) لويس بولز في نابلس ، تداول الناس خبره وعقد زعماء الفلسطينيين النية على التظاهر في شوارع القدس استنكارا له في ذكراه السنوية الاولى ، ١٩١٨ . لكن سلطات الاحتلال احتاطت للامر ومنعت التجمع وعززت الحاميات العسكرية في المدينة . فانتقل النشاط الى اعضاء الحركات العربية المقيمين

---

(9) Leonard Stein, The Balfour Declaration, P. 629.

في مصر . وتألفت لجنة منهم لدرس الموضوع وملاحقة المسؤولين البريطانيين حوله . وقدمت اللجنة احتجاجا رسميا على الوعد . وانتقلت المخاوف الى الصحراء ايضا . وفي « اعمدة الحكمة السبعة » للورنس وصف طريف لشكوك البدو بالوعود البريطانية للعرب .

وازداد التوتر في فلسطين نفسها بمجيء سلطات الاحتلال التي كانت تجاهر بعطفها على الصهيونيين ، ثم بمجيء اللجنة الصهيونية التي تولت العمل المنظم لتحقيق الوعد ، ثم بانتهاء الحرب ونقل القضية الى ميدان المساومات والالاعيب والاطماع المعلنة والمكتومة . وعبر زعماء عرب فلسطين عن مخاوفهم في سلسلة من الاحتجاجات والمحاولات اليائسة . وكان اقوى رد فعل لهم في المؤتمر القومي الذي عقدوه في اليوم الاخير من يناير ١٩١٩ لاستنكار الوعد . وقد ابرقوا بذلك الى مؤتمر الصلح بباريز . وكان المؤتمر يمثل غالبية العاملين في الحقل السياسي واعضاء الحركات العربية . ووضع المؤتمر ميثاق عرب فلسطين القومي الذي تقيد العرب به مدة ثلاثين سنة .

يمكن تلخيص الميثاق القومي بالمبادىء الثلاثة التالية : اولا ، فلسطين جزء لا يتجزأ من البلاد السورية العربية وشعب فلسطين يرتبط مع الشعوب الاخرى في سورية دينيا ولغويا واقتصاديا وعنصريا . ثانيا ، لا حق لاية دولة اجنبية باستعمار فلسطين او اي جزء من الوطن العربي. بل يجب اعلان وحدة الوطن المذكور واستقلاله معا . ثالثا ، يجب الغاء كافة التعهدات والاتفاقات التي ابرمتها الحكومات الاجنبية بخصوص فلسطين مما يغاير رغبة شعب فلسطين ويتناقض مع حقهم بتقرير مصيرهم .

واشترك مندوبون عن عرب فلسطين في المؤتمرين العربيين الكبيرين في دمشق في يوليو ١٩١٩ ومارس ١٩٢٠ . وقد اصدر المؤتمران قرارات حاسمة باستنكار الصهيونية . وفي الثالث عشر من ديسمبر ١٩٢٠ انعقد مؤتمر فلسطيني اخر ، في حيفا ، وكان فاتحة سلسلة مؤتمرات دورية لتنظيم صفوف المقاومة العربية وبث الدعاوة في الخارج ووضع خطوط سياسية للعمل ضد الاطماع والمؤامرات . وكان عرب فلسطين قد وقفوا موقفا حازما من المؤتمرات الاجنبية حينما جاءت لجنة كنج ـ كرين لاستفتائهم حول المصير الذي يريدونه لانفسهم ، صيف ١٩١٩ . طالبت اغلبيتهم الساحقة بالوحدة السورية العربية ومقاومة السياسة الصهيونية . وقد نقل تقرير اللجنة هذه الرغبة الى العالم. واعلن ان « سكان فلسطين المسلمين والمسيحيين ضد الصهيونية بالاجماع. وقد عبروا عن ذلك بتشديد عظيم ». وحمل التقرير ايضا تحذيرا مهما اجمع عليه « كل الموظفين الاميركيين والانجليز في يافا » بان تنفيذ البرنامج الصهيوني لا يمكن ان يتم الا بالاستعانة بجيش كبير .

واننا نجد صدى للنفور العربي الشعبي في برقية اخرى بعث بها الجنرال كليتن الى لندن في الثاني من مايو ١٩١٩ يتبنى فيها اقتراح زميله الجنرال موني ، رئيس الادارة العسكرية البريطانية في فلسطين ، بوجوب الغاء وعد بلفر . وعلق كليتن على اقتراح زميله بقوله «ان المخاوف من اهداف الصهيونيين والشكوك بها تنمو يوميا . ولن يقضي عليها اية دعاوة » . وكان هذا الموقف الحازم للجنرال سبب اقالته من منصبه واستبداله بضابط صهيوني غير يهودي ، الكولونيل ماينر تزهاجن الذي دعا الى فرض وعد بلفر بالقوة وراسا .

بدأ عرب فلسطين ، ازاء التصميم العنيد للبريطانيين والصهيونيين على تنفيذ برنامجهم ، يتبعون اسلوب العنف في اثبات حقهم ورفع الاذى عن وطنهم . فهاجمت فرقة من الفدائيين العرب في الشهر الاخير من ١٩١٩ اربع مستعمرات يهودية في الجليل الاعلى (المطلة وتل حي والحمراء وكفر جلعاد) . ثم قاموا بسلسلة من الحملات الاخرى في اماكن كثيرة لمدة ثلاثة اشهر . وكان بين عشرات القتلى الصهيونيين الكبتن يوسف ترمبلدور ، احد زعماء الحركة الصهيونية . ولما عجز الصهيونيون عن الدفاع عن انفسهم لجأ احدهم ، جبو تنسكي، الى تأسيس قوات عسكرية قائمة عرفت فيما بعد باسم الهاجانه. وكانت قوى الدفاع من قبل تعرف باسم « شومريم » ، وقد اسسها الصهيونيون منذ ايام الحكم العثماني ، وكان بن جورين احد جنودها .

انتقلت شرارة الجهاد من شمال فلسطين الى القدس . وبدا العمل الشعبي فيها بسلسلة تظاهرات سار فيها الالاف من اهل المدينة وضواحيها ، في فبراير ١٩٢٠ . وقد هتف الناس بسقوط الصهيونية وطالبوا بالانضمام الى سورية وهددوا اليهود . فارتاع الصهيونيون واستدعوا وايزمن الذي جاء ليهدىء العرب . لكن مجيئه اثار العرب فتظاهروا من جديد . حتى ان قلم الاستخبارات العسكري ابرق الى اللورد كيرزن مذكرة يبدي فيها مخاوف العسكريين في البلاد من هذه الغضبة الشعبية العامة التي اخذت تطالب ، الى جانب استقلال فلسطين واتحادها مع سورية والغاء وعد بلفر، بطرد اللجنة الصهيونية وتسريح الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني .

وفي الرابع من ابريل ١٩٢٠ ادب عرب القدس وضواحيها الصهيونيين لاول مرة في ذلك القسم من فلسطين ، في موسم النبي موسى التقليدي الذي صادف وقوعه مع عيد الفصح اليهودي . قتل العرب خمسة يهود وجرحوا مئتين واحد عشر ، واستشهد من العرب اربعة وجرح واحد وعشرون . وكانت الحادثة قد بدأت عندما اعتدى الصهيونيون على تظاهرة عربية تهتف للاستقلال . فرد العرب على الاعتداء بان هاجموا احياء المدينة اليهودية . وانتشرت الاضطرابات في اكثر من مكان في فلسطين . واعترفت وزارة

الخارجية البريطانية في كتيب لها بعنوان « سورية وفلسطين » ان عرب فلسطين اخذوا يعون الخطر الصهيوني ويتكتلون ضده (١٠) . وارسل السكرتير الاداري لفلسطين ، لويس بولز ، في ربيع ١٩٢٠ ، تقريرا يقول فيه ان اكثر من تسعين في المئة من اهل فلسطين يعارضون الصهيونية معارضة شديدة . ولذلك فقد طالب بان تتوقف الحكومة عن سياسة المحاباة ضد العرب . ومرة اخرى ، ردت الحكومة على انتقادات الموظف بان طردته من وظيفته .

انا نعتبر حادثة « النبي موسى » بدء الصراع الدموي المنظم بين عرب فلسطين والصهيونيين بعد الحرب العالمية . كانت الحادثة حركة وطنية لا طائفية عبرت عن اهداف العرب ومطاليبهم واستعدادهم للجهاد في سبيلها . وقد اعترف بعروبتها قرار لجنة التحقيق التي شكلتها الحكومة البريطانية للنظر في القضية ، وكانت تلك اللجنة الحلقة الاولى من سلسلة طويلة في ربع قرن . ولان قرارات اللجنة ابانت الحقيقة كتمتها الحكومة ولم تنشرها الا بعد سبعة عشر عاما . وقد جاء فيها ان سببي الاحداث الدموية هما « خيبة امل العرب لعدم تحقيق الاستقلال الذي يعتقدون انهم وعدوا به ، ووعد بلفر الذي يرون فيه تهديدا لحقهم بتقرير مصيرهم ، اذ هم يخشون ان يخضعهم تأسيس الوطن القومي لليهود خضوعا اقتصاديا وسياسيا » (١١) .

---

(10) Great Britain, Foreign Office, Syria and Palestine, Peace Handbook, No. 60.

(١١) يجيء في الكتاب ذكر عدد من المنشورات الرسمية للحكومة البريطانية وهذه قائمة بما اعتمد المؤلف عليه من هذه الكتب الرسمية :

منشور رقم	١٥٤٠	للسنة	١٩٢١	:	تقرير هيكرافت
« «	١٧٠٠	«	١٩٢٢	:	الكتاب الابيض لونستن تشرتشل
« «	١٧٠٨	«	١٩٢٣	:	سياسة بريطانية
« «	١٧٨٥	«	١٩٢٣	:	صك الانتداب
« «	٣٥٣٠	«	١٩٣٠	:	تقرير شو
« «	٣٦٨٦	«	١٩٣٠	:	تقرير هوب سمبسن
« «	٣٦٩٢	«	١٩٣٠	:	الكتاب الابيض لباسفيلد
« «	٥٤٧٩	«	١٩٣٧	:	تقرير بيل
« «	٥٥١٣	«	١٩٣٧	:	سياسة بريطانية
« «	٥٨٥٤	«	١٩٣٨	:	تقرير ودهد
« «	٥٩٧٤	«	١٩٣٩	:	مراسلات مكمهن ــ الحسين
« «	٦٠١٩	«	١٩٣٩	:	الكتاب الابيض
« «	٦٨٠٨	«	١٩٤٦	:	تقرير اللجنة الانجليزية ــ الاميركية

الفصل الثالث

موقف الملكين حسين وفيصل من قضية فلسطين في الثورة العربية الكبرى وفي أعقابها



نعود (١) ، بعد هذا الابتعاد الجزئي عن صلب الموضوع ، الى الاسرة الهاشمية نفسها ، لنكشف عن الاجراءات التي اتخذها رجالها ، والتي لم يتخذوها ، بحق الحركة الصهيونية واطماعها في البلاد العربية وتحالفها مع الاستعمار البريطاني . وقد رأينا في الصفحات السابقة خطورة هذه الحركة وارتباطها مع الاستعمار ، ورأينا ايضا رد فعل ذلك في الاوساط العربية قبل نشوب الثورة العربية بربع قرن تقريبا. وحتى نتبين حقيقة موقف الهاشميين من الصهيونية علينا ان نقارن دائما ، في اذهاننا ، بين ذلك الموقف وبين موقف العرب بوجه عام .

ولا بد لنا بان نبدأ استعراضنا بالثورة العربية الكبرى ، التي بدأ فيها تزعم الاسرة الهاشمية للقضية العربية، فدخل افرادها باب القضية الفلسطينية بشكل رسمي مباشر . وقد كان من نتائج تلك الثورة ان خاب امل القوميين العرب ، الذين بايعوا حسينا زعيما للثورة ، به وبزعامته ، بسبب موقفه من العروض البريطانية التي حملتها مراسلاته مع مكمهن ، المندوب السامي في مصر . ومع ان تلك المراسلات جرت قبل الثورة باكثر من نصف سنة (اي في النصف الثاني من ١٩١٥) لم تبدأ اخبارها بالانتشار بين صفوف القوميين الا بعد اشتعال الثورة . ذلك انها احيطت بستار كثيف من الكتمان لوقت ما ولم تزد معلومات زعماء الحركة الوطنية الذين عرفوا بها ، سواء من المصادر الهاشمية في الحجاز او من المصادر البريطانية في مصر، عن العلم بالخطوط العريضة فيها ، دون معرفة تفاصيلها التي بقيت سرية وكتمها الحسين والانجليز عن كل الناس .

والواقع ان الوطنيين العرب خاضوا الثورة ، ان لم نقل اشعلوا نيرانها ، وغذوها بالتضحيات ، وخرجوا منها منتصرين بعد سنتي جهاد متواصل ، دون‌ان يسمح الحسين لاي منهم ان يعرف حقيقة تلك المراسلات . بل انه كتم حقيقتها عن ابنائه ايضا ــ او هكذا قال ابناؤه . وكان فيصل ، وهو يمثل اباه في مؤتمر الصلح في باريز ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ يشكو من انه لم يطلع على تلك المراسلات اطلاعا مباشرا ولم ير قط النصوص الموجودة في حوزة ابيه . وقال انه ارسل الى والده يطلب منه تلك المراسلات او نسخا عنها . ولكن طلبه رفض اكثر من مرة . ثم نشر فيصل حديثا في جريدة « المفيد » مع رئيس تحريرها ، ضمنه نداء الى ابيه يناشده ان يرسل اليه نسخا عن تلك المراسلات التي قال فيصل عنها « ما رأيتها . وقد طلبت منه مرارا ان يجعلها سلاحا لي اذا كانت موجودة . ولا اعلم ما سبب تأخيره ارسالها لي » (٢) .

---

(١) اقتطع المؤلف عدة صفحات في هذا الفصل من الحلقة الثالثة من القسم الثاني في كتاب « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » آنف الذكر.

(٢) جريدة المفيد (دمشق) ، عدد ١٥ فبراير ١٩٢٠ .

ومات الحسين قبل ان ينشر تلك المكاتبات ، وحجته انه ارفع من ان يفضح الذين خدعوه . وظل نص المراسلات مجهولا الى مارس ١٩٣٩ حينما نشرت الحكومة البريطانية مجموعتها في كتاب ابيض بمناسبة انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن لبحث مستقبل فلسطين (٣) .

اثارت هذه السرية ريبة الكثيرين من احرار العرب . واخذوا يتسقطون اخبار المراسلات وتفاصيلها بالتدريج وباساليب متنوعة . وكانوا يفقدون الامل بالحسين مع كل خبر جديد يصل الى اسماعهم .

اخذوا على الحسين، مما جمعوه من معلومات، بساطة معالجته القضية. لقد تناول ، بحكم انتداب احرار العرب له كمسؤول عن الاتصال المباشر مع الانجليز ، قضايا مصيرية مهمة تعني حياة شعب بكامله وكرامته ومستقبله ، وكأنها قضية محلية لا يتعدى اثرها افرادا قليلين . فحصر الامور بنفسه ، واصر على الاستئثار بكل شيء ، ورفض ان يستنير بارشادات من هم اخبر منه باحابيل السياسة الدولية وخفاياها واطماعها . ونظر الى القضية كشيخ قبيلة يحاول ان يحل مشاكل عائلتين من اتباعه بالرضى والتسامح والمصالحة دون‌ان يغضب ايا منهما . وكانت العلاقات العربية ــ البريطانية بالنسبة اليه مجرد علاقات خاصة بين اثنين ، هما الحسين وكتشنر او مكمهن . وكانت ثقته مطلقة بالانجليز وبوعودهم لمجرد ان وعدوه بالملك والخلافة واعطوه مالا وسلاحا . وظل ، الى وقت متأخر ، يمثل بساطة البادية التي تجهل ما في المدينة من شرور واكاذيب واطماع ، وتعالج اكثر القضايا تعقيدا باسذج الوسائل .

واخذ احرار العرب عليه، ثانيا ، تحديداته المطاطة للدولة العربية العتيدة. ولا بد انه فهم من مكاتبات مكمهن ان فلسطين وسورية جزء اساسي من تلك الدولة . فهذا ما يفهمه المرء من مطالعة تلك الرسائل التي صاغها الانجليز بمنتهى الخبث . الا انه سكت ع ن‌الاسلوب المبطن الخداع الذي صاغ مكمهن به تعابير رسائله حول الحدود . واعطى سكوته هذا حجة للانجليز فزعموا انهم لم يقصدوا ان تكون سورية وفلسطين جزءا من الدولة العتيدة ــ كما زعم فيما بعد مسؤولون بريطانيون كبيرون ، من اصدقاء البيت الهاشمي ، مثل ونستن تشرتشل في مجلس العموم (١٩٢٢) وجلبرت كليتن فـي رسالة الى هربرت صميول (١٩٢٣) ومكمهن في رسالة شهيرة الى جريدة

---

(3) Command Paper 5974

وكانت جريدة الطان (باريز) قد نشرت ترجمة فرنسية لتلك الرسائل في ١٨ سبتمبر ١٩١٩ . ثم نشرها جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » بالاصل الانجليزي ص ٤١٣ ــ ٤٢٧ .

التايمز (١٩٣٧) وارمسبي جور في خطاب بمجلس العموم (١٩٣٧) .

لن نخوض هنا موضوع حدود المنطقة العربية في المراسلات بين الحسين ومكمهن . فحجة العرب واضحة ، نشرت في عشرات المجالات والابحاث ؛ ابرزها وادقها كتاب جورج انطونيوس. غير ان المهم الان ان نسجل على الحسين ان انطلاء الخديعة الانجليزية عليه ، بسبب استئثاره بالموضوع وكتمه عن مستشاريه اصحاب الشأن وقلة درايته بالامور الدولية ، ادى الى تضخم المأساة التي يعيشها العرب ، على صعيد القضية الفلسطينية بشكل خاص ، منذ ١٩٢٠ . حسين مسؤول في المأساة ، بسبب سذاجته وغفلته ، مسؤولية الانجليز في الكذب والاحتيال . لولا السذاجة لما استطاع مكمهن ان يزعم ما كتبه في رسالته الى التايمز في الثالث والعشرين من يوليو ١٩٣٧ «لم اقصد قط ، عندما تعهدت للملك حسين ، ان اضم فلسطين الى المنطقة التي وعد العرب فيها بالاستقلال . . . لدي كل سبب لان اعتقد ان الملك حسين فهم انذاك ان فلسطين لم تكن ضمن تعهدي » . نحن نعلم ان مكمهن يكذب . لكن الحسين مسؤول لانه سكت عن مطاطية التحديدات واتفق مع الانجليز على الثورة قبل ان يحدد الامور تحديدا حاسما .

واخذ العرب على الحسين ، بعد هذا ، انه تنزل عن ارض عربية كبيرة ، عن قصد وتصميم : تنزل عن عدن في اول رسالة — مع ان الاتفاق كان على تأجيل النظر فيها الى ما بعد الحرب . وتنزل عن ولا ية مرسين كلها في رسالته الثالثة بعد ان كان يطالب بتحرير جميع الانحاء السورية ، مع ان الانجليز استثنوا المدينة لوحدها . وتنزل ، في رسالته الرابعة ، عن جبل لبنان ، مؤقتا ، وترك مصير العراق « لعدل بريطانية وحكمتها » !

فهم احرار العرب من تلك التساهلات ان الحسين اكتفى بالوعود التي حصل عليها لشخصه ، وهي خلافة اسلامية وملك عربي ، ولم يعد يهتم كثيرا بحدود هذه الدولة التي ستكون من نصيبه. واكد شكوكهم بوح الحسين للانجليز بمخاوفه من زملائه امراء شبه الجزيرة وشكاويه الدائمة منهم ، حتى حصل في يناير ١٩١٦ على تعهد رسمي بحمايته من اي خطر « حتى لو كان ذلك بشكل فتنة داخلية بسبب حسد الامراء » . في حالة حصول خطر كهذا « تساعده الحكومة ماديا ومعنويا على مقاومة الخطر » . اي ان الحسين حرص على حماية مصالحه من الامراء العرب اكثر مما حرص على استخلاص سورية والعراق من الاطماع الاجنبية . فخاض الحرب الى جانب بريطانية قبل ان يأخذ وعدا صريحا بجعل سورية والعراق ، بحدودهما المعروفة ، جزاين من الدولة العتيدة .

يجاب دائما على لوم الحسين باقتراف هذه الاخطاء بان قلة الخبرة والدراية بالدهاء البريطاني هي مصدر هذه الاخطاء . وهو صحيح الى حد بعيد . ولكن قلة الخبرة لم تكن السبب الوحيد ولا كانت الخطأ الوحيد . فان علاقات الحسين مع الانجليز، كما سنرى في صفحات تالية، تضمنت مساوىء اخرى غير البساطة والسذاجة ، فيها ما يمكن وصفه بسوء النية ، وتعمد اهمال الاهداف القومية لتحقيق مكاسب خاصة . وسنرى ان ابناء الحسين استمروا يتعاونون مع الانجليز ، للانتفاع الخاص ، حتى بعد ان ادركوا الخديعة الانجليزية للعرب عموما وللحسين خصوصا . وسنرى انهم حاولوا تكذيب شكوك الشعب بالانجليز وبنياتهم واعمالهم ووعودهم ، ودافعوا عنهم . وسنرى انهم استمروا يحجبون الحقائق عن الشعب ويموهون عما كان للشعب ملء الحق بان يدركه . يجد المرء ، في تصرفات كهذه، اشياء اخطر من السذاجة .

قبل ان تمضي اربعة اشهر على اخر رسالة تبادلها مكمهن والحسين ، وقبل ان يطلق الحسين رصاصاته الثورية بشهر واحد ، وقع السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو اتفاقية سرية بين حكومتيهما عرفت باسميهما ، في النصف الاول من مايو ١٩١٦ ، بعد مباحثات استمرت اشهرا .

قضت المعاهدة بتقسيم الجانب العربي من الامبراطورية العثمانية في اسية الى عدة مناطق يوضع كل منها تحت نفوذ واحد من البلدين اللذين ابرما الاتفاقية دون استشارة الشعب العربي المعني بالامر ، بل حتى دون اعلامه : منطقة سوداء تشمل فلسطين وتخضع لادارة دولية ، ومنطقة حمراء تشمل البصرة وبغداد وخانقين توضع تحت النفوذ البريطاني ويترك لبريطانية حق ادارتها حسب النظام الذي ترتأي ، ومنطقة زرقاء تشمل ساحل سورية (بيروت وانطاكية والاسكندرونة وكليكية ومرسين واضنة) وما بين كليكية ودجلة الاعلى (مرعش وعينتاب واورفه وديار بكر) توضع تحت النفوذ الفرنسي ويترك لفرنسة حق ادارتها حسب النظام الذي ترتأي ، ومنطقة اخيرة ، ما بين منطقتي النفوذ البريطاني والفرنسي ، تقوم فيها دولة عربية او اتحاد دول عربية ، تتقاسم الدولتان الاوربيتان النفوذ في هذه الدولة العربية ، وتحتكران تنفيذ مشاريعها ومنحها القروض وملء الوظائف وتجهيز الادارة ، على الرغم من استقلالها اسميا . وقد سميت منطقة النفوذ الفرنسي في هذه الدولة بمنطقة « الف » ، وهي تشمل دمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور والرقة والموصل وتمتد الى حدود العراق ـ ايران. وتشمل منطقة النفوذ البريطاني ، منطقة « باء » ، بادية الشام وتكريت وسامرا وكركوك وشرق الاردن وكل ما بين حدود المنطقة الفرنسية وخانقين .

كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو الرابعة في سلسلة اتفاقات عقدها الانجليز والفرنسيون خلال الحرب بالسر عن الشعوب المعنية بالامر وعن الحكومات الاخرى لتقسيم الامبراطورية العثمانية . غير ان الاتفاقات الاخرى تخرج عن نطاق بحثنا لانها لم تتطرق الى القسم العربي من الامبراطورية . ويجب الا ننس ان كلا من الحكومتين كان يتعاقد مع حكومات اخرى على حساب الطرف الاخر ووراء ظهره . سميت الاتفاقية الاولى باتفاقية القسطنطينية (في ١٩١٥/٣/١٨) بين انجلترة وفرنسة وروسية (انضمت ايطالية اليها فيما بعد) ، اعطيت روسية فيها القسطنطينية والمضائق وشواطىء بحر مرمرة مقابل استيلاء بريطانية على ابار النفط في الامبراطورية . وسميت الثانية اتفاقية لندن (في ١٩١٥/٤/٢٦) لاستمالة ايطالية الى جانب الحلفاء مقابل اعطائها قسما من الامبراطورية . اما الاتفاقية الثالثة فقد مهدت للرابعة التي استثني فيها كل من روسية وايطالية . وحصلت ايطالية ، في الاتفاقية الخامسة ، على جزء اخر من السلطنة .

لقد خدعت بريطانية العرب خديعة كبيرة فابرمت اتفاقات معاكسة لاتفاقاتها مع العرب مع حكومات تطمع بارض العرب طمع بريطانية ، لتقسيم الارض نفسها التي وعد العرب بها كنواة لدولتهم الكبرى . لم يطمع الانجليز والفرنسيون بجزء من الوطن العربي بل طمعوا به كله ، وتقاسموه كله ، وقرروا ان يمارسوا « درجات مختلفة من السلطة السياسية فوق البلاد العربية الاسيوية كلها باستثناء الحجاز » كما كتب هنري كمنج في كتاب قيم عن الصراع الفرنسي البريطاني في بلاد العرب (٤) .

يفهم من يقرا رسائل مكمهن الى الحسين ، بعد الاطلاع على بنـــود المعاهدات السرية ، سر تحفظ بريطانية تجاه بعض المناطق التي اعتبرها العرب جزءا لا يتجزأ من دولتهم المرجوة ، كالعراق ، وسر تعمد تخطيط الحدود بثعلبة غريبة ، كحدود فلسطين . فقد حرص الانجليز ان يحتفظوا بالعراق وفلسطين لانفسهم ، وهما البلدان المعدان لاستخراج النفط وتصديره ، مع انهم وعدوا فرنسة بهما من قبل . لكن لويد جورج تمكن من اقناع كلمنصو بالتخلي عنهما في اعقاب الحرب . كما حرص الانجليز على ترك جزء من سورية لفرنسة حتى ترضى باعطائهم العراق وفلسطين . وكانت بريطانية قد اضطرت، عند بدء الحرب ، ان تهادن فرنسة وتمنحها بعض الوعود لاستمالتها ضد الالمان والاتراك . وقد فضح بوانكاريه تلك الوعود في مذكراته عن عهد رئاسته للجمهورية . ولم تكن بريطانية تجهل مصالح فرنسة في الشرق العربي . وكانت قد اعترفت بها على لسان السير ادورد جري .

---

(4) Henry Cumming, Franco-British Rivalry (Oxford, 1938), P. 29.

والمصالح الفرنسية متعددة الجوانب كالبريطانية . فهي اقتصادية في الدرجة الاولى : اموال مستثمرة ، ومكان صالح للمهاجرة ، ومعادن ، ورجال للتجنيد . ثم هي استراتيجية ، لما لفرنسة من مستعمرات في الشرق الاقصى واواسط افريقية ولما لها من غايات في البحر المتوسط وحوضه . وهي ، بعد ذلك ، معنوية ، بقايا تقليد خرافي ابتدعته المخيلة الفرنسية لخداع الدول ثم خدعت نفسها به : اعتبرت فرنسة نفسها وصية على سورية ولبنان منذ عصور قديمة ، منذ ان تكاتب الامبراطور شارلمان مع هارون الرشيد وتهاديا واقاما علاقات غلب الخيال الحقيقة التاريخية فيها ، الى ان غذت فرنسة الحملات الصليبية اواخر القرن الحادي عشر التي اقامت مملكة صليبية في الشرق ١٠٩٩ وكان لها صبغة فرنسية . تبع ذلك نشاط تبشيري قامت به ارساليات كاثوليكية متعددة (الاسيسيون في عكا ومصر منذ ١٢١٩، والكرمليون في دمشق وطرابلس منذ ١٢٢٦ ، والفرنسسكانيون في القدس وبيت لحم منذ ١٢١٩ و ١٣٢٨ ، والكبوشيون في لبنان منذ ١٦٢٧ ، ثم اليسوعيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر) . تمكنت فرنسة ، بفضل هذه الارساليات التي اسست ونشرت الرهبنات والاديرة والمدارس والمطابع ، ان تحصل على ثقة كاثوليك الشرق حتى اعترف لها السلطان بحمايتهم والنطق باسمهم . وحصلت ، مع تلك الحماية ، على امتيازاتها الشهيرة في عهد السلطان سليمان الملقب بالقانوني ١٥٣٦ ثم في عهد سليم الثاني ١٥٦٩ .

استمر نفوذ فرنسة داخل الامبراطورية قويا الى اواخر القرن الثامن عشر حين بدأ النفوذ ينهار بسبب سقوط الملكية ، وهي الحليف التقليدي للسلطنة ، وهجوم نبوليون على مصر ، ودس الانجليز ضد الفرنسيين ، ومنافسة المانية لفرنسة كحامية للنصرانية ، ودعم الحكومة الفرنسية لمحمد علي في حربه مع السلطنة . واستمر هبوط اسهم ذلك النفوذ الى ما بعد ثورة تركية الفتاة ١٩٠٨ . فقد الغى العهد الجديد امتيازات الاقليات ومنع مجال التدخل الاجنبي في شؤون الدولة بحجة حماية الاقليات وساوى بين هذه الاقليات والاغلبية ولو نظريا . وكان العهد الجديد على علاقة متينة مع السياسة البريطانية في بادىء الامر ، ثم اخذ يتجه صوب المانية .

انتقاما لهذا التبدل اخذت فرنسة تحرض الناقمين على السلطنة في البلاد العربية ، وبوجه خاص في لبنان حيث الاكثرية مسيحية . وآزرت المؤتمر العربي القومي الاول الذي انعقد في باريز صيف ١٩١٣ . ولم يخف عدد من شهداء لبنان ١٩١٤ — ١٩١٦ ميولهم نحو فرنسة « الوطن الام » و « الام الحنون » كما كانت تسمى . لا بد ان العدد الضخم من المدارس والارساليات التي اسستها فرنسة في ديار السلطنة ساعدها على تحقيق اتصالاتها بالسكان ، وقد بلغ العدد في السنة ١٩١٤ اكثر من اربعمئة مدرسة

تضم مئة واثني عشر الف طالب وطالبة . وبلغ راسمال فرنسة المستغل في السلطنة تسعمئة مليون فرنك ذهب ، في المصارف والانشاءات وسكك الحديد والموانىء وشركات الكهرباء والمعادن . واعتبرت الفرنسية لغة النخبة الارستقراطية في عموم السلطنة . هذا الى جانب الكنائس ومراكز التبشير التي كانت تمثل قول جمبتا الشهير « ان سياسة فرنسة اللاكنسية ليست بضاعة للتصدير » .

لم يطب لفرنسة ان ترى منافستها الكبرى وجارتها عبر القنال تسيطر على الجانب الاسيوي من الوطن العربي بعد ان سلبتها مناطق اخرى مما كانت تحلم به . فاخذت تحيي منذ ١٩١٢ فكرة استعادة الامجاد الفرنسية في سورية مقابل تنزلها عن مصر لبريطانية ، وكان البلدان قد وصلا الى تفاهمهما المشهور حول شمال افريقية في العام ١٩٠٤ . خطب ريمون بوانكاريه في مجلس النواب قبيل عيد الميلاد ١٩١٢ قائلا « نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا (في سورية) . ونحن عازمون على المحافظة على تقاليد فرنسة الوحيدة في الشرق » . وحرص الرئيس الفرنسي ان يخبر ممثلي الشعب ان بريطانية اعترفت لحكومته بهذه الحقوق « ليس هناك اي سوء تفاهم بين بريطانية العظمى وبيننا حول هذا الامر . لقد صرحت بريطانية العظمى ان ليس لها اي تصميم او طموح سياسي في تلك المنطقة ». وقد قصد بذلك تصريح السير ادورد جري لسفير فرنسة في انجلترة بول جمبو بان « ليس لبريطانية نية ولا رغبة في اتخاذ اي اجراء في الشرق » . وارفق السير ادورد تصريحه برسالة بهذا المعنى بعث بها الى سفيره في باريز في مطلع يناير ١٩١٣ ، قال فيها ان ما يهم حكومته هو ان تحفظ مصالحها في الخليج « الفارسي » ، مما يعني ترك سورية مقابل الاحتفاظ بالعراق . كانت بريطانية ، اذن ، متفاهمة مع فرنسة عند اشتعال نيران الحرب ١٩١٤ على تقسيم البلاد العربية في اسية بينهما وعلى تحقيق ما اعلنه السياسي الفرنسي ليجو في البرلمان عند اعلان الحرب « من الضروري ان تحصل فرنسة على ثاني قطبي محورها في المتوسط ، قطب سورية — لبنان — فلسطين ، بعد ان وقع القطب الاول ، قطب تونس — الجزائر — مراكش ، في يدها » . وكان في البرلمان يومذاك حزب قومي متطرف يعلن عن مطامعه بالشرق بجرأة ويعادي بريطانية الى اقصى حد . ومع هذا حصل التفاهم بين البلدين ، على حساب العرب ، وخاصة في اتفاقية سايكس — بيكو .

يقول لورنس انه اخبر فيصلا بخفايا الاتفاق المذكور وحذره من النوايا البريطانية قبل اذاعة سر الاتفاقية في روسية . ومهما يكن مدى الصدق او الكذب في هذا القول ، الشيء الاكيد هو ان فيصلا علم بالاتفاق وقرأ نصه الكامل قبل نهاية ١٩١٧ . وكان فضحه من النتائج الاولى للثورة الشيوعية

في روسية في اكتوبر ١٩١٧ . فقد عثر العهد الجديد على وثائق الاتفاقات السرية في ملفات وزارة الخارجية القيصرية . ونشرها المسؤولون الجدد في الشهر التالي . فتلقفها الاتراك ونقلوا محتوياتها الى العرب ليروا الخديعة التي اوقعهم بها حلفاؤهم . وقراها جمال باشا على زعماء سورية في مأدبة اقامها لهم في بيروت ، ثم طبعها في صحف بيروت ودمشق ، واصدر عددا خاصا بها من صحيفة « الشرق » التي مولها الاتراك وحررها محمد كرد علي ، في اليوم العشرين من نوفمبر ١٩١٧ . وارسل جمال باشا الخبر في رسالتين الى الامير فيصل وجعفر العسكري ، وكانا يخيمان قرب العقبة ، وعرض عليهما الصلح . فنقل فيصل الخبر والعرض الى والده برقيا .

بدلا من ان يثور الحسين على حلفائه ويغضب لكرامة القضية التي يمثل اكتفى بان ارسل الى المسؤولين الانجليز يستفسر منهم عن حقيقة الامر بواسطة معتمده في مصر ، الفاروقي . فكتب الى كبير هؤلاء المسؤولين في مصر يطلب تفسيره للاتفاقية . ولكن المسؤول لم يعرف بماذا يجيب واستنجد بوزارة الخارجية البريطانية . ولم يتبلغ الحسين الرد الا في يونيو ١٩١٨ ، اي ا نالانجليز تعمدوا التباطؤ قدر الامكان . جاء في الرد ان الاتفاقية ليست معاهدة رسمية ، بل هي مجرد تبادل وجهات النظر ومباحثات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية . اي ان بريطانية تهربت من مواجهة الحقيقة وتعمدت ستر الفضيحة وخدعت الحسين مرة اخرى . وقد اثمرت الخديعة الجديدة : اكتفى ملك الحجاز بذلك الجواب غير المقنع ، وسكت على الموضوع ولم يثره مرة اخرى الا بعد ان انتهت الحرب . وسمح لنفسه ، وهو القيم على القضية العربية ، ان تمر سنة كاملة على الموضوع دون ان يلوم او يعاقب او يهدد او يستنكر . قنع باستفسار كان الرد عليه مهزلة مثل المؤامرة نفسها ، خاصة ان الانجليز ارفقوا الرد بمذكرة شكروه فيها على جهوده لمصلحتهم وحذروه من الاتصال بالاتراك ومن الاصغاء لمشاريع جمال باشا للتفاهم مع العرب ، دون ان يذكروا الاتفاقية وكأنها غير موجودة .

خاف الانجليز ان تنجح المحاولات التي اجراها بعض المسؤولين الاتراك لاستمالة زعامة الثورة العربية الى جانبهم والتفاهم على ايقاف القتال . ضغطوا ، لذلك ، على الحسين وفيصل ومنعوهما من مواصلة المباحثات التي مهد الاتراك لها اواخر ١٩١٧ . وموضوع هذه المباحثات متشعب ومبهم وعويص وخارج نسبيا عن نطاق بحثنا. وهناك اكثر من راي بالموضوع. فمن اقوال لورنس ، في رسالة توضيحية بعث بها الى لدل هارت ، مؤرخه الشهير ، ومن اقوال المارشال ليمن فون ساندرس ، القائد العام للجيوش الالمانية في الجبهة العربية ، وفون بابن ، الدبلوماسي الالماني ، ان فيصلا هو الذي عرض الصلح على الاتراك كشرط ان يعترفوا باستقلال العرب . ويقول

الالمانيان المذكوران انهما حاولا اقناع انور باشا بقبول العرض الا انه رفض ففشل المشروع . ولكن هذا المسعى كان صيف ١٩١٨ ، بعد نشر فضيحة سايكس ــ بيكو . وكان جمال باشا قد كتب الى فيصل في الموضوع من قبل، منذ نوفمبر وديسمبر ١٩١٧ ، يحثه على الصلح ويحرضه ضد الحلفاء الذين فضحت الثورة الشيوعية مؤامرتهم على العرب . وقيل ان جمال باشا كان يحلم بالتفاهم مع العرب لينصب ملكا عليهم مقابل استقلالهم عن تركية ، وانه اتصل بروسية وباحثها في الامر منذ يناير ١٩١٦ ، وانه لهذا السبب لم يكرم وفادة الشريف علي حيدر الذي عينه الاتراك مكان الشريف حسين خوفا من ان يعطل ذهابه الى مكة مشروعه الخاص . واحييت مشاريع جمال في صيف ١٩١٧ وخريفه بعد ان اشتد خلافه مع القيادة الالمانية في سورية ، ثم مع انور باشا نفسه ، وهو خلاف حمله على تقديم استقالته من قيادة الجيش التركي في سورية اكثر من مرة . وفي الوقت نفسه كانت هناك اتصالات سرية اخرى تقوم بين الاتراك ووفد بريطاني تراسه السير فلب كير اواخر العام ١٩١٧ في سويسره .

مهما كان رد فعل فيصل تجاه المحاولات التي اسهم فيها اميران جزائريان من اسرة عبد القادر الشهير ، فان الانجليز قطعوا المجال امامه بان ضغطوا على والده فارسل اليه يحذره من الاتصال بالاتراك او الالمان ويؤكد عليه ان شرفه العربي يمنعه من التخلي عن حلفائه وسط المعركة ــ مع ان شرف المسؤولين البريطانيين لم يمنعهم من التخلي عن العرب عدة مرات . فاعرض فيصل عن التفاوض مع الاتراك عدة اشهر ، بالرغم من محاولات احمد جمال باشا ، ثم مصطفى كمال (اتا تورك فيما بعد ، وكان انذاك من القادة الاتراك بفلسطين) ثم محمد جمال باشا ، الملقب بالصغير . وارضى الانجليز بذلك ، مع انه علم ان الانجليز تفاوضوا مع الاتراك من وراء ظهره ، وعلم باتفاقية سايكس ــ بيكو .

والحقيقة ان الهاشميين علموا بالاتفاقية المذكورة من قبل ان يفضحها الروس وجمال باشا بنصف سنة ، اي منذ اواسط ١٩١٧ . ففي شهر مايو من تلك السنة زار جدة بطلا الاتفاقية ، سايكس وبيكو ، كل منهما على راس وفد حكومي يمثل بلاده . واجتمعا مع الحسين مطولا . وزعما فيما بعد انهما لم يخفيا حقيقة الاتفاقية بينهما عن مضيفهما ، وانه رضي ولم يستنكر . قد يكذب الرجلان لصالح بلديهما ولتبرير مؤامرتهما . الا ان الشيء الاكيد هو ان الحسين علم بالاتفاقية بسبب تلك الزيارة عن طريق اخر لا شك فيه . فقد مر السياسيان المذكوران بمصر وهما في طريقهما الى جدة ، ابريل ١٩١٧ وخطب ثانيهما في جمع من السوريين في القاهرة واعلن ان الحلفاء اختاروا فرنسة وصية على سورية واعترفوا بامتيازاتها في الشرق . فاسرع محمد

شريف الفاروقي بنقل الخبر الى الحسين . وضمن رسالته ترجمة حرفية لكلمات الوزير الفرنسي . وقال ان سايكس وافق على كلام زميله واعلن بصراحة ان جزءا فقط من سورية سينال استقلاله . ولا تزال نسخة من هذه الرسالة الخطيرة التي وقعها صاحبها في السابع والعشرين من ابريل ١٩١٧ محفوظة في جامعة ييل الاميركية مع اوراق تعرف بمجموعة اوراق ييل نسبة الى صاحبها ، وقد نشر جزءا منها الكاتب الصهيوني العراقي الاصل الي خدوري في كتابه « انجلترة والشرق الاوسط » (٥) .

نفهم من تلك الرسالة ان الحسين علم بالمؤامرة البريطانية ــ الفرنسية قبل ان تمضي سنة على توقيع الاتفاقية بشكل لا يرقى الشك اليه . ومع هذا فانه لم يغضب مثلما كان يغضب من مضايقات الامراء العرب له ، مثلا . ولم يحتج ولم ينتقم مثلما كان يحتج على « تطرف » امراء العرب وينتقم منهم . بل انه ، اكثر من ذلك ، نهى معتمده في مصر عن التحدث في الموضوع والاحتجاج عليه . وحذره من تناول موضوع مصير سورية بشكل عام ، ومن استنكار المصالح الفرنسية ، لان فرنسة حليفة بريطانية « الحليفة الكبرى » . وحجته ، كما قال ، هي ان العرب سيصلون الى غاياتهم في الوقت المناسب ، فلماذا التسرع ؟

وقد وصل سايكس وبيكو الى جدة في مايو ١٩١٧ ليشرحا للحسين الاتفاقية . وزعما له ان اتفاقيتهما لا تتعارض مع اتفاقية مكمهن معه . فاقتنع حسين بكلامهما لدرجة ان فيصلا دهش من تساهل والده واخذ يبكي امام ضيوفه الاجانب حسب رواية الكولونيل نيوكمب الذي رافق سايكس في رحلته (٦) .

خشي الحسين ان يتناقل احرار العرب خبر المؤامرة ويتخذوا من الحلفاء موقفا معينا يناقض مخططه بالسير مع الحلفاء حتى نهاية الشوط . لذلك اراد من تحذيره لموفده في مصر ، في برقية له في الحادي عشر من اغسطس ١٩١٧ ، ان يسكت ايضا القوميين المقيمين في مصر ، وجلهم من السوريين الناقمين على طمع فرنسة في بلادهم ، الذين اثارهم خطاب بيكو وتعليق سايكس فاخذوا ينتقدون سياسة مراضاة الحلفاء ويطالبون بتعديل موقف الحركة العربية من اولئك المزعومين حلفاء . وبلغ من خيبتهم ان تألف وفد منهم ، برئاسة رفيق العظم ، واتصل بالحسين وطالب بان يطلع على اسرار مباحثاته مع ضيفيه ، وعلى ما سبق من كتابات مع كتشنر ومكمهن وستورز ، حتى يحددوا موقفهم من الانجليز على ضوء تلك المباحثات .

---

(5) Elie Kedourie, England and the Middle East (Cambridge, 1956).
(6) John Bowle, Viscount Samuel (London, 1957) P. 182.

تلا نفور القوميين من الحسين وضغطهم عليه حادث فضح الاتفاقية السرية في جريدة المانشستر جاردين في يناير ١٩١٨ ، وترجمة ما جاء فيها في صحف مصر ونشره بشكل بارز . اصبح موضوع الاتفاقية حديث الجميع ولم يعد بامكان الحسين ان يستمر في التجاهل والتهدئة . فكتب انذاك استفساره البسيط المسالم الى ونجيت في مصر . وقد اشرت اليه قبل قليل .

وبالرغم من الضغط الوطني ظل الحسين حتى اللحظة الاخيرة من الحرب يفاخر بولائه للانجليز وبثقته بهم . وكتب الى نائب ملك بريطانية في مصر ، صيف ١٩١٨ ، يؤكد ان ولاءه واخلاصه لبريطانية لا يتبدلان مهما حصل ولهذا قال لويد جورج في مذكراته ان فضح اتفاقية سايكس ـ بيكو ازعج الايطاليين والعرب . وبينما احتج الايطاليون بشدة حتى اضطر الانجليز ان يرضوهم اكتفى زعيم العرب ، الحسين ، باحتجاج بسيط خال من اي تشديد، وكان احتجاجا فاشلا (٧) .

لم يجار عدد كبير من احرار العرب الحسين في موقفه . ادركوا الخديعة ورفضوا ان تنطلي الوعود عليهم ثانية . وحكموا على الحسين بانه اتفق مع الانجليز والفرنسيين لتقسيم البلاد العربية واستعبادها ، عكس ما كانوا قد اتفقوا عليه . وحملت الانباء ما دعم مخاوفهم . علموا ان الحسين امتنع ، عن قصد ، عن نشر خبر الاتفاقية في جريدته ، « القبلة » . لم تنشر الخبر الا في اواسط يونيو ١٩١٨ ، بعد ان علم الناس به من مصادر اخرى . واخبرهم احد زملائهم ، وكان مرافقا لفيصل ، انه قرأ رسالة بعث بها الملك الى ابنه يعترف فيها بتلك المشاريع المشبوهة مقابل عهود واغراءات مالية دفعت له . روى هذا الخبر شاهد عيان ، الشيخ رشيد رضا ، في مجلة المنار ، سنة ١٩٢١ (٨) .

انبثق عن تلك المخاوف تكتل بين السوريين الوطنيين تكون كنواة لحزب يستخلص القضية العربية من ايدي الهاشميين ويلاحقها في الاوساط المسؤولة بمعزل عنهم ، اذ لم تعد لهؤلاء الوطنيين ثقة بالبيت المتزعم . وكانوا من الموالين لحسين من قبل ، ولكنهم انفصلوا عنه خلال الثورة احتجاجا على اساليبه في العمل واستبداده في الراي وتفريطه في الحقوق العربية . وتحول التكتل الى حزب رسمي في اواخر ١٩١٨ باسم « حزب الوحدة السورية » . ولكنه كان في الواقع يعمل قبل ذلك التاريخ . من بين اعماله انه شكل لجنة

---

(7) David Lloyd George, Memoirs of the Peace Conference Vol. 2, P. 663-664.

(٨) مجلة المنار (القاهرة) ، العدد ٢٢ ، ص ٤٥٢ .

من سبعة اشخاص عرفت بلجنة السبعة لمتابعة القضية والنظر في الامور السياسية ريثما يتألف الحزب . والرجال السبعة هم فوزي البكري وخالد الحكيم وحسن حماده وعبد الرحمن شهبندر ومختار الصلح ورفيق العظم وكامل القصاب ، وكلهم پيوريون معروفون اقاموا بمصر .

بدأ الوفد نشاطه بعريضة رفعها الى « المكتب العربي » (اي قسم الشؤون العربية في دار المعتمد البريطاني بمصر) للاستفهام عن مصير البلاد العربية بعد الحرب التي كانت قد قاربت نهايتها وعرفت نتيجتها تقريبا . وطلبوا احالة العريضة الى وزارة الخارجية او الحربية . ولمحوا في العريضة الى انفصالهم عن الحسين والى وجوب فصل مخططهم لسورية عن الحكم الهاشمي في الحجاز . واعربوا عن ايمان غالبية العرب بان اجراءات ما بعد الحرب يجب ان تتفق مع مبدئي الاستقلال والوحدة .

وصل جواب وزارة الخارجية البريطانية في يونيو ١٩١٨ ، وتلاه على لجنة السبعة رئيس المكتب العربي ، الدكتور هجارث . وقد تضمن وعدا قاطعا باستقلال المناطق العربية التي كانت مستقلة من قبل (اي في شبه الجزيرة) وسيادتها . اما المناطق العربية الاسيوية التي احتلها الحلفاء او سيحتلونها قبل نهاية الحرب فان الحكم عليها سينبثق عن رغبة الشعب ورضاه . وزيادة في التوكيد اعقب الانجليز هذا التصريح ببيان مشترك عن حكومتي بريطانية وفرنسة ، صدر في السابع من نوفمبر ١٩١٨ ، تعهد بتأسيس حكومات عربية مستقلة وادارات محلية في سورية والعراق تستمد سلطاتها من الشعب .

وجدير بالذكر ان السياسيين السبعة اخفوا اسماءهم لا خوفا من تركية اذ كانوا في معزل عنها بل خوفا من الحسين الذي منع احرار العرب من ملاحقة القضايا القومية وحصرها كلها في يديه . واسهم فيصل ولورنس في تعميم هذا المنع . فحظرا على ضباط الجيش العربي ، من رجال الاحزاب المعارضة للاتراك ، التحدث في مصير بلادهم ، بعد ان بلغ من خوف اولئك الضباط من المؤامرات البريطانية ان سألوا فيصلا ولورنس عن حقيقة الشائعات التي رددت خبر اتفاقية سايكس ــ بيكو .

والواقع ان وطنيين كثيرين سكتوا عن احتكار الحسين للقضية ومساوىء حكمه وقيادته وتقيدوا بتعليماته الى ان حملت صحف شهر نوفمبر ١٩١٧ خبر الوعد الذي اصدره وزير الخارجية البريطانية لليهود بتأسيس وطن قومي لهم في فلسطين . صدر وعد بلفر هذا واذيع قبل فضح اتفاقية سايكس ــ بيكو رسميا بايام قليلة . وكانت الرقابة البريطانية قد حاولت

كتم الخبر الا ان مصادر الدعاوة الالمانية والتركية نشرته وعممته في نوفمبر وديسمبر ١٩١٧ ، كما ان « المقطم » تجرأ ونشره في التاسع من نوفمبر ١٩١٧ .

كان اثر هذا التعهد غير الشرعي ، الباطل من اساسه ، في الاوساط الوطنية مؤلما جدا . لم يتوقع الوطنيون ان يغدر الانجليز بهم بهذا الشكل اللئيم ، وان كانوا قد ارتابوا بالانجليز منذ البدء ، وخاصة منذ ان تبنى سايكس اقوال بيكو في مصر في ابريل من تلك السنة . وكان رد الفعل الاول ان اتصل اولئك الوطنيون (السوريون المقيمون في مصر) بمندوب الحسين وحملوه رسالة الى سيده يناشدونه ان يقف من الموضوع موقفا وطنيا حاسما . وحسبما تكشف عنه مجموعة اوراق ييل رد مندوب الحسين عليهم انه سبق لسيده ان تفاهم حول الموضوع مع الانجليز . فارتابوا في الامر وانتدبوا موفدا عنهم الى الحجاز لمقابلة الملك شخصيا . ونجح الموفد بان استحصل على مذكرة استفسار جديدة بعث بها الحسين الى المسؤولين البريطانيين . فذهب رئيس المكتب العربي ، هجارث ، الى جدة وقابل الحسين في يناير ١٩١٨ لتوضيح المسألة له .

اكد هجارث للحسين ان الوعد لا يعرض العرب لحكم اليهود قط . واخذ يصور له حسنات وهمية يجنيها العرب من تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين : منها ان صداقة الصهيونيين للعرب تتيح للهاشميين صداقة دول كثيرة تخضع للنفوذ الصهيوني ، وان يهود اوربة واميركة سيهاجرون الى فلسطين وهم يحملون ثرواتهم لاستغلالها في البلاد واشراك العرب بارباحها . وقد يتذكر القارىء ان هذا المنطق استعمله بالمرستن مع السلطان العثماني بواسطة سفيره في القسطنطينية في ١٨٣٩ — ١٨٤٠ ، كما مر بنا . واذا كنا نصدق هجارث ، وليس لدينا مصدر رسمي غيره عن تفاصيل تلك الرحلة ، فان الحسين **« ابدى استعداده التام لقبول الفكرة ووافق عليها بحماس قائلا انه يرحب باليهود في كل البلاد العربية »** . لكن هجارث لم يكتم سخريته من حماس الحسين . وقال ان عميد الهاشميين وافق على مشروعه « دون ان يعرف شيئا عن واقع فلسطين الاقتصادي » (٩) .

ومما يدعونا الى تصديق ما رواه هجارث ان حسين نفسه كتب مقالا في جريدة « القبلة » ، بعد زيارة ضيفه البريطاني بوقت قصير ، يمدح فيه الهجرة اليهودية الى فلسطين ويشيد باثرها في تطوير البلاد ويعلن تشجيعه لها (١٠) . ولم يجد الحسين في مقاله فرقا بين اليهود والصهيونيين ، ولم يجد

---

(9) Leonard Stein, The Balfour Declaration, P. 633.

(١٠) جريدة القبلة (مكة) عدد ١٨٣ في ٢٣ مارس ١٩١٨ .

الصهيونية الا « حركة سامية » لا اعتراض عليها .

ربما كانت هناك اتصالات اخرى من قبل ذلك التاريخ ، او ان البريطانيين كانوا قد سبروا غور العائلة الهاشمية وادركوا ، بطريق او باخر ، استعدادها للسكوت عن وعد بلفر . فمن قبل صدور الوعد بتسعة اشهر اعلن السير مارك سايكس ، في اجتماع عقده في بيت الدكتور جاستر ، الزعيم الصهيوني ، في لندن في منتصف فبراير ١٩١٧ مع الدكتور وايزمان ورفاق له ، ان العرب سيقبلون بالاتفاق مع الصهيونيين ما دامت الاسرة الهاشمية تتزعم الحركة العربية . وقال سايكس انه يضع املا كبيرا على الامير فيصل بالذات، وكان نجمه لم يبدأ بالاشعاع بعد. يعني هذا ان المخطط البريطاني ـ الصهيوني قضى بتزعيم فيصل على العرب كتمهيد لاخضاع العرب للمشروع الصهيوني (١١). وهو ما حصل بالفعل في السنوات التالية .

والواقع ان ما ذكره سايكس كان حلما راود مخيلته باكثر من شكل الى ان مات شابا ، في فبراير ١٩١٩ . كان يعتقد ان مستقبل الشرق يرتبط بتفاهم العرب مع الصهيونيين . وكان شعاره **« ان هناك مكانا للقومية العربية والصهيونية معا في فلسطين »** . لذلك اسهم في اصدار وعد بلفر . وكان قد قدم مشروعا الى اللورد روبرت سسل حول مصير الشرق الادنى بعد الحرب، قبل صدور الوعد بعشرة ايام . وقد تألف المشروع من مادتين (١٢) : «تشجيع المدنية العربية وانهاضها وتعهد الوحدة العربية وتهيئة العرب للاستقلال التام . . . وتعهد الحركة الصهيونية ، العملية الحكيمة ، وتطويرها » . ونقل الرجل امانيه الى الشرق . حدث الملك حسين بها عند زيارته في اواسط ١٩١٧ . ثم خطب ، في زيارة اخرى للوطن العربي قبل وفاته بشهر ، يدعو العرب والصهيونيين الى التعاون ، من على منابر حلب ودمشق. وكان سايكس يفاخر بعواطفه الصهيونية وباشتراكه في وضع وعد بلفر ، مفاخرته في انه هو الذي صمم علم الثورة العربية المثلث الالوان . وهناك دراسة مطولة عن نشاطه الرسمي في خدمة الصهيونية خلال الحرب (١٣) .

افترض حلم سايكس ان يكون للحركة القومية العربية زعامة « معتدلة » تربط بين اهداف الحركة والاطماع الصهيونية . لذلك وضعت الامال على فيصل منذ ان استبشر لورنس به خيرا وراح يقدمه على ابيه واخوانه وسلط الانوار عليه . ونتيجة لذلك اعد المسؤولون البريطانيون في القاهرة مشروع

---

(١١) يروي الدكتور وايزمن قصة الاجتماع في ص ١٩٠ من كتابه : Trial and Error.

(12) Shane Leslie, Mark Sykes (London, 1923) P. 272-275.

(13) Christopher Sykes, Two Studies in Virtue (London, 1935).

لقاء بين وايزمن وفيصل ، هو الاول من نوعه بين زعماء الحركتين المتناقضتين ، ليسهم الجمع بينهما في تحقيق الحلم ويسهل على بريطانية تحقيق وعد بلفر ، بعد ان نجح هجارث في الحصول على تأييد من الحسين في مطلع ١٩١٨ . وكان وايزمن قد جاء الى فلسطين في ربيع تلك السنة على راس لجنة صهيونية ـ بريطانية خولتها الحكومة البريطانية درس مستقبل العلاقات بين اليهود وسلطات الاحتلال في فلسطين ، وعهدت اليها بتقوية تلك العلاقات وتنظيم شؤون يهود فلسطين وتأسيس مستعمرات جديدة . وكانت تلك اللجنة تمثل صهيونيي العالم . واشترك فيها اربعة من كبار الصهيونيين ومراقبان رسميان احدهما يهودي صهيوني (جيمس روتشلد) والاخر ضابط شبه مستعرب اصبح فيما بعد وزيرا للمستعمرات ، الميجور اورمسبي جور (اللورد هارلش فيما بعد) .

غادرت اللجنة لندن ، بعد ان قابلت الملك جورج الخامس ، ووصلت القدس في اوائل ابريل ١٩١٨ . وعملت في الاسابيع الاولى من اقامتها في فلسطين في تركيز وضعها بين يهود فلسطين وفي تأسيس شبه حكومة ودوائر رسمية وسفارات وشرطة وجيش وميزانية . وقد حاولت ، بعد ان انتهت من تلك الاعمال ، ان تقنع زعماء فلسطين بالتعاون معها . ولكنها فشلت وصدها اغلب الزعماء ، بالرغم من جهود رنلد ستورز . عند ذاك رتب الجنرال النبي ، القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين ، امر الجمع بين رئيس اللجنة وفيصل . وكان فيصل يقيم مع جنوده في جوار العقبة ، قبيل بدء الهجوم العام على الشمال . وكان والده قد اخبره بمضمون مباحثاته مع هجارث ، وطمأنه الى « حسنات » وعد بلفر ومزاياه . وقد ذكر فيصل فيما بعد ، في حديث اجراه مع صديقته السيدة ارسكن ، ان والده ارسل يأمره بان لا يهتم بقصة الوعد ، وان يتابع عمله في خدمة البريطانيين ، والا فهو « خائن » بنظر ابيه .

ذهب وايزمن الى العقبة عن طريق وادي موسى وبرفقته (الميجر) اورمسبي جور الذي مرض (ولعله تمارض) على الطريق فتخلف عن متابعة الرحلة . وجرى الاجتماع بين فيصل ووايزمن في الرابع من يونيو ١٩١٨ ، بحضور رجل ثالث فقط : الكولونيل جويس، الذي تولى الترجمة بين الزعيمين وقد سجل كل من الكولونيل ووايزمن ذكرياته عن الاجتماع ، الاول في مقال في « النشرة العربية » والثاني في مذكراته « التجربة والخطأ » (١٤) . اما فيصل فانه لم يدون شيئا ، او لعله احتفظ لنفسه بما دون .

---

(١٤) مجلة Arab Bulletin عدد ١٨ يونيو ١٩١٨ ، وكتاب
Chaim Weizmann, Trial and Error, P. 234-236.

يقول وايزمن انه شرح لفيصل المطاليب الصهيونية . ولا بد انه زين النتائج التي زعم انها ستتأتى عن تحقيق تلك المطاليب كما فعل بالمرستن وهجارث وسايكس في اوقات مختلفة من قبل . ويقول ان فيصلا كان مطلعا على القضية وعلى تلك المطاليب مسبقا وانه كان ، بعد مباحثات ساعتين فقط، « متفقا معه تمام الاتفاق » ، الا ان فيصلا ذكر له انه لا بد من عرض الامر على ابيه . ويقول وايزمن ايضا ان لورنس اكد له فيما بعد ان فيصلا وافق على المشروع الصهيوني . وجدير بالذكر ان لورنس كان في العقبة ولم يحضر الاجتماع .

اما جويس فيذكر ان فيصلا ، بعد ان استمع الى وايزمن وهو يؤكد ان غرض الصهيونيين لا يتعدى « استعمار فلسطين وتطويرها » ، رد عليه بان مشروعه « ليس مستحيلا » ولكنه اعتذر بانه لا يستطيع ان يتبناه تماما خوفا من ان يستغل موقفه ضده .

مهما تكن صحة هذه الاقوال ، يثبت تعليق وايزمن على الاجتماع ، وما تبعه من احداث ، على ان « تفاهما » ما حصل بين الرجلين . كتب الزعيم الصهيوني يقول « ان الاجتماع الصحراوي الاول **وضع اسس صداقة طويلة بيننا** . لقد قابلت الامير عدة مرات بعد ذلك في اوربة . وتجسدت مفاوضاتنا باتفاق وضعه الكولونيل لورنس ووقعه الامير بنفسه . . . هكذا وصل (فيصل) الى **تفاهم تام** معنا . لا شك انه كان سينفذ هذا التفاهم لو كان مصيره كما كنا نأمل . **ولكن ، لسوء الحظ ولاسباب خارجة عن طاقته ، لم يستطع تحقيق اماله . . .** » . اذن فوايزمن حزين على مصير الهاشميين لان سقوط فيصل عن عرش دمشق حرم الصهيونيين من خدماته كما كانوا يرجون . ولم ينس وايزمن ان يمتدح جهود لورنس في ابرام هذا التفاهم . وقال عنه « كانت علاقاته بالحركة الصهيونية ايجابية بالرغم من تأييده للعرب . ومن الخطأ ان يوصف بانه عدو للصهيونية . كان رايه مثل رأي فيصل بان اليهود سيساعدون العرب وان العالم العربي سيغنم الكثير من وطن قومي يهودي في فلسطين . . . » .

كانت الرحلة ناجحة بالنسبة الى وايزمن ، وان لم ينبثق عن الاجتماع اتفاق رسمي خطي . فان ما اراده الزعيم الصهيوني من اجتماعه بفيصل هو ان يتعرف على الامير الهاشمي الذي اعده البريطانيون صديقا له ولهم وزعيما على العرب في الوقت نفسه ، وان يجس نبضه ويفحص استعداداته للتفاهم مع الصهيونيين كما فعل والده. لذلك عاد وايزمن الى القدس مرتاحا. ووضع في الاسبوع نفسه حجر الاساس للجامعة العبرية . وبذلك حققت الرحلة « للدولة » العتيدة ارساء اكثر من قاعدة اساسية .

اما الذي لم يرتح وايزمن له فهو موقف الشعب العربي بوجه عام . فبالرغم من سلسلة المباحثات التي اجرتها اللجنة الصهيونية مع زعماء فلسطين والتي حاول الصهيونيون خلالها ان يوهموا العرب بان لا خطر عليهم من الهجرة اليهودية ، وقف الشعب وزعماؤه ضد فكرة التفاهم والمهادنة مع الصهيونيين . واكثر ما اخاف وايزمن هو ان يتأثر البريطانيون برد الفعل العربي ويتراجعوا عن تعهداتهم للصهيونيين. وكانت التقارير قد بدأت ترد على الحكومة البريطانية من مبعوثيها في البلاد العربية عن صلابة موقف الشعب العربي ضد وعد بلفر ، وهي تقارير انصفت الحقيقة الى حد بعيد ، مما جعل الحكومة تعزل عددا من اصحابها ، ثم جعلتها تستبدل نظام الحكم باكمله ، فتلغي الادارة العسكرية الموجودة انذاك وتضع مكانها ادارة مدنية يتراسها يهودي صهيوني . وكان هذا الرجل ، هربرت صميول ، قد تزعم الحملة على الجنرال كليتن ورفاقه ممن حاولوا حمل الحكومة على سحب وعد بلفر .

اخذ وايزمن يطالب ، بعد عودته الى لندن ، بان تصدر الحكومة تاكيدا جديدا لوعد بلفر ، ليقطع الطريق على محاولات اخصام الصهيونيين ومعارضي الوعد . ولكن بلفر وجد له حلا اخر : ان يتصل وايزمن بفيصل ثانية ، ليحصل منه على اتفاق يسكت المعارضة الوطنية العربية .وينفع الصهيونية اكثر مما سينفعها اي تصريح بريطاني جديد . وكان بلفر يرى في اجتماع الامير الهاشمي مع وايزمن منافع اخرى للحلف البريطاني — الصهيوني .

ذلك ان اللجنة الاستشارية (الصهيونية) لفلسطين اصدرت في السادس من نوفمبر ١٩١٨ مذكرة تحدد الوطن القومي اليهودي بنهر الليطاني في الشمال ، ومنه خط الى بانياس فمنابع نهر الاردن فحدود مدينة دمشق الى غرب خط سكة حديد الحجاز . وتحدد شرقا بخط السكة المذكور ، وجنوبا بخط من العقبة الى العريش . اي ان اللجنة رفضت حدود فلسطين التي وضعتها سلطات الاحتلال البريطانية وطالبت بتوسيعها في اكثر من جهة . وقامت حملة قوية لتأييد المطلب الصهيوني في اوربة واميركة . وخشي المسؤولون البريطانيون ان يثير ذلك العرب من جديد . ففكروا في ان جمع فيصل ووايزمن قد يساعد على حل المشكلة بينهما ، خاصة ان فيصلا كان يمني نفسه بحكم جزء من الارض التي طالب اليهود بها .

وكان بلفر قد تلقى تقريرا من لورنس في اواخر نوفمبر ١٩١٨ يخبره فيه ان فيصلا يرضى بالهجرة الصهيونية الى فلسطين مع ان الراي العربي العام يعارضها . دعم هذا التقرير الذي كتبه اقرب الناس الى فيصل في

ذلك الحين ما اعتقده بلفر وسايكس من سهولة تفاهم فيصل مع الصهيونيين وامكان قبول الامير الهاشمي بما كان الزعماء العرب يرفضونه . وقد ادرك بلفر تمسك فيصل بحكم سورية لدرجة انه ابدى استعداده للتنزل عن حكم فلسطين مقابل تأكيد حكمه هناك . كما ادرك بلفر ان الكلام في « حسنات » الهجرة الصهيونية يطمع فيصلا بمساعدة له من الصهيونيين ضد اطماع فرنسة في سورية نفسها . وقد انطلت الحيلة على فيصل ، وصدق فيما بعد ان الصهيونيين يريدونه ملكا على سورية ، واتفق واياهم على هذا الاساس. لذلك كتب ارك فوربس ـ آدم في اليوم الاخير من ١٩١٩ « ان فيصلا ومؤيديه ينظرون الى الصهيونية كعون بالرجال والمال في وجه فرنسة ، مع ان بعض حاشيته يكره الصهيونية » . وكان كيرزن قد الح ، قبل اسبوع فقط ، في اجتماع عقده مع بعض المسؤولين الفرنسيين ، الى امكان تفاهم فيصل مع الصهيونيين . هذا مع ان الصهيونيين كانوا في الحقيقة يميلون الى تسليم سورية ولبنان للحكم الفرنسي ليتقربوا من الفرنسيين ويسهموا في عرقلة الوحدة العربية ويزيدوا في ضعف الكيان العربي ، خاصة ان سورية هي قلب العروبة ولبنان هو دماغها . ولم يتأخر الصهيونيون ، في الوقت نفسه ، عن تأييد استقلال الحجاز واليمن ، حيث لا اطماع اوربية هناك ولا خوف مباشر على الاماني الصهيونية . وكتاب الزعيم الصهيوني المتطرف جبوتنسكي « تركية والحرب » مثال على ذلك التفكير (١٥) .

عقد فيصل ووايزمن سلسلة اجتماعات في لندن في شهر ديسمبر ١٩١٨ . وكان فيصل يمر ببريطانية في طريقه الى مؤتمر الصلح في باريز . ونحن نضطر ، كالعادة ، الى ان نستقي اخبار ما جرى في تلك الاجتماعات من كتابات المسؤولين البريطانيين والصهيونيين ، لان فيصلا لم يسجل شيئا عن مباحثاته ، او انه لم ينشر ما سجل. ولكننا نستطيع ان نتأكد ان الاجتماعات كانت « ودية » وان المباحثات بين الطرفين كانت « ايجابية » من مصدرين فيصليين ، من رسالة بعث بها الامير الهاشمي الى هربرت صميول في العاشر من ديسمبر ١٩١٨ ، ومن تصريح ادلى به الى وكالة رويتر الاخبارية فاذاعته في اليوم الثاني عشر من ذلك الشهر .

اخبر فيصل صديقه اليهودي الصهيوني في رسالته انه توصل الى « **تفاهم كامل** » مع وايزمن حول مسألة فلسطين . اما تصريحه الصحفي فقد مدح الحركة الصهيونية واهدافها . وقال فيه ما ترجمته بالحرف الواحد « **اني آمل ان تحقق كل من الامتين (العربية واليهودية) تقدما ملموسا نحو امانيها وامالها . ان العرب لا يحملون ضغينة ضد اليهود الصهيونيين . بل**

---

(15) Vladimir Jabotinisky, Turkey and the War (London, 1917), Ch. 12-13.

هم ينوون ان **يسمحوا لهم بالعمل** . اما التحاسد بين سكان المستعمرات اليهودية والمزارعين المحليين (اي العرب) فقد اثارته الفتن التركية . ولكن **التفهم المتبادل** لاهداف العرب واليهود سيقضي على اخر اثار هذا العداء الذي زال بالفعل قبل الحرب بفضل عمل اللجنة العربية الثورية السرية » . نتيجة لهذا التصريح اقام اللورد روتشلد حفلة عشاء على شرف فيصل ، تخللها خطاب فيصلي جديد عن **الاهداف المشتركة** بينه وبين الصهيونيين وهم **«حملة حضارة اوربة الى الشرق »** كما قال (١٦) .

اما شاهد الاثبات الرئيسي على تساهل فيصل في تلك الاجتماعات فهو في الاتفاقية الشهيرة جدا التي عقدها فيصل مع وايزمن في احد ايام الاسبوع الاول من ١٩١٩ ، بعد مباحثاتهما الطويلة . وكان اهم ما قبل به فيصل في تلك الاتفاقية : اولا ، تأسيس كيان فلسطيني منفصل عن الدولة العربية في سورية (مادة ١) . وذلك بالطبع ، خروج على مقررات المؤتمرات الوطنية في فلسطين وسورية وتفريط بمبدأ الوحدة . وثانيا ، تقوم الدولة الفلسطينية « بكل التدابير لتحقيق وعد الحكومة البريطانية في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ في دستورها وادارتها » (مادة ٣) . وهو تبن كامل لوعد بلفر الذي رفضه العرب . وثالثا ، « اخذ كل الاجراءات الضرورية لتعهد هجرة اليهود الى فلسطين على نطاق واسع وتشجيعها باسرع وقت ممكن ليستقر المهاجرون الجدد في البلاد » (مادة ٤). وهو قبول بالهجرة التي رفضها عرب فلسطين. ورابعا ، مع ان الاتفاقية نصت على الا يتم استعمار اليهود لارض فلسطين على حساب المصلحة العربية عهدت الى الصهيونيين بان يقرروا هم ذلك وبان يرسلوا لجنة لدرس اوضاع فلسطين وامكاناتها ومدى استثمارها « لصالح العرب واليهود » (مادة ٧). وخامسا ، جعلت بريطانية ، صاحبة وعد بلفر ، هي الحكم في حال نشوب خلاف بين الطرفين (مادة ٩).

حاول فيصل، فيما بعد ، الدفاع عن نفسه وتعليل توقيعه على هذه الوثيقة التي طعنت القضية العربية خمس طعنات نجلاء على الاقل . فقال انه اضاف الى بنود تلك الاتفاقية شرطا لتنفيذها (اضافه بانه كتبه بخط يده) وهو ان على بريطانية ان تحقق للعرب وحدتهم واستقلالهم قبل ان يقبل العرب بالاتفاقية والا فهي لاغية . الا ان هذا التبرير لا يلغي مسؤولية فيصل. فان مجرد تجزئة القضية العربية والوطن العربي والتساهل في جانب منهما لصالح جانب اخر هو كفر كامل بالايمان القومي مثل التفريط بالوطن كله والقضية كلها . ثم ان اشتراط فيصل المذكور يتناقض بطبيعته مع بنود الاتفاقية . اذ كيف تحقق بريطانية وحدة العرب واستقلالهم وفيصل يسمح

---

(16) M. Pearlmann, Chapters of Arab Jewish Diplomacy (New York, 1944).

باخراج فلسطين من تلك الوحدة والاستقلال ؟

يزيد في اثم فيصل انه لم يكن يمثل عرب فلسطين حتى يتساهل في حقهم لمصلحته الخاصة. ومع انه وقع الاتفاقية باسم «مملكة الحجاز العربية» لم يكن ذلك صحيحا، لان والده، اولا، رفض الاتفاقية ورفض التصديق عليها (كماقال فلبي في مقال جيد له في الموضوع (١٧))، وكان والده هو صاحب الحق الوحيد بالتكلم باسم « مملكة الحجاز العربية » ، ولان عرب فلسطين، ثانيا ، لم يفوضوا فيصلا بالتكلم باسمهم في يوم من الايام ، بل هم وكلوا اثنين من الوطنيين لتمثيلهم في المجالس الدولية ، عوني عبد الهادي ورستم حيدر . وكان كلاهما يجهل تلك الاتفاقية . ولم تكن فلسطين ، من ناحية ثالثة ، جزءا من الملك الهاشمي ، وان كان شعبها طالب بالانضمام الى حكومة سورية العربية .

اعتمد الصهيونيون على الاتفاقية المذكورة ، مع انها كانت لاغية منذ مولدها ، اعتمادا كبيرا في حملتهم الدعاوية ضد العرب . وحاولوا الاستناد عليها في تبرير مزاعمهم بان العرب قبلوا بمشروعهم ثم تراجعوا . كما حاولوا ان يثبتوا بها الغاء المطاليب العربية التي حملتها الرسائل المتبادلة بين الحسين ومكمهن قبل الاتفاقية بثلاث سنوات . لذلك روج الصهيونيون الاتفاقية بعد ان نشروها ، لاول مرة ، في مقال كتبه وايزمن في « التايمز » في العاشر من يونيو ١٩٣٦ ــ اي بعد وفاة فيصل بثلاث سنوات ، وبعد التوقيع على الاتفاقية بسبع عشرة سنة ونصف السنة . ومنذ ذلك الحين وهي حجة في يد كل وفد دعاوة صهيوني .

بدلا من ان يتبرأ العرب من الاتفاقية وموقعها ، وبدلا من ان يعلنوا انهم لم يفوضوا فيصلا بتلك المسألة وان الرجل الذي تخلى عن اكثر من مطلب قومي لم يكن يمثل الحركة القومية ، اخذ بعض زعماء العرب يحاول تبرير فعل فيصل باعذار واهية ــ منها زعم عوني عبد الهادي (صديق فيصل وزعيم حزبه في فلسطين) امام لجنة التحقيق الانجليزية ــ الاميركية في القدس ١٩٤٦ بان فيصلا وقع على الاتفاقية دون ان يعرف محتوياتها لانها كانت باللغة الانجليزية التي كان يجهلها ، وان لورنس الذي وضع النص الانجليزي ترجمها لفيصل ترجمة مضللة ، وان لورنس هذا لم يسمح لمستشاري فيصل الذين يعرفون الانجليزية بالاطلاع على الاتفاقية قبل التوقيع عليها .

لعل عوني عبد الهادي كان يجهل ان فيصلا نفسه لم يزعم تلك الامور

(١٧) في مقال له في جريدة News Chronicle (اللندنية) عدد ٩ يوليو ١٩٣٧ .

في الدفاع عن نفسه . بل انه ظل يتبنى الاتفاقية ويفكر بتحقيق بنودها وانه صرح بما يفهم منه ذلك بعد سنة ونصف السنة امام صحفي بريطاني صديق له عمل للدعاوة العربية مدة من الزمن في لندن (١٨) . وقد يعلق القارىء على تبريرات عبد الهادي انها عذر اقبح من ذنب . فما الذي فرض على فيصل ، وهو الامير الناضج عمرا وعقلا ، ان يخضع للورنس هذا الخضوع فيما لو صح دفاع المحامي الفلسطيني الكبير ؟ ولماذا كان فيصل يثق بمستشاره البريطاني ويحجب الحقيقة عن مستشاريه العرب ؟ ولماذا حجب الحقيقة عن الشعب وظل يكتم امر الاتفاقية طيلة حياته ؟

ان في قول عوني عبد الهادي ، وقد اخذناه مثالا فقط ، تعبيرا عن سوء فن الدعاوة العربية في السنين الماضية . وقد كان سوء الدعاوة هذا سببا مباشرا من اسباب نكبة فلسطين . كان المسؤولون العرب يتسترون على اخطاء بعضهم بعضا ، حتى ولو كانت اخطاء لا يمكن تكذيبها ولا نكرانها ، بدلا من استنكار تلك الاخطاء واستنكار افعال اصحابها ، بجرأة وصلابة ووعي . لم يكن فضح دور الهاشميين في التفريط بفلسطين يضعف الجانب العربي قط ، خاصة وان ذلك الدور كان يجري بالسر في معظم الاحيان في زمن رفض العالم الحر فيه ان تجري الابحاث السياسية المصيرية بمعزل عن الشعوب ذات الاختصاص . اما علاقة لورنس بالاتفاقية فهي حجة كبيرة ضد فيصل . وقد كان لورنس ، صديق الصهيونيين كما سنرى في مكان اخر ، هو المسؤول عنها وعن المباحثات التي مهدت لها . وهو الذي كتب الاتفاقية بخط يده . ويفاخر الكولونيل المتصهين ماينرتز هاجن بان لورنس فعل ذلك بتأثير منه .

كانت اتفاقية يناير ١٩١٩ اول مصيدة صهيونية رسمية وقع فيصل فيها . ومع انه حاول الافلات ، لان رد فعل العرب ضده وضد الاتفاقية لما تسرب خبرها كان قويا ، مما حمله على التصريح لجريدة « ماتن » الفرنسية بانه يعارض تأسيس وطن قومي لليهود ، اوقعه تصريحه الجديد في مصيدة اخرى . اذ ان وايزمن استغرب تصريح فيصل وطلب منه ايضاحا . فكذب فيصل التصريح برمته في اجتماع اجراه مع زعماء الصهيونيين في باريز ، بحضور لورنس ، في اول مارس ١٩١٩ . لكن الصهيونيين اصروا ان يسجل فيصل تكذيبه خطيا . فلبى الطلب وكتب رسالة بذلك الى كبير صهيونيي الولايات المتحدة وعضو الوفد الصهيوني الى مؤتمر الصلح ، القاضي والاستاذ في جامعة هارفرد فلكس فرانكفورتر . وهذه هي ترجمة الرسالة التي كتبت

---

(18) J. M. N. Jeffries, Palestine : the Reality (London, 1938), P. 324.

في الثالث من مارس ١٩١٩ .

« عزيزي السيد فرانكفورتر . اود ان اغتنم فرصة اول اتصال لي مع الصهيونيين الاميركيين لاعيد عليكم ما سبق ان قلته للدكتور وايزمن في الجزيرة العربية (اي العقبة) واوربة . اننا نعتبر العرب واليهود ابناء عمومة في الجنس . وقد تعرضوا لاضطهادات مماثلة على ايدي قوى اقوى منهم . واستطاعوا لحسن الحظ ان يحققوا الخطوة الاولى نحو اهدافهم القومية معا . **واننا نحن العرب والمثقفون منا بوجه خاص نشعر نحو الحركة الصهيونية باعمق المشاعر . وان وفدنا هنا في باريز ليدرك المطالب التي قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح في الامس تمام الادراك . واننا نعتبرها مطالب معتدلة وصحيحة . وسوف نعمل جهدنا ، حسب طاقتنا ، على الاشتراك في تحقيقها . اننا نرحب باليهود اعظم ترحيب** . ولنا مع زعماء حركتكم ، خاصة الدكتور وايزمن ، اوثق العلاقات . وقد كان مساعدا كبيرا لقضيتنا . واملي ان يحتل العرب في القريب مركزا يمكنهم من رد المعروف لليهود . اننا نعمل من اجل شرق ادنى متطور ومترق . **وحركتانا تكمل احداهما الاخرى . فالحركة اليهودية قومية وليست استعمارية** . وحركتنا قومية وليست استعمارية . **ولكلينا مكان في سورية . بل انى لا اظن ان لاي منا امكانا من النجاح بدون الاخر** . ان اناسا ، اقل معرفة ومسؤولية من زعمائنا وزعمائكم ، ممن يجهلون الحاجة لتعاون العرب والصهيونيين ، قد حاولوا استثمار المشاكل المحلية التي لا بد ان يقوم مثلها في المراحل الاولى لحركتنا في فلسطين . واخشى ان يكون بعضهم قد اساء التعبير عن اهدافكم امام الفلاحين العرب وعن اهدافنا امام الفلاحين اليهود ، مما اعطى الاحزاب المصلحية مجالا لاستغلال ما يدعونه بالمشاكل . واحب ان أؤكد لكم عن يقيني بان هذه الاختلافات ليست على مسائل اساسية بل على امور تفصيلية مثل تلك التي لا بد من حصولها بين الشعوب المتجاورة التي يسهل حلها بالنوايا الحسنة المتبادلة . والحقيقة ان التفهم الاوعى سيبددها كلها . **وانني وشعبي نترقب مستقبلا نساعدكم فيه وتساعدوننا فيه ، حتى يتمكن بلدانا من اخذ مكانيهما في مجتمع الشعوب المتمدنة في العالم** . واسلم للمخلص فيصل » .

تعني الرسالة ، وقد نقلناها حرفيا ، عن اي شرح . راي فيصل في الصهيونية واضح جدا . فهو صديق لها معجب بها مدافع عن اهدافها مؤمن برسالتها . وهو يربط بينها وبين القومية العربية ويعتبرهما قضية واحدة . ويستنكر انتفاضات عرب فلسطين القومية ضد الصهيونية ويجرمها . ويعتبر فلسطين بلدا لليهود ويتحدث عنها كوحدة منفصلة عن الوطن العربي .

اما مطالب المنظمة الصهيونية من مؤتمر الصلح التي ذكرها فيصل في

رسالته وايدها فهي : ادخال ما بين سبعين الف وثمانين الف مهاجر يهودي الى فلسطين كل سنة ، وضع فلسطين تحت الانتداب الاجنبي الى ان يتساوى عدد اليهود والعرب في مدى عشر سنوات ، توسيع فلسطين حتى تشمل سيناء وشرق الاردن وجزءا من لبنان وسورية ، واخيرا ، وهو الاهم ، تحويل فلسطين الى دولة يهودية « مثلما فرنسة فرنسية وبريطانية بريطانية » . هذه هي المطاليب التي يراها فيصل « معتدلة وصحيحة » والتي يأمل ان يشترك في تحقيقها لينفع بها امته واليهود على السواء .

لم يترك الصهيونيون الفرصة تذهب سدى . اذاعوا نص الرسالة ، وكانت نصرا لهم ، بعد يومين من كتابتها ، ونشروها في عدة صحف (اولها جريدة نيويورك تايمز في الخامس من مارس ١٩١٩ ثم جريدة جويش كرونكل في السابع من الشهر نفسه) . وبالطبع كان للرسالة صدى سيء في الاوساط الوطنية . احتج كثيرون من العاملين في الحقل السياسي العربي على فيصل . وهاجموه واتهموه بالخيانة . لكنه زعم انه وقع الرسالة دون ان يعرف محتوياتها ، وان لورنس كتبها ولم يعلمه بالامر .

وفي العام ١٩٢٩ اثيرت الرسالة من جديد بعد ان قدمها الصهيونيون كمستند لهم الى لجنة التحقيق لفلسطين (لجنة شو) . فارسل عوني عبد الهادي ، وكان عضوا في الوفد الفلسطيني الى اللجنة ، برقية الى فيصل يستوضحه رايه في الموضوع . فزعم فيصل انه « لا يتذكر » انه كتب رسالة مثل تلك . وكان هذا الجواب الضعيف قد كتبه رستم حيدر ، سكرتير فيصل بامر منه في برقية مختصرة رد بها على تساؤل المحامي الفلسطيني . لكن فيصلا لم يقل لماذا سكت عن الموضوع عشر سنوات كاملة مع ان الرسالة نشرت عدة مرات . ولم يقل انه لم يكتب الرسالة او لم يطلع عليها ، بل قال انه لا يتذكر انه فعل ذلك . ولم يتبرأ من محتوياتها في يوم من الايام ولم يتراجع .

لم يكن بامكان فيصل ان ينكر الرسالة او الاتفاقية التي وقعها قبلا انكارا قويا لانه دعا الى ما جاء فيهما خلال تمثيله ابيه في مؤتمر الصلح في فترة ما بين الاتفاقية والرسالة ، في فبراير ١٩١٩ . اجرى فيصل في ذلك الشهر مباحثات مع لويد جورج وكلمنصو . واتفق معهما على ان يتخلى عن فلسطين ويقبل بقيام كيان يهودي تحت الانتداب البريطاني . ولذلك جاء في خطابه الرسمي في المجلس الأعلى للمؤتمر انه يستثني فلسطين من الدولة العربية الموحدة المستقلة لانها « ذات صفة دولية » ولانه ، على حد قوله ، لا يتحمل مسؤولية نشوب خلافات بين العرب واليهود فيها . لذلك اقترح ، هو نفسه ، بان توضع تحت الوصاية . « تشرف على العراق والجزيرة دولة من الدول الكبرى . . وفلسطين ، مثل العراق ، تقبل بوصاية اجنبية » .

رحب البريطانيون بهذا التفريط الذي سهل عليهم ابتلاع فلسطين مدة تزيد على ربع قرن . ولذلك اكبر رئيس حكومتهم ، اويد جورج ، فيصلا في مذكراته ومدح خطابه الذي كان فاشلا باعتراف بعض اصدقاء فيصل (١٩) .

كانت المذكرة التي قدمها فيصل الى المؤتمر من وحي اتفاقيته مع وايزمن . لذلك تميزت بالتهاون : اخرجت فلسطين ، بجرة قلم ، من حظيرة الدولة العربية الامنية . وذهبت الجهود التي بذلها الحسين قبلا لاقناع البريطانيين بان فلسطين جزء من الدولة التي اتفق معهم عليها عبثا . اضاع الابن ما حاول الاب ان يحصل عليه .

ينطبق موقف فيصل هذا على ما سبق ان كتبه لورنس عنه في مذكرة وضعها في نوفمبر ١٩١٨ بان فيصلا مستعد لان يتساهل مع الصهيونيين اذا امن الانجليز له عرش سورية . والا فهو يتبنى قضية فلسطين ويقف في وجه الصهيونيين والانجليز ان تآمروا على عرشه مع فرنسة . اي ان عرشه في سورية هو ما اقلق بال فيصل . هو الكنز الذي من اجل الحصول عليه فرط بحقوق العرب . وذلك واضح ايضا مما كتبه لويد جورج في مذكراته « لقد صرح الامير فيصل بحزم بانه بينما كان مستعدا ان يلقي ثقله كله لمصلحة الانجليز في فلسطين ، حتى الى درجة مساعدة اليهود ، فانه في الوقت نفسه يعارض كل دولة اخرى بكل قواه » (٢٠). لكن فرنسة كانت اصلب من ان تتنزل لفيصل عن سورية ولبنان ، وقد تنزلت للبريطانيين عن فلسطين والعراق . وكان البريطانيون والصهيونيون احذق من ان يغضبوا فرنسة ويحرجوا علاقاتهم معها من اجل فيصل . فتآمرت القوى الثلاث عليه، واخرجته صفر اليدين من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن معا .

عاد فيصل الى دمشق وهو يعلم تمام العلم ان الاطماع الدولية تهدد الاهداف العربية القومية . ولكنه كتم ذلك وزعم ان مصير العرب في ايد امينة . فخطب في بيروت مشيدا « بحسن نية » دول اوربة تجاه العرب . وقال في دمشق « جئت اليكم بالنبأ السار . ان اوربة اعترفت بنزاهة مطاليبكم . وازمعت على منح سورية الاستقلال الذي تصبو اليه » .

لكن هذه التطمينات لم تنطل على زعماء الحركة السياسية . كانت اخبار اتصالات فيصل بالصهيونيين وتساهلاته امام المستعمرين تصلهم

---

(١٩) قابل ، مثلا ، بين كل من
David Lloyd George, Memoirs of the Peace Conference, Vol. 2, P. 676-673.
J. M. N. Jeffries, Palestine : the Reality, P. 259.
(20) David Lloyd George, Memoirs of the Peace Conference, Vol. 1, P. 70.

وتجرح كبرياءهم وتدمي قلوبهم . وقد عاد فايز الغصين مرافق فيصل من باريس احتجاجا على تساهل فيصل وابلغ رفاقه بكل ما حصل . لكنهم خافوا ان سحبوا ثقتهم منه وعزلوه عن قيادة الحركة ان يزعزعوا وحدة القضية ويغضبوا العائلة التي رضي العرب بها منذ سنوات زعيمة سياسية لهم . اتجهوا لذلك الى حل وسط : قيدوا فيصلا بان اقاموا المؤتمر الوطني العام كمجلس تأسيسي في صيف ١٩١٩ وجعلوا اهداف العرب القومية من صلب دستور المجلس . كما انهم نزعوا عن فيصل الصفة التمثيلية التي ادعاها لنفسه وعينوا وفدا رسميا يمثل الحكومة العربية السورية ويكون مسؤولا امام المؤتمر الوطني في دمشق مباشرة .

غضب فيصل من هذه القيود ، بالرغم من امله بان يظفر المؤتمر له بلقب الملك والعرش ، وغادر دمشق في ذلك الصيف عينه (١٩١٩) مدعيا ان لا بد من اكمال المحادثات التي بداها بنفسه ، وان حكومتي بريطانية وفرنسة لا تتباحثان الا معه ، ما دامت اولاهما تدفع له مئة وخمسين الف جنيه في الشهر كاجر على عمله في هذا السبيل . لكن المؤتمر الوطني ، اذ لم يستطع منع فيصل من السفر ، اعتبر نفسه منعقدا حتى عودته ، ليحاسبه على اعماله وليطلع على تفاصيل ابحاثه في رحلته .

حينما وصل فيصل لندن وجد ان حكومتها قد تعاقدت مع الحكومة الفرنسية في منتصف سبتمبر ١٩١٩ على تقسيم سورية بينهما تقسيما نهائيا بحيث لم يبق له فيها مكان . فبحث عن وايزمن لعله يسعفه بحل . واجتمعا في اواخر سبتمبر من تلك السنة . ونحن نجهل ما دار بينهما من ابحاث ، الا من تقرير رفعه مستشار فيصل البريطاني ، كورنولس ، الى حكومته . قال فيه « لقد عرض الدكتور وايزمن على الامير تقديم مال ومستشارين الى الحكومة العربية اذا دعت الحاجة مقابل مساعدة الامير له في تحقيق المبادىء الصهيونية في فلسطين . وزعم (وايزمن) ان بامكان الصهيونيين ان يقنعوا الحكومة الفرنسية بان تتخلى عن مطاليبها في الداخل . وتحمس الامير كثيرا للوصول الى اتفاقية . لكن الامور توقفت الان لان الامير يريد من الصهيونيين ان يضعوا ثقلهم الى جانب العرب ضد الفرنسيين بينما يرى الدكتور وايزمن ان يحتل الفرنسيون المناطق الساحلية الان ثم يمكن اخراجهم فيما بعد » (٢١) .

لم يخفف هذا الاختلاف بين الرجلين على تعيين موعد التحالف ضد فرنسة من ثقة فيصل بزميله . واستمر يمني نفسه بالحفاظ على العرش

(21) Documents on British Foreign Ploicy, 1918-1939 (London, H. M. Stationary Office, No. 295) P. 421.

السوري بواسطة الحركة الصهيونية . صرح بذلك الى جريدة « جويش كرونكل » اللندنية في الثالث من اكتوبر ١٩١٩ . وقال في حديث طويل للجريدة اليهودية انه **لا يزال على اتفاقه السابق مع وايزمن** ، وانه لا يعتقد ان من الضروري ان يبحث المسؤولون قضية فلسطين الان ، بل يجب ارجاؤها وفصلها عن القضايا الاخرى . **وكرر فيصل في حديثه تبنيه لمطاليب اللجنة الصهيونية في مؤتمر الصلح** ، تلك المطاليب التي لخصناها آنفا وبينا خطورتها على المصلحة العربية الى درجة انالصحفي الذي اجرى الحديث مع فيصل استغرب موقفه الاستسلامي من الصهيونيين وظن انه يجهل حقيقة تلك المطاليب وحاول ان يحدثه عنها ويبين له ماذا يعني تأسيس دولة يهودية مستقلة تمام الاستقلال عن دولة فيصل العربية . عندها احرج فيصل ولم يستطع الاستمرار في تفريطه الكلامي ، فقال لمحدثه انه لا يرضى بحل متطرف الى هذا الحد ، ولكنه يكتفي باسكان اليهود بجماعات كبيرة في فلسطين .

كالعادة ، عقب هذا التحفظ الاخير عتاب ولوم صهيونيان ومطالبة بتصريح فيصلي اخر لا تحفظ فيه ولا اعتدال : وكالعادة ايضا لبى فيصل الطلب . كتب رسالة توضيحية اخرى . وكانت هذه المرة الى (السير) هربرت صميول ، في العاشر من ديسمبر ١٩١٩ . قال فيصل فيها ، وقد بعث بها من باريز « اني مقتنع تمام الاقتناع ان **الثقة الوطيدة المتبادلة بيننا واتفاق وجهتي نظرنا اتفاقا كاملا** ، اللذين اقاما في السابق **تفاهما تاما** بين الدكتور وايزمن وبيني ، سيمنعان قيام اي سوء تفاهم اخر في المستقبل. **وسيكفلان الانسجام اللازم لنجاح قضيتنا المشتركة ...** » وقد رحب الصهيونيون بهذه الرسالة . واذاعوها واستغلوها على نطاق واسع . ووضع صميول توكيدا عليها في محاضرة القاها في الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٣٥ في الجمعية التاريخية في جامعة لندن .

لحق بتلك الرسالة اجتماع شخصي بين فيصل وهربرت صميول في اواخر ١٩١٩ . وجوابا على موقفه من قيام دولة يهودية في فلسطين ، يهودية كما بريطانية بريطانية ، قال انه يعارض في اقامة مثل هذه الدولة قبل ان يصبح اليهود اغلبية ، لان اقامتها واليهود بعد اقلية يعرض مصالح العرب في فلسطين للخطر ، وهو ما يناقض وعد بلفر . لذلك **فهو لا يعارض في هجرة اليهود الى فلسطين واستيطانهم الى ان يصبحوا اغلبية فيها وعندها يحق لهم ان يؤسسوا دولتهم العتيدة .**

اذن فقد استمر لعب فيصل من وراء ظهر الحركة القومية واستمرت معارضته لاهدافها وهو في الخارج يفاوض اعداء العرب باسمها ودون علم

منها احيانا . وكانت كتاباته الخاصة اكثر تفريطا من تصاريحه الصحفية ، خوفا من رد الفعل الوطني في فلسطين وسورية . حصل فيصل ، بفضل هذه المواقف ، على ثقة المسؤولين البريطانيين والصهيونيين واعجابهم . وكتب العشرات منهم يشيدون به بقدر ما كتبوا يطعنون بالحركة الوطنية ويبرئونه من « تهمة » معارضته للصهيونية كما كان يشاع احيانا (٢٢) . وفي الوقت نفسه تمسك الصهيونيون برسائل فيصل واتفاقاته السرية معهم ، وجعلوها من صلب حججهم « الحقوقية » ١٩٢٠ ـ ١٩٤٨ . وقد استشهدت دراسة قدمتها الوكالة اليهودية الى لجنة التحقيق الانجليزية ـ الاميركية في العام ١٩٤٦ عن « الصهيونية والعالم العربي » بفيصل خمس مرات . وزعم الصهيونيون ان مواقف فيصل الودية نحوهم ليست الا انعكاسات لمحبة الشعب العربي لهم وتأييده لمطاليبهم (٢٣) .

حتى بعد ان عاد فيصل الى دمشق واستلم مقاليد الحكم رسميا (بعد تنصيبه ملكا في مارس ١٩٢٠) وخضع لاشراف مباشر على اعماله ، ظل بين الصهيونيين من آمن به بانه الزعيم العربي الوحيد القادر على نصرتهم ضد « المتطرفين » العرب . فمع ان بعض الصهيونيين اسقطه اذ ذاك من حسابه بسبب ما اسماه « خضوع فيصل لرغبات المتطرفين » (وهي عبارة ترد في مؤلفات كثيرة) دعا اخرون منهم الى مواصلة الاتصال به والاعتماد عليه . ومنهم من اقترح تقديم حل وسط يساعده في التغلب على معارضة « المتطرفين » وينقذه من متاعبه الداخلية ويعيد اليه قوته ليواصل خدمة الصهيونيين كالسابق .

اما هذا « الحل الوسط » فقد وضعه رئيس المكتب العربي في المنظمة الصهيونية ، الدكتور حاييم كالفارسكي . ملخصه ان يعترف العرب بتسمية فلسطين ارض اسرائيل ، وان يقبلوا بتحويلها الى وطن قومي لليهود تتفاعل فيه حضارتهم ، وان يسمحوا بجعل العبرية لغة رسمية ، وان لا يضعوا على الهجرة اليهودية قيدا ما . مقابل ذلك كله يساعد اليهود العرب بالمال ويسهمون في تصنيع مملكة فيصل السورية ويحسنون اوضاعها الثقافية والزراعية .

لم يجد احرار العرب فرقا اساسيا بين هذا المشروع وما سبقه من مشاريع ، ورفضوه حالا . واضطر فيصل ، تحت رقابتهم ، ان يرفضه هو

---

(٢٢) راجع ، على سبيل المثال ، شتاين في كتابه عن وعد بلفر ، آنف الذكر ، ص ٦٤٤ . وراجع ايضا كتاب
Philip Graves, Palestine, the Land of 3 Faiths (London, 1923), P. 59.

(٢٣) راجع ، مثلا ، كتاب ابنة اخت اللورد بلفر ، بلانش دجديل ، في كتابها عن خالها ، آنف الذكر ، جـ ٢ ص ٢١٩ .

الاخر . لكن تلك الرقابة الوطنية لم تستمر طويلا . هاجم الجيش الفرنسي دمشق واحتلها وطرد منها فيصلا والوطنيين . فهرب فيصل الى فلسطين . وخطب في اللد ، وهو يركب القطار الى حيفا ، امام ممثلي الشعب الذين وفدوا لتحيته ، شاكرا بريطانية على احتلالها فلسطين وشرق الاردن . ثم التفت الى المندوب السامي ، وكان حاضرا الاحتفال ، وطلب اليه نقل شكره الخاص لبريطانية على هذا العمل لانها حفظت فلسطين وشرق الاردن « للعرب وحمتهما من الاخطار الاجنبية » . وقد روى هذه الحادثة مرافق فيصل ورئيس ديوانه انذاك ، احسان الجابري . ولما اخذ فيصل الى العراق ليجلس ملكا عليه كان قد استأصل من ذهنه ، وربما من قلبه ايضا ، اي تعلق او اهتمام خاص بفلسطين وكأن ليس هناك مشكلة تهدد الكيان العربي في صميمه اسمها الصهيونية . فلم يعر احداث فلسطين اهتماما زائدا . ورفض ان يساعد ثوراتها الوطنية التي حصلت في السنوات الاربع الاخيرة من حياته .

فعل فيصل ذلك حفظا على العرش الذي صنعه الانجليز له ، واملا في ان يكافؤه على « حياده » من الصراع العربي ـ الصهيوني ، وقد سبق ان كافأوه في ١٩٣٠ « بالاستقلال » بعد سنة من رفضه مساعدة عرب فلسطين في انتفاضتهم في ١٩٢٩ مثلما كافأوه بادخال العراق عصبة الامم ١٩٣٢ بعد سنة من امتناعه عن التعاون مع المؤتمر الذي اقامته الحركات الوطنية العربية في القدس . وفعل فيصل ذلك ، ايضا ، تحقيقا للوعد الذي قدمه الى وزارة الخارجية في لندن قبل مؤتمر القاهرة باسابيع قليلة ، وهو المؤتمر الذي قرر اجلاسه على عرش العراق . وقد جاء فيه انه يتبنى راي الحكومة البريطانية بأن تستثني فلسطين من مشاريع الدولة العربية الموحدة . وقد فضح تشرتشل الوعد الذي قدمه فيصل في اليوم العشرين من يناير ١٩٢١ ، في خطاب القاه الوزير البريطاني في مجلس العموم في الحادي عشر من يوليو ١٩٢٢ .

ولعل يهود العراق لم يخطئوا حينما بايعوا فيصلا في الثامن عشر من يوليو ١٩٢١ مبايعة اسرائيلية رسمية ، في دار الحاخامين ببغداد ، حسب التقاليد التي كانوا يمارسونها عند مبايعة ملوك يهوذا في الماضي ـ وهو طقس لم يؤده اليهود من اجل اي عاهل عربي اخر ، لا قبل فيصل ولا بعده .

وعلينا، قبل ان نختم الكلام في علاقات فيصل مع الصهيونيين في اعقاب سني الحرب ، ان نتفحص الاراء السياسية في القضية العربية للرجل الذي لعب اكبر دور في توجيه فيصل انذاك ، ا. ت. لورنس . وساقتطف

فقرات من كتاب « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » (٢٤) .

اقترح لورنس على الحكومة البريطانية في ١٩١٨ – ١٩١٩ ان تطبق نظاما معينا على الجانب الاسيوي من الوطن العربي – بأن تقسم المنطقة الى اربع دول منفصلة ، تضع على كل منها ملكا هاشميا : الحسين (ويخلفه علي) في الحجاز ، فيصل في سورية ، زيد في شمال العراق ، وعبدالله في جنوب العراق . ولما انعقد مؤتمر للخبراء البريطانيين في لندن اواخر ١٩١٨ باسم « مؤتمر شؤون الشرق الاوسط » عرض لورنس وجهة نظره هذه . ثم قدمها ثانية الى اجتماع عقده هؤلاء الخبراء مع زملائهم الفرنسيين اواخر مارس ١٩١٩ ، من اجل الوصول الى تسوية عجز لويد جورج وكلمنصو عن تحقيقها – وكان لورنس في عداد الوفد البريطاني الى المؤتمر . وقد علل مقترحاته بامرين شدد عليهما : **ان لا امل في قيام وحدة عربية ، لا في الحاضر ولا في المستقبل : وان التعامل مع العرب يجب ان يكون بواسطة الهاشميين، وبواسطة ابناء الحسين بنوع خاص** . ولكن فرنسة عارضت المشروع فسقط .

اما فلسطين فكان لها وضع خاص في مشاريع لورنس . وهو وضع انسجم مع الاتفاقات والمعاهدات السرية التي ابرمها الانجليز في معزل عن شعب فلسطين ودون استشارتهم والتي ناقضت المطاليب التي عبر الشعب عنها في عرائضه للجنة كنج – كرين وفي عشرات المؤتمرات والقرارات الوطنية العامة . رضي لورنس ان تخضع فلسطين للصهيونيين وان تذهب الاكثرية ضحية اطماع اقلية لا تزيد على عشرة في المئة من السكان .

كتب الدكتور وايزمن في كتاب اعده بعض اصدقاء لورنس لذكراه « لقد وجدت عند لورنس ، بالرغم من الشائعات عنه وعلى العكس منها ، تفهما عاطفيا لمطالبة اليهود بفلسطين » . والواقع ان اعمال لورنس وكتاباته تشير الى هذا « التفهم » و « العطف » ، خاصة بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ . فقد آزر الحركة الصهيونية منذ ان اجتمع بوايزمن ، لاول مرة ، ١٩١٨ . وحمل فيصلا على الاجتماع بوايزمن في العقبة وبارك مساعي التفاهم بينهما . وحجته ان الرغبات الصهيونية لا تتعارض مع الحقوق العربية ، وان وعد بلفر لا يناقض عهود مكمهن للحسين . ولعب لورنس ايضا دورا خاصا في اجتماعات واتفاقات فيصل والصهيونيين في لندن وباريز .

---

(٢٤) راجع كتاب المؤلف « الهاشميون والثورة العربية الكبرى » الحلقة الثانية ، القسم الثالث . راجع ايضا مقالا للمؤلف في حوار (بيروت) السنة الاولى العدد الخامس ، في يوليو اغسطس ١٩٦٣ ، بعنوان « راي عربي في لورنس » .

يذكر الكبتن وليم ييل ، عضو الوفد الاميركي الى مؤتمر السلم ، وان لورنس اطلع على مشروعه بتحويل فلسطين الى وطن قومي لليهود تحت الانتداب البريطاني ووافق عليه « من كل قلبه » قائلا ان المشروع « يعطي العرب اكثر مما كان هو يتمنى ان يحصل لهم عليه » (٢٥) . وصرح لورنس لرجال الصحافة في ذلك الوقت عينه ، اواخر نوفمبر ١٩١٩ ، وكانت قضية فلسطين بدأت تشغل المحافل الدولية « اني اؤيد الصهيونية . اني اعتبر **اليهود النقلة الطبيعيين للخميرة العربية الضرورية جدا لدول الشرق الادنى »** (٢٦) . ونسب اليه قوله ، في مناسبة اخرى ، في تبرير عطفه على الصهيونية « انهم لا بد ان يحولوا فلسطين الى دولة منظمة جدا كأنها دولة اوربية باستخدام مهارتهم وراس مالهم . لا بد ان يؤدي نجاح مشروعهم الى رفع مستوى السكان العرب الى المستوى المادي الذي يتمتع اليهود به . . . لا بد ان تكون نتائج هذا العمل على درجة بالغة من الاهمية لمستقبل العالم العربي » (٢٧) . اما وايزمن ، زعيم الصهيونية الاكبر في النصف الاول من القرن الحاضر ، فكان ، حسب وصف لورنس له في رسالة بعث بها الى مطران القدس الانجليكاني الذي اشيع عنه انه يعارض الصهيونية ، في صيف ١٩٢٢ « انه رجل عظيم ، لا تستحق انت ، ولا استحق انا ، ان نمسح حذاءه » .

عمل لورنس ، وهو يحمل هذه الافكار ، مستشارا رئيسيا لفيصل منذ ان خاض غمار الثورة الى ان حملته سفينة بريطانية الى العراق ليجلس على عرشه . فكان لورنس يحضر اجتماعات فيصل الرسمية والخاصة ، ويكتب رسائله ومذكراته ويعد له اتفاقاته ويترجم مقابلاته . بل كان يضع له شعاراته واقواله ومن بينها القول المنسوب لفيصل « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » الذي يصر لورنس على انه هو صاحبه . اي انلورنس لم يكن مجرد لسان ينطق بافكار فيصل بل كان عقلا يقرر افكاره وينظمها ، مما جعل صديق فيصل الذي اقام في العراق اربعين سنة ، المحسن الاميركي فان اس ، يسمي لورنس « الوصي على اليتيم » واليتيم هو فيصل بالطبع . لم تفتر العلاقات بين الاثنين الا بعد ان اجلس فيصل ملكا على العراق وفضح امر ارتباطه بلورنس ولم يعد في صالحه ولا في صالح الانجليز ان يستمر هذا الارتباط علنا حتى لا يأخذ الناس على الملك الجديد ارتماءه في احضان صديقه القديم الذي طعن العرب في اكثر من مناسبة . وقد استعاض فيصل عن لورنس بمستشارين اخرين ممن عملوا معه وهو في دمشق، امثال كورنولس وجلبرت كليتن وجويس .

---

(25) David Garnett, Selected Letters of T. E. Lawrence, P. 285 - 286
(26) Robert Graves, Lawrence and the Arabs (London, 1927), P. 398.
(27) Alfred Bonne, The Economic Development of the Middle East (London 1943) P. 116.

هناك رأي شائع بان وقع الاجراءات التي فرضت على العرب بعد الحرب الاولى كان كبيرا ومؤلما في نفس لورنس حتى ان اعصابه انهارت او كادت تنهار فاعتزل اصحابه وهرب من اعماله وحاول خلق حياة جديدة لنفسه . يجعل هذا الراي من لورنس شهيدا من شهداء القضية العربية ، ممن ذهبوا ضحية الخدعة البريطانية . ولكن النظر عميقا في تفاصيل القضية العربية في تلك الفترة يكذب الرأي الشائع . ذلك ان ما جرى للعرب كان من صميم ما طالب لورنس به وما عمل له . وكانت الاجراءات التي فرضت على العرب شبيهة جدا بمشاريع لورنس ومخططاته .

لماذا يخيب امل لورنس بعد الحرب ، وممن ؟ لماذا يخيب امله وقد وقع ما توقع هو . وممن يخيب امله وقد فعل اصحابه ما ارادهم ان يفعلوا ؟

تلخص اجراءات ما بعد الحرب في سورية والعراق بتقسيم المنطقة الى عدد من الكيانات نصب الهاشميون على بعضها ووضعت كلها تحت الانتداب البريطاني او الفرنسي ووعد اليهود بفلسطين وسهل دخولهم اليها . وقد سبق ان بينا ان لورنس وافق على هذه الاجراءات ، ودعا اليها، واقترحها في كتاباته العامة والخاصة : آمن بان لليهود حقا في فلسطين ، وبوصاية الغرب على العرب ، ودعا لتجزئة الوطن العربي وتمليك الهاشميين على كياناته المختلفة . لماذا ، اذن ، يخيب امله من هذه الاجراءات ؟ وممن يخيب ؟ امن الانجليز ، وقد نفذوا مخططهم الذي اشترك لورنس في وضعه ، ام من العرب، وقد رضخوا لهذه المخططات ، ام من الهاشميين ، وقد ظلوا اوفياء للمصالح البريطانية الى ما بعد وفاته ؟

واذ نحن ننفي خيبة الامل المزعومة هذه انما نعتمد على كتابات لورنس نفسه . قال في مقدمة طبعة مختصرة لكتابه « اعمدة الحكمة السبعة » في نوفمبر ١٩٢٢ (اي بعد تنفيذ تلك الاجراءات) ان تشرتشل « قد حقق » بتلك الاجراءات « وعودنا بنصها وبروحها . ونفذت تعهدات مكمهن حول فلسطين وشرق الاردن والجزيرة العربية كلها . اما في ما بين النهرين فقد مضى الى ما هو ابعد من تلك الوعود ، ومنح العرب اكثر ، وترك لنا اقل ، مما رآه السير هنري مكمهن مناسبا » . ثم قال « يجب ان اعترف ان **انجلترة خرجت من القضية العربية بايد نظيفة** » (٢٨) .

ردد لورنس هذا الرأي في رسالتين معروفتين له ، بعث بالاولى الى مؤرخ حياته روبرت جريفز في ١٩٢٦ وبعث بالثانية الى وليم ييل في ١٩٢٩ .

---

(٢٨) نشرت المقدمة في كتاب :
David Garnett, Selected Letters of T. E. Lawrence, P. 345 -346.

وقد اعترف فيهما بالنقاط المهمة التالية :

اولا ، ايد سياسة ونستن تشرتشل في ابقاء البلاد العربية تحت النفوذ البريطاني ــ بل انه تحمس لذلك اكثر من رئيسه .

ثانيا ، ايد المعاهدة البريطانية ــ العراقية التي قيدت العراق وزورت ارادته .

ثالثا ، اقنع لويد جورج بنقل مركز الثقل في الحركة العربية الى بغداد لانها تقع تحت النفوذ الهاشمي والبريطاني .

رابعا ، حاول اقناع الحسين في صيف ١٩٢١ بان يقبل الانتداب والتقسيم .

خامسا ، عارض فكرة الاتحاد العربي منذ ايام الثورة .

سادسا ، زعم انه حقق للعرب مطاليبهم واعطاهم مجالا للعمل ولكنهم هم اخطأوا في التنفيذ وفشلوا بعد ان « اوقفهم على اقدامهم » .

سابعا ، دعا الى قيام حكومات « فردية وفوضوية » في شبه الجزيرة العربية .

ثامنا ، فاخر بتأسيس امارة شرق الاردن ، وبوضعها وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

تبرر هذه الاقوال رأينا بان خيبة امل لورنس وانهيار اعصابه لا يعودان الى موضوع العلاقات العربية البريطانية ولا الى مصير العرب من بعد ١٩١٨ . ولا بد ان يكون هناك عامل اخر اثر في مزاج لورنس وشخصيته وتفكيره وعلاقاته بالاخرين وارغمه على الهرب من حياته السابقة . وليس هنا مجال تقصي ذلك .

حدث واحد فقط قد يبدو حصوله مؤلما للورنس ، للوهلة الاولى : ضعف الملك حسين امام الهجمات الوهابية ثم انهياره وهربه من الحجاز ، وهرب ابنه من بعده وانتقال الملك الى السعوديين . غير انعلاقات لورنس بالحسين من بعد الحرب تشير الى انه لم ينزعج من تلك الاحداث ولم يتألم لانه كان قد انقلب ضد الحسين وعارضه وسخر منه وانتقده عدة مرات منذ ١٩٢٠ ، وخاصة حينما عمل مستشارا للشؤون العربية في وزارة المستعمرات التي استلمها تشرتشل ١٩٢١ .

حصلت بريطانية على حق الانتداب على فلسطين وشرق الاردن والعراق

من عصبة الامم بعد ان تبنت العصبة في المادة الثانية والعشرين من ميثاقها (في الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٩) اقتراحا قدمه الجنرال سمطس ، من جنوب افريقية ، بايجاد نظام الانتداب (في السادس عشر من ديسمبر ١٩١٨) وبعد ان اقنعت الحكومة البريطانية زميلتها الفرنسية ودولا اخرى كثيرة بان يوكلوها بذلك الانتداب . وصدرت بتلك التعليمات قرارات مؤتمر السلم الاول في سان ريمو في الخامس والعشرين من ابريل ١٩٢٠ التي صممت الانتدابين البريطاني والفرنسي على دول المشرق العربي . وانتقل الحكم ، بذلك ، من احتلال عسكري مؤقت الى انتداب غير محدد . ووافق كل من ابني الحسين ، عبدالله وفيصل ، على هذه الاجراءات ، وتعهدا بتنفيذها ، على ما فيها من تعارض اساسي مع مطالب العرب وحقوقهم ، شرط ضمان حكمهما في شرق الاردن والعراق . اما الحسين نفسه فقد عارض الاجراءات في بادىء الامر ، واصر على رفض اي حل لا ينطبق على ما وعده مكمهن به .

وكان لورنس قد اشترك في وضع تلك الاجراءات ، ومنح العراق وشرق الاردن غنيمتي حرب لفيصل وعبدالله في مؤتمر القاهرة الذي عقد في مارس ١٩٢١ ، مع انه كان قد قطع علاقاته مع اولهما ، ومع ان رأيه بثانيهما كان سيئا جدا . لذلك اوكل تشرتشل اليه ، بعد مؤتمر القاهرة ، محاولة اقناع الحسين بالموافقة على المشاريع التي افاد ابناه منها ووافقا عليها . فذهب لورنس الى الحجاز ربيع ١٩٢١ ، وهو يحمل مسودة معاهدة املت بريطانية ان يوقع الحسين عليها بسهولة ، وبرفقته مستشار فيصل الخاص الموالي للانجليز ، جبرائيل حداد باشا .

غير ان الحسين اصر على الرفض ، بالرغم من محاولات الضيفين الكثيرة التي اسهم فيها ايضا الملك علي وزوجة الحسين وبعض افراد الحاشيـــة ومندوبون من عند فيصل وعبدالله . بل انه ــ حسب رواية الموظف في ادارة الاعلام في الحكومة الاردنية سليمان موسى في كتاب له عن الحسين ــ صعد الى سطح قصره واقسم برب الكعبة ان لا يوقع على معاهدة لا تحقق الوعود القديمة . فغضب لورنس وغادر الحجاز الى عمان دون ان يودع الملك . واتفق مع عبدالله على حيلة يضعان الملك بواسطتها تحت الامر الواقع : يوقع عبدالله على المعاهدة بصفته ممثلا لابيه في شرق الاردن ، لا بصفته الشخصية ــ وكان عبدالله يحمل توكيلا من هذا النوع منذ ان جاء الى شرق الاردن من الحجاز اواخر ١٩٢٠ . وبالفعل ، وقع عبدالله على اربع نسخ من المعاهدة ، في الثامن من ديسمبر ١٩٢١ ، وارسل احداها الى ابيه في ظرف مختوم ليصدق عليها . الا ان الحسين اعاد الظرف دون ان يفضه . اما سر رفض الحسين للاتفاقية فلان خطورتها تتجلى في المادة السابعة عشرة منها « يعترف

صاحب الجلالة الملك حسين بموقف صاحب الجلالة البريطانية الخاص في العراق وفلسطين . ويتعهد ان يبذل استطاعته لمساعدة صاحب الجلالة البريطانية في المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته الهاشمية في ذلك البلدين ». وكانت المكافأة التي وعد الحسين بها ان وقع على المعاهدة مزدوجة : استمرار دفع المعونات المالية له ، التي بدات منذ ١٩١٦ ، وحمايته من ابن سعود واسترجاع بلدتي خرمة وتربة اليه .

لم يقطع الانجليز امل التفاهم مع الحسين . وواصلوا الاتصال به طيلة ١٩٢٢ والنصف الاول من ١٩٢٣ . وازدادت مساعيهم بعد ان صدر صك الانتداب على فلسطين واحتاجوا الى سلطة عربية قوية تعترف بالاجراءات وتدعمها وتقف معهم في وجه المعارضة الشعبية التي ظهرت في فلسطين بفضل تكتل الوطنيين ومؤازرة الشعب لهم بالرغم من خروج عدد قليل من اعوان الانجليز وعبدالله عن الاجماع الشعبي . فاعادوا عرض المعاهدة على الحسين . وتعهدوا له من جديد بحمايته من ابن سعود الذي كان قد بدأ يضيق عليه الخناق . وارسل له اللورد كيرزن رسالة بهذا المعنى . واجتمع به هربرت صميول مدة يومين في عمان .

يتسم موقف الحسين من هذه الاتصالات والمساعي ، في ذلك الوقت بالذات ، بالابهام . فقد رفض الخضوع للاغراءات البريطانية والحاحات ابنائه، من جهة ، ولكنه لم يعد يعارضها كل المعارضة ويرفض البحث فيها ويرمي المذكرات بشأنها دون ان يقراها كما كان يفعل من قبل . وزيادة في التساهل اوفد سكرتيره ، الدكتور ناجي الاصيل ، اربع مرات الى لندن لبحث الموضوع مع وزارة الخارجية مباشرة . فارتاع عرب فلسطين وارسلوا عدة وفود الى الحسين قابلته في مكة وفي عمان وضغطت عليه حتى لا يتنزل عن موقفه السابق . واضطر ، خوفا على شعبيته ، ان يكذب الشائعات التي ترددت عن اتصالاته بالانجليز ، وان يؤكد انه لن يقبل بما سبق ان رفض . وكان كل من المؤتمر السوري وحزب الاستقلال ، في مصر واوربة ، والمجلس الاسلامي الاعلى والجمعيات الاسلامية المسيحية في فلسطين ، قد هدد الحسين بمقاطعته ومهاجمته في العالمين العربي والاسلامي ان لم يعد عن اتصالاته مع اللورد كيرزن .

والحقيقة ان الذي حال دون اتمام تلك المساعي ، حتى ولو اراد الحسين التوقيع على المعاهدة ، هو تطور الاحداث العسكرية والسياسية في شبه الجزيرة بسرعة لغير صالح الحسين . فقد انتهت زيارته للاردن باعلان نفسه خليفة . وانتهى مع ذلك الاعلان ملكه : غضب ابن سعود عليه وهاجمه وارغمه على الفرار ، تاركا العرش لابنه . وحاول علي ، خوفا على الملك ، ان يستميل

الانجليز ، الذين زعموا انهم يقفون على الحياد في ذلك النزاع العربي ، مع انهم كانوا في الواقع قد تخلوا عن البيت الهاشمي في الحجاز وفضلوا عليه البيت السعودي . فاوعز الى ناجي الاصيل ان يعلم الانجليز باستعداده للتوقيع على المعاهدة التي عرضوها قبلا على والده . الا ان المسؤولين البريطانيين ابدوا عدم رغبتهم في الحصول على توقيعه ، وحجتهم ان المعاهدة كانت شخصية مع الحسين ولا علاقة لابنه بها . والواقع انهم رأوا عرش الحجاز ينهار ولم يشأوا ا ن يلتزموا سياسة معينة تثير عليهم العاهل الجديد ، ابن سعود ، وهو الرجل المنتصر .



الفصل الرابع

تجاهل فيصل وعبدالله للخطر الصهيوني في ما بين الحربين

ادرك الصهيونيون ، بعد خبرة سنوات ، ان عرب فلسطين اوعى من ان تغريهم الاموال وتشتريهم الوعود ويستميلهم التهديد .اما الذين خرجوا عن اجماع الشعب فقد اقصاهم الرأي العام ولفظهم . لذلك كتب اللفتننت كولونيل كش ، رئيس اللجنة الصهيونية الفلسطينية في العقد العشريني « اني كنت ولا ازال اعتقد ان التفاهم الذي يجب ان نصل اليه مع عرب فلسطين لا يتحقق الا **بتحسين علاقاتنا مع العالم العربي بشكل عام ، اي من الزعماء الحقيقيين اصحاب السلطة في البلاد العربية المجاورة »** (١)

من وحي هذا التفكير واصل الصهيونيون علاقاتهم القوية مع البيت الهاشمي . لكن احداث العشرينات صرفت كبيري البيت المذكور عن طريق الاتصال المباشر مع الصهيونيين ، اذ تحطمت معنويات الحسين وسقطت اسهم زعامته في شبه الجزيرة العربية حيث بزغ نجم ابن سعود وفي خارج الجزيرة حيث لم يعد له سلطان . واخذ فيصل الى العراق ومنع من التدخل في قضية فلسطين . لم يبق للصهيونيين ، اذن ، الا امير شرق الاردن ، ثاني ابناء الحسين . وكان عبدالله تحت الطلب ، كعادته . كان يعرض خدماته لكل من يسد نهم خزينته الفارغة في معظم الاحيان والمحتاجة في كل الاحيان، وكان يتبع طريق كل من يزعم له انه سيحقق له حلمه ويتوجه ملكا على عرش سورية او العراق او فلسطين ويوسع له حدود امارته الصحراوية ويصلها بضفاف البحر المتوسط .

بين طلاب التاريخ الهاشمي من يعود بالعلاقات بين عبدالله والصهيونيين الى اوائل ايام تركية الفتاة ، حينما اسس الصهيونيون لانفسهم فرعا نشيطا في اسطنبول لمنظمتهم العالمية ، وتوغلوا في اوساط الطلبة العرب في كلية الحقوق حيث كان عبدالله يدرس بالاسم . هناك قصص عن صداقة قامت بين عبدالله وبن جورين . ولكن القصص اكثر عن صداقته مع بن زفي الذي كان يتولى الدعاوة لقضية حزبه . ثم تعرف عبدالله على وجه اخر من وجوه النشاط الصهيوني الدعاوي ، حينما الحق الانجليز في ١٩١٧ مئتي يهودي عراقي بالجيش العربي الزاحف وراء الاتراك ، وكان بينهم دعاة للصهيونية ، وكانوا على اتصال وثيق بالقيادة الهاشمية .

غير ان عبدالله لم يبد اهتماما خاصا بالمسالة الصهيونية قبل ان يصل الى عمان في ربيع ١٩٢١ ، حينما بدأ اتصاله بالبريطانيين لينصبوه اميرا على الامارة التي صنعت خصيصا له. وكان الثمن الذي دفعه اعترافه بالانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الاردن ، وهو انتداب تبنى وعد بلفر واريد منه

---

(1) Lt. Colonel F. H. Kisch, Palestine Diary (London, 1938), P. 361.

ان يحقق الوعد المذكور في الوقت المناسب . اي ان وضع عبدالله اميرا على شرق الاردن انما كان اجراء بريطانيا اخر لتنفيذ المخطط الصهيوني لابتلاع فلسطين . وكان عبدالله يعلم ذلك . حدثه فيه كل من لورنس وتشرتشل وصميول ، وحذره منه احرار العرب الذين اتجهوا الى عمان بالعشرات في ١٩٢١ و ١٩٢٢ لتحويلها الى مكة قومية .

ولكن علينا ، قبل ان نستعرض علاقات عبدالله بالصهيونيين في ثلاثين السنة التي حكم بها الاردن ، ان نستعرض عددا من الحقائق التي تلقي ضوءا على اعمال عبدالله واجراءاته :

اولا ، لم يكن عبدالله يجهل الاطماع الصهيونية . ولم يكن بامكان الصهيونيين ان ينكروا ولا ان يحجبوا هذه الاطماع . كانت خطورتها تزداد يوما بعد اخر .

ثانيا ، كان ضم شرق الاردن ، امارة عبدالله بالذات ، الى دولة « اسرائيل » العتيدة على رأس تلك الاطماع .

ثالثا ، ان الانتداب الذي تعاون معه عبدالله وخدمه الى اقصى حد كان يساند الصهيونية ويعمل لمصلحتها .

رابعا ، كان الرأي العام العربي يناضل ضد المخططات الصهيونية نضالا دمويا احيانا ونضالا سياسيا دائما . وكان يعارضها دائما . وكان يرفض مشاريع عبدالله بشكل علني وحاسم .

خامسا ، كان عبدالله يستخدم ، في فلسطين ذاتها ، جماعة خرجت عن اجماع الامة على الميثاق القومي ، وتعاونت مع الانتداب والصهيونية . هؤلاء كانوا حزبه في فلسطين .

ولنبدأ في تفصيل هذه النقاط الخمس ، بالجهاد العربي في فلسطين . وقد رأينا في صفحات ماضية كيف حاول عرب فلسطين ان يحموا اراضيهم واعتدوا على الصهيونيين الذين حاولوا سلبهم خيراتهم وحقوقهم ، وكيف تظاهروا في وجه اللجنة الصهيونية التي ارسلت الى فلسطين لتحقيق وعد بلفر ، وكيف رفعوا اعلام الثورة في القدس بعد ان وجدوا ان الاحتجاج الكلامي لا يكفي .

اخذت الاحداث تكشف عن نفسها بسرعة . تحول الاحتلال العسكري المؤقت الى احتلال مدني دائم ، غايته ، كما جاء في البيان الرسمي الذي صدر باسم الملك جورج الخامس في السابع من يوليو ١٩٢٠ « اتخاذ التدابير

لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على مراحل » . وتسلم مقاليد الحكم يهودي صهيوني معروف شارك في معظم المشاريع الصهيونية منذ بدء الحرب العالمية ، وكان له دور خاص في اصدار وعد بلفر وفي وضع فلسطين تحت الانتداب وفي عرض المطاليب الصهيونية على مؤتمر الصلح . وتحولت فلسطين الى مستعمرة تاج ثم الى كيان تحت الانتداب . وبدأت الادارة الجديدة تخدم الصهيونية . اصدر هربرت صميول قرارا ، في ١٩٢٠، يسمح ببيع الاراضي لليهود ما دام المشتري يحمل اذنا بذلك ، ولم يكن الحصول على الاذن صعبا . نقض المندوب السامي بذلك قرارا اخر كانت سلطات الاحتلال قد اصدرته قبل سنتين بمنع البيع منعا باتا لانه لم تكن هناك ادارة للاراضي بعد . واتاح صميول لليهود ان يستولوا على نصف مليون دونم من اراضي الدولة كان العرب يستفيدون منها ايام الاتراك . واصدر صميول ، في السنة التالية ، قرارا اخر بخصوص بيع الاراضي ، منع الفلاح العربي من استعمال الارض المشاع ، وكانت العادة ايام العثمانيين ان تصبح الارض المشاع ملكا للفلاح الذي يستغلها ويحييها مدة عشر سنوات. خسر العرب ، بذلك القانون ، حق الافادة من اراضي اثنتين وعشرين قرية عربية ، وتحولت الافادة منها الى اليهود . واسس صميول مجلسا استشاريا جعل العرب ، وهم حوالي ثلاثة وتسعين في المئة من السكان ، اقلية فيه ، لهم سبعة مقاعد من واحد وعشرين مقعدا . وزاد صميول في الضرائب المفروضة على الفلاح العربي، ليهدده بالافلاس وليرغمه على بيع اراضيه لليهود. ومنح خمسة وعشرين الف مهاجر يهودي جديد الجنسية الفلسطينية . وملأ صميول الادارة المدنية لفلسطين بالعشرات من الموظفين الكبار اليهود او الصهيونيين ، وخاصة المناصب الحساسة ، مثل السكرتير الاداري العام ومديري المهاجرة والتجارة والمدعي العام ونائب حاكم القدس وسكرتير المندوب السامي . وفي وقت قصير تجمع في الادارة البريطانية لفلسطين صهيونيون معروفون امثال هربرت صميول ويندم ديدز ونورمن بنتوتش وماينرتزهاجن . وبين هؤلاء من اعترف جهارا انه لم يعمل في الادارة كموظف محايد بل كصهيوني يخدم الاغراض الصهيونية (٢) .

وجعلت العبرية لغة رسمية . واعطي اليهود استقلالا اداريا في شؤون المصارف . وصكت النقود الجديدة تحمل اسم اسرائيل وعليها كتابات عبرية. ومنح اليهود امتيازات صناعية ضخمة ابرزها مشروع روتنبيرج لتوليد الكهرباء (فبراير ١٩٢١) ومشروع استخراج بوتاس البحر الميت (يناير

---

(٢) راجع ، مثلا ، كتابي :
Col. R. Meinertzhagen, Middle East Diary (London, 1959), P. 425 - 428.
Memories of Sir Wyndham Deedes (London, 1958), P. 24 - 40.

١٩٣٠). ووضعت ضرائب عالية على المستوردات من الخارج التي كان اليهود يصنعون امثالها في مصانعهم في فلسطين لارغام العرب على ترويج الصناعة اليهودية . وزيد عدد الموظفين اليهود على حساب الموظفين العرب ، ورفعت رواتبهم . واعترف الانتداب باللجنة الصهيونية ، ثم بالوكالة اليهودية ، واتصل بهما كمؤسستين رسميتين ، كحكومتين اضافيتين في دولة واحدة .

كان الانتداب ، بحد ذاته ، ضد امال الشعب . قام على اساس وعد بلفر ، وتعهد بتأمين ما يحتاجه اليهود ماديا ومعنويا لبناء وطنهم القومي . وكان صك الانتداب ، الذي صدر في التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٢٣ ، نسخة معدلة قليلا عن مسودة مشروع قدمته اللجنة الصهيونية برئاسة فلكس فرانكفورتر . وكانت البنود الثمانية والعشرون في الصك تحقق امال الصهيونيين باستثناء بند واحد — وهو البند الخامس والعشرون الذي اخرج شرق الاردن من منطقة الانتداب على فلسطين . وجاء في مقدمة الصك ان الدولة المنتدبة « مسؤولة عن تحقيق الوعد الذي قطعته حكومة صاحب الجلالة البريطانية في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ ... » . واعترفت البنود ٢ و٤ و٦ و٧ و١١ و٢٢ و٢٣ « بحقوق » اليهود في فلسطين . ففي البند الثاني ان « الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في حالة سياسية وادارية واقتصادية تضمن تأسيس الوطن القومي اليهودي ... » . ويعترف البند الرابع بالوكالة اليهودية « كمؤسسة عامة هدفها مشورة ادارة فلسطين والتعاون معها في الامور التي قد تؤثر في تأسيس الوطن القومي اليهودي .. والمنظمة الصهيونية هي المعترف بها كهذه الوكالة » . ويفرض البند السادس على حكومة فلسطين « ان تؤمن الهجرة وتشجع اسكان اليهود » . وجاء في البند الحادي عشر ان على حكومة فلسطين « ان ترتب مع الوكالة اليهودية بناء او تعهد الانشاءات والخدمات وتنمية الموارد الطبيعية في البلاد » . واعتبر البند الثاني والعشرون العبرية لغة رسمية . وكان صك الانتداب مجحفا بالحقوق العربية من سائر النواحي . حتى جلب نفسه لاحظ ان الصك ذكر الصهيونيين واليهود اثنتي عشرة مرة ولم يذكر العرب ، وكانوا ثلاثة وتسعين في المئة من السكان ، ولا مرة . واستدل بذلك على سوء نية الانتداب بحق العرب (٣) .

اضاف الى هذا الوضع المؤلم كله ما عبرت عنه زيارة ونستن تشرتشل ، وزير المستعمرات انذاك ، لمصر وفلسطين في ربيع ١٩٢١ ، من عطف مسؤول خاص على الصهيونية ومن مخاصمة مسؤولة خاصة للاماني العربية . ذهب اليه وهو بعد في القاهرة يشرف على مؤتمرها الذي سبق ذكره وفد من عرب

---

(3) John Bagot Glubb, Britain and the Arabs (London, 1959).

فلسطين يعرض عليه ظلامة الشعب . لكن الوزير البريطاني رفض ان يتوسع في بحث الموضوع مع رجال الوفد بحجة ان المؤتمر يتناول شؤونا اخرى غير القضية الفلسطينية ، وان الامر بهذه القضية قد بت نهائيا . وقال تشرتشل للوفد ما ترجمته « حتى ولو كان من صلاحياتي ان الغي وعد بلفر واوقف الهجرة لما فعلت ذلك . اني اعتقد ان الوعد والهجرة هما في صالح العالم واليهود وبريطانية وعرب فلسطين » . وعندما زار تشرتشل مدينة القدس قبل عودته الى بلاده من مصر ، وقضى اسبوعا في ضيافة المندوب السامي ، اعاد الزعماء الفلسطينيون المحاولة من جديد . ومرة اخرى لم يتحفظ الوزير في اعلان صهيونيته ، بل قال للوفد بصراحة انه يؤمن بما جاء في وعد بلفر، وانه يسعى الى تنفيذه ، وان الانتداب يعمل في سبيل هذا الهدف ، وان فلسطين ستكون مسكنا للايين اليهود . وصرف تشرتشل الوفد من عنده بفظاظة ، واخذ يتلهى برسم صور للقدس وضواحيها ووديانها من شرفة قصر المندوب السامي .

لذلك لم يكن غريبا ان يستغل العرب اول فرصة ويهاجموا الصهيونيين في اول انتفاضة وطنية لهم بعد محاولاتهم الفاشلة مع تشرتشل . وقد حصلت الانتفاضة في مدينة يافا ، في اليوم الاول من مايو ١٩٢١ . قتل العرب فيها سبعة واربعين صهيونيا واستشهد منهم ثمانية واربعون . وجرح من الطرفين ، مئتان وثمانية وثلاثون رجلا . وكان بين قتلى اليهود الكاتب الصهيوني جوزف حاييم برنر . ومرة اخرى اعترفت لجنة التحقيق التي الفتها الحكومة للنظر في المسألة ان ((**نمو المشاعر القومية عند العرب**)) هو سبب تلك الاحداث . وقد تراس اللجنة قاضي قضاة فلسطين السير تمس هيكرافت . وهو ما اعترف به ايضا المؤتمر الصهيوني الثاني عشر المنعقد في كارلسباد صيف ١٩٢١ .

ايقظت الانتفاضة الوعي في فلسطين ، ولكنها لم تنبه الهاشميين . فهم عرب فلسطين منها ان امامهم طريقا طويلا من الصراع الشاق ، بينما استغرب الهاشميون ان يلجأ العرب الى الثورة ما دام البريطانيون والصهيونيون اصدقاء لهم واعوانا . لذلك بينما كان عرب فلسطين يختطون لانفسهم سبيلهم الحافل بالنضال والتضحيات والشهداء حافظ الهاشميون على ثقتهم وصداقتهم مع البريطانيين والصهيونيين . اراد عرب فلسطين امرا واراد الهاشميون (وخاصة عبدالله) لهم امرا اخر . اراد العرب استقلالا واراد عبدالله انتدابا. ارادوا حرية واراد هو استسلاما لليهود مغلفا بالتعاون البشري . ارادوا وحدة واراد هو كيانات منفصلة . وهكذا كان الخلاف بين الشعب العربي في فلسطين وبين امير شرق الاردن على المبدأ وعلى الاسلوب في آن واحد . تولى النضال العربي في فلسطين ، منذ البدء ، جمع من السياسيين

ممن كانوا امتدادا لطبقة المناضلين ضد الاتراك في سائر بقاع الوطن العربي في اسية ، وجلهم من رجال مؤتمري دمشق صيف ١٩١٩ وربيع ١٩٢٠ ومن رجال الفتاة والعهد والاستقلال . وقاد كبير هؤلاء الساسة ، موسى كاظم الحسيني ، تظاهرات مارس ١٩٢٠ . وقاد قريبه الشـ . امين الحسيني ، تظاهرات ابريل من تلك السنة . فغضبت الحكومة عليهما : عزلت الاول من منصبه كرئيس لبلدية القدس ، وطاردت الثاني وحاكمته غيابيا وحكمت عليه بالسجن خمس عشرة سنة . اما الاشراف المباشر على النضال الوطني فقد تولته جمعية برزت منذ اواسط ١٩١٩ بعد ان اذاع البريطانيون خبر وعد بلفر ، وانتشرت في ستة اشهر في انحاء كثيرة من فلسطين ، حملت اسم « الجمعية الاسلامية المسيحية » للدلالة على سمو الحركة الوطنية عن الانقسامات المذهبية . وقد بدأت اللجنة عملها برفع العرائض الى الجهات الدولية في رفض اي حل لا يحقق مبدأ الاستقلال ثم الوحدة مع سورية . وهي التي قادت الحملة من اجل هذين المبدأين امام تحقيقات لجنة كنج ـ كرين ، وقادت التظاهرات الاحتجاجية على هربرت صميول واللجنة الصهيونية ١٩٢٠ . واصدر بعض كبارها صحفا وطنية على راسها « فلسطين » و « الاقصى » .

وعقدت الجمعية المذكورة سلسلة من المؤتمرات الوطنية التي تبنت الميثاق القومي الموضوع في مؤتمري دمشق ثم في مؤتمر حيفا . وطالبت هذه المؤتمرات بتحقيق الاهداف القومية التي اعلن عنها من قبل : الغاء وعد بلفر ، ايقاف الهجرة اليهودية ، تأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام برلمان ينتخبه شعب فلسطين ، وقف مفعول القرارات والاجراءات التي اصدرها الاحتلال البريطاني ، وتوحيد فلسطين مع اخواتها العربيات .

تلا مؤتمر حيفا ستة مؤتمرات اخرى مماثلة عقدت كلها في العشرينات وكانت عضويتها تنحصر في الزعماء التقليديين ، ومعظمهم من ابناء العائلات الكبيرة . وانبثق عن سلسلة المؤتمرات هذه مؤسستان عاملتان للقضية العربية : اللجنة التنفيذية والوفد العربي الفلسطيني . اما اللجنة فكانت هي الوحيدة التي تنطق باسم عرب فلسطين الى ان انقسمت على نفسها في ١٩٣٤ . واما الوفد فقد ارسل الى بريطانية وسويسرة ودول اوربية اخرى للدعاوة . وكان موسى كاظم الحسيني يتولى رئاسة المؤسستين .

واشرفت الجمعية الاسلامية المسيحية على مقاطعة الانتداب والصهيونيين . وقد رأت ان المعارضة السلبية هي افضل وسيلة للصمود في وجه الاغراءات المختلفة . فقاطع السكان البضائع اليهودية منذ اواسط ١٩٢١ . وقاطعوا انتخابات المجلس التشريعي الذي عزم المندوب السامي على تأسيسه في

١٩٢٢ . وانسحب الاعضاء العرب المعينون في المجلس الاستشاري في ١٩٢٣ – وكان العرب اقلية في هذا المجلس ، ثلثه فقط ، وكان للمندوب السامي حق نقض قرارات المجلس .

دل انتزاع زعماء عرب فلسطين مقاليد قضيتهم من غيرهم من المسؤولين العرب ، وخاصة من الهاشميين ، على عدم ثقتهم بهم ، بعد ان لمسوا تهاون فيصل وتفريطه واستسلام عبد الله للانجليز . لكنهم لم يفعلوا ذلك الا بعد ان اسلفوا فيصلا وعبدالله ثقة زائدة ، وبعد ان اختبروهما عدة مرات . وكان العاهلان الهاشميان يخالفان تعهداتهما في كل مرة ويخيبان امل الشعب من جديد .

غير ان الاجراءات التي اتخذها عرب فلسطين لم تحمهم من الخطر . استمرت الهجرة تتدفق ، والمستعمرات تنمو ، والتحديات تزداد ، والامال بالتغلب على العدو بالمؤتمرات والاحتجاجات تخبو . فلجأ العرب الى الثورة من جديد : ثاروا عدة مرات في مدى عشر سنوات، ١٩٢٩ – ١٩٣٩ ، معبرين في كل ثورة عن تمسكهم بعروبة بلادهم . كانت هذه الثورات افضل تعبير ، واثمن تعبير واغلاه ، عن وطنية الشعب في فلسطين . وكان في شعاراتها الدليل على ان ما كان عبدالله ينادي به انذاك انما كان يختلف كل الاختلاف عما آمن الشعب به وضحى بنفوس ابنائه من اجله . كانت الثورات المتتابعة، التي عارضها عبدالله وعارضته، والتي سعى لاخماد اثارها وعرقلتها وسعتهي لتطهير فلسطين من نفوذه واعوانه ، تعبيرا ممتازا عن ابتعاد الامير الهاشمي عن خط الجهاد القومي الذي شقه وطنيو فلسطين بدمائهم مدة ربع قرن . ومن المؤسف ان تشوه صورة هذه الثورات في اذهان عرب كثيرين ، بفعل الدعاوة الهاشمية التي حاولت ان تنتقص من جهاد عرب فلسطين وتنال منه لتوهم الناس ان الشعب هو الذي فرط بالبلاد وتقاعس عن الجهاد ، وليس عبدالله .

اشتعلت نار الثورة الكبيرة الاولى في اغسطس ١٩٢٩ ، في القدس ويافا والخليل وصفد . قتل العرب مئة وثلاثة وثلاثين صهيونيا وجرحوا ثلاث مئة وتسعة وثلاثين . وتدخلت القوات البريطانية لحماية اليهود . وارتفعت المشانق في سجن عكا تحمل القافلة الاولى من الشهداء . وخسر العرب في تلك الثورة مئة وستة عشر شهيدا ومئتين واثنين وثلاثين جريحا . واعترفت لجنة التحقيق ، برئاسة القاضي السير ولتر شو ، بان السبب الرئيسي للاحداث هو رفض العرب ان يقيم الصهيونيون وطنا قوميا لهم .

ومع ان عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين انخفض في السنوات الثلاث

الاولى في اعقاب الثورة ، وكانت الهجرة في الواقع سببا رئيسيا لتلك الثورة، ارتفع العدد من جديد بين ١٩٣٣ – ١٩٣٥ ، ودخل فلسطين حوالي مئة وخمسة وثلاثين الف مهاجر في مدى ثلاث سنوات ، بينما لم يدخلها في سنوات الضائقة المالية العالمية الثلاث (١٩٢٩ – ١٩٣٢) الا ستة عشر الف مهاجر . وعبثا حاول العرب الاحتجاج سلميا . فتظاهروا واضربوا في كل انحاء فلسطين في الشهر العاشر من ١٩٣٣ . وتحدى شبابهم رصاص الشرطة بصدورهم ، وسقط بين عشرات الجرحى زعيم فلسطين الاكبر ، موسى كاظم الحسيني ، وكان في الرابعة والثمانين من عمره . واشتعلت نار الثورة من جديد ، في الشهرين الاخيرين من تلك السنة واوائل السنة التالية ، وخاصة في يافا وحيفا ونابلس . وسقط فيها سبعة وعشرون قتيلا ومئتان وثلاثة واربعون جريحا ، من العرب واليهود والبريطانيين .

لم تترك اجراءات الحكومة مجالا للاعتدال عند العرب . ولم يكن لجوؤهم للعنف خطأ ولا تسرعا . بل كان الاعتدال سلاحا في يد اعداء العرب . وكان دعاته الانهزاميون يخدمون الاعداء مباشرة . وان كان هناك من لوم على الحركة الوطنية فليس لانها لجأت اخيرا ، بعد صبر طويل ، الى العنف بل لانها لم تعبىء الشعب تعبئة قومية صحيحة ولانها لم تسر بالثورة على منهج منظم مدروس بل سمحت لبعض زعمائها بالانحراف في احيان كثيرة .

استمرت الثورة الكبرى ثلاثة اعوام – وهي مدة لم يعرفها بلد عربي اخر في اي وقت مضى . كانت اهدافها هي الاهداف القومية المعروفة . اما حصيلتها فكانت باهظة، دلت على صلابة الموقف العربي تجاه المشاريع المشبوهة التي ايدها الهاشميون : الف وسبعمئة قتيل وجريح في ١٩٣٦ ، مئتان وستة واربعون في ١٩٣٧ ، ثلاثة الاف وسبعمئة وسبعة عشر في ١٩٣٨ ، وثلاث مئة وثمانية واربعون في الربع الاول من ١٩٣٩ . والمجموع حوالي ستة الاف قتيل وجريح اكثر من نصفهم من العرب . هذا الى جانب الخسائر الاخرى التي تكبدها العرب من جراء الثورة : توقفت الاعمال والاشغال والمعاملات ثلاث سنوات ، ونسفت وسائل المواصلات والمباني ، وتحملت الاحياء والقرى العربية الغرامات الكبيرة التي فرضتها الحكومة عليهم ، ومنع التجول عدة اشهر ، واعلنت الاحكام العسكرية طيلة تلك الفترة ، وسجن ثلاثة الاف مواطن عربي .

وحافظ العرب على ما امكنهم الحفاظ عليه من اراض . وقاوموا اغراءات البيع مقاومة شديدة . واسسوا « صندوق الامة » في العام ١٩٣٥ لحماية اراضي صغار الفلاحين المهددة بالبيع . وحرمت الهيئات الوطنية والدينية البيع والسمسرة ، وقست في معاملة الخوارج . بفضل هذه الجهود

لم يحصل اليهود في اكثر من ربع قرن من الانتداب الا على خمسة في المئة فقط من ارض فلسطين العربية ، بالرغم من مساعيهم واغراءاتهم المالية ومساندة اموال الصهيونية العالمية وحماية الانتداب لهم . وحتى هذه الخمسة في المئة من الاراضي التي تمكنوا من شرائها بين ١٩٢١ و ١٩٤٨ كان حوالي تسعين في المئة منها ملكا لعرب غير فلسطينيين ، باعوها دون رضى اهل فلسطين ، ودون معرفة مسبقة من اهل فلسطين في معظم الحالات . مما يعني ان ما فرط به عرب فلسطين كان حوالي نصف في المئة فقط . لكن الصهيونيين استولوا في سنة واحدة فقط ، ١٩٤٨ ، على خمسة وسبعين في المئة من ارض فلسطين العربية (حوالي ستة عشر مليون دونم) ، وذلك حينما ازيح عرب فلسطين عن تولي قضيتهم وسلمت القيادة لملك شرق الاردن، عبدالله بن الحسين .

بعد ان اركن عرب فلسطين الى الهدوء اواسط ١٩٣٩ بناء على توسط ملوك العرب واملا بان يحقق مؤتمر المائدة المستديرة في لندن امانيهم ، وبعد ان استمروا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية مسالمين للسلطات وصمدوا في وجه التحديات الصهيونية المتواصلة ، بعد ذلك حملوا السلاح من جديد في اواخر ١٩٤٧ لما اتفق بعض اعضاء الامم المتحدة على تقسيم فلسطين واعطاء قسم منها لقمة سائغة لليهود ليؤسسوا فيها كيانا عنصريا . لن نستعرض هنا الجهاد الفلسطيني ضد الصهيونيين في ما بين اعلان التقسيم وانتهاء الانتداب (من اواخر نوفمبر ١٩٤٧ الى منتصف مايو ١٩٤٨) . ولكن يكفي ان نذكر ان عدد شهداء ذلك الجهاد فاق عدد زملائهم في الثورات التي قام العرب بها من قبل ، اذ بلغ العدد ، في ستة الاشهر التي سبقت تدخل الجيوش العربية ، حوالي اربعة الاف ، حسب احصاء السلطات البريطانية ، من مجموع ستة الاف قتيل من جميع الفئات .

واذ نحن نتحدث عن النضال الشعبي في فلسطين لا ننسى ان ذلك النضال ما كان ليشتعل بتلك الاهمية والغزارة لولا مؤازرة الشعب العربي في الكيانات المجاورة للشعب العربي في فلسطين . كان الفلسطينيون يشعرون انهم لا يقفون في الميدان لوحدهم، وان اخوانهم يشاركونهم امالهم والامهم ويساعدونهم في بعض الاحيان بالمال والسلاح وبالرجال ايضا . وقد عبر جميع الشعوب العربية عن مشاعره ومساعداته ، باشكال مختلفة ، في فترة الانتداب . ومن الظلم ان نأخذ عرب البلدين الهاشميين بجريرة عاهليهما . فقد وقف العراقيون والاردنيون موقفا مشرفا لا يقل عطاء وحرارة عن موقف سكان الكيانات العربية الاخرى . وقد اسهم العراقيون ، بشكل خاص ، بتحمل اعباء تزويد المجاهدين الفلسطينيين في ثورات العقد الثلاثيني بالمال والسلاح . وكان الضباط الاحرار في فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ على رأس من رعى الثورة الفلسطينية .

وكانوا يرسلون مساعداتهم بالسر . واستضافوا زعماء فلسطين الذين هربوا من ملاحقة سلطات الانتداب . كذلك تطوع العشرات من الضباط الاحرار في ثورة اواخر ١٩٤٧ . اما في شرق الاردن ، وهو التتمة الطبيعية لفلسطين تاريخيا وجغرافيا ، فقد احس الشعب بالخطر الصهيوني وشارك الفلسطينيين مشاعرهم منذ ١٩٢٠ ، حينما اجتمع عدد من زعمائه في الثامن من مايو ورفعوا احتجاجا الى الجنرال بولز ، الحاكم العسكري في فلسطين ، ضد النوايا الصهيونية ، واعلنوا تضامنهم مع العرب . ثم عقد هؤلاء ، بعد اربعة اشهر ، اجتماعا تاريخيا في ام قيس مع الميجر سمرست (اللورد رجلن فيما بعد) طالبوا فيه بمنع الهجرة الصهيونية الى البلاد العربية وتوحيد شرق الاردن مع جاراته . ولما حصلت حادثة النبي موسى اوى الاردنيون زعماء الانتفاضة العربية ، ثم حملوا المندوب السامي على تخفيف الاحكام عنهم .

واخذ الشعب ، منذ ثورة ١٩٢٩ ، يلازم احداث فلسطين بتوجيه من الهيئات الوطنية فيه وعلى راسها حزب اللجنة التنفيذية المعارض لعبدالله . وقد دخل زعماء النضال الوطني في الاردن السجن ، خاصة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٦ ، لانهم رفضوا اوامر الامير بترك القضية له شخصيا ليعالجها حسب هواه وقادوا التظاهرات والاضرابات المتكررة تأييدا لحق عرب فلسطين وتنديدا بموقف حكومتهم المتهاون . وعقد المئات من الاحرار مؤتمرا كبيرا في بلدة ام العمد ، في السابع من يونيو ١٩٣٦ ، بدعوة من اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني ، جمعوا فيه المال والسلاح وارسلوهما مع عدة مئات من المقاتلين الى فلسطين . وبلغ عدد الاردنيين الذين اشتركوا في الدفاع عن فلسطين بين اواخر ١٩٤٧ ومنتصف ١٩٤٨ الفا ومئتي مواطن ، استشهد قائدهم ، محمد الحنيطي ، في حيفا .

غير ان موقف الاسرة الهاشمية كان يختلف عن الموقف الشعبي . حاولت الاسرة ان تضعف هذا التأييد الشعبي قدر الامكان ، ليس فقط لانها كانت تخالف المبادىء والاساليب التي تبنتها الحركة الوطنية لتحرير فلسطين وسارت عليها ، وليس فقط لان مصالحها كانت ترتبط مع المصالح البريطانية ارتباطا وثيقا ، بل ايضا لان زعامة الحركة الوطنية كانت تعارض الهاشميين وترفض ان تسكت عن اخطائهم . وسنرى في مكان لاحق من هذا الكتاب كيف خالف عبدالله رغبة شعبه مما حمل معارضيه على التظاهر واعلان الاضراب الشامل في كل من عمان والسلط في الايام الاخيرة من اكتوبر ١٩٣٣ احتجاجا على تعاون الامير مع الصهيونيين . وهاجم بعض المتحمسين القصر وهتفوا ضد سيده . فخرج اليهم وحاول تهدئتهم ، خوفا من ان تنتقل الشرارة الى سائر الاماكن وتحرق عرشه، وخطب فيهم خطابا وطنيا من النوع الذي اجاده عبدالله كل الاجادة ، ودعاهم الى العودة الى بيوتهم

مطمئنين الى ان القضية بين يديه يعالجها بحكمته .

لكن الشعب استمر يطالبه بالتوقف عن التعامل مع الصهيونيين . وسارت في شوارع عمان اكبر تظاهرتين في تاريخ المدينة حتى ذلك الحين ، في اليوم الثاني من نوفمبر ١٩٣٣ . وصب الشعب جام غضبه على الموظفين البريطانيين في البلد . وهاجم بعضهم بيك باشا ورجموه بالحجارة . وعندها انفجر عبدالله في المعارضة الشعبية واعلن الاحكام العرفية واعتقل المئات من الوطنيين . ثم انتظر حتى اخذ المجلس التشريعي اجازته السنوية في ١٩٣٤ واصدر قرارا بمنع اي اجتماع او تجمع سياسي بدون ترخيص من الحكومة ، واعقبه بقرار اخر نفى فيه عددا من المعارضين . وتمكن بذلك من شل النشاط الوطني الى حين . واستمرت التظاهرات عملا لا شرعيا الى بعد وفاة الملك .

اقبل وطنيو الاردن على التطوع في صفوف المجاهدين الفلسطينيين في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ . ولم يستطع عبدالله منع التطوع جهرا . فلجأ الى اسلوب اخر : فتح مجال التطوع في الجيش الاردني ، واعلن ان على من شاء ان يحمل السلاح في سبيل عروبة فلسطين ان ينضم اولا الى جيش بلاده ــ وبالطبع لم يكن ذلك الجيش عربيا الا بالاسم . ولم يكن مهيأ، بقيادته البريطانية، للحرب ضد البريطانيين والصهيونيين . على العكس من ذلك ، اعتمد عبدالله والبريطانيون على الجيش المذكور في مكافحة النشاط الوطني في شرق الاردن وفي فلسطين ان امكن . ثم منع عبدالله سفر الاردنيين الى فلسطين خلال الثورة خوفا من ان ينضم المسافرون الى وحدات القتال هناك او ان يزودوا الثائرين بسلاح او مال . ثم منع جمع الاموال لنصرة الثائرين وزعم انه يفعل ذلك لتنظيم عملية الجمع . ورد على مؤتمر ام العمد بان منع الاجتماعات السياسية وهدد رجال المؤتمر بالاعتقال ان اجتمعوا ثانية . وفي الوقت نفسه كان عبدالله يستضيف السياسيين ورجال الاعمال الفلسطينيين الذين تعاملوا مع الانتداب والوكالة اليهودية وخافوا على حياتهم فهربوا ولجأوا الى حمى الامير ، استضافهم وجاد عليهم باموال الدولة حينا من الزمن .

ومنع عبدالله المجاهدين السوريين والعراقيين من المرور في الاراضي الاردنية وهم في طريقهم الى جبهات القتال في فلسطين . راى ان هذا خير ما يفعله لشل العمل الثوري في فلسطين ، حسب ما اراد البريطانيون . وقد اعترف البريطانيون بجهود عبدالله لمصلحتهم من هذه الناحية ، وشكروه عليها علنيا بلسان معتمدهم في عمان في تقرير رفعه الى لجنة الانتدابات الدولية في ١٩٣٩ . وقد عهد عبدالله في تنفيذ المنع الى القوات البريطانية التي

كانت تقيم في شرق الاردن والى الجيش الاردني والى بعض قبائل البدو الموالية له . تعاون هؤلاء في اغلاق الحدود امام قوافل المجاهدين . ولم يتأخروا عن اطلاق الرصاص وقتل العشرات من المجاهدين ، خاصة في عجلون (مارس ١٩٣٦) وفي اليرموك (مارس ١٩٣٩) . ولم يسمح عبدالله لرجال الثورة الذين غادروا فلسطين بعد عقد الهدنة المؤقتة ١٩٣٦ بالمرور في الاردن في طريقهم الى سورية والعراق . وعامل الذين عبروا الحدود بفظاظة وطردهم راسا ، وعلى راسهم فوزي القاوقجي . وبنى بيك عشرات المخافر في عجلون واربد وخربة الفحل والمفرق لتعقب المجاهدين . وفي الوقت نفسه اشتركت القوات البريطانية والاردنية والبدو بحماية الصهيونيين الذين كانوا يترددون على الاردن من حين الى اخر لمصالح سياسية او تجارية . كما اسهمت تلك القوات في نقل اسلحة من اسلحة الجيش الاردني الى المعسكرات اليهودية قرب الحدود في سيارات ضباط الجيش البريطاني الخاصة ، وقد اعترف بذلك كش في مذكراته (٤) .

لكن الشعب لم يسكت . ثار على عبدالله في اكثر من مكان ، متضامنا مع عرب فلسطين ، وخاصة في جبال عجلون . هاجم الثائرون انابيب النفط ودمروها . ولغموا الطرقات التي استعملتها القوات لتعقب المجاهدين . فارسل عبدالله جيشه في ربيع ١٩٣٩ الى المنطقة لاخضاع المتمردين ، وارسل مع الجيش مسلحين من البدو . وبنى مهندسو الجيش البريطاني مئة كيلو متر من الطرقات ليسهل على القوات الاردنية مطاردة المتمردين . ولم يدع هؤلاء الى رمي السلاح الا انتهاء الثورة في فلسطين في اواسط ذلك العام . انتهت تلك الثورة الوطنية الخاطفة ، المجهولة لدى اغلب الناس ، بعد نشوب معارك ضارية اشهرها في بيت عديس في الرابع والعشرين من ابريل ١٩٣٩ . هرب المجاهدون الاردنيون ، بعد تلك المعركة ، نحو الحدود قرب نهر اليرموك . فلحق بهم البدو والجنود الاردنيون واغلقوا الحدود بين سورية والاردن وفلسطين ، وحاصروهم وافنوا قسما منهم . وتمكنت تلك القوات ، في الوقت نفسه ، من ان تقبض على مجاهدين فلسطينيين لجأوا الى هنالك خوفا من ملاحقة السلطات البريطانية لهم . وسلمتهم الى تلك السلطات التي اعدمت بعضهم بعد محاكمات صورية . وكان بين الشهداء المجاهد ذو الاسم الاسطوري يوسف ابو درة .

رافق الانتفاضة الوطنية حركة تأديب قام بها الوطنيون الاردنيون ضد الذين خرجوا عن الميثاق الوطني ورفضوا مقاطعة اليهود وروجوا لهم تجاريا وسياسيا . وكان (الامير) طلال ، ولي العهد انداك ، يقف الى جانب زعماء

(4) Lt. Col. E. M. kisch, Palestine Diary, P. 258.

تلك الحركة ويشاركهم في معارضة الحكومة . وقد غضب ابوه عليه وسجنه في بيته . واشترك مع الوطنيين عدد من ضباط الجيش وقوة الحدود ، من بقايا وانصار حزب الاستقلال . وبينهم من خالف أوامر عبدالله ورفض ملاحقة المجاهدين . ومنهم من ارسل الاسلحة الى ثوار فلسطين الوطنيين بالسر . لكن عبدالله اقصى تلك العناصر عن الجيش . ونفى من الاردن ، في خلال الثورة ، سبعة ضباط برتب عالية .

ومع ان عبدالله حاول في الظاهر ان يخدم عرب فلسطين بان ارسل عدة مذكرات رسمية الى المندوب السامي بين ١٩٣٣ و ١٩٣٩ ضمنها رأيه بالقضية الفلسطينية ، كانت هذه المحاولات تخدم اغراضه اكثر مما تخدم القضية بشكل عام . كان يحشوها بالكلام عن « اخطاء » العرب في فلسطين « وانحراف » قادتهم عن جادة الصواب ، وكأنه يريد ان يطعن بتلك القيادة اكثر مما يريد ان يخدم الاهداف القومية . وكان يتحدث فيها دائما عن صداقة العرب لبريطانية صداقة لا تنفصم عراها على الرغم مما كان يحدث — اي على الرغم من السياسة الظالمة التي كانت الحكومة البريطانية تتبعها ضد العرب (٥) .

لجأت سلطات العراق ، في عهد فيصل الاول خاصة ، الى كبت الحركة الوطنية التي ناصرت قضية فلسطين ، تمشيا مع سياسة الملك في التخلي عن القضايا العربية كأن امرها لا يعني العراق . بلغ ذلك الكبت اشده في فبراير ١٩٢٨ حينما عارض الوطنيون زيارة الصهيوني الكبير السير الفرد موند اللورد ملتشت فيما بعد) لبغداد . فقامت الحكومة باعتقال المتظاهرين وبنفي زعمائهم وجلد كل طالب هتف لفلسطين . وقامت السلطات باجراءات تعسفية مماثلة في السنة التالية لما استنكر الشعب اعتداءات الصهيونيين على المسجد الاقصى . والى جانب السجن والجلد ، عطلت الحكومة عدة صحف وطنية ومنعت التجمعات الشعبية وامرت رجال الشرطة باطلاق الرصاص على كل تظاهرة . وسقط عدة قتلى .

واهتم فيصل ، في السنوا تالاخيرة من ملكه ، بالتودد الى الصهيونيين املا بان يقربه ذلك من ميناء حيفا الذي اعد ليكون مصبا لنفط العراق . وقد رأى ان مهادنة الصهيونيين والتزلف الى البريطانيين يحققان له حلم الوصول الى البحر المتوسط ، ليدعم بذلك اقتصاديات العراق ، وان كان سلوك ذلك الاسلوب يتعارض مع الاماني القومية ومع الاتجاه الذي قام في شرق الاردن

---

(٥) ليراجع القارىء ، كمثال على تلك المذكرات ، ما كتبه عبدالله في رسالة الى المندوب السامي بتاريخ الخامس والعشرين من يوليو ١٩٣٤ . نصها في تكملة مذكرات الملك عبدالله ، المطبوع في واشنطن ١٩٥٤ ص ٩١ — ٩٢ .

وفلسطين في ذلك الوقت بالذات ينادي بتوحيد البلدين مع العراق وتمليك فيصل على المملكة العتيدة . وقد وصف مؤرخ عربي صديق لفيصل في كتاب معظمه مدح للعهد الفيصلي في العراق ، وصف انتشار الصهيونية في العراق في اعقاب حكم فيصل بقوله « تلاقي الفكرة الصهيونية رواجا وتأييدا في جميع الدوائر اليهودية على اختلاف النزعات والاحزاب . ويشترك الكل في تأييدها والبذل لها ... ان المدارس الاسرائيلية في العراق هي التي تتعهد هذه الفكرة وتنميها بتأثير الاساتذة اليهود الذين ترسلهم الجمعية الصهيونية ... ان بعض التجار اليهود يعمل جهد الطاقة على ترويج المصنوعات اليهودية التي تصدرها معامل فلسطين وعلى محاربة صناعات الامم الاخرى ... وقد انتشرت بهذه الواسطة مصنوعات المعامل اليهودية في اسواق العراق ... » ويتحدث الكاتب في صفحات اخرى عن النفوذ الصهيوني في الصحافة والمصارف والشركات والوظائف في العراق الهاشمي (٦) .

بالروحية نفسها التي ايد فيها جيش العراق الوطني ثورة فلسطين الكبرى قاوم المساعي التي بذلها الانجليز، بواسطة نوري السعيد ورجال الحكم التقليدي ، لمنع ذلك التأييد والتوقف عن ارسال الاسلحة والاموال وعن تدريب المتطوعين . ويفهم من مذكرات صلاح الدين الصباغ ان احجام السلطات الحاكمة في العراق عن مد يد المساعدة لعرب فلسطين كان من الاسباب الرئيسية للثورة الوطنية في ١٩٤١ . واننا نعلم ان تلك السلطات منعت الصحف منذ بدء الحرب من التحدث عن قضية فلسطين ، بل انها كانت تمنع الصحف احيانا من مجرد ذكر اسم فلسطين . كما انها سجنت عددا من الوطنيين المجاهدين بتهمة النازية . وقد استعمل الهاشميون هذه التهمة ضد وطنيي فلسطين المناضلين منذ سنوات في وجه الانتداب والصهيونية ، سواء من بقي منهم في فلسطين او من هاجر الى العراق . وسنذكر في مكان اخر كيف حرض عبدالله السلطات البريطانية ضد الحركة الوطنية في العراق والاردن متهما اياهما بالنازية . واغتنم الهاشميون سقوط ذلك العهد الوطني فاعتقلوا معظم من وجدوه في العراق من المجاهدين الفلسطينيين .

واستمر الهاشميون في سياسة كبت الحركة الوطنية من بعد زوال النازية وزوال منطق استعمال التهمة بها سلاحا ضد الوطنيين . ولكنهم لم يستطيعوا منع الشعب من مناصرة شعب فلسطين منعا مباشرا. لم يستطيعوا منع المئات من العراقيين والاردنيين ، مدنيين وجنودا ، من الالتحاق بميادين القتال ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . ولم يستطيعوا ايقاف حملات جمع السلاح والاموال

---

(٦) امين سعيد ، ايام بغداد ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩

لكنهم استطاعوا عرقلة النشاطات الوطنية والمشاغبة عليها بوسائل مبطنة . فاتهمت حكومة ارشد العمري ، ربيبة الوصي ، المتظاهرين من اجل فلسطين في يونيو ١٩٤٦ بالشيوعية واطلقت الرصاص عليهم وقتلت ستة منهم . ومنع بعض السياسيين التقليديين الجمعيات التي تألفت لمساعدة فلسطين ماليا وحلها واسس جمعية صورية . واستغل نوري السعيد الاحكام العسكرية التي اعلنت بسبب حرب فلسطين وسخرها للتنكيل بالوطنيين . وتغاضى المسؤولون العراقيون عن هجرة اليهود الى فلسطين بشكل جماعي منظم حملوا فيه اموالهم التي كانوا قد جمعوها من شعب العراق وذهبوا بها الى فلسطين. وقد زاد عدد هؤلاء على سبعة الاف ، قبل نكبة ١٩٤٨ . والعراق ، من هذه الناحية ، اكثر بلد عربي تغاضى عن الهجرة اليهودية باستثناء اليمن في عهده الملكي .

اما التفاهم المسبق الذي تم بين الهاشميين والصهيونيين في حرب فلسطين ، وكان ذروة انحراف الهاشميين عن الخط القومي ، فسنترك البحث فيه الى صفحات تالية . وتتضح خطورة هذا التفاهم اكثر اذا كانت خطورة الحركة الصهيونية تتضح هي ايضا في ذهن القارىء . هذا ما سنحاول استعراضه الان ، دون ان نعود الى تفصيل اهداف الصهيونية ومعارضتها للاماني والحقوق العربية .

خطط الصهيونيون برنامجا طويلا ومفصلا للوصول الى غايتهم الاولى : تأسيس دولة لهم في فلسطين . وهي ، بحد ذاتها ، خطوة نحو غاية ابعد : تأسيس دولة ذات حدود اوسع من فلسطين ، تشمل جزءا من مصر وسورية ولبنان ، وشرق الاردن كله تقريبا . كان هذا المخطط يسير في عدة مجالات من بعد اقامة الكيانات والانتدابات في اعقاب الحرب العالمية الاولى .
المجال الاول : متابعة شراء الاراضي في فلسطين في ظل الانتداب ، ومتابعة الهجرة الى فلسطين ، لان ذلك يرسخ اقدامهم في البلد الذي اختاروه بالظلم ، وطنا قوميا .

لم يكن عدد اليهود في فلسطين يبلغ عشر السكان في اي وقت من الاوقات قبل اعلان الانتداب البريطاني على فلسطين . كان عددهم اقل من ثلاثين الفا من مجموع ثلاث مئة الف في ١٨٨٢ ، واقل من سبعين الفا من مجموع سبع مئة الف في ١٩١٨ . لكن نسبتهم اخذت تقفز ، بسبب سياسة الانتداب التي سمحت بدخول الاف المهاجرين كل سنة والتي كانت تغض بصرها عن الاف اخرى يدخلون دخولا غير شرعي . فارتفع عدد يهود فلسطين في ١٩٣٠ الى مئة وخمسة وستين الفا من مجموع مليون تقريبا ، ثم ارتفع الى اربعمئة وسبعين الفا من مجموع مليون ونصف تقريبا في ١٩٤٠ .

واصبح عددهم في مايو ١٩٤٨ ثلثي مليون من مجموع مليون وثلاثة ارباع المليون . **اي ان اليهود اصبحوا ، في مدى ثلاثين سنة ، اربعين في المئة من السكان ، مما يعني ان نسبتهم الى مجموع السكان تضاعفت في عهد الانتداب اربع مرات** . وقد مكنهم تأسيس « اسرائيل » في جزء من فلسطين من قلب هذه النسبة ، فاصبح عددهم ، بعد تأسيسها باربعة عشر عاما ، يزيد على المليوني يهودي ، بينما لا يتعدى عدد العرب ربع المليون — اي ان النسبة انقلبت تماما على ما كانت عليه في مثل هذا الوقت من القرن الماضي ، فاصبح اليهود هم التسعون في المئة والعرب عشرة في المئة فقط .

ومع ازدياد عدد اليهود ازدادت مساحة الارض التي يملكون ، مع ان عرب فلسطين الذين لم يقووا على منع الهجرة استطاعوا ان يمنعوا بيع اراضيهم الى حد بعيد ، كما راينا قبل قليل . كان التملك اليهودي لارض فلسطين بمساعدة حكومة الانتداب التي آثرت اليهود على العرب ، وبمساعدة عائلات عربية غير فلسطينية (معظمها لبناني) وليس بمساعدة عرب فلسطين . كان لليهود في ١٩٢٠ حوالي اربعمئة الف دونم ارض من مجموع ستة وعشرين مليون دونم ، اي بنسبة واحد ونصف في المئة فقط . وتضاعف حجم اراضيهم عدة مرات في عشرين سنة ، فاصبح مليونا وخمس المليون من الدنمات في ١٩٣٠ ومليونا ونصف المليون في ١٩٤٠ ومليونا وستة اعشار المليون في مايو ١٩٤٨ ، اي بنسبة ستة ونصف في المئة من ارض فلسطين . مما يعني **اننسبة اراضي اليهود تضاعفت في عهد الانتداب مثل نسبة السكان : اربع مرات** . وقد اشرفت الوكالة اليهودية على مهمتي شراء الاراضي واستقدام المهاجرين ، مثلما اشرفت على كافة الشؤون ذات العلاقة بتأسيس الوطن القومي . وكانت الوكالة قد تأسست بعد بدء الانتداب بسنوات ، واعترف الانتداب بها كمؤسسة مسؤولة عن يهود البلاد وعن القضية اليهودية ، بشكل عام . وكانت الوكالة توزع عملها بين يهود فلسطين والعالم . وقامت باعمال الدعاوة والتجسس وشراء الضمائر ولم الاموال وتدريب الفدائيين وغير ذلك من الجهود التي نجحت في ١٩٤٨ باقامة دولة « اسرائيل » .

المجال الثاني : التسلح والتدرب العسكري . وقد سبق للصهيونيين ان بداوا الاستعداد العسكري من قبل ١٩٢٠ . فالتحق عدد منهم بالجيش البريطاني في الحرب العالمية الاولى . وسميت قواتهم « فرقة بغال صهيون » ثم سميت « القوات الملكية » . واسس احد زعمائهم ، ارون اهرنسن ، فرقة للاستخبارات تابعة للجيش البريطاني في مصر وفلسطين . وكان الرجل عالما نباتيا وقد اكتشف نوعا من القمح البري . وكان زملاؤه في الفرقة ينتمون الى المكتب العربي الذي تراسه الدكتور هجارث في القاهرة . واسهم الجنود اليهود في احتلال شرق الاردن ، وخاصة منطقة السلط ، في ١٩١٧ .

اغتنم الصهيونيون اعلان الحرب العالمية الثانية (وكانوا هم ، في الواقع، من مسببيها) وانضم عدد منهم الى القوات البريطانية من جديد ، وقصدهم من ذلك جمع السلاح وتخزينه والتدرب العسكري في ميادين القتال لتكوين نواة جيش يتولى تأسيس دولتهم فيما بعد . وارادوا من هذا التطوع ، في الوقت نفسه ، ان يزعموا ان لولاهم لما كسب الحلفاء الحرب ، ليقبضوا ثمن مساعداتهم وعدا جديدا يكمل وعد بلفر الذي نالوه في ظروف مماثلة في الحرب الاولى . واذ كسب اليهود ، من انضمام عدة الاف منهم الى الجيش البريطاني ، اسلحة جديدة سرقوا معظمها من مستودعات الجيش او اشتروه بالاسواق السوداء ، فان الحلفاء لم يكسبوا منهم شيئا كثيرا ، لانهم لم يحاربوا محاربة فعلية الا في اماكن قليلة واوقات قصيرة . وكان عدد محاربيهم واثر اعمالهم اضعف واقل من ان يؤثر في سير الحرب ، مع ان عددهم بلغ حوالي ثمانية عشر الفا . اما في فلسطين نفسها فقد بلغ عدد الشرطة اليهود الذين تدربوا وعملوا مع البريطانيين حوالي اربعة وعشرين الفا . وقد كان هؤلاء الجنود والشرطة نواة جيش « اسرائيل » وشرطتها . وهم الذين قاموا بسلب القسم الاكبر من فلسطين وتشتيت سكانه .

حري بنا ان نتذكر ، ونحن نتحدث عن هذه القوات الصهيونية في الحرب الثانية ، انها اسهمت في اعادة النفوذ الهاشمي الى العراق في مايو ١٩٤١ مثلما اسهمت في احتلال الحلفاء لسورية ولبنان في يونيو ويوليو ١٩٤١ ، جنبا الى جنب قوات البادية الاردنية . وكان معظم الصهيونيين المشتركين في حملة العراق من عصابة الارجون زفاي لاومي التي طفح سجلها بالاعمال الوحشية ضد العرب ــ وكان بعض هؤلاء الارهابيين قد نقله البريطانيون الى قاعدة الحبانية من قبل احداث ربيع ١٩٤١، تحسبا للطوارىء. اما حملة سورية فاشترك بها جنود من الهاجانه ، صاحبة الدور الاكبر في حرب فلسطين ١٩٤٨ ، بقيادة موشى ديان الذي فقد احدى عينيه واحد اصابعه في تلك الحملة . وكان ديان قد اعتقل في ١٩٣٩ لقيامه باعمال شغب . لكن السلطات البريطانية افرجت عنه عند الاستعداد لحرب سورية ليساعدها في ذلك قبل ان يعلن الالمان استقلال البلاد فيصعب على البريطانيين الهجوم عليها بعد ذلك .

ليس غريبا ا نيخدم جنود (الاميرين) عبدالله وعبد الاله مع الصهيونيين وقد استضاف اولهما المئات من الجنود الصهيونيين مدة طويلة في شرق الاردن . يفاخر الحاخام رابنوتز في كتابه « جنود من اليهودية » بان « الشرق الاوسط ، من الحبانية الى طبرق ، مملوء بقبورهم (اي قبور الجنود اليهود في الحرب العالمية الاخيرة) وهي تحمل شعاراتها الخاصة ، وتمتاز عن غيرها

من القبور بمجن داود ، مثلثي درع داود » (٧) . والمجن هو شعار الحركة الصهيونية ودولة « اسرائيل » الحالية .

ارسل الانجليز قوات يهودية الى الاردن في ١٩٤٢ للاشراف على الامن فيه خلال الحرب ولحراسة معسكرات الاعتقال التي وضع فيها الوطنيون العرب بتهمة ميولهم النازية ، بعد ان حرض عبدالله الانجليز ضد الحركة الوطنية وطلب منهم ان يعينوه في شل نشاطها « النازي » اثر ثورة العراق . واشرف الجنود اليهود ايضا على تأمين مواصلات القوات البريطانية ، بعد ان انخفضت ثقة الانجليز بقوة الحدود التي كانت تتولى المهمة من قبل عصيان عدة مئات من ضباطها وجنودها اوامر القيادة البريطانية بالهجوم على العراق .

كانت القوات اليهودية في الاردن يهودية تماما ، مئة في المئة ، كما يؤكد الحاخام رابنوتز . لغتها هي العبرانية ، بها تصدر الاوامر والمعاملات والصحف وعلمها هو مجن داود . واحتفالاتها واناشيدها قومية صهيونية . كذلك برامجها الثقافية وخطبها التوجيهية . وكل جنودها وضباطها من اليهود . اما النفسية فكانت صهيونية تماما ، اذ ان الخدمة العسكرية عند اليهود انما كانت « عودة الى بلاد اسرائيل » كما يقول الحاخام المذكور .

كانت القوات اليهودية تتصل بالسكان اليهود في كل بلد عربي تنزل فيه ، الا في مصر حيث منعت تلك القوات من ان تتصل بالجالية اليهودية هناك ــ وكانت حكومة مصر قد رفضت استقبال القوات اليهودية على اراضيها الى ان اقال الانجليز تلك الحكومة واعتقلوا رئيسها وبعض اعضائها . اما عبدالله فقد رحب بتلك القوات لما استضافها في بلاده وشعر بان عليه مسؤولية خاصة تجاهها لعدم وجود يهود في شرق الاردن . وقد دعا شباب بلاده الى خدمة هذه القوات . والواقع انعددا منهم لبى دعوته ، الا ان معظمهم هرب من الخدمة بعد اشهر قليلة لما وجد نفسه جنبا الى جنب اعداء بلاده .

تركز معظم القوات اليهودية في العقبة ، حيث وضعوا مشاريع لبناء مصالحهم في المنطقة بعد تأسيس دولة « اسرائيل » . واخذ الضباط يوجهون الجنود توجيها صهيونيا في تبيان اهمية المنطقة لدولتهم في المستقبل . يجد القارىء وصفا مطولا لذلك في كتاب الحاخام آنف الذكر الذي قال مفاخرا « **هناك ... في شرق الاردن ... ارتفع العلم الازرق والابيض مع مجن**

---

(7) L. Rabinowitz, Soldiers from Judea (London, 1944), P. 11

داود » (٨) .

المجال الثالث : تأليف العصابات الارهابية . اقدمها واشهرها هي الهاجانة ، التي تأسست نواتها باسم اخر منذ ١٩٠٥ بشكل منظمة دفاعية لحماية المستعمرات الصهيونية من غضب عرب فلسطين . وبعد ان اشترك رجالها في الحرب الاولى اعيد تنظيمها في ١٩٢٠ بعد ان انتظم العمل الصهيوني للاستيلاء على فلسطين . وادت الهاجانه دورا خاصا في مكافحة ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ باشراف ضابط بريطاني غير يهودي ، (الكابتن) تشارلز اورد ونجيت ، الذي وضع الصهيونيون حول اسمه هالة كبيرة من الدعاوة الجوفاء، الى ان حطمها السجل الرسمي البريطاني لاحداث الحرب الاخيرة في الشرق الاقصى حيث مات الضابط المذكور خلال الحرب (وقد صدر السجل في ١٩٦٢) . وقيل انه مات وهو يحمل توراة اليهود على صدره . وكان قريبا غير حميم للورنس ، وقريبا حميما لرجنلد ونجيت صديق الحسين في الثورة العربية . وهو الذي درب رجال الهاجانه على القتال ، وانتقل بهم من الدفاع الى الهجوم على العرب . واشرف اشرافا خاصا على واحد من ضباط الهاجانه، موشي ديان الذي اصبح قائدا لجيش « اسرائيل » فيما بعد .

استخدم الصهيونيون الهاجانه خلال الحرب العالمية الثانية لجمع الاسلحة من القوات البريطانية . وكان عدد افرادها عند نهاية الحرب ثلاثين الفا . واصبحت الجيش الرسمي للحركة الصهيونية منذ ذلك الحين . وكان لها مخازن واسعة من الاسلحة ، ومحطات للاذاعة وشبكات للجاسوسية المنظمة .

الارجون زفاي لاومي ، اي المنظمة العسكرية القومية ، هي ثاني العصابات الصهيونية في الاقدمية . اسسها الارهابي ديفد رازل في العام ١٩٣٨ . وجعل شعارها يدا سمراء تحمل بندقية فوق خريطة فلسطين وشرق الاردن وسورية ولبنان ــ وهو شعار كاف للتعبير عن اهداف العصابة . وقد قتل مؤسسها في العراق ، في مايو ١٩٤١ ، وهو يحارب مع الجنود الصهيونيين والاردنيين في سبيل اعادة الهاشميين الى البلاد وازالة الحكم الوطني . ودفن في الحبانية ، ووضعت على قبره لوحة تحمل اسمه وعليها درع داود . وكانت المنظمة ، قبل ذلك الوقت ، قد قامت بحملة ارهابية ضد عرب فلسطين ، خاصة بعد صدور الكتاب الابيض ربيع ١٩٣٩ . وقتلت ابرياء كثيرين وزرعت القنابل وانزلت الدمار في الاحياء الامنة .

اسس احد زعماء الارجون ، ابراهيم شتيرن ، عصابة تحمل اسمه في

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٤ ـ ٤٤

١٩٤٢ ، لها اهداف الارجون ذاتها . وقد تعاونت العصابتان في اعمالهما الارهابية . وقامتا معا بنسف فندق الملك داود في القدس حيث قتل اكثر من تسعين شخصية كبيرة ، بريطانية وعربية . كما اشتركتا في قتل الوزير البريطاني اللورد موين في القاهرة ، وفي مذبحتي دير ياسين ويافا في مطلع حرب فلسطين ١٩٤٨ .

كان القصد من تشكيل هذه العصابات مزدوجا : التحضير لتكوين جيش يقوم بمحاربة العرب وبتأسيس دولة « اسرائيل » لما يحين موعد تأسيسها ، وارهاب العرب ليجلوا عن فلسطين فيحتل اليهود مساكنهم واراضيهم باهون السبل . وقد ادت العصابات الصهيونية هاتين المهمتين الى حد بعيد من النجاح .

المجال الرابع : التركيز الدعاوي المنظم في الاوساط الدولية على وجوب تأسيس دولة « اسرائيل » .

كان في الحركة الصهيونية منذ مولدها حتى مطلع الحرب العالمية الثانية اتجاهان رئيسيان : اتجاه يجاهر ، بصراحة ، برغبته في فلسطين كلها وفي اجزاء واسعة من شرق الاردن ولبنان وسورية ، ويطالب بها دفعة واحدة ، بزعامة جبوتنسكي . وكان دعاة هذا الاتجاه ينضوون تحت لواء جماعة من هاتين الجماعتين : الحزب الاصلاحي والمنظمة الصهيونية الجديدة . اما الاتجاه الاخر فكان يكتفي بجزء من فلسطين كخطوة اولى نحو احتلال فلسطين كلها وجاراتها فيما بعد ، وكان يرى ان تحقيق الدولة الصهيونية الكبرى لا يتم الا على دفعات . وقد تزعم الدكتور وايزمن هذا الاتجاه ، وايدته الوكالة اليهودية والهاجانه واغلبية المنظمة الصهيونية العالمية . ونفهم من استعراض هذين الاتجاهين انهما كانا يتفقان في الغاية ولا يختلفان الا في الاسلوب ، وفي التوقيت .

بازدياد المهاجرة الى فلسطين وترسيخ سكنى اليهود الجدد فيها واشتداد عطف العالم عليهم بسبب قسوة النازيين في معاملتهم وبسبب مبالغة اليهود في تصوير اضطهاد بعض بلدان اوربة لهم قبل الحرب ، وبالتقاء الحكومة الاميركية مع الحكومة البريطانية في تأييد الصهيونية بعد ان نمت اهتمامات الولايات المتحدة بشؤون الشرق الاوسط ، بسبب ذلك كله بدأ الخط الفاصل بين الاتجاهين آنفي الذكر يضعف ، وحلت محلهما حركة وسط بينهما تكتفي بفلسطين كخطوة اولى ، انما تريدها حالا ، وفي اسرع وقت ممكن ، قبل ان يصبح اليهود اكثر من نصف السكان في فلسطين كما كان الصهيونيون قد اتفقوا مع الانجليز من قبل . وقد تزعم بن جورين هذا الاتجاه الجديد ، منذ

ان نشبت الحرب العالمية الثانية، وبعد ان افشل الصهيونيون مشروعا انجليزيا جديدا لاسكان اليهود في جيانه البريطانية في ديسمبر ١٩٣٨ . وتجلت قوة الاتجاه الجديد في المؤتمر الصهيوني العالمي الذي انعقد في مايو ١٩٤٢ في فندق بلتمر في نيويورك .

طالب المؤتمر المذكرر بفتح ابواب فلسطين امام الهجرة اليهودية وافلات هذه الهجرة من اي قيد ، وتحويل الوكالة اليهودية الى حكومة رسمية تؤسس دولة اسرائيل رأسا . عنى هذا القرار الذي وافقت عليه اغلبية المؤتمرين ان الصهيونيين « المتطرفين » رضوا بالاكتفاء بفلسطين مؤقتا ، بينما رضي « المعتدلون » بان يبنى الكيان المنشود حالا وفي فلسطين كلها . واهمية هذا الاتفاق في ١٩٤٢ ان الصهيونيين اسفروا عن وجوههم تمام الاسفار ولم يعد بامكانهم ان يدعوا انهم اصدقاء مخلصون للعرب ولا عاد بامكان اصدقائهم من العرب ، الهاشميين وغير الهاشميين ، ان يدعوا العرب الى مصادقة الصهيونيين والركون الى وعودهم . ولم يعد موقف الحركة الوطنية السلبي المتطرف من الصهيونية يحتاج الى دفاع وتبرير ، اذ ان تلك المقررات دلت على صحة تخوفات الحركة الوطنية من الصهيونية التي ظهرت اخطارها حتى اعترف بها اكثر الناس تعاميا عن رؤية الحقائق .

المجال الخامس : محاولة اخلاء فلسطين من السكان العرب ليأخذ المهاجرون اليهود اماكنهم في البلاد ويستولوا على ثرواتهم واراضيهم . وقد مرت هذه الفكرة في اذهان العشرات من المسؤولين الصهيونيين الذين بحثوا في مدى استيعاب فلسطين للمهاجرة اليهودية . واشار الكثيرون منهم اليها بطرف خفي في معظم الاحيان ، خوف ان يؤدي افصاحهم عن نياتهم الى تأليب الرأي العالمي العام ضدهم . وبينهم من تحدث في الموضوع بصراحة منذ مطلع القرن ، مثل اسرائيل زانجول ، في ١٩٠٥ . وكان مفكرون صهيونيون اخرون قد رددوا الفكرة نفسها في مؤتمر عقدوه في ١٨٨٢ ، وتضمن بلاغهم الختامي دعوة لتهجير اهل فلسطين عن اراضيهم لاسكان يهود اوربة مكانهم . اما اكثر الصهيونيين حماسا للتهجير فهو فلادمير جبوتنسكي مؤسس « الحركة الاصلاحية » . وكان يدعو الى نقل اثني عشر مليون يهودي الى فلسطين وشرق الاردن وجنوب سورية ولبنان ليحلوا محل سكانها .

دعا اغلب الصهيونيين الى اجلاء عرب فلسطين عن اراضيهم باسلوب مبطن : اي بتشجيع العرب على الانتقال الى اراض عربية اخرى ، في سورية والعراق ، تاركين ارض ابائهم واجدادهم ليهود اوربة واميركة ممن لا يمتون الى تربة فلسطين باي صلة او حق . ويجد القارىء مثالا على هذه الدعوة في اكثر من مكان من مذكرات الدكتور وايزمن . وكان هذا الزعيم الصهيوني

قد عرض الفكرة على الحكومة البريطانية رسميا في مباحثاته مع وزير المستعمرات ، اورمسبي جور ، في يوليو ١٩٣٧ ، قبيل نشر تقرير اللورد بيل الذي ردد الفكرة ذاتها بتأثير من الحركة الصهيونية .

برزت هذه الفكرة، علنا وبصراحة ، من بعد ان اتخذ مؤتمر بلتمر قراراته اواسط ١٩٤٢ ، اذ كان مطلب تهجير عرب فلسطين من صلب تلك المقررات . كتب الاستاذ الجامعي رينولد نيبور مقالا عن « اليهود بعد الحرب » في مجلة « نيشن » يؤيد فيه انشاء اتحاد عربي فدرالي خارج فلسطين يهاجر اليه عرب فلسطين (٩) . وخطب زميله الجامعي سالو بارون في مؤتمر مؤسسة « هرس » الاميركية في العام نفسه يقترح نقل عرب فلسطين والمناطق المجاورة لها التي ستضم الى دولة « اسرائيل » الى العراق ليبنوا فيه ، كما قال المحاضر، امجاد بابل القديمة بينما يبني اليهود في القدس امجاد داود وسليمان . وكتب السير نورمن انجل في مقا لله في « جوش فرنتير » بانعرب فلسطين يجب ان يخرجوا من بلادهم اذا كان وجودهم فيها مانعا للهجرة . وكان عنوان مقاله الوقح « شرط نجاح الصهيونية » (١٠) . وظهر في الفترة نفسها كتاب يحمل هذه الفكرة ، دعا مؤلفه الاميركي الى تأسيس اتحاد فدرالي اسلامي (يشمل البلاد العربية والافغان وتركية) لتوطين عرب فلسطين الذين يجلون عن وطنهم (١١) .

وراجت الفكرة في اوساط عالمية كثيرة ، خاصة في صفوف حزب العمال البريطاني . ولعل هرلد لاسكي كان اول مسؤول عمالي يدعو للمشروع الجائر عمليا ، في كتاب بعث به الى فلكس فرانكفورتر في العام ١٩٣١ ، يقترح فيه ان ينقل عرب فلسطين الى شرق الاردن (١٢) . وقد تبنى حزبه هذا المشروع في مؤتمره السنوي ، في ابريل ١٩٤٤ ، وكان لاسكي يتولى رئاسة الحزب انذاك . وقد نصت قرارات المؤتمر على طلب تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وعلى ، « تشجيع العرب على الخروج من فلسطين ليأخذ اليهود محلهم ... واعادة فحص امكان توسيع حدود فلسطين الحاضرة ، بالاتفاق مع مصر وسورية وشرق الاردن » .

لم يكن غريبا اذن ان يتم تنفيذ مشروع طرد العرب من فلسطين في عهد حكم حزب العمال في بريطانية . وسنرى بعد قليل كيف مهد الحزب مع الملك عبدالله لتنفيذ التقسيم واجلاء مليون عربي تقريبا : جرى التنفيذ في ربيع

(٩) راجع عددي ٢١ و ٢٨ فبراير ١٩٤٢

(١٠) عدد يونيو ١٩٤٣ .

(11) Ely Culbertson, Summary of the World Federation Plan (New York, 1943).

(١٢) الرسالة في كتاب :

Kingsly Martin, Harold Laski (London, 1953), P. 210.

١٩٤٨ ، حينما ارغم معظم اهل فلسطين على مغادرة ديارهم واللجوء الى شرق الاردن او مصر او سورية او لبنان . كان الفلسطينيون ، حتى ذلك التاريخ ، قد تحملوا اعتداءات الصهيونيين المتكررة مدة خمسة اشهر ، الى ان لجأ الصهيونيون والعسكريون البريطانيون الى اساليب وحشية اجلت السكان بالقوة . اما قبل ربيع ١٩٤٨ فقد انحصرت الهجرة عن فلسطين في عدد ضئيل جدا نسبيا، وكان معظم المهاجرين من معارضي الحركة الوطنية الذين تحدوا قرارات الهيئة العربية العليا لفلسطين واوامرها لهم بالبقاء وهربوا من المعركة مثلما كانوا قد تحدوا قراراتها واوامرها من قبل في اكثر من مسألة .

نصل اخيرا الى موضوع الطمع الصهيوني بالاردن ، بشكل خاص . ومن المعلوم ان حدود « اسرائيل » التي حلم الصهيونيون بها لا تقف عند الحدود التقليدية لفلسطين (ما بين رأس الناقورة وجسر بنات يعقوب والعقبة ورفح) بل هي تتعداها من الجهات البرية الثلاث . وليست فلسطين الا نقطة ارتكاز وقاعدة للانطلاق الى الدول العربية المجاورة . وسنعني في هذه الصفحات بالجهة الشرقية فقط ، عبر نهر الاردن ، حيث اراد الصهيونيون ان تقفز حدود دولتهم الى ما وراء وادي الغور لتشمل شرق الاردن كله ، وحجتهم ان بعض القبائل اليهودية سكن هناك قبل ثلاثة الاف سنة ، مثل بني روبين وجاد ومنسى كما جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس ، وان سليمان استولى على المنطقة وبنى فيها ميناء العقبة البحري مما جعل المنطقة ، حسب زعمهم ، جزءا لا يتجزأ من « ارض الموعد » .

اما الاسباب الحقيقية للطمع في الاردن فهي اقتصادية في الدرجة الاولى . فان فلسطين ، على خصبها ووفرة خيراتها ، لاتتسع للملايين من يهود العالم الذين املت الحركة الصهيونية ان تنقلهم الى فلسطين قبل تأسيس الدولة الصهيونية او بعده . وشرق الاردن ارض بكر يمكن الافادة مما فيها من معادن وما في مياهها من املاح . وهناك اسباب سياسية في الدرجة الثانية . يتوغل الصهيونيون ، عند احتلالها ، الى اطراف الجزيرة العربية ، ويجاورون المملكة العربية السعودية والعراق مما يسهل عليهم التحكم بجزء كبير من الوطن العربي في اسية ويسيطرون على اكثر من نصف الرقعة المعروفة انها مركز الثقل فيه . وهناك ايضا اسباب فنية . ان الاستيلاء على شرق الاردن اسهل من الاستيلاء على اية بقعة اخرى من الناحية العملية، مما يشكل خطوة نحو توسيع الدولة العتيدة من الجهات الاخرى : في سيناء وسورية ولبنان .

يصح ان نعتبر لورنس الفنت ، تلك الشخصية المعقدة الغريبة التي خدمت الصهيونية دون ان تتهود ، رائد المسعى لتهويد الاردن مثل تهويد

فلسطين . انه اول من حاول ترسيخ اقدام المهاجرين اليهود الاوائل في شرق الاردن . وكان قد ذهب الى عاصمة السلطنة في ١٨٧٩ و ١٨٨٣ ليقنع السلطان عبد الحميد بان يبيعه ارضا عبر نهر الاردن لاسكان مهاجرين يهود فيها . لكنه فشل لصلابة موقف السلطان وخوفه من ان يفرط بحقوق عرب المنطقة وما قد يتأتى عن ذلك التفريط من تهديد لمركزه في الامبراطورية ، مع ان كلا من رئيس الحكومة ووزير الخارجية البريطانية (دزريلي وسولزبري) كان قد تبنى المشروع وشجع الفنت عليه ، ومع ان الفنت تزود بمبالغ كبيرة من المال قدمها له آل روتشلد لاغراء السلطان وحاشيته .

مات الفنت قبل ان يحقق مشروعه . فواصل البارون ادمند روتشلد المسعى في اخر عقود القرن الماضي . وتمكن من شراء ارض في شرق الاردن بعد جهد طويل واغراء مالي كبير . بلغ حجم هذه الارض سبعين الف دونم ، في جولان . غير ان تراجع عبد الحميد بسبب ضغط العرب عليه ، وتعديات عرب الاردن على المستعمرات الصهيونية الجديدة ، وفقر المنطقة بالنسبة الى ارض الساحل ، حمل الصهيونيين على تركيز نظرهم على ارض فلسطين نفسها كاصلح مكان لبناء المستعمرات والقواعد والحصون ونقاط الانطلاق ، في عشرين السنة الاولى من القرن الحالي .

لا يعني هذا ، بأي حال من الاحوال ، ان الحركة الصهيونية صرفت نظرها عن شرق الاردن بعد تلك المطالب والعراقيل ايام عبد الحميد . بل انها كانت تنظر الى ضفة النهر الشرقية بالعين نفسها التي تنظر بها الى فلسطين ، وهي عين الشره الاستعماري . وجدير بالذكر ان هيرتزل ، مؤسس هذه الحركة في اواخر القرن الماضي ، ابدى اهتماما خاصا بوادي الاردن في كتاباته . وتبعه في ذلك الاهتمام اغلب مفكري الحركة وادبائها في مطلع هذا القرن. ولعل خير من يمثل ذلك الاتجاه هو الحاخام صموئيل هلل ايزاكس، الروسي الاصل الذي استوطن الولايات المتحدة الى ان مات فيها ١٩١٧ . وقد كتب ، في اواخر حياته ، دراسة شهيرة عن حدود « اسرائيل » قدمها الى المؤتمر الصهيوني الاميركي الذي انعقد في نوفمبر ١٩١٧ (١٣) .

بنى الكاتب نظرية الحدود ، وقد اصبحت هي النظرة الرسمية للحركة الصهيونية بعد الحرب الاولى ، على ما جاء في التوراة من تحديدات لارض « اسرائيل » (١٤) . وجعل لهذه الارض حدين : حدا ادنى لدولة هي مجرد

---

(13) Samuel Hillel Issacs, The True Bounderies of the Holy Land (Chicago, 1917).

(١٤) مثل سفر التكوين ١٥ : ١٨–٢٠ ، الخروج ٢٣ : ٣١ ، العدد ٣٤ : ١–١٢ ،التثنية ١١ : ٢٢–٢٤ ، يشوع ١٥ : ٢–٣ و ١ : ٤

الخطوة الاولى والمرتكز ، وحدا اشمل ، لدولة تقوم بالتدريج بعد الحصول على الحد الادنى . وبينما تصل حدود الدولة الاشمل الى العراق ومصر (اي من النيل الى الفرات) تكتفي الدولة الاصغر بضفتي نهر الاردن ولبنان كله وجزء من غرب سورية ، وتصل حدودها الشمالية الى حدود تركية ، شاملة خليج الاسكندرون .

بوحي هذا التفكير اعتبر الصهيونيون شرق الاردن جزءا من وطنهم وجزءا من الارض التي وعدهم بلفر بها في نوفمبر ١٩١٧ . وان كنا نصدق المصادر الصهيونية فان كلا من الوزراء البريطانيين الثلاثة ، بلفر وكيرزن وايمري ، فهم الوعد كذلك . لذلك حددت المنظمة الصهيونية الوطن القومي بانه من البحر المتوسط في الغرب الى سفوح لبنان ومنابع الاردن وحرمون في الشمال الى الصحراء السورية في الشرق الى خليج العقبة في الجنوب . هذا هو التحديد العلني الذي قال به « المعتدلون » . اما « المتطرفون » فقد رفضوا هذا التحديد واصروا على توسيعه ليبلغ الفرات والنيل . وهناك دراسة جيدة عن الموضوع كتبها يهودي صهيوني كان طالبا في جامعة اكسفرد بعنوان « حدود امة » (١٥) .

صعق الصهيونيون لاتفاق لويد جورج مع كلمنصو في شتاء ١٩١٨ ــ ١٩١٩ على تعديل اتفاقية سايكس ــ بيكو بحيث فصل شرق الاردن عن فلسطين ووضع كلاهما تحت الانتداب البريطاني واضيف جنوب لبنان الى لبنان وغرب سورية الى سورية ووضع كلاهما تحت الانتداب الفرنسي . واخذت الصحف والاحزاب والابواق الصهيونية تهاجم هذه الاجراءات منذ اواخر ١٩١٨ . وانحاز الى الصهيونيين الرسميين بعض اصدقائهم، امثال النبي وجورج ارثر بلفر وهربرت صميول وجوزيه كلمنت ودجود، وقد اصبحوا كلهم لوردات فيما بعد ، وامثال ونستن تشرتشل (السير ونستن فيما بعد) والرحالة الجغرافي السير جورج ادم سمث . ومما يروى ان الميجر جنرال السير لويس بولز حاكم فلسطين المحتلة قابل (السير) هربرت صميول الذي جاء الى فلسطين ليتسلم منه حكم البلاد كاول مندوب سام عليها ، قابله على محطة سكة الحديد في القدس وسلمه وصلا كتب عليه « تسلمت بلدا فلسطينيا واحدا في حالة سليمة » . فوقع صميول على الوصل بعد ان اضاف ما ترجمته « ... بعد خصم الاخطاء وحسم النقصان » . وقد فسر صديق صميول ، ماينرتز هاجن ، هذه الاخطاء وهذا النقصان باجراءات الحكومة البريطانية بسلخ سيناء وشرق الاردن وجنوب لبنان وغرب سورية عن

---

(15) M. F. Frisch Wasser - Ra'anan, The Frontiers of a Nation (London, ?).

فلسطين الموعودة لليهود (١٦) .

يفضح كتاب فرشواسر رعنان ، آنف الذكر ، المحاولات التي بذلهـا الصهيونيون انذاك ، بمساعدة تلك المجموعة من اصحابهم الكبار ، لالغاء الاتفاقات الدولية واعتبار شرق الاردن وفلسطين بلدا واحدا . وقد اعتبرهما كذلك مشروع وايزمن الذي قدمه الى مؤتمر الصلح ، ثم مشروعه الاخر الذي تقدم به في السنة التالية الى اللورد كيرزن لاسكان مئتي الف مهاجر يهودي في فلسطين وسبعين الفا في شرق الاردن كاساس للمهاجرة المستمرة الى البلدين . غير ان تلك المحاولات فشلت لان الحكومة البريطانية كانت حريصة على ابقاء شرق الاردن تحت نفوذها المباشر في معزل عن فلسطين ، ليبقى قاعدة لقواتها ولسياستها حتى من بعد تأسيس دولة « اسرائيل » . كما انها فشلت لان الحكومة الفرنسية كانت حريصة ، هي الاخرى ، على الاحتفاظ بحدود لبنان وسورية وعدم التخلي عن اقسام منهما لارضاء الصهيونيين .

استمر الصهيونيون يعارضون كل تشريع ينظر الى شرق الاردن كبلد منفصل عن فلسطين . قاوموا اعلان مولد امارة شرق الاردن في السادس عشر من سبتمبر ١٩٢٢ ، واعلان « استقلال » الامارة في الخامس والعشرين من مايو ١٩٢٣ ، مثلما قاوموا اعلان « استقلال » المملكة الاردنية في مارس ١٩٤٦ . وقد علق موشي شارتوك (شاريت فيما بعد) على خطاب بفن في الجمعية العمومية للامم المتحدة في السابع عشر من يناير ١٩٤٦ باعطاء الاردن استقلاله بقوله « **انما لم نسقط الاردن من مشاريعنا قط** » .

حاول الصهيونيون ، في الوقت نفسه ، ان يتسللوا الى شرق الاردن بواسطة مشاريع اقتصادية ومحالفات سياسية مع عبدالله مباشرة . وسيكون لنا عودة الى هذا الموضوع بعد حين . ومن الطريف والمؤلم ان تقوم هذه المشاريع على فكرة تبعية الاردن لفلسطين ، اي ان الاردن جزء من فلسطين ، ومن « اسرائيل » كما يفهمها الصهيونيون . مما يعني ان عبدالله كان يتعاقد مع اعداء بلاده الطامعين بامارته طمعا مباشرا ، وكان يرحب بهم وباطماعهم . وابرز تلك المشاريع ما وضعه ولتر لودرملك باسم « سلطة وادي الاردن » على غرار مشروع « سلطة وادي تنسي » الاميركي . وهو تخطيط للافادة من مياه نهر الاردن لبناء مستعمرات يهودية على جانبي النهر وطرد العرب من فلسطين وشرق الاردن معا « اذا لم يرغبوا في الاقامة في اسرائيل » كما يقول صاحب المشروع ، ولنقلهم الى العراق . وهو يعلل طرد العرب واسكان اليهود مكانهم « بنشاط اليهود وكسل العرب » (١٧) .

---

(16) Col. R. Meinertzhagen, Middle East Diary, P. 363 — 364.
(17) Walter Clay Lowdermilk, Palestine, Land of Promise (London, 1944).

وافق عبدالله على هذا المشروع الذي يتأذى منه عرب بلاده وعرب فلسطين لو تحقق ، وتبناه ، وخاصم الحركة الوطنية لانها رفضته. ويخف استغرابنا لهذا الموقف من عبدالله حينما نتذكر ان عددا من مستشاريه الخصوصيين كانوا ، في ذلك الوقت (اي في الثلاثينات) من اشد الصهيونيين تطرفا ومن غلاتهم في الطمع بالاردن ، مثل اسشكن الذي كان يتنقل بين الوكالة اليهودية في القدس وقصري عبدالله في عمان والشونة لتوجيه عبدالله حسب رغبات الصهيونيين ومصالحهم .

ومن الطريف والمؤلم ، ايضا ، ان زعيم فكرة التحالف مع القوات البريطانية في الحرب الاخيرة ومؤسس الجيش الصهيوني الذي اشترك بتلك الحرب (وهو الجيش الذي نال حظوة عبدالله وتمركز في امارته واشترك مع جنوده في احتلال العراق ثم سورية) انما هو نفسه زعيم الحركة الصهيونية المتطرفة التي تسمت « بالمنظمة الصهيونية الجديدة » بعد ان انسحبت من المنظمة الصهيونية العالمية ، لانها ، اي المنظمة الجديدة ، طالبت بشرق الاردن مطالبة صريحة وحاسمة ، بينما ارجأت المنظمة العالمية تلك المطالبة الى ما بعد تأسيس الوطن القومي في فلسطين . وكان الزعيم المذكور ، جبوتنسكي ، هو نفسه ايضا مؤسس « الحزب الاصلاحي » الذي دعا الى تعديل حدود فلسطين لتشمل شرق الاردن . وكان ، في الوقت نفسه ، الاب الروحي لمنظمةالارجون الارهابية التي طالبت بالاردن بالقوة والتي قتلت المئات من العرب الابرياء . وكان، فوق ذلك كله،الاب الروحيايضا لحزب «حيروت» اليميني الذي لا يزال يطالب بالاردن ، علنا ، الى اليوم. وقد اعلن ذلك بصراحة متناهية زعيم الحزب يعقوب ابرمن في نيويورك في الرابع والعشرين من يناير ١٩٥٦ . ولعل افضل طريق للتعرف علىحقيقة جبوتنسكي واطماعه في شرق الاردن ان يعود القارىء الى الفصل السابع عشر من كتابه « جبهة القتال اليهودية » . وفي فصل اخر من الكتاب (الفصل العشرون) لا يخفي الكاتب غايته من دعوة بني قومه الى التجند في الجيش اليهودي المحارب مع الحلفاء : « تحويل فلسطين وشرق الاردن الى دولة اسرائيل » (١٨) .

يحكم طمع الصهيونيين الخاص بشرق الاردن ، والكشف عنه في الف شكل وشكل ، على عبدالله حكما قاسيا . فهو ، بتفاهمه وصداقته وتحالفه مع الصهيونيين ، لم يصم اذنيه عن صراخ عرب فلسطين واستغاثاتهم من الخطر الصهيوني فحسب ، بل انه اغمض عينيه عن الاخطار التي هددت الكيان العربي الذي عهد اليه بحمايته وادارته، كيان شرق الاردن نفسه، تهديدا

---

(18) Vladimir Jabotinsky, The Jewish War Front (London, 1946).

مباشرا لا يقل عن تهديدها لفلسطين . وقد تعزى عرب فلسطين عندما راوا عبدالله يتعاون مع عدوهم ضدهم اذ راوه ، في الوقت ذاته ، يتعاون مع عـدو كيانه الفقير ويحفر قبره بنفسه . تعزوا دون ان يخفف ذلك مـن المهم الذي كان يتضاعف في الواقع : الما على فلسطين والما على شرق الاردن في آن واحد .

الفصل الخامس

تحالف عبد الله مع الصهيونية في العقد الثلاثيني



قصة عبدالله مع الصهيونيين مأساة ، مثلما كانت قصة فيصل معهم . مأساة خيبة امل الامة بقائد كان معقد املها فتخلى عنها وانحاز الى جانب عدوها .

جاء عبدالله الى شرق الاردن مجاهدا ابن مجاهد . جاءه منقذا ومحررا من سطوة الفرنسيين والانجليز ، كما كان ابوه منقذا ومحررا من سطوة الاتراك . فتوافد عليه الوطنيون من اكثر من مكان ، وعلى رأسهم وطنيو فلسطين ، والتفوا حوله يدافعون عنه ويدعون له ويبنون من خيمه وعبيده وبدوه وجماله دولة . لقد اصطف الالاف من اهل فلسطين ، عندما بلغهم نبأ زيارة الامير للمندوب السامي في القدس في اول زيارة رسمية لبلادهم ، على الطريق بين اريحا والقدس ، واخذوا يهتفون له ولابيه ويهنئونه ويرحبون به ويتسابقون الى حمل سيارته ، وقد حملوا اسمه في قلوبهم . وكانت الجمعيات الاسلامية المسيحية قد بعثت بوفودها الى عمان لتبايع الامير زعيما على فلسطين ايضا (في حين كان اهالي شرق الاردن لا يزالون يتوجسون خوفا منه ويترددون في القبول به) . بل ان النساء، سافرات ومحجبات ، سرن في شوارع القدس يهتفن باسمه ، ولم يسرن من قبل سيرا مماثلا الا مرة واحدة ، للهتاف لاخيه فيصل .

لكن عبدالله كان غير ما توقعت فلسطين العربية ، رجالها ونساؤها ورايها العام وزعماؤها . لقد اسقط الامير الهاشمي الشعب من حسابه منذ اللحظة الاولى. لم ينزل من سيارته ليتقبل تهانيء وجوه البلاد لما ذهبوا ليرحبوا به واصطفوا على الجسر الضيق فوق نهر الاردن ، بل انه امر سائقه بان يمضي سريعا ولا يلتفت الى اولئك « المزعجين » . وكشر في وجوه المتظاهرين امام المسجد الاقصى الهاتفين بحياته لما اسقطوا الصهيونية والاستعمار بهتافهم وهدد بالانسحاب وعدم دخول المسجد ان لم يتركوا الصهيونية والاستعمار وشأنهما ويقصروا هتافاتهم على تمجيده فقط . ورفض ان يحمل مطاليب الهيئات الوطنية وينقلها الى ونستن تشرتشل وهربرت صميول اللذين قابلهما في تلك الزيارة الاولى للقدس . اقتصر اجتماعه معهما على قبول امارة شرق الاردن ، بعد جلسة نصف ساعة فقط تنزل هو فيها عن شعارات الثورة وغاياتها وتنزلا هما له عن ملكية صحراء ليست لهم في الاصل .

خرج عبدالله ، بعد هذا ، على قرار الوطنيين الفلسطينيين بمقاطعة احتفالات الحلف الاستعماري ــ الصهيوني بمولد الانتداب ، وحضرها في كل من القدس وعمان في سبتمبر ١٩٢٢ . وكانت الاحتفالات اشبه بمآتم تشييع جثمان عروبة فلسطين واستقلال شرق الاردن . ولكن لماذا لا يحضر الاحتفالات وهو احد الورثة ؟ واخذ عبدالله ، بعد ان قبل بالانتداب قبولا سهلا مطواعا ، يحث العرب على قبوله . اصبح الصهيوني الكبير هربرت صميول « صديق العرب ومنقذهم » . واصبحت « مشوراته » اوامر يتقيد

عبدالله بها مهما كانت عاقبتها ــ صميول نفسه الذي قال وايزمن عنه ، مفاخرا « ان صمئيلنا نحن . نحن الذين عيناه مندوبا ساميا . انه نتاج يهوديتنا نحن » (١) .

غضب العرب وتألموا . وسر الصهيونيون ورضي البريطانيون . وبدات قصة الصداقة والخصومة التي استمرت ثلاثين عاما ، صداقة عبدالله للصهيونيين والبريطانيين وخصومته للحركة الوطنية ولنضال العرب القومي المستعر. وقد بدات القصة، رسميا ، في اكتوبر ١٩٢٢ حينما اعلنت اللجنة التنفيذية لعرب فلسطين ان امير شرق الاردن لا يمثل فلسطين اطلاقا . ذلك انه في تلك السنة بدأ الاتصال الرسمي بين عبدالله والصهيونيين ، حينما ركز هؤلاء اهتمامهم عليه ، بعد ان اصبح جارهم وامير اقرب كيان الى فلسطين وبعد ان انعزل فيصل عن الاحداث ولم تعد لحسين اهميته في الوطن العربي، وبعد ان اتضح للصهيونيين ان الرأي العام العربي لن يهادن ولن يتهاون ، وليس لهم الا ان يعتمدوا على الطبقة الحاكمة فحسب .

بدأ الاتصال في لندن. وكان عبدالله يزورها لتنظيم اموره مع حكومتها. فقابله وايزمن وعدد من مسؤولي الحركة الصهيونية في خمس اجتماعات لعب فلبي فيها دور الوسيط الذي لعبه لورنس من قبل بين الصهيونيين وفيصل . وكان عبدالله في تلك الاجتماعات متساهلا . افهم مفاوضيه انه مستعد ان يحالفهم ان هم اضافوا الى امارته ارضا غير صحراوية ، في فلسطين او سورية او العراق . وخوفا من ازدياد الغضب الشعبي عليه ، رجا عبدالله مفاوضيه ان تبقى مباحثاتهم سرية . الا ان احدى الصحف اليهودية (هارتس) فضحت الامر ونشرت اخبارا عن تلك الاجتماعات في السابع والعشرين من فبراير ١٩٢٣ . فاستقبل عرب فلسطين امير الاردن باللوم والتقريع ، حتى اضطروه الى التراجع فكذب ما نشرته الجريدة فـي تصريح ادلى به الى كبرى الجرائد العربية في فلسطين (جريدة فلسطين) . وزعم ، في تكذيبه ، ان وايزمن تخلى عن تطرفه وسلم بالمطاليب العربية كلها.

لم تنطل اقوال عبدالله على وطنيي فلسطين . واستمر الشك به قائما . حتى ان مؤتمرهم السادس (يونيو ١٩٢٣) رفض مشروع المعاهدة بين حسين والانجليز ، دون ان يدرس تفاصيلها ، لان المؤتمرين رأوا فيها امتدادالمباحثات عبدالله مع وايزمن ، ولانهم علموا ان عبدالله ضغط على والده كثيرا كي يوقع على المعاهدة التي حملها لورنس اليه من قبل .

تحققت مخاوف الوطنيين من تلك المعاهدة لما زار حسين عاصمة ابنه

(1) Estelle Blythe, When we Lived in Jerusalem, P. 337.

في الاردن اواخر ١٩٢٣ ومكث فيها حتى ربيع السنة التالية . فقد احس ملك الحجاز ان عرشه اخذ يهتز من ضربات ابن سعود . وآلمه ان يتزعزع كيانه ويشرف على السقوط بينما يبني البريطانيون عرشين جديدين لاثنين من ابنائه . ولعله تمنى ان يحصل على عرش جديد يستعيض به عن عرش الحجاز ان سقط ، عرش في القدس شريكة مكة والمدينة في القدسية. فمن فلسطين يمكنه ان يدعم عرشه المتساقط في الحجاز ، ويرد على تعديات الوهابيين ، ويعيد سلطته على العالم الاسلامي باكمله ، ويشرف على كياني ابنيه اشرافا مباشرا عن كثب . وفلسطين ، فوق هذا ، ارض العسل واللبن ، والخيرات والبركات ، والاموال التي تذهب بفقر الحجاز (حجاز ما قبل النفط) الى غير رجعة .

دب النشاط في قصر عبدالله بمجرد ان وصل ابوه البلاد . كان نشاطا ثلاثيا ، قاعدته الاب والابن الهاشميان وطرفاه عرب فلسطين والصهيونيون . اما الانجليز فقد بذل حسين جهده الا يقحمهم في الموضوع ، خوف ان يخدعوه مثلما خدعوه من قبل ، وخوف انيفسدوا المباحثات التي امل ان تفرج له كربته . وكانيدرك عدم رضى السلطات البريطانية عليه . وكان يعرف انها تتمنى سقوطه وتعمل له بمثلما تتمنى صمود ابنيه وتعمل له . وقد لمس ذلك في مساعداتها المتكررة لابن سعود . ولمسه في موقف لورنس منه شخصيا . ولمسه اخيرا في ما اخبره به موفدوه ومستشاروه وعملاؤه من ان بريطانية لم تعد تقيم له وزنا ، وانها تفكر بمخطط جديد لا محل له فيه ، بل المحل لابنيه ولابن سعود . ولم يشأ حسين ان يعترف بان القطار فاته . فحاول انيلحق به من محطة اخرى ، غير بريطانية .

اتصل حسين بزعماء عرب فلسطين والصهيونيين في آن واحد . وعرض عليهم فكرة ضم فلسطين الى اتحاد عربي اسيوي يجلس هو على عرشه، وفي الوقت نفسه يجري الاعتراف بوعد بلفر وفتح ابواب هذا الاتحاد امام المهاجرين اليهود. وعقد وابنه سلسلة اجتماعات مع ممثلي الفريقين في عمان والشونة . وقد بدات الاجتماعات مع الجانب الصهيوني اولا . ولدينا تفاصيلها في مذكرات رئيس الوفد الصهيوني ، الكولونيل كش ، الذي كان انذاك رئيسا للجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية .

يقول كش انه بدأ الاجتماع الاول (في السابع والعشرين من يناير ١٩٢٤) بتلاوة رسالة من الوكالة اليهودية الى حسين باللغتين العربية والعبرية ، تعرض عليه فيها قرار المؤتمر الصهيوني العالمي الثالث عشر في كارلسباد في اغسطس ١٩٢٣ : المطالبة باقامة وطن قومي في فلسطين باقرب وقت . وتطلب الوكالة في رسالتها الى الملك الهاشمي ان يساعدها في تحقيق هذه

الامنية . وحسب وصف كش ، كان رد فعل الحسين ان « **فتح عباءته واسعا وقال ان قلبه وبلاده مفتوحان اليهود . وقال انه على استعداد لان يعطي اليهود الارض مجانا اذا دخلوا من الباب ولم يفتحوا ثغرة في الجدار** » . وهو ، بذلك ، يعرض بعلاقات الصهيونيين مع البريطانيين وعدم اتصالهم مع الهاشميين مباشرة .

استمرت المباحثات عدة ايام . وتبادل الموفدون في نهايتها الاوسمة . نال كبير حاخامي يهود فلسطين ، جاكوب ماير ، وسام الاستقلال من الدرجة الممتازة . ولما اراد الحسين ان يمنح رئيس الوفد الصهيوني وساما مماثلا اعتذر الكولونيل عن قبوله خوفا من ان يحرج الوسام الحسين ويهدد مركزه بين العرب . فاستعاض الحسين عن الوسام بقبلة طبعها على جبين الكولونيل الذي خرج من الاجتماع الاخير مسرورا « لقد اسسنا **علاقات ودية** مباشرة مع الملك حسين : **علاقات ربما تفسح لنا مجالات لم يكن لها وجود من قبل** » (٢) .

كانت تلك المباحثات نصرا للصهيونيين . لقد تمت بدعوة من الهاشميين، وفي عاصمة عربية ، وبدون ضغط او تدخل من اي فريق اخر . وكانت تعني ان الهاشميين ، وهم حكام نصف كيانات اسية العربية ، يعتبرون الصهيونيين اصحاب كيان وحق شرعيين . وزاد في النصر الصهيوني ان الحسين رفض طلب الحركة الوطنية في فلسطين بان يكذب الاخبار التي تناقلها الناس عن تلك الاجتماعات السرية . كما رفض ان يستنكر اهداف الصهيونية استنكارا علنيا حاسما .

لذلك فشلت مساعيه مع الزعماء العرب الوطنيين من قبل ان تبدا رسميا . رفض معظمهم ان يباحثه الا بعد ان يتبرأ من اتصالاته السابقة مع العدو ويتبنى ميثاق فلسطين القومي . فاستعاض الحسين عن هؤلاء الزعماء بنفر من « وجهاء » البلاد عرفوا بالتساهل في المطاليب الوطنية ، ودعوا منذ بدء الانتداب الى التعاون معه والى التفاهم مع الصهيونيين . وكانوا قد انسحبوا من الجمعيات الاسلامية المسيحية وحاولوا عرقلة المساعي القومية وشكلوا احزابا مشبوهة تطعن بالنضال الوطني وتمهد للاتصال بالانتداب والصهيونيين . وفي مذكرات كش نفسه ذكر متواصل لمساعدات مالية ومعنوية امد الصهيونيون بها تلك الاحزاب وزعماءها ، وعلى راسهم افراد من عائلتي النشاشيبي والدجاني الكبيرتين . وكانت الاجتماعات بينهم وبين الصهيونيين تجري بواسطة كش نفسه .

---

(2) Col. F. M. Kisch, Palestine Diary, P. 96 - 98.

سافرت وفود من تلك الجماعة المشبوهة التي اقصتها الحركة الوطنية عن صفوفها واتهمها الشعب بالخيانة ، الى عمان وقابلت حسين واتفقت معه على قبول مشروعه ومباركة تفاهمه مع الصهيونيين ، بحجة ان لليهود حقا في فلسطين، وان لا مجال لمقاومتهم بالقوة ما دام الانجليز يريدونهم لحكم فلسطين.

سر الصهيونيون لنتائج هذه المحاولات . وقال كش « يجب ان نشكر الحسين على شجاعته وحسن نيته نحونا » . وانتقلت المفاوضات ، في فبراير ١٩٢٤ ، الى القدس . تراس الجانب الهاشمي حسن خالد ابو الهدى ، رئيس حكومة عمان . واتفق الجانبان على تأليف لجنة مشتركة لوضع مشروع نهائي برئاسة (الامير) عبدالله . لكن اللجنة لم تجتمع لان حسين اضطر الى مغادرة الاردن والعودة الى الحجاز بعد ان اغتنم فرصة الغاء الخلافة في تركية وادعاها لنفسه . واضطر ، في الوقت نفسه ، اذ اصبح خليفة على المسلمين، ان يتوقف عن الاتصال بالصهيونيين خوفا من اثارة الراي الاسلامي العام ضده. لم يعد بامكانه وقد اصبح مسؤولا عن مسلمي العالم (او هكذا اعتبر نفسه) ان يتفاوض ويتعاقد مع الد اعداء الاسلام. وهكذا انقطعت المفاوضات، اضطرارا في اول مارس ١٩٢٤ . ولم تستأنف من بعد بسبب تطورات مركز الحسين السياسي والاسلامي ، وخلعه عن الملك وعن الخلافة ونفيه الى قبرص . لكن الصهيونيين حافظوا على صداقتهم له الى اخر ايامه . فلما نقل من قبرص الى عمان ، بعد ان اشتد به المرض والعجز ، اغتنم كش الفرصة وزاره في فبراير ١٩٣١ وبرفقته عدد من الاطباء اليهود الاختصاصيين الذين تولوا علاجه على حساب الوكالة اليهودية .

ومع ان صحة الحسين لم تكن تمكنه من اجراء مباحثات رسمية ، ومع انه لم يبق له مركز سياسي رسمي ، لم تخل تلك الزيارة من ابحاث سياسية غير رسمية . تحدث كش مع الملك المريض ومع ابنه ومع رئيس الحكومة الاردنية ، حسن خالد ابي الهدى ، احاديث سياسية حول دور الهاشميين في السماح للصهيونيين بتنمية موارد الاردن الاقتصادية . وقد وافق العاهلان على عروض الصهيونيين للتعاون . وامر الحسين ابنه ، حسب قول كش « بان يحترم دائما تلك العلاقات وان يعمل جهده على اقامة علاقات ود بين الشعبين » . وكان رد عبدالله اعترافا ضمنيا « بحق » اليهود في فلسطين (٣) .

احيت تلك الزيارة امال العاهلين الهاشميين . وحاولا ان يستعيدا

---

(٣) المصدر السابق نفسه ، ٣٨٧

المفاوضات القديمة . فاغتنما فرصة زيارة الدكتور وايزمن للقدس في مارس ١٩٣١ ودعياه لزيارتهما وتناول الغذاء معهما في عمان . الا ان خبر الدعوة انتشر في العاصمة الاردنية . وغضب الرأي العام وتظاهر المواطنون في الشوارع وهتفوا بسقوط الصهيونية وعملائها في البلاد . وهدد اركان المعارضة بالثورة ان نفذ الامير دعوته . فخاف عبدالله من العاقبة وارسل الى الوكالة اليهودية في القدس يشرح الامر ويطلب تأجيل الدعوة ويعتذر من وايزمن . ثم سافر الى القدس ، هو نفسه ، في الشهر التالي وذهب رأسا الى دار الوكالةوقدم اعتذاره ثانيةوادلى بتصريحات ضد الحركة الوطنيةفي بلاده والقى عليها اللوم لانها منعته من التعاون مع الصهيونيين « لخير الاردن والصهيونيين » كما قال . وابدى امله بان تتحسن الاوضاع الداخلية في الاردن (اي بان يقضي على المعارضة الوطنية) ويجتمع وابوه بوايزمن في عمان . لكن امنيته لم تتحقق . اذ مات الحسين في الاسبوع الاول من يونيو ١٩٣١ قبل ان يشل عبدالله نشاط المعارضة . وكان حزن الصهيونيين على الملك الهاشمي كبيرا . واشترك وفد رسمي منهم في جنازته ، برئاسة كش وعضوية كبير الحاخامين جاكوب ماير صديق الحسين وعبدالله .

شجعت هذه العلاقات على تركيز انظار الصهيونيين على شرق الاردن بالذات . اعتبروا امارته الجسر الوحيد لتحسين علاقاتهم مع العرب بوجه عام ، وهو تحسين ارادوا منه ان يطوقوا به عرب فلسطين ويقضوا على مقاومتهم للدعوة الصهيونية . فأسس كش مكتبا خاصا لشؤون الاردن في الوكالة اليهودية برئاسة ناحوم باب . واشرف المكتب على سلسلة اتصالات جرت مع عبدالله، في القدس وعمان، في السنوات الاولى من العقد الثلاثيني. وكان عبدالله في ذلك الوقت قد رسخ حكمه بان وضع دستورا رجعيا للبلاد قضى بتكوين مجلس تشريعي غالبية اعضائه من رجال الامير واعوانه . وتبادل وايزمن وكش الزيارات مع عبدالله اكثر من مرة . واشرف المكتب ايضا على وضع عدة دراسات اقتصادية عن الاردن ، واعد بعض خبرائه تقارير عن امكان استفادة الصهيونيين من اوضاع الاردن وامكاناته . وارسل المكتب خبراء مسحوا اراضي البلاد الزراعية . وبالطبع لم تكن تلك الجهود حبا في عبدالله وخدمة للاردن بل كانت ممهدات لما آمل الصهيونيون بانه سيحصل يوما ما : احتلالهم شرق الاردن واقامتهم فيه كجزء متمم « لوطنهم القومي » في فلسطين .

يقودنا هذا الكلام الى موضوع اتصالات عبدالله بالصهيونيين من اجل استغلال الاردن وموارده الاقتصادية ، الزراعية والصناعية ، في الوقت الذي كان عرب فلسطين وشرق الاردن يقاطعون فيه الصهيونيين مقاطعة

شعبية واسعة النطاق ، وكان الصهيونيون يكشفون عن اطماعهم بالاردن بالذات ويتحدثون عن « حقهم » الالهي والتاريخي فيه .

بدات الاتصالات في اعقاب عودة الملك حسين الى الحجاز وتوقف المفاوضات السياسية المباشرة . وقد وجد عبدالله ان عقد حلف سياسي علني مع الصهيونيين يزعزع مركزه ويحرم اباه من الخلافة . لذلك اراد ان يستعين باموال الصهيونيين في تكوين ثروة خاصة له ، ولو كان ذلك على حساب كيان شرق الاردن . فاتصل في العام ١٩٢٤ باليهودي الصهيوني جاكوب دهاس وعرض عليه ان يبيعه مئة الف دونم من ارض الاردن بسعر دولار واحد فقط للدونم . وبالطبع رحب دهاس والصهيونيون بالصفقة اذ هي تحقق غرضهم في التسلل وراء نهر الاردن . وكان الانجليز يمنعونهم من ذلك قدر الامكان لان مخططهم قضى بان يبقى شرق الاردن تحت نفوذهم المباشر وخافوا ان استولى عليه الصهيونيون ان يحرموا من ممارسة سيطرتهم التي كانت لهم انذاك ، كما خافوا ان يضعف تغلغل الصهيونيين في الاردن مركز الهاشميين في الاوساط العربية ، وهو امر لا يريده الانجليز بأي شكل .

كاد عبدالله ينفذ الصفقة مع دهاس لو لم يعلم البريطانيون بها فيحولون دون تنفيذها . فحاول عبدالله في ١٩٢٦ اسلوبا اخر حينما اصدر قرارا ينقض قرارا سابقا بمنع اليهود من دخول شرق الاردن ، الذي كانت السلطات البريطانية قد وضعته منذ سنوات، ويسمح لهم بتملك الاراضي واستغلال رؤوس اموالهم كما يشاءون . ويقال ان الثمن الذي قبضه عبدالله من الصهيونيين في فلسطين على ذلك القرار كان بناء قصر المصلى في الشونة وتقديمه هدية له — وجدير بالذكر ان القصر المذكور كان مسرح محادثات عبدالله مع الصهيونيين في السنوات الثلاث الاخيرة من حياته . ومرة اخرى فرض البريطانيون انفسهم على عبدالله وارغموه على التراجع وسحب اذن التملك من بعض اليهود الذين استغلوا رفع الحظر وذهبوا الى عمان واقاموا مؤسسات مالية . وطرد المعتمد البريطاني رئيس الحكومة لانه سكت على القرار الذي اصدره الامير .

مضت سنوات وعبدالله يريد ان يتعاون مع الصهيونيين ولكنه يخاف من البريطانيين . الى ان عقدت بريطانية معاهدتها مع الاردن في ١٩٢٨ واصبح للبلاد دستورها ومجلسها الاستشاري . وظن عبدالله نفسه انه قد استقل . وواصل المباحثات مع الصهيونيين بعد انقطاعها الاضطراري . وتزاور معهم عدة مرات ، كما راينا قبل دقائق . كما انه استغل احراج لجنة الانتدابات التابعة لعصبة الامم لبريطانية لانها تمنع اليهود من دخول الاردن . وكانت تلك اللجنة قد ادانت بريطانية بهذه « التهمة » في اجتماعها الخامس

عشر ، في صيف ١٩٢٩ .

بلغت علاقات عبدالله بالصهيونيين ذروتها في ١٩٣١ حينما عرض على الوكالة اليهودية ان تستأجر سبعة وستين الف دونم ارض اجارا طويلا (مدة ثلث قرن) يمكن تجديده مرتين للمدة ذاتها ، مقابل اجر سنوي قدره الفان ومئتا جنيه مع خمسة في المئة من الربح . وكانت تلك الارض ملك الدولة ، التي ورثتها من اراضي السلطان عبد الحميد . وقد استطاع عبدالله ان يحصل عليها بواسطة اعوانه في المجلس التشريعي في العام ١٩٣١ اذ اعطيت له كوقف خاص .

رحب الصهيونيون بالعرض السخي ، بالطبع . وارسلوا وفدا الى عمان اجرى الصفقة وحصل على اذن من عبدالله باسكان الف وخمسمئة عائلة يهودية في تلك الارض . وتولى احد كبار المحامين الصهيونيين وضع صيغة الاتفاق . وهو نفسه الذي اشرف بعد خمس عشرة سنة على مقاومة الجيش الاردني في القدس بصفته حاكما عسكريا على القدس المحتلة ، برنرد جوزف (دف جوزف فيما بعد) . وشجع عبدالله مشايخ البدو على تأجير اراضيهم للصهيونيين مثلما فعل هو . وتجول الوفد الصهيوني في انحاء الاردن ، وحصل على اراض كثيرة ، اكبرها مئة الف دونم اجرهم اياها مثقال الفايز في ذلك الشهر نفسه (يناير ١٩٣١) . ورحبت الاوساط الصهيونية في الخارج بتلك الانتصارات التي كانت الاولى من نوعها .

اما الحركة الوطنية في فلسطين وشرق الاردن فقد راعها الخبر وهبت تحتج وتطالب بنقض الصفقة وايقاف مفعولها . وعجز عبدالله عن نفي الخبر، كعادته ، لان جريدة نيويورك تايمز اكدته في عدد الثامن عشر من يناير ١٩٣١ . وفكر بعض الوطنيين الاثرياء بجمع اموال لرشوة عبدالله بمال يفوق ما رشاه به الصهيونيون ، ما دام يعطي الارض لمن يدفع اكثر من غيره . وفكر بعضهم بالاتصال بالمحسن الاميركي تشارلز كرين لعله يساهم في تمويل الرشوة . ونشرت صحف فلسطين سلسلة مقالات نارية ضد امير شرق الاردن . فأمر بمنعها من دخول الامارة . غير ان النقمة الشعبية وجدت طريقها الى الاردن غصبا عنه ، وعم التذمر . وعجز عبدالله عن اسكات زعماء المعارضة الوطنية ولم تنفع معهم تهديداته . فلجأ الى مشايخ البدو . وعقد العشرات منهم اجتماعا صاخبا في الخامس والعشرين من يناير في عمان اعلنوا فيه تأييدهم لعبدالله وباركوا اتفاقه مع الصهيونيين وهددوا رجالات الحركة الوطنية بالقتل . ثم بصموا باصابعهم على عرائض كتبت باسمهم وارسلت الى المعتمد البريطاني والى الوكالة اليهودية في تأييد دخول راس المال الصهيوني الى شرق الاردن . وانبثق عن الاجتماع وفد ذهب الى القدس ونزل في اكبر

فنادقها ، الملك داود ، على حساب الوكالة اليهودية . وجرى في احدى قاعات الفندق مهرجان ترأسه الدكتور وايزمن ، اعلن الفريقان عن توقيع عقود تأجير اخرى .

واصدر المجلس التشريعي ، وكانت اغلبيته من رجالات عبدالله كما مر بنا ، قرارا في التاسع عشر من فبراير ١٩٣٣ بتبني سياسة الامير تجاه اليهود . ورفضت الاغلبية مطالبة الاقلية الوطنية باصدار تشريع يحظر بيع الاراضي او تأجيرها لليهود . ومع ان البريطانيين حاولوا التدخل وايقاف التيار الموالي عند حده ، ومع انهم حلوا المجلس التشريعي واتوا بمجلس اخر، قرر المجلس الجديد ، باغلبيته الموالية المنتفعة ، المضي بسياسة التعاون مع الصهيونيين ، وذلك في جلسته الاولى ، في اليوم الاول من ابريل ١٩٣٣ . اما الحركة الوطنية فعجزت عن ان تفعل شيئا لان عبدالله كان قد شل نشاطها اذ نفى وسجن العشرات من اقطابها ومنع اجتماعاتها وسلط البدو عليها .

الذي ارغم عبدالله على ان يتوقف عن تعاونه مع الصهيونيين ، ثم على ان يتراجع عن صفقاته معهم ويسحبها ، ويمنع اعوانه المشايخ من تنفيذ تعهداتهم مع الصهيونيين ، هو ضغط السلطات البريطانية عليه للاسباب التي بيناها آنفا . واكثر من ذلك ، حملته تلك السلطات على وضع قانون يمنع اليهود من التملك منعا باتا . والحقيقة ان البريطانيين حافظوا على موقفهم في منع اليهود من التسلل عبر نهر الاردن الى اخر ايام الانتداب . وكانت اخر محاولة صهيونية للتسلل قد جرت في ١٩٣٦ ، حينما زار عبدالله لندن واتفق مع المسؤولين الصهيونيين فيها على اثارة القضية من جديد . وخطب اللورد ملشت في مجلس اللوردات وطالب بفتح ابواب الاردن امام الهجرة اليهودية . واعلن عبدالله بانه لا يرى مانعا من ذلك . لكن الحكومة البريطانية عملت على ابقاء الحظر بالرغم من الضغط الصهيوني . اذن فالانجليز ، وليس عبدالله ، هم الذين حموا ضفة الاردن الشرقية من المصيبة التي عمل الانجليز انفسهم على انزالها في فلسطين . وكان قصدهم ، في الحالتين ، ترسيخ شعبية الاسرة الهاشمية ، وحماية مصالحهم في المنطقة ، وتوزيع القوى بين العرب واليهود . مع هذا استطاع عبدالله ان يخرق الحصار اكثر من مرة ، مما جعله بطل « الصداقة والاخوة » العربية الصهيونية في اعين الصهيونيين . وقد قبض الامير الهاشمي الثمن : مدحا متواصلا من الصهيونيين واصدقائهم ، سياسيين وعسكريين وكتابا . فهو ، كما قال بن جورين، «الحاكم الحكيم الساعي وراء خير شعبه » . وهو « الصديق الصدوق » كما قال وايزمن .

خرق عبدالله الحصار حينما منح اليهود امتياز بناء محطة توليد كهرباء

عمان ، ومنح امتيازا اخر لشركة كهرباء روتنبيرج باستثمار ميـاه الاردن واليرموك واعطاها حق الاستيلاء على ستة الاف دونم ارض داخل الاردن لتأسيس مستعمرة جسر المجامع في صيف ١٩٢٨ . وبلغ ثمن الصفقة ثلاثة الاف وسبعمئة جنيه . وقد تحولت المستعمرة الى حصن صهيوني افنى العشرات من جنود الجيش العراقي الذي حاول الهجوم على المنطقة واحتلالها في اليوم الاول من اشتراكه بحرب فلسطين ١٩٤٨ . وفي يناير ١٩٢٩ منح عبدالله الصهيونيين حق استثمار معادن البحر الميت واملاحه ، باسم « شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة » . وهكذا نجح الصهيونيون في الاستيلاء على موارد صناعية مهمة دون ان يهاجروا اليه بجماعات كبيرة كما كانوا يأملون . واستمر عبدالله يتصل بالوكالة اليهودية بالسر كلما سنحت لـــه الفرصة . وكان احيانا يتبادل معها الرسائل بواسطة بعض الصحفيين الاجانب الذين كانوا يتنقلون بين فلسطين وشرق الاردن بسهولة ، حينما كان يصعب عليه الاتصال برجال الوكالة مباشرة بسبب احتدام الثورة العربية . وقد تحدث الصحافي المجري فراجو عن وساطة من هذا النوع في احد كتبه (٤).

لم يشأ الانجليز ان يبتلع الصهيونيون شرق الاردن لانهم ارادوه لانفسهم . ولانهم ارادوه لانفسهم فكروا بان لا يبتلع الصهيونيون كل فلسطين ، بل ان يكتفوا بالقسم الاكبر منها ، بينما يضم عبدالله القسم الاخر الى دولته الاردنية ويقوي به امكاناته المالية ومركزه الدولي .

هذا هو المخطط الذي عبر الانجليز عنه في عدد من المشاريع لتقسيم فلسطين في ربع قرن من الزمن ، مشاريع قدمها الانجليز او الصهيونيون ووافق عبدالله عليها ، مع انها اجحفت بحق العرب ، لانها ضمنت له توسيع امارته وايصالها الى شطآن البحر المتوسط . اما مشاريع التقسيم القليلة التي لم تقل بضم الجزء العربي من فلسطين الى شرق الاردن فقد عارضها عبدالله ورفضها . وهذا يفضح مصلحة عبدالله الانانية اللاقومية في تأييد بعض المشاريع ومعارضة بعضها الاخر . وهو رد على الذين يحملهم الولاء للبيت الهاشمي على ان ينعتوا مواقف عبدالله من مشاريع التقسيم ببعد النظر .

كانت حجة عبدالله في القبول بمبدا التقسيم عندما كان تطبيقه يناسب مصالحه الشخصية ، انه اجدر بالعرب ان يصادقوا الصهيونيين بدل ان يقاوموهم ، لان في مصادقتهم كسبا ماديا لا تحققه المقاومة، وانه اجدر بالعرب ايضا ان يصادقوا البريطانيين ويقبلوا باحكامهم ما دامت السلطة والقوة

---

(4) Ladiskas Farago, Palestine on the Eve (London, 1936), P. 271.

بايديهم ، وان الحق ينال بالتقسيط ، ولا ضرورة للمطالبة بحرية الوطن بكامله اذا كان الصهيونيون والانجليز على استعداد ان يعطوا الاستقلال لجزء منه... ومزاعم اخرى من هذا النوع اذاعها عبدالله وروجها له الصهيونيون والانجليز ودعموها باحصاءاتهم وتعليلاتهم وحججهم .

اما الواقع فهو ان عبدالله اراد ان يوسع رقعة ملكه ، ولو بأي ثمن ، ليقف اولا في وجه منافسه الهاشمي الاخر في العراق ، وليقف ثانيا في وجه منافسيه في الحجاز ومصر ، وليمهد ثالثا لاحتلال سورية ولبنان ولتكوين دولته السورية الكبرى التي حلم بها منذ ان نصب اميرا على شرق الاردن . كانت فلسطين ، كلها او جزء منها على الاقل ، تخدم هذه الاغراض .

سقطت حجج عبدالله بان على العرب ان يرضوا بالقليل لينالوا الكثير فيما بعد من نفسها بفعل الاطماع الصهيونية ذاتها . اذ ان هذا المنطق استعمله الصهيونيون انفسهم . فقد وعدوا انفسهم بان يكتفوا بالقليل مؤقتا ليستولوا على الكثير فيما بعد . مما يعني ان مشاريع التقسيم كانت شرا كلها ، وكان الغرض منها ان تكون خطوة يقفز الصهيونيون منها الى اجزاء اخرى من الوطن العربي .

نشطت مشاريع التقسيم في الثلاثينات اثر وفاة فيصل وتحمس عبدالله لتحقيق حلم سورية الكبرى بعد ان لم يعد يخشى منافسة اخيه . وكان الاعلان الاول عنها في شكل مشروع وضعه الموظف البريطاني في حكومة الانتداب وصديق عبدالله ، ارثر كست ، ونشره في مقال بعنوان « الكانتنات : مشروع لفلسطين » في مجلة جمعية اسية الوسطى الملكية في لندن ، ابريل ١٩٣٦ (٥) . وقد دعا الكاتب الى تقسيم فلسطين اداريا الى كانتنين : تقوم في الاخصب منهما دولة يهودية ، اما الكانتن الاخر فينضم الى شرق الاردن. ويتكون الكانتن اليهودي من السهول الساحلية ، والعربي من الوية الجليل والسامرة ومدن الرملة واللد ويافا . اما مدن القدس وحيفا ورام الله فتبقى تحت الحكم البريطاني المباشر ولا تذهب الى اي من الكانتنين . ودعا الكاتب ايضا الى تبادل السكان بين الكانتنين ، مما يعرض الاف العرب الى خسارة ممتلكاتهم . وتحتفظ سلطات كل كانتن بصلاحيات واسعة في الشؤون الداخلية . اما الحكم الخارجي فيكون للانجليز ، اذ يبقى الكانتنان تحت الانتداب .

ظهرت مع هذا المشروع الذي رضي عبدالله به ورفضه سياسيو فلسطين

---

(5) Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. 23, Part 2.

رأسا مشاريع اخرى مشابهة له ، القصد منها الحصول على جزء من فلسطين للصهيونيين ، ما دام الحصول عليها كلها متعذرا ، وفتح ابواب الشرق العربي امام التغلغل الصهيوني ، الاقتصادي ثم السياسي . منها مشروع وضعه القاضي الاميركي الصهيوني بيرنرد روزنبلاف ، لتأسيس دولة اتحادية في فلسطين وشرق الاردن معا على غرار نظام الحكم في الولايات المتحدة . وكان الكيان اليهودي في هذه الدولة يشمل كل فلسطين باستثناء لواء السامرة . واعطي الانجليز حق الاحتفاظ بانتدابهم فوق هذه الدولة .

ادلى الدكتور وايزمن بدلوه . فقدم مشروعا اخر لتقسيم فلسطين الى كانتنين : تقوم في الكانتن اليهودي منهما دولة يحكم اليهود فيها انفسهم حكما ذاتيا ، وينضم الاخر الى امارة شرق الاردن ، ويترك كل مواطن ينتقل من كانتن الى اخر ممتلكاته وراءه . ويقوم بين الدولتين تعاون وثيق في شؤون الامن والعملة والمواصلات والجمارك ، مما يسهل على الصهيونيين السيطرة على الدولتين .

تبنى المشروع المذكور عدد من اصدقاء البيت الهاشمي من البريطانيين . وتجولت احداهم ، السيدة ستورت ارسكن ، بين العواصم العربية للدعوة للمشروع الذي خصصت له فصلا كاملا من كتاب لها عن قضية فلسطين (٦) . وتبنى الاقتراح ايضا اعوان الهاشميين في فلسطين نفسها ، وجلهم من اعضاء حزب الدفاع الذي اسسه هؤلاء في اواسط الثلاثينات . وكتبت زوج نائب رئيس الحزب كتابا نادت فيه بالمشروع (٧) .

اما رد الفعل العربي لهذه المساعي في فلسطين فكان ثورة استمرت ثلاث سنوات اثبتت ان العرب لا يقبلون بما هو اقل من حرية البلاد الكاملة ، وان ما يناسب الانجليز والصهيونيين والهاشميين لا يناسب المصلحة العربية العامة ابدا .

اخذت الهجرة اليهودية الى فلسطين تتزايد يوما بعد اخر بين ١٩٢٢ و ١٩٢٥ ، بعد ان انفرجت الضائقة المالية العالمية وبدات معالم اضطهاد اليهود في المانية تبرز وتصلح مادة للمتاجرة . بلغت نسبة المهاجرين عشرة اضعاف ما كانت عليه بين ١٩٣٠ و ١٩٣٣ . فعقد ممثلو عرب فلسطين في السادس والعشرين من مارس ١٩٣٣ اجتماعا قوميا عاما في يافا حضره حوالي خمسمئة من رجالات الحركة الوطنية والسياسيين التقليديين . قرر المؤتمرون التمسك بالمطاليب القومية وحماية فلسطين من الغزو اليهودي وتأليف لجنة لمتابعة

---

(6) Mrs. Steuart Erskine, Palestine of the Arabs (London, 1935).
(7) Mrs. Matiel E. T. Mogannam, The Arab Women (London, 1937).

القضية مع السلطات المسؤولة . ولما عجزت اللجنة عن تحقيق هذه المطاليب اعلنت اضرابا عاما في منتصف اكتوبر ١٩٣٣ ، تبعه عصيان مسلح في عدة مدن عربية . وبلغ مجموع ضحايا الحوادث مئتين وسبعين قتيلا وجريحا من العرب واليهود والانجليز .

ادرك العرب ان الزمن يعمل لمصلحة اعدائهم ، اذ هم يزدادون في البلاد عددا ، ويزداد نفوذهم في كل يوم يمر . وادركوا ان عليهم ان يسرعوا في تطهير البلاد من الاخطار الداهمة قبل فوات الاوان . فتألفت لجنة عربية في منتصف ابريل ١٩٣٦ اعلنت الاضراب العام حتى تتحقق مطاليب البلاد ، وهي باختصار : وقف الهجرة ومنع بيع الاراضي وتأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس تمثيلي ينتخبه الشعب مباشرة حسب النظم الديموقراطية. وشمل الاضراب عرب فلسطين كلهم . وامتنع الناس عن دفع الضرائب وعن خدمة الحكومة . وحمل خمسة الاف مواطن السلاح واعلنوا الثورة ضد سلطات الانتداب . ثم انضم اليهم عشرة الاف اخرون .

مرت تلك الثورة الكبرى في عدة مراحل . اشتدت في المرحلة الاولى، في ربيع ١٩٣٦ وصيفه . ثم همدت مدة تسعة اشهر لترقب قرارات اللجنة الملكية التي عهدت الحكومة البريطانية اليها درس الموضوع ، خريف ١٩٣٦ الى صيف ١٩٣٧ . ثم اشتعلت من جديد بعد صدور قرارات تلك اللجنة واستمرت كذلك الى ربيع ١٩٣٩ . وكانت الثورة حركة وطنية بالرغم مما رافقها من احداث فردية املتها عصبيات وزعامات وانانيات واخطاء دلت على انحراف القيادة التقليدية احيانا واستغلالها للشعارات القومية لمصالحها الخاصة .

لجأت السلطات البريطانية الى عبدالله ليعمل على ايقاف الثورة التي كبدتهم من الخسائر في الاموال والارواح ما لم تكبدهم به اية ثورة عربية اخرى من قبل ، والتي لطخت سمعة الانتداب البريطاني وفضحت مساوئه وفشله في الخارج وفي عصبة الامم بوجه خاص ، وشغلت الحكومة البريطانية في وقت انصرفت همومها فيه الى الوقوف امام اطماع مسليني في المتوسط وشرق افريقية . كما ان الثورة المذكورة ولدت تضامنا عربيا لم يكن موجودا من قبل ، وايقظت احاسيس كثيرة في مدن العراق والاردن وسورية ولبنان ومصر ، فاشترك عدة مئات من العرب غير الفلسطينيين بها (برضى حكوماتهم في بعض الاحيان) وطالب الراي العربي العام في كل كيان من تلك الكيانات الخمسة باتخاذ اجراءات فعالة لانقاذ فلسطين .

لبى عبدالله دعوة السلطات البريطانية الى ايقاف الثورة ، طمعا في

كسب رضى هذه السلطات والصهيونيين، واملا في بناء زعامة له داخل فلسطين تساعده في تحقيق حلمه بابتلاع جزء من البلد ساعة تسنح له الفرصة، ومحاولة لاضعاف الحركة الوطنية التي كانت تتزعم الثورة وتعارض مشاريعه المشبوهة ولايهام الناس ان تلك الحركة قد فشلت تمهيدا لاقصائها عن مسرح الاحداث ليسهل عليه بعد ذلك تنفيذ مشاريعه .

اجتمع الامير الاردني بالمندوب السامي في صيف ١٩٣٦ عدة مرات وتدارسا الطرق التي يمكن ان يسلكها لاقناع العرب بايقاف ثورتهم . ثم اتصل عبدالله بزعماء الثورة ودعاهم لزيارته في عمان والح عليهم ان يذعنوا لمطالب السلطات البريطانية ويرموا السلاح ، ووعدهم بان تنظر تلك السلطات في مطاليبهم من جديد . فرفض هؤلاء واشترطوا ان توقف الحكومة الهجرة اليهودية اولا ، وان يكون الاتصال بينها وبينهم مباشرا اذ لا علاقة له هو بالموضوع . فلجأ البريطانيون الى كبير الساسة الموالين لهم في العراق ، نوري السعيد ، لعله ينجح حيث فشل عبدالله ، وقد ادركوا ان ضعف شعبية عبدالله سبب مباشر في عجزه عن اقناع العرب بوجهة نظرهم . فجاء السعيد ، وكان وزيرا للخارجية ، الى القدس وقابل زعماء الثورة ، في شهر اغسطس ١٩٣٦ . وقال ان شروطهم لوقف الثورة لم تعد مستحيلة اذ ان حكومة بريطانية ابلغته انها ستوقف الهجرة ساعة يوقف العرب عصيانهم . عند ذلك رحب العرب بهذا العرض ، واخذوا يستعدون لاعادة الحياة الطبيعية . لكن وزير المستعمرات البريطاني اصدر تصريحا كذب كلام السعيد . فعاد العرب الى تصلبهم ، ورفضوا الاجتماع بالسعيد ثانية ، واخرجوه من القدس شبه مطرود . وظهر بعد ذلك ان الوزير العراقي كان خلال اقامته في القدس قد درس مع المندوب السامي ، السير ارثر واكهب ، مشروعا بريطانيا ـ هاشميا لحل قضية فلسطين يقضي باقامة الوطن القومي لليهود في جزء من فلسطين حالما يلقي العرب سلاحهم .

بينت الاحداث بوضوح ، للسلطات البريطانية ، ان العرب لن يتراجعوا عن مطاليبهم ، وان من الافضل مهادنتهم ريثما تصل تلك السلطات الى حل اخر ، بعد ان بلغت حصيلة الثورة ، حتى ذلك التاريخ ، حوالي الفا وسبعمئة قتيل وجريح . فبدأ موظفوها يجسون نبض زعماء الحركة الوطنية ، ويعلنون امكان تراجع حكومتهم عن موقفها تجاه الهجرة ان افتت بذلك لجنة رسمية تبعثها الحكومة لدرس القضية . وبالفعل شكلت الحكومة لجنة برئاسة اللورد بيل في السابع من اغسطس ١٩٣٦ . ولم يشأ العرب ، وقد اتهموا بالسلبية من قبل (اتهمهم بذلك البريطانيون واصدقاؤهم من الحكام العرب) ان يحكموا على المسعى الجديد قبل ان يعطوه مجال الدفاع عن نفسه . واستصوبوا فكرة مهادنة السلطات مؤقتا . لكنهم اشترطوا الا يبدو وقف الثورة كانه

عمل هاشمي وبفضل مساعي الهاشميين . فاتصلوا بابن سعود في السر ، في سبتمبر ١٩٣٦ ، وطلبوا منه ان يتدخل فلا يبقى زمام المبادرة بيد غريمه الهاشمي في عمان . فاخذ ابن سعود الزمام ، وارسل نداء الى عرب فلسطين في اليوم العاشر من اكتوبر وقع عليه ، معه ، امام اليمن وملك العراق وامير شرق الاردن . وقد ناشد النداء عرب فلسطين ما اتفقوا عليه من قبل : ان يعطوا الحكومة البريطانية فرصة جديدة لكي تنظر في المسألة . فلبى العرب النداء ، وانتهت الثورة مؤقتا بعد صراع دموي مدة نصف سنة .

وصلت اللجنة الملكية الى فلسطين في نوفمبر من تلك السنة . وتردد عرب فلسطين طويلا قبل ان يمثلوا امامها . خافوا ان يستغل الصهيونيون معارضة العرب لها ويفسدوا اية نية مسالمة يمكن ان تتوافر للجنة . وخافوا من جهة اخرى ، الا يكون قرار اللجنة غير ما كانت بريطانية تبيته للعرب منذ بدء الانتداب . الا ان عبدالله لعب دورا في حمل العرب على فك قرار مقاطعة اللجنة ، بواسطة اصدقائه واعوانه من بين السياسيين الفلسطينيين ، من جماعة حزب الدفاع ، الذين الحوا على الهيئات الاخرى ان يتصلوا باللجنة وهددوا بالمثول امامها لوحدهم ان رفضت الاغلبية مشاركتهم . فاضطرت الاوساط الوطنية ان تعدل منهجها ووافقت على مبدأ المثول امام اللجنة خوفا على وحدة الصف في ذلك الوضع الحرج .

صرفت اللجنة ثلاثة اشهر في فلسطين . قضت شهرين ونصف الشهر في سماع وجهة نظر الصهيونيين ، وعشرة ايام في سماع وجهة النظر العربية . وفي السابع من يوليو ١٩٣٧ نشرت تقريرها في اربعمئة صفحة . وقد حقق التقرير مخاوف العرب وتحفظاتهم ، وكشف عن سوء نية الحكومة البريطانية والذين حاولوا ايهام العرب بان الحكومة المذكورة تنوي تبديل سياستها نحو عرب فلسطين . ذلك ان اللجنة اقترحت تبني فكرة التقسيم التي سبق ان رفضها العرب وقبلها امير الاردن عدة مرات . ورفضت اللجنة ، في الوقت نفسه ، فكرة الكانتنات التي سبق الكلام عنها . وقدمت اللجنة لتقريرها بدراسة عن سوء نظام الكانتنات وصعوبة تحقيقه ومشاكله الادارية والدفاعية والمالية والدستورية . ولفتت الانظار الى ان ذلك النظام لا يحقق رغبة الشعب العربي بان يحكم نفسه بنفسه .

استعاضت اللجنة عن نظام الكانتنات بنظام اخر يؤدي الى تقسيم فلسطين ثلاثة اقسام : قسم يهودي من الفي ميل مربع ، يشمل سهل شارون ومرج ابن عامر ومعظم الجليل ويشمل ايضا جيبا الى الجنوب من طريق القدس ـ يافا يضم معسكرات اليهود بين الرملة وغزة ، لتقوم في هذا القسم دولة يهودية مستقلة تدخل عصبة الامم . وقسم يبقى تحت الانتداب

البريطاني ، يشمل جنوب فلسطين والقدس وبيت لحم وحوض بحيرة طبرية والناصرة وصفد وعكا ، مثلما يشمل ممرا ضيقا بين القدس ويافا من ضمنه مطار اللد. ويراد من هذا القسم ان يحفظ لبريطانية امكان حفر قناة تنافس قناة السويس في يوم من الايام. وتكون اللغة الرسمية لسكان هذا القسم الانجليزية، ويعتبر السكان رعايا بريطانيين . اما القسم الثالث فعربي ، يلحق بامارة شرق الاردن . وهو القسم الاصفر والافقر . وهو يشمل الوية السامرة واليهودية والنقب ، ويظل تحت الانتداب البريطاني بحكم ضمه للاردن . وتعيش الدولة العربية هذه على احسانات من بريطانية ومن الدولة الصهيونية، اذ تدفع حكومة كل من البلدين مساعدة سنوية لعبدالله .

واقترح تقرير لجنة بيل ايضا ان يتبادل السكان العرب واليهود مساكنهم في الدولتين العتيدتين ــ ويبلغ العرب في القسم اليهودي مئتين وخمسة وتسعين الفا ، بينما كان عدد اليهود في ذلك القسم ثلاثمئة وخمسة الاف فقط . اي ان **العرب كانوا اكثر من تسعة واربعين في المئة من سكان المنطقة التي اريد تهويدها . وكان على كل هؤلاء ان يرحلوا عن بيوتهم . بينما لم يكن يبلغ عدد اليهود الذين يقيمون في المنطقة العربية ويجب ان يرحلوا عنها الا سبعة الاف يهودي ! ثم ان مساحة الارض التي طلب من السكان العرب في المنطقة اليهودية ان يتركوها لليهود كانت اربعة اخماس المنطقة اليهودية** (اربعة ملايين من خمسة ملايين دونم) .

لم يكتف التقرير بهذا الاجحاف المادي بحقوق العرب بل اجحف بحقوق العرب معنويا ايضا. جعل الصراع على فلسطين بين حقين متساويين. واعطى اليهود صفة خاصة في بلاد لا تمت لهم . وساواهم مع العرب في مطالبتهم بفلسطين . ثم ان التقرير عرض بالعرب ، بصفاتهم وامكاناتهم ، واعتبرهم بالطبيعة ضد العمران والتقدم . وتركهم تحت رحمة راس المال اليهودي . ورفض ان يعترف بحق العرب في المطالبة بايقاف الهجرة اليهودية التي كانت تثير مخاوفهم .

حتى المواد القليلة جدا التي جاء بها التقرير ولم تكن تنسجم مع مصلحة الصهيونيين ولا مع مطاليبهم التقليدية خففت الحكومة البريطانية من حدتها فيما بعد وعدلتها لمصلحة الصهيونيين . ولنأخذ قضية ميناء تل ابيب مثالا على ذلك : جاء قرار اللجنة ان توسيع هذا الميناء لا بد ان يهدد حركة ميناء حيفا ، ولذلك فاللجنة لا تشجع المضي بالعمل فيه . فغضب الصهيونيون واحتجوا حتى اعلن وزير المستعمرات ان الحكومة لن تتقيد براي اللجنة ابدا. وذهب المندوب السامي الى تل ابيب ، في منتصف يوليو ١٩٣٧ ، واعلن ان توسيع الميناء سيتم حسب ما كان مقررا .

اختلف رد الفعل بين جماعة واخرى من الجماعات المعنية بالامر : الرأي العام العربي ، والحركة الصهيونية ، والحكومة البريطانية ، والامير عبدالله .

كانت الحركة العربية الوطنية اول من اعلن رأيه في التقرير : رفضته ساعة صدوره ، واعلنت الاضراب والمقاطعة وعصيان الحكومة والثورة عليها من جديد حتى ينال العرب حقوقهم . ولبى الشعب الدعوة وهب الى النضال الدموي . وعبثا حاولت السلطات البريطانية ان تقضي على الثورة . حلت اللجنة العربية العليا وسائر اللجان القومية في اكتوبر ١٩٣٧ ، واعتقلت مئتين وخمسين زعيما عربيا ، واحاطت البلاد باسلاك شائكة كلفتها مئة الف جنيه لمنع وصول المجاهدين من الكيانات العربية المجاورة ، واحضرت قوات جديدة لحفظ الامن ، ونسفت ودمرت قرى وشوارع واحياء ومنازل بكاملها للتأديب والانتقام . ومع هذا كله استمر لهيب الثورة يتأجج بازدياد يوما بعد اخر .

آزر العرب خارج فلسطين اخوانهم الفلسطينيين. فاستنكرت الحكومات العربية كلها ، باستثناء حكومة شرق الاردن ، قرار التقسيم واعلنت تأيدها للثورة العربية . ودافعت حكومتا مصر والعراق عن حقوق العرب في عصبة الامم . واجمعت مؤسسات البلاد العربية المختلفة ، احزابا وصحفا وتجمعات، على استنكار المشروع . وسارت التظاهرات في مدن لم تختبر هذا الحماس من اجل فلسطين من قبل ، كما في تونس والسعودية مثلا . وعقدت سلسلة مؤتمرات عربية قومية عبرت عن تلك الغضبة الشعبية ، في بلودان (سبتمبر ١٩٣٧) وفي القاهرة (اكتوبر وديسمبر ١٩٣٨) . كان اول هذه المؤتمرات مؤتمر غير رسمي حضره خمسمئة شخصية عربية سياسية وحزبية . وكان عشر الحضور من البلدين الهاشميين ، معظمهم من معارضي البيت الهاشمي. اما المؤتمر الثاني فكان للمجالس النيابية العربية . ولم يشترك شرق الاردن فيه ، مع ان وفودا غير عربية حضرته لاظهار عطفها على قضية فلسطين ، من الهند والصين واميركة . اما العراق فارسل وفدا من محتكري الحكم الموالين للبريطانيين ، ولذلك كان موقف الوفد بشكل عام معتدلا تجاه القضايا الوطنية . وقد عارض الوفد مشروع الوفد السوري بالبحث بامكان توحيد العرب . اما المؤتمر الثالث فكان نسائيا . وامتنع الاردن عن حضوره ايضا .

اجمعت هذه المؤتمرات الثلاثة على تبني مطاليب عرب فلسطين ، وخاصة من حيث قيام دولة عربية ورفض الهجرة والتقسيم والوطن القومي اليهودي ووعد بلفر . وفي الوقت نفسه عبر الوطنيون الذين عقدوا هذه المؤتمرات عن تأييدهم لعرب فلسطين بوسائل عملية . فاخذت المساعدات العسكرية تتدفق على حدود فلسطين الشمالية منذ صيف ١٩٣٧ . وانضم الى المجاهدين الفلسطينيين عدة الاف من خارج فلسطين، بقيادة العسكري التقليدي المحترف

اما الحركة الصهيونية فمع انها ابتهجت لما تضمنه تقرير لجنة بيل من خدمة لاغراضها لم تستطع الافصاح عن ذلك علنا خوفا من ان ينفضح الدور الذي لعبته هي من وراء الستار في صياغة التقرير ، وحتى لا تحرج موقف عبدالله الذي ايد التقرير ضمنا . لذلك ازدوج موقف الصهيونيين في المؤتمر العشريني الذي عقدوه في زورخ في شهر اغسطس ١٩٣٧ . قررت اغلبية الحضور رفض توصيات اللجنة ، لكنها قبلت في الوقت نفسه بمبدأ التقسيم وبأخذ جزء من فلسطين فقط كحل مؤقت . اي ان اغلبية المؤتمر رحبت بالنقاط الاساسية في التقرير ولم ترض بالتفاصيل . اما الاقلية (وكانت حوالي ثلث الاعضاء) فقد رفضت التقرير لانها لا تريد ما هو اقل من فلسطين كاملة . وكان معظم رجالها من وفد صهيونيي الولايات المتحدة . لذلك صرح بن جورين ، رئيس اللجنة التنفيذية في ذلك الوقت ، **ان التصويت لم يكن بين جزء من فلسطين أو كل فلسطين ، فالصهيونيون لا يرضون الا بفلسطين كلها : انما كان التصويت بين اي الطريقين اسرع للحصول على فلسطين كلها : اخذها على دفعات ام الانتظار حتى يحين موعد اخذها دفعة واحدة .** وقال الزعيم الصهيوني نفسه في حديث صحفي لتطمين «المتطرفين»: لا تخافوا . **لن تهرب باقي البلاد منا ان حصلنا على جزء منها فقط الان .** ان في قول كهذا تعبيرا عن نظرة الصهيونيين الى التقسيم الذي رحب به امير الاردن كأنه انتصار للعرب .

كانت هذه هي نظرية وايزمن منذ سنوات . وقد صاغها في مشروع رسمي من قبل صدور وعد بلفر بنصف سنة ، في مذكرة رفعها الى اللورد روبرت سسل . وقد ورد فيها تعليق على نية بريطانية في وضع الجليل تحت الانتداب الفرنسي (وكانت اتفاقية سايكس ــ بيكو قد وقعت حديثا) جاء فيه « مع ان هذا السلخ سيثير غضب اليهود وسيصعب على الصهيونيين تحمله وسيعتبرونه حلا غير عادل ، سيرضى اليهود عن وضع اليهودية على الاقل تحت الحكم البريطاني . بامكان اليهود ان يعملوا ، في جيل أو جيلين ، تحت حماية بريطانية ، في تطوير البلاد حسب امكاناتهم ، بانتظار الوقت الذي يمكنهم فيه ان يحصلوا على ما تبقى من فلسطين التي لهم فيها مطلب تاريخي » . اي انوايزمن فكر بهذا النوع من التقسيم كخطوة نحو تحقيق المشروع الصهيوني منذ ابريل ١٩١٧ على الاقل .

على هذا الاساس قبل وايزمن بمشروع اللجنة الملكية ١٩٣٧ . لكن الاكثر تطرفا من رجالات حركته ارادوا فلسطين كاملة دفعة واحدة . وقد عبر جبوتنسكي عن هذا الراي في مقابلته مع اللجنة في ١٩٣٦ « كيف يمكن ان

نرضى بزاوية من فلسطين ، بولاية فقط ؟ لا يمكننا ان نعد بان نكتفي بذلك . ولا يمكننا ان نرضى به قط . حتى لو اقسمنا اننا سنكتفي بذلك فاننا نكون نكذب » .

اذن فان الصهيونيين ، على اختلاف اتجاهاتهم ، اعتبروا مقترحات بيل مرحلة نحو الوصول الى الغاية الابعد : تأسيس دولتهم من الفرات الى النيل ، وايزمن بدهائه وتأنيه وجبوتنسكي بصراحته وتسرعه . بل ان لجنة بيل نفسها اعتبرت مشروعها كذلك . وقد قال احد اعضائها ، السير لوري همند، في اجتماع عام في الخامس من مايو ١٩٣٨ « **ستجدون ان الوطن القومي في فلسطين سيكون الخطوة الاولى نحو استعادة باقي اجزاء البلاد . سياخذ ذلك العمل سنوات . لكنه سيتحقق** » (٨) .

اما الحكومة البريطانية فلم تتحمس للمشروع كثيرا بعد ان لمست النقمة العربية عليه وادركت ان تنفيذه لن يكون سهلا . ولانها تبنته مدة من الزمن، عارضها بعض النواب واللوردات بزعامة اللورد صميول الذي قدم مشروعا معاكسا ، في يوليو ١٩٣٧ ، يضمن لليهود مجالات اوسع لتأسيس وطنهم القومي . وقد نص مشروعه على ان تفتح ابواب شرق الاردن امام الهجرة اليهودية ، وان تضم فلسطين الى اتحاد عربي يسمح لليهود فيه بالهجرة الى اي مكان يريدون ، وان يقوم نظام الحكم الذاتي على اساس غير عددي ، بحيث تتساوى الفرص امام اليهود والعرب قبل ان يتساووا في العدد (٩)

ارادت الحكومة البريطانية ان تتخلص من تقرير اللجنة الملكية دون ان تتراجع فعينت لجنة اخرى ، عرفت باسم رئيسها ودهد ، لدرس المشروع من ناحيته العملية ، وقصدها بذلك ان تقتل المشروع بالسر . فدرست اللجنة الجديدة التقرير السابق ، وعدلت فيه تعديلات اساسية بحيث اصبح مشروعا جديدا ، بعد ان زارت فلسطين وتجولت بين المناطق العربية واليهودية مدة ثلاثة اشهر . وقد قاطعها العرب بعد ان تعلموا الدرس من اللجنة السابقة . اما امير الاردن فانه لم يكتف بعدم مقاطعة اللجنة بل دعاها الى عمان وقدم لها مذكرة تتعارض مع المطاليب القومية التي اجمع عليها عرب فلسطين تقريبا . وجاء في مذكرته انه يطلب من الحكومة البريطانية ان تسمح له بادخال الصهيونيين الى امارته . كما اقترح اعطاء اليهود نسبة عالية من المناصب الوزارية والادارية والمقاعد النيابية في دولة فلسطين التي اقترح انشاءها .

---

(٨) جريدة جوش كرنكل ، عدد ١٣ مايو ١٩٣٨ .
(٩) تفصيل المشروع في مذكرات صاحبه :
Viscount Samuel, Memoirs (London, 1945), P. 285.

مثلما فضحت لجنة بيل سيئات نظام الكانتنات الذي كان عبدالله قد قبل به رغما عن ارادة العرب ، فضحت لجنة ودهد سيئات مشروع بيل الذي قبله عبدالله مرة اخرى . هاجم تقرير اللجنة الجديدة المشروع السابق لانه منح اليهود لواء الجليل ومناطق اخرى اكثريتها عربية ، ولانه دعا الى اخراج السكان العرب من ديارهم . وبينما وافقت اللجنة الجديدة على فكرة التقسيم رفضت قبول التحديدات السابقة . فسلخ لواء الجليل وحيفا عن المنطقة اليهودية . لكنهما لم يلحقا بالمنطقة العربية بل بمنطقة الانتداب . كذلك اضيف الى منطقة الانتداب صحراء النقب حتى العقبة ، مرورا بالعوجة وعسلوج وبئر سبع . واصبح التقسيم الجديد هكذا : سبعة ملايين دونم لليهود وسبعة ملايين وثلث المليون للعرب ، والباقي للانتداب البريطاني .

وجدت الحكومة البريطانية في تقرير ودهد ما يبرر لها سحب مشروع لجنة بيل الملكية بحجة انه غير عملي . ودعت العرب والصهيونيين الى التباحث في حل جديد . واعلنت انها لن تفكر بعد بالتقسيم ما دام هو لا يرضي الفريقين ، وانها ستستمر بتحمل مسؤوليات الانتداب الى ان يصل الفريقان الى حل يرضيهما . غير ان العرب رفضوا التفاوض مع بريطانية ما لم تفرج اولا عن مئات المعتقلين من الوطنيين . فنزلت الحكومة عند رغبة الشعب بعد مماطلة طويلة . واجتمع عدد من زعماء فلسطين مع موفدين عن حكومات مصر والعراق والسعودية والاردن بالسلطات البريطانية في مؤتمر عرف باسم المائدة المستديرة .

عقد المؤتمر اربع عشرة جلسة في شهري فبراير ومارس ١٩٣٩ ، باشراف وزير المستعمرات ، مالكم مكدنلد . عرض الجانب البريطاني عددا من المشاريع التي لم يقبل الوطنيون العرب بها ، مثل مشروع صميول آنف الذكر ومثل مشروع اخر وضعه السير ارنلد ولسن ونشره في التايمز (في الثاني عشر من اكتوبر ١٩٣٨) باقامة دولة سورية الكبرى حيث لليهود حكم ذاتي واسع . واخيرا اصدرت الحكومة البريطانية كتابا ابيض شهيرا ، في منتصف مايو ١٩٣٩ ، يحمل حلا جديدا للمشكلة : انشاء دولة فلسطينية مستقلة ، عربية يهودية ، في مدى عشر سنوات .

رفض الطرفان المقترحات الجديدة . رفضها الصهيونيون لانها تتراجع عن وعد بلفر . ورفضها العرب ، باستثناء عبدالله ، لانها لم تحدد المرحلة الانتقالية التي تنتهي بالاستقلال التام ، ولم يكن للعرب ثقة بالوعود البريطانية، ولان الحكومة الوطنية كانت ستتألف في اخر تلك المرحلة وليس في اولها ، ولان البريطانيين سيكونون المسيطرين على المجلس التأسيسي، ولان تحديدات الهجرة وبيع الاراضي كانت مطاطة وغير كافية ، ولان تنفيذ المشروع ربط

بموافقة اليهود عليه .

مع هذا لم يقطع العرب حبل التفاهم لان المشروع كان افضل من سائر المشاريع التي عرضها البريطانيون على العرب في عشرين السنة الماضية ، ولانه حدد الهجرة اليهودية بخمسة وسبعين الف مهاجر في خمس سنوات ثم يوقفها الى ان تتألف الحكومة الجديدة ، ويكون اليهود انذاك قد اصبحوا ثلث سكان البلاد .

الا ان بريطانية لم تكن جادة في مشروعها ، سواء رضي العرب به ام لم يرضوا . ارادته حيلة جديدة لتهدئة الخواطر الثائرة ، ولكسب ود العرب ، ولدعم اعوانها من السياسيين وتقوية مراكزهم الشعبية ، ولقطع الطريق على القوميين الذين عارضوها ولقوا تأييدا شعبيا واسعا ، ولمنع تغلغل النفوذ الفاشي والنازي في البلاد العربية . وكانت دولتا المانية وايطالية قد بداتا تساندان الحركات الوطنية في البلاد العربية ، وبداتا ، بالتالي ، تلقيان ترحيبا من الراي العام . لذلك لم يكن المشروع اكثر من مسكن مؤقت .

تسابق اصدقاء الصهيونيين ، من المحافظين والعمال ، على مهاجمة الكتاب الابيض . اعتبره تشرتشل « خيانة دنيئة وافلاس معنوي » . واعتبره هربرت مرسن « خروج عن الايمان وخرق للشرف البريطاني » ، وذلك في مناقشات مجلس العموم في السادس والعشرين والسابع والعشرين من ابريل ١٩٣٩ . وبالتالي لم تنفذ الحكومة المشروع قط . ولفت الحرب العالم بجناحها الاسود والاوضاع على حالها ، والمشروع مجرد كلام مرصوف ، يطوى وينشر حسب الحاجة .



الفصل السادس

عبدالله والمشاريع المشبوهة



فضح كل من المؤتمر الصهيوني في زورخ ، صيف ١٩٣٧ ، وتقرير لجنة ودهد في السنة التالية ، مشروع لجنة بيل الملكية . فعبر المؤتمر عن اجماع الصهيونيين على ان اي تقسيم لفلسطين ما هو الا خطوة نحو تملك فلسطين كلها وبعض جاراتها ايضا . واشار تقرير ودهد الى ما في المشروع السابق من اخطار على مصلحة المواطن العربي . وقد اعلن التقرير ، بصراحة « انه من غير المحتمل ان يرضى العرب بترك وطنهم والشروع من جديد في ارض اخرى . فالارض التي يطلب منهم تركها تؤلف اخصب اراضي فلسطين واوفرها ماء ، بينما تقع الارض التي يدعون الى المهاجرة اليها في مناطق جدباء شحيحة المطر » . وجزم التقرير بان العرب « سوف يقاومون بالقوة » .

يلقي راي الخبراء الصهيونيين والبريطانيين هذا ضوءا على حقيقة المشروع الذي قبل به (الامير) عبدالله على علاته ، ولم ير فيه غير وسيلة لتحقيق مصالحه في فلسطين . فقد ايد عبدالله المشروع تأييدا تاما منذ اللحظة الاولى لاعلانه ، في السر وفي العلن . اما من حيث الاتصالات السرية فقد كان عبدالله يتتبع مراحل القضية خطوة بعد اخرى بواسطة المسؤولين البريطانيين في عمان والقدس . وكان يعرف الغاية من مجيء اللجنة مسبقا . وعلى هذا الاساس اسهم في اقناع عرب فلسطين بالاجتماع بها وعرض قضيتهم عليها، ليكسب اللجنة جوا مناسبا ينفي عنها تهمة التحيز ضد العرب، بعد نشر مقترحاتها . وقد صارح عبدالله اللجنة بتأييده لفكرة التقسيم، شرط ان يضم القسم العربي الى امارته . وتعهد لها وللسلطات البريطانية بحمل قسم كبير من عرب فلسطين على تأييد المشروع شرط ان تؤمن تلك السلطات له الحماية من رد فعل الحركة الوطنية بملاحقة رجالاتها . واوعز الى بعض اعوانه ، عند صدور المقترحات بتأييدها . فقامت تظاهرات صغيرة في نابلس ويافا ، حيث كان لاعوان عبدالله سيطرة محدودة ، تهتف باسمه ملكا على فلسطين وشرق الاردن معا ، وترفع صوره الى جانب الاعلام البريطانية .

وبارك عبدالله المشروع في مجالسه الخاصة وامام المئات من زواره الفلسطينيين والاردنيين وامام مستشاريه ووزرائه وحاشيته . لكنه لم يتجرا على اصدار تصريح رسمي بذلك . خاف من رد الفعل . واكتفى بان رفض ان يستنكر المشروع لما طلب منه ذلك اسوة بزملائه من الحكام العرب الذين استنكروا المشروع رسميا ، بالرغم من محاولات زعماء النضال الفلسطيني وملكي السعودية واليمن ، وبالرغم من خطاب ناري لرئيس حكومة العراق ، حكمت سليمان ، قال فيه ان الشعب سينبذ عبدالله من بين صفوفه ان لم يتراجع عن تأييد التقسيم ، وبالرغم من ضغط ولي العهد في الاردن .

كان عبدالله الحاكم العربي الوحيد الذي ايد مشروع التقسيم . فنقم

عليه عرب فلسطين اكثر من اي وقت مضى . ومنهم من مزق صوره التي رفعها اعوانه من رجالات حزب الدفاع ، واعتبر الهتاف باسمه خيانة وطنية ، بينما اخذ الناس يهتفون باسماء ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم الاخرين للتحدي. وخشي الانجليز ان يؤدي تدهور مركز الامير الى حرمانهم من مساعدته لهم عند الحاجة . وكانوا قد سحبوا المشروع . فاوعزوا اليه ان يستنكره ما دام الامر قد انتهى . ففعل ذلك ، متأخرا جدا ، واعلن انه لا يؤيد مشروع لجنة بيل . **ولكنه لم يقل قط انه ضد مبدأ التقسيم .**

وبينما قاطع عرب فلسطين لجنة ودهد وحمل مندوبو مصر والعراق صوت الاماني القومية الى عصبة الامم وحضر المئات من الاحرار مؤتمرات بلودان والقاهرة للتعبير عن نصرتهم لفلسطين ، كان عبدالله يتصل باعضاء تلك اللجنة ويتفق واياهم على التقسيم من جديد ويدعو لادخال الصهيونيين امارته . بل انه كان يتصل بالصهيونيين اتصالا مباشرا ، ويدعوهم لاستئناف علاقاته القديمة معهم ، ويعرض عليهم استقلالا ذاتيا في ظل عرشه . ولم يتعكر صفو علاقته معهم الا بعد اواسط ١٩٣٩ ، حينما ايد مشروع الكتاب الابيض الذي عارضوه . وقد تبنى عبدالله الكتاب قبل ان يسمع رأي عرب فلسطين . ورأى رئيس حكومته فيه « عهدا جديدا من التعاون البريطاني العربي ». وكان لموقفه صدى سريع في اوساط حزب الدفاع في فلسطين . اذ اصدر بعضهم بيانا بمهاجمة الحركة الوطنية لانها لا ترضى عن الاستقلال التام بديلا .

كان السعي الاكبر لعبدالله في ترسيخ قدميه في فلسطين ومقاومة نضالها الوطني تكوين حلقة موالية له من بين بعض زعماء فلسطين .

يعود تاريخ انقسام طبقة ممتهني السياسة في فلسطين على انفسهم واتجاه بعضهم نحو الانتداب والصهيونيين وامير الاردن الى السنين الاولى من العشرينات ، منذ ان بدأ الانتداب والمهاجرة اليهودية وبدأت الاتصالات مع عبدالله في شرق الاردن ليعين السلطات الحاكمة والصهيونيين ضد الجمعيات الاسلامية ــ المسيحية . وتعود اسباب ذلك الانقسام الى مساعي هذه الفئات الثلاث لتفتيت وحدة الشعب وايجاد الثغرات في بنيان نضاله ليسهل بواسطتها تهديم ذلك النضال ، من الجهة الواحدة ، وتعود الاسباب ، من الجهة الاخرى ، الى طبيعة التركيب السياسي في فلسطين في اعقاب الحكم التركي .

كان تحطيم التضامن القومي ضرورة اساسية للمخطط الصهيوني ــ الانتدابي . فقد راع اصحاب المخطط تنبه عرب فلسطين للاخطار المحيطة

بهم وتعاونهم في مقاومتها ، وهو تنبه وتعاون عبرت عنه المؤتمرات القومية الاولى في دمشق والقدس وحيفا ويافا ونابلس ، والجمعيات الاسلامية المسيحية ، والتظاهرات ، وتأديبات الصهيونيين المستمرة ، ووفود الدعاوة ، واللجان القومية ، وبرقيات الاستنكار ومقاطعة الصهيونيين والحكومة، وحماية الاراضي من البيع .

اما التركيب السياسي في فلسطين فكان وجها اخر من وجوه الطبقية السياسية التي كانت تتحكم بالمجتمع العربي في اسية طيلة قرون الحكم العثماني ، التي جعلت قيادة الشعب ومصيره في ايدي حفنة محدودة العدد من ابناء العائلات العريقة ذات الوجاهة الاجتماعية والدينية التي كان الشعب يدين لها بالولاء منذ ايام الجهل والفقر والخوف .

انحصرت الحركة السياسية في الربع الاول من القرن الحالي في طبقة الوجهاء ، اصحاب المصالح المتضاربة بين بعضهم بعضا ، ممن اختبروا التنازع على الزعامة المحلية قبل ان يختبروا النضال في سبيل البلاد ، وممن عرفوا مصالحهم العائلية اكثر مما عرفوا الحقيقة القومية للحركة التي اسهموا في انشائها وتنميتها ، وممن حولوا الاحزاب الى تكتلات عائلية . لذلك لم يصعب على المنتدبين والصهيونيين اثارة هذه الزعامات ضد بعضها بعضا ، واشغالها عن القضية العامة بنفسها ، واستمالة الفريق المتهاون بحقوق البلاد اكثر من غيره الى جانبهم ، استمالة سرية احيانا وعلنية احيانا اخرى . ولا يهمنا هنا ان نستعرض تاريخ الصراع الحزبي في فلسطين . بل يهمنا ان ندلل على ان **الجانب السياسي الذي والى الهاشميين كان هو نفسه الذي والى الانتداب والصهيونيين وتعاون معهم ، بحيث شكل الهاشميون واعوانهم في فلسطين جبهة واحدة مع الاستعمار والصهيونية ضد جبهة الشعب القومية التي تزعمها في معظم الاحيان سياسيون تقليديون رفعوا الشعارات القومية عن اخلاص او عن مصلحة .**

حملت الجمعيات الاسلامية المسيحية جراثيم انحلالها منذ نشأتها. فقد والاها الزعماء والوجهاء لتوطيد سيطرتهم في الفراغ السياسي الذي تعرضت البلاد له بعد طرد الاتراك ، ولاخضاع الشارع الذي وعى الخطر الصهيوني واخذ يستنكره قبل ان يتغلب الشارع على تلك الزعامات ويقصيها . لكن هؤلاء لم يقووا على التزام المطاليب الوطنية التي حملتها تلك الجمعيات بتفويض من الشارع الثائر ، لان التزامها كان يتعارض مع مصالحهم الطبقية التي حماها الانجليز وسخروا جهودهم للمحافظة عليها (كما فعلوا في العراق) ولان التمسك بتلك المطاليب كان يحرمهم من المساعدات التي عرضها الصهيونيون عليهم ان هم تعاونوا معهم .

حصل الانشقاق اذن في صفوف تلك الجمعيات الوطنية لان الانتماء اليها كان عملا مصلحيا فرديا ولم يكن اتجاها وطنيا في بعض الاحيان . كان بعض اسبابه المباشرة ثانويا ، كالخلاف على رئاسة فروع الجمعيات والتنافس على عضوية المجلس الاسلامي الاعلى . وكان بعضها اساسيا ، كاتخاذ الموقف المناسب من اجراءات سلطات الانتداب ومن العروض الصهيونية .

ومثلما نجح الصهيونيون والانتدابيون في تفتيت تلك الجمعيات واخراج عدد من « الوجهاء » منها ، نجحوا في الوقت نفسه في تأليف عدد من الاحزاب المشبوهة التي اخذت تدعو للتهاون والاستسلام . واولها حزبان تأسسا في ١٩٢٤ : حزب المزارعين ، في الخليل ونابلس ، والحزب الجديد ، في القدس، الذي تسمى فيما بعد بالحزب الوطني . وقد غذى الصهيونيون الحزبين بالمال، وحماهما الانجليز من غضب الشعب . كما اسس رجال هذين الحزبين وغيرهم من المنشقين عن الجمعيات الاسلامية المسيحية جمعيات مشبوهة في عدد من المدن والقرى باسم « الجمعيات الاسلامية الوطنية » لمقاومة الجمعيات التي انشقوا عنها . وتزعم هذه الجمعيات نفر من رجال الاقطاع الكبار ومن والاهم من شيوخ القبائل ومن الاقطاعيين المحليين .

خرج هؤلاء ، افرادا واحزابا وعائلات ، على التضامن العربي وخرقوا الميثاق القومي . فرفضوا مقاطعة المجالس الاستشارية . وتعاونوا مع الاحتلال اداريا ومع الصهيونيين تجاريا. وباعوا الاراضي الى اليهود وسمسروا لهم وزرعوا الشكوك . وعرقلوا النشاط الوطني . واحكموا الحلقة بين عبدالله والحسين وبين الصهيونيين في ١٩٢٣ - ١٩٢٤ . وايدوا الهجرة والانتداب في عموم العشرينات ، وايدوا التقسيم في الثلاثينات ، ودعوا لوطن قومي يهودي في جزء من فلسطين وتسليم الجزء الاخر الى شرق الاردن . وتزلفوا الى لجان التحقيق البريطانية والدولية ، وتبرعوا بتأييد كل مشروع رفضته غالبية الشعب . وقد برروا هذه الاعمال والمواقف بان **« ليس من داع لان لا يتعامل العرب واليهود معا لان هنالك مكانا للجميع وقد قام اليهود بتقدم ملموس في فلسطين »** كما قال كبيرهم ، راغب النشاشيبي ، الذي رأسه البريطانيون على بلدية القدس خمس عشرة سنة ، في حديث له مع صحفية اوربية زارت فلسطين اواسط العقد العشريني (١).

---

(1) Sophie Iren Loeb, Palestine Awake (London, ?) P. 17.

ويحسن بالقارىء ان يقارن ذلك الكلام باراء زعماء البلاد الاخرين ، ص ٧٦ - ٧٧ من الكتاب نفسه

اسس راغب النشاشيبي هذا حزب الدفاع في اليوم الثاني من ديسمبر ١٩٣٤ ، بعد ان قوي التكتل الوطني وضعف مركز المتهاونين بحقوق البلاد وانفرط عقد معظم التجمعات السابقة ، وبعد ان بايعت البلاد المجلس الاسلامي الاعلى بالزعامة اثر احداث ١٩٢٩ و ١٩٣٣ . وانضم الى الحزب عدد من الاقطاعيين والوجهاء المتعاونين مع الانتداب ، وخاصة رؤساء البلديات الذين كانت سلطات الانتداب هي التي تعينهم ومشايخ بدو الجنوب . كما انضم اليه بعض سماسرة الاراضي ، وبعض رجالات التعصب الطائفي المعروفين برجعيتهم ، وبعض الزعماء الفاشلين . لكن هذا الكلام لا ينسينا ان عددا اخر من هؤلاء الاقطاعيين والفاشلين والمتعصبين والى الحركة الوطنية في الوقت نفسه .

واذ لم يعد بالامكان معاكسة التيار الوطني علنا ، وقد اشتد هذا التيار وهدد بالقضاء على كل من يقف في طريقه ، تخلى هؤلاء عن دعوتهم السابقة للتعاون مع الانتداب ومهادنة الصهيونيين ، واخذوا يخدمون الاغراض البعيدة نفسها عن طريق غير مباشر ، بواسطة تحطيم سمعة الوطنيين والتشكيك بهم ، وبخلق تيار انهزامي ، وبتخدير اعصاب الشعب ، وبافشال الحياة الحزبية ، وباشغال المواطنين بامور تافهة — وهي الوسائل نفسها التي استعملها المثلث الحاكم في كل من العراق والاردن في العهود الهاشمية .

وعني حزب الدفاع ، بوجه خاص ، بقطع علاقات الجهاد العربي في فلسطين مع الحركات القومية خارج فلسطين . وكان يبعث دعاته ورجاله الى الاردن لتحريض مشايخ البدو ضد المعارضة الوطنية هناك . وكان يعارض فكرة الوحدة العربية . وهو الحزب الوحيد في فلسطين من بين الاحزاب السياسية الستة التي تألفت في العقد الثلاثيني الذي لم يشر الى قضية الوحدة في مبادئه الاساسية . وكان الحزب يعارض الحركات الوطنية في سورية ولبنان ويتعاون مع اصدقاء فرنسة في البلدين . وعادى الحكم الوطني الذي عاش وقتا قصيرا في العراق في العام ١٩٤١ .

وعمل الحزب على عرقلة النضال داخل فلسطين . كان يشاغب من داخل الجبهات التي الفها سياسيو البلاد للاشراف على تنفيذ المطاليب القومية مشاغبة انتهت بتفتيت تلك الجبهات . وكان الحزب يعارض مبدأ الثورة المسلحة . وقد عمل على افشال ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ الكبرى ، ودعا الى وقفها ، وقاوم قيادتها ، وتجسس بعض افراده للانجليز عليها . وكان الحزب يصدر صحيفة تطعن بالوطنيين كلما اسس الوطنيون صحيفة تدعو للمبادىء القومية . وكان يتقبل كافة المشاريع والحلول التي تتفتق عنها اذهان الانجليز

او الصهيونيين . وكان يرفض مقاطعة لجان التحقيق الشكلية .

اضطرت الحركة الوطنية ، بعد صبر طويل ، ان تفرط بمبدأ الوحدة الوطنية التي لم تكن موجودة الا بالاسم ، وان تعلن الحرب على حزب الدفاع وتتبرأ منه ومن تصرفاته وصفقاته . فاغتيل عدد من اقطابه ومريديه ، حتى هرب من نجا منهم الى الخارج خوفا من لقاء المصير ذاته . ومنهم من اغتيل في المكان الذي هرب اليه ــ حتى كادت الثورة الكبرى ، الوطنية الممتازة ضد الانتداب والصهيونية ، تتحول اخر الامر الى حرب اهلية يطهر الوطنيون فيها البلاد من معارضي الاهداف القومية .

هؤلاء الذين نبذهم الشعب واغتالهم الثائرون وحماهم الاستعمار وموّلهم الصهيونيون هم في الواقع الذين قاموا بالدعوة للامير عبدالله في العقد الثلاثيني ، الذين طالبوا بالتقسيم وبضم بعض فلسطين لشرق الاردن وبتأسيس الكيان القومي اليهودي وبانشاء سورية الكبرى وبمواصلة الهجرة اليهودية وبالسماح لليهود بالتملك في شرق الاردن . هم الوحيدون بين عرب فلسطين الذين تبنوا قرارات لجنة بيل . وكانوا قد قرروا الاتصال بها لما زارت فلسطين مع ان الحركة الوطنية قررت مقاطعتها . وقد علموا بمحتويات قراراتها قبل نشرها بايام ، وعلموا ان اللجنة العربية العليا ستعارض القرارات في حال اعلانها . لذلك ، وحتى يتبرأوا من معارضة الانجليز ، انسحبوا من اللجنة قبل صدور القرارات بيوم واحد . وكان قصدهم من ذلك اضعاف الجانب العربي في ذلك الوضع الحرج ، وافشال سعي الوطنيين لمعارضة التقسيم . ثم انهم اخذوا يحرضون السلطات ضد اللجنة التي صمدت في وجوههم ودعت الشعب لتأديبهم ، واخذوا يعاونون السلطات في تعقب افراد اللجنة حتى حلت تلك السلطات اللجنة وسجنت من لم يهرب من زعمائها .

واستغل «الدفاعيون» نكبة الحركة الوطنية في اواخر ١٩٣٨ بتشتيت المئات من القادة والسياسيين فعقدوا الاجتماعات لمبايعة عبدالله بزعامة فلسطين وسلموه مصير القضية العربية ليتصرف بها حسب « مبادىء الثورة » وهم يعلمون ان عبدالله يعمل للتقسيم مثلما هم يريدون . واضطروا ان يشنوا اعنف هجوم شهدته فلسطين ضد الوطنيين ليوجدوا لعبدالله فراغا سياسيا كي يملأه . وكان الهجوم بالشائعات والاتهامات الباطلة والاكاذيب التي نشرتها صحفهم ومناشيرهم ووزعتها ابواق الدعاوة الانتدابية . وقد تزعم تلك الحملة فخري النشاشيبي ، الذي كان يعمل لعبدالله والانجليز علنا ، حتى اضطر قريبه ورئيس حزبه ، راغب النشاشيبي ، ان يطرده من الحزب حفظا للمظاهر . وقد ادت اعمال فخري المذكور ، ونشاطه في تشجيع بيع الاراضي

وحماية سماسرتها ، وفي عقد المؤتمرات واصدار الكتب ضد الحركة الوطنية وفي تزعم ارهابيي حزب الدفاع ، ادت هذه الاعمال الى مقتله في بغداد بعد انتهاء الثورة بعدة اشهر . كانت الاغتيالات ، على بشاعتها ، الوسيلة الوحيدة لارهاب اعوان الصهيونيين . وبسببها انخفضت نسبة بيع الاراضي ، التي كان هؤلاء الافراد يشجعونها ، من مئة وخمسة وعشرين الف دونم في السنة (١٩٣٤ ــ ١٩٣٥) الى خمسة وخمسين الف دونم (١٩٣٦ ــ ١٩٣٨) .

استغل اصدقاء عبدالله نشوب الحرب العالمية الثانية فشددوا من تهجمهم على الحركة الوطنية ، وسلاحهم في الطعن برجالها ان الوطنيين على علاقات حسنة مع الحكومتين الالمانية والايطالية . واتهموا هؤلاء الوطنيين الذين كان معظمهم خارج البلاد (اما في العراق ، في عهد قيادة الضباط الاحرار للجيش العراقي ، او في ايطالية والمانية بعد سقوط العهد الوطني في العراق) بتهم مختلفة معظمها مختلق . ودعوا ، في الوقت نفسه، الى تأييد الحلفاء . وخدموا في مكاتب الاستخبارات البريطانية . وتجسسوا على القوميين ولاحقوهم من مكان الى اخر . وحرضوا السلطات ضد هؤلاء القوميين وطالبوا بانزال العقوبات بهم . وقد نشرت اكثر من وثيقة ، بعد انتهاء الانتداب ، تثبت عمل هؤلاء مع مكاتب الاستخبارات البريطانية في فلسطين ضد الحركة الوطنية في فلسطين وشرق الاردن والعراق وسورية . وقد ذهب فخري النشاشيبي الى سورية ولبنان والعراق في اعقاب الاحتلال البريطاني للدعوة لهذا الاحتلال وتعقب الوطنيين في البلدان الثلاثة .

كان عبدالله يبارك تلك الاعمال ويمولها ويسهم في توسيعها . وكان يقوم في الوقت نفسه باعمال مماثلة ضد الحركة الوطنية في البلدان آنفة الذكر ويحرض الانجليز ضدها ويقدم جيشه لاخضاعها ويتصل بالصحفيين الاجانب ليتهجم عليها وليثير العالم ضدها .

حاولت الحركة الوطنية ، بعد ان انتهت الحرب العالمية ، ان تحيي مبدأ الحفاظ على الوحدة الوطنية وان تتناسى ما فعله اعوان عبدالله بها في محنتها وان توقف الحملة الدعاوية ضدهم . بل انها قبلت بحزب الدفاع عضوا في الهيئة العربية العليا التي تشكلت من احزاب البلاد السياسية التقليدية في ١٩٤٦ . الا ان الحزب ، وبناء على اتصالاته مع الانجليز وعبدالله، اخذ يعارض المطاليب القومية من جديد ويتصل باعداء البلاد في احرج الاوقات. وتعاون الحزب مع عبدالله في الضغط على السلطات البريطانية كي تمنع عودة زعماء فلسطين الوطنيين الى البلاد وكي لا تفرج عن العشرات من المسجونين منهم ومن المنفيين الى اواسط افريقية . ويحسن بنا ان نستشهد على رأي اعوان عبدالله بقضايا فلسطين السياسية انذاك مما كتبه القاضي

الاميركي بارتلي كرم ، كبير افراد لجنة التحقيق الانجلو اميركية في العام ١٩٤٦ ، في وصفه مقابلة مع احد افراد ذلك الحزب ، من آل النشاشيبي . فقد روى القاضي ان الشاب العربي المثقف طالب بالتقسيم بصراحة لان التقسيم يخدم ثلاثة اغراض كبرى : يحقق للصهيونيين امانيهم بتأسيس « دولة ديموقراطية » في الشرق ، ويمكن عبدالله من الاستيلاء على جزء من فلسطين ، ويمكن آل النشاشيبي من السيطرة على القسم العربي من فلسطين ويدعمهم في صراعهم مع آل الحسيني ، وهم اعداؤهم التقليديون (٢) .

هذه هي اراء اعوان عبدالله في فلسطين . وهذا هو سجل اعمالهم الذي يكاد يكون نسخة طبق الاصل عن اعمال عبدالله وارائه ومشاريعه — وهي مطابقة تشابه تلك التي كانت بين الهاشميين والطبقة الحاكمة التقليدية في كل من العراق والاردن من حيث الاعمال والافكار ، مما يعني انه قام في فلسطين مثلث خطر مثلما كان يوجد في الكيانين الهاشميين . وبينما كان ممتهنو الحكم في ذينك الكيانين هم الطرف الثالث من اطراف المثلث ، الطرف العامل لصالح الهاشميين والبريطانيين ، كان رجال حزب الدفاع وانصارهم هم الطرف الثالث في المثلث الفلسطيني ، العامل من اجل الهاشميين (عبدالله بنوع خاص) والانجليز .

لذلك لا يبقى مجال لاستغراب دور هذه الجماعة في اعقاب حرب فلسطين بضم ما تبقى من فلسطين الى مملكة الاردن ، وهو ضم كانت هي المنتفعة منه ، مع عبدالله ، اذ انها ضمت الى الطبقة الحاكمة في الاردن راسا، وتقاسمت مع افرادها المغانم والمناصب على حساب الالاف من المشردين من الفلسطينيين .

ان اغلبية الفلسطينيين الذين استلموا الاحكام في الاردن في السنوات الاولى بعد الضم كانت من رجال حزب الدفاع واعوانه ومريديه ومؤيديه من وجهاء البلاد واقطاعييها ومشايخ قبائلها ومن موظفي حكومة الانتداب السابقة. وكان معظم هؤلاء قد بدأ يدعو لعبدالله وللضم ولسورية الكبرى من قبل ان تشتعل حرب فلسطين رسميا ، وخاصة في نصف السنة بين اعلان تقسيم فلسطين في الامم المتحدة ودخول القوات النظامية ارض فلسطين . وكانت الادارة الانتدابية تمول ذلك النشاط وتحميه من غضب الشعب .

اعتاد المعلقون والكتاب الاجانب على تسمية هذه الجماعات التي خرجت على الميثاق القومي « بالمعتدلين » . واعتادوا ، بالطبع ، ان يحيطوهم بهالات

---

(2) Bertley C. Crum, Behind the Silken Curtain (London, 1947), Ch. 12.
ولم ينشر القاضي الاسم الكامل لمحدثه خوفا على حياته كما قال .

من المديح والاكبار . اما في قاموس الحركة الوطنية فان اللقب كاد يعني « الخيانة » ، او قل التفريط بمقدسات الامة ، اذ كان الاعتدال المذكور تنزلا في الواقع عن الحد الادنى من المطاليب وتهاونا بالاساسيات ولم يكن تنزلا عن الحد الاقصى من الاحلام القومية ولا كان تهاونا بالاهداف البعيدة جدا ، ولم يكن من جهة اخرى مجرد اختلاف في تفسير المبادىء العامة كما يزعم المتهمون بالاعتدال انفسهم . لذلك فهناك فرق اساسي بين « المعتدلين » العرب « والمعتدلين » الصهيونيين لا بد من النظر فيه . فبينما خالف المعتدلون العرب مطاليب الاغلبية الساحقة في شعبهم ، ورضوا بمشاريع تتناقض مع مطلبي الاستقلال والوحدة القوميين تناقضا اساسيا ، اتفق المعتدلون الصهيونيون مع سائر الجماعات الصهيونية على اهداف الحركة الصهيونية ومطاليبها (واهمها تأسيس كيان قومي في فلسطين) . لم يختلفوا معهم الا على وسائل التطبيق ومداها وتوقيتها فقط . اي انه بينما كان معتدلو الصهيونيين من صميم الحركة الصهيونية ، وقف معتدلو العرب خارج الحركة القومية العربية — نقصد بها الحركة العاملة من اجل تحقيق الميثاق القومي الذي اتفق عليه اغلب سياسيي فلسطين ورأيها العام في سني الانتداب .

ونحن ، في هذه الدراسة ، لا يهمنا الجانب الشخصي والعائلي والطبقي في خلاف الوطنيين مع المعارضين ، ولا نحكم على المعارضين من وحي ذلك الخلاف ابدا . انما يهمنا ان المعارضين ، او المعتدلين كما سموا احيانا اخرى، فرطوا بالميثاق القومي الذي صدف ان تمسك به سياسيون اخرون (ولا يهمنا اذا كانوا من الطينة نفسها) عرفوا بالوطنيين لتمسكهم بالميثاق نفسه . وحكمنا على المعتدلين انما هو لانهم سمحوا لخلافاتهم مع الفئة الاخرى ان تستبد بهم فتحيدهم عن الطريق الذي اختطه الراي القومي العام منذ ١٩٢٠ لان الفئة الاخرى كانت تسلكه ، مما رماهم خارج الحركة القومية واوجد بينهم وبين اعدائها في الخارج ، الصهيونيين والانتداب، علاقات ود وتعاون خطيرة وخطرة الى اقصى حد .

بالرغم من هذا الاختلاف الاساسي جدا بين « المعتدلين » العرب و « المعتدلين » الصهيونيين كان الاثنان على اتصال وثيق ببعضهما بعضا .

وكان كلاهما على اتصال مستمر بالانجليز وبالهاشميين . كان مخطط المعتدلين الصهيونيين ، الذين تزعمهم الدكتور ماجنس رئيس الجامعة العبرية ايام الانتداب ، ان على الحركة الصهيونية ان تحقق اهدافها عن طريق مصادقة العرب ومهادنتهم ، لا بالقوة ولا بالتحدي . وكان هؤلاء المعتدلون يعتقدون ان بالامكان اقناع العرب بان الاهداف الصهيونية لا تتنافى مع امانيهم القومية وبان تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين ينفع العرب بمقدار ما ينفع اليهود (وهي نظرية مارك سايكس من قبل ، التي اعتبرت الصهيونيةوالقومية

العربية صفحتي ورقة واحدة !) وكما كان فيصل من راي سايكس ومن المعجبين به ، كان عبدالله من المعجبين بماجنس ومن المتعاونين معه ، وخاصة في الدعوة لمشروعي التقسيم وسورية الكبرى اللذين تحمس زعيما «الاعتدال» لهما حماسا كبيرا .

كان تأييد « المعتدلين » للتقسيم واضحا ، واسباب ذلك التأييد لا تختلف ادنى اختلاف عن اسباب تأييد سائر الصهيونيين له ، من حيث اعتباره السبيل الوحيد لتأسيس الدولة الكبرى فيما بعد . اما تأييد « المعتدلين » المذكورين لمشروع سورية الكبرى فانه يعود الى عدد من المنافع التي وجدوها فيه بشكل خاص :

اولا ، يخدم المشروع عبدالله ويقوي مركزه ضد « المتطرفين » ، اي ضد اغلبية العرب المؤمنين بمبدا الوحدة والاستقلال في سائر الكيانات العربية وقد اشترك المعتدلون من الصهيونيين مع سائر الصهيونيين في اتاحة المجال امام عبدالله ليتقوى على خصومه وخصومهم في آن واحد . فهو اقرب العرب اليهم .

ثانيا ، يخدم المشروع الانجليز .. وقد امل الدكتور ماجنس وجماعته بان تتم مشاريعهم المشتركة مع عبدالله على ايدي الانجليز (في حين اخذت الاغلبية الصهيونية بعد ١٩٤٠ تأمل بالنجاح على ايدي الاميركيين) . وكانت ارتباطاتهم مع موظفي الانتداب معروفة جدا وتشابه ارتباطات حزب الدفاع وعبدالله بهؤلاء الموظفين .

ثالثا ، يتقي الصهيونيون ، بالوحدة السورية الهاشمية ذات الارتباط الوثيق مع الانجليز ، خطر الوحدة العربية الصحيحة التي تستهدف القضاء على الصهيونية وتخليص فلسطين من براثينها . اما الوحدة السوريةالهاشمية فانها تقسم الوطن العربي على نفسه ، جغرافيا على الاقل ، وتضعف امكان قيام جبهة واحدة في المستقبل .

رابعا ، يسهل على الصهيونيين ، حينما يصبح كيانهم عضوا « فخريا » في دولة سورية الكبرى ، ان يتغلغلوا الى اجزاء عديدة من الوطن العربي ، ويصبح بامكانهم ان يعملوا في ، وان يسيطروا على اربعة كيانات او خمسة ، من الفرات الى سيناء ، سياسيا واقتصاديا .

خامسا ، تضعف سورية الكبرى حجة العرب في مقاومة الهجرة اليهودية الى فلسطين بان العرب لا يريدون ان يصبحوا اقلية في بلادهم ، اذ يظل العرب في الكيان الجديد هم الاكثرية مهما ازداد عدد اليهود المهاجرين الى

بلادهم .

سادسا، يبدو الصهيونيون، وهم يؤيدون هذه الوحدة السورية، في ثوب اصدقاء مخلصين للعرب ، يشاركونهم امانيهم القومية ويعملون معهم لتحقيق مبدأ الوحدة الخالد .

ان هذه الفوائد التي يغنمها الصهيونيون ، المتطرفون وغير المتطرفين ، من تحقيق مشروع سورية الكبرى تنطق بخطر المشروع على المصالح العربية القومية . الا ان اخطار سورية الكبرى لم تكن الاخطار الوحيدة الكامنة في دعوة « المعتدلين » الصهيونيين . بل كان يوجد في دعوتهم اخطار اخرى هددت القضية العربية . اولها ان دعوتهم كانت ، كما رأينا قبلا ، دعوة صهيونية صميمة ، ولم تكن خروجا على الاهداف الصهيونية مثلما كانت دعوة الاعتدال العربية خروجا على الاهداف القومية العربية . فهي تقوم على فكرة « حق » اليهود الكامل بفلسطين . وكانت تدعم الحركة الصهيونية العالمية . وكانت تتعاون مع الوكالة اليهودية . وكانت تؤمن بالهجرة اليهودية وتعمل لها وتعتبرها حقا مشروعا وواجبا قوميا . وكانت تؤمن ان لا شيء يجب ان يقف في طريقها ما دامت البلاد تستطيع استيعاب مهاجرين جدد. ثم بعد ان اسس الصهيونيون كيانهم السياسي في فلسطين بالفعل اخذ دعاة الاعتدال يؤيدون قيام «اسرائيل» تأييد سائر المؤسسات الصهيونية غير المعروفة بالاعتدال .

ثاني الاخطار ان دعوتهم كانت تحظى بتأييد ورعاية عناصر دولية قوية لانها كانت تبدو كأنها حركة سلام ومسعى صلح . وكانت ، بوجه خاص ، ترتبط بالانجليز . وقد قبلت بفكرة الانتداب من زاوية اخرى غير الزاوية التي نظر اليها سائر الصهيونيين : اعتبرت العرب عنصرا بدائيا متخلفا بحاجة الى مساعدة الانجليز لتمدينهم .

ثالثها ان الدعوة المذكورة فصلت بين النسبة العددية للسكان وبين المقاعد التي يحق لكل من عناصر السكان احتلالها في الحكم والادارة . ورفضت الاعتراف للعرب ، وهم الاغلبية ، باغلبية المقاعد النيابية والوزارية في دولة فلسطين العتيدة .

رابعها انها ربطت بين الوحدة العربية والمصالح الصهيونية ، فعارضت اية وحدة اخرى غير تلك التي يباركها عبدالله والانجليز ، بحجة ان الوحدة يجب الا تقوم الا بعد تقديم ضمانات كافية لحفظ المصالح اليهودية ، وكأن الوحدة العربية جزء من القضية الصهيونية بوجه عام .

خامس اخطار هذه الدعوة الصهيونية الموصوفة عادة بالاعتدال انها نشطت في بعض الاوساط العربية ووجدت مجالا للعمل اكثر من اية حركة صهيونية اخرى ، فاسهمت اكثر من غيرها في الطعن بالحركة الوطنية وفي دعم الزعامات التي انحرفت عن الخط القومي ، وفي تقريب البسطاء من العرب الى الاطماع الصهيونية وايقاعهم في فخها دون ان يدروا ، وهم يعتقدون انهم يخدمون امتهم عن طريق التفريق بين الصهيونيين انفسهم .

لا بد لنا ، الان ، ان نقدم عرضا سريعا لتاريخ حركة « الاعتدال » الخطرة هذه . لقد قامت في الاصل كتتمة للمشروع الذي قدمه الدكتور كالفارسكي الى الملك فيصل اثناء جلوسه على عرش سورية (وقد تحدثنا عن ذلك في مكان سابق من الكتاب) . لكنها لم تنشط الا في الثلاثينات ، اي عند نشاط الانجليز وعبدالله في الدعوة لمشاريع التقسيم المختلفة . وقد حملت انذاك اسم « عصبة التقارب العربي اليهودي » . وتبنت مشروعين من مشاريع تلك الفترة : قدم اولهما المندوب السامي الاول على فلسطين ، اللورد صميول ، ليستعاض به عن مشروع لجنة بيل الذي رفضه الصهيونيون ، وقدم ثانيهما قسيس عمل في حقل التبشير في العراق مدة طويلة ــ فان اس.

دعا مشروع صميول الى اقامة اتحاد فدرالي عربي واسع يشمل البلاد السورية والعراق والحجاز ، تقوم من ضمنه حكومة في فلسطين تبقى تحت الانتداب البريطاني ويكون لليهود فيها حقوق كاملة ، من بينها حق تأسيس الوطن القومي وفتح الابواب امام المهاجرين . ودعا ، اكثر من ذلك ، الى فتح ابواب الاتحاد الفدرالي كله امام الهجرة اليهودية ، والى ربط هذا الاتحاد بالامبراطورية البريطانية بشكل ما ، والى جعل اعضاء حكومة فلسطين بالتعيين لا بالانتخاب ، والى جعل التعيين بيد الحكومة البريطانية .

اما مشروع القس فان اس ، الذي كان صديقا للبيت الهاشمي بشكل خاص ، فقد نشره صاحبه في جريدة بلستاين بوست ، الصهيونية ، في القدس ، في عدد الثاني من اغسطس ١٩٣٧ . وقد اقترح فيه اقامة اتحاد فدرالي باسم « الولايات المتحدة للشرق الادنى » يضم ، كما قال صاحبه « لبنان وسورية وجبل الدروز واسرائيل والاردن » . وتكون للاتحاد حكومة مركزية قاعدتها القدس ، مثلما تكون لها حكومات قطرية . ويكون الاتحاد تحت الاشراف البريطاني المباشر . وتتحقق فيه فكرة الوطن القومي اليهودي وينفذ وعد بلفر حرفيا .

تبع المشروعان المذكوران اللذان ولدا ميتين لمعارضة الاغلبية العربية لهما (بينما ايدهما عبدالله) عدة مشاريع مماثلة انبثق معظمها عن اجتماعات

عقدها ماجنس مع امير الاردن ونوري السعيد في ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ ، واشترك فيها من المدعووين « اصدقاء » للعرب : الكولونيل نيوكمب والبرت هيامسن . ابرزها مشروع قدمته العصبة آنفة الذكر في ربيع ١٩٣٩ لتقطع به الطريق على الكتاب الابيض الذي اعتبره الصهيونيون تراجعا عن وعد بلفر . ملخص هذا المشروع ان تفتح الابواب امام الهجرة حتى يتساوى عدد اليهود مع العرب في فلسطين ، وعندها ينتهي الانتداب وتقوم دولة فلسطينية عربية يهودية تشترك مع جاراتها العربيات بوحدة اقليمية هي سورية الكبرى .

فرضت المقاومة الشعبية العربية ، السياسية والعسكرية ، نفسها على تلك المشاريع وافشلتها بفضل وعي عرب فلسطين وتضامن اخوانهم في الكيانات الاخرى معهم . غير ان توقف الثورة الكبرى اواسط ١٩٣٩ ، وتشتت زعمائها وهربهم من البلاد ، ثم انتكاس الوثبات الوطنية في العراق وسورية ومصر والكويت والبحرين ، انعش ذلك كله الصهيونيين « المعتدلين » فقاموا، من جديد ، ينشرون مقترحاتهم للوصول الى « تسوية » . واسس الدكتور ماجنس حزب ايحود ، اي حزب الاتحاد ، لتوسيع دعوة « الاعتدال » . وجدير بالذكر ان الحزب كان من ضمن صفوف المنظمة الصهيونية العالمية مثلما كانت عصبة التقارب العربي اليهودي . وقد تلخصت اهداف هذا الحزب بتوحيد العرب واليهود في دولة ثنائية الجنسية وضم هذه الدولة ذات الحكم الذاتي الى اتحاد عربي في « الهلال الخصيب » .

لم يكن بين العصبة والحزب اختلافات اساسية في الراي والهدف . انحصر الخلاف في تحديد عدد اليهود الذين يسمح بهجرتهم الى الدولةالعتيدة قبل وبعد تأسيسها . ولذلك اشتركت المنظمتان في اقامة ندوات بين العرب واليهود لدرس نواحي التعاون . وقد جرى معظمها بشكل سري خوفا من رد فعل الوطنيين العرب . وكان اغلب العرب المشتركين بها من المعروفين « باعتدالهم » ، اي من الذين عرف عنهم تعاونهم مع الانتداب والصهيونيين ومع (الامير) عبدالله .

وقد ظلت علاقات الحزب والعصبة قوية مع الحركة الصهيونية ، مع ان المؤتمر الصهيوني العالمي في فندق باتمر في مايو ١٩٤٢ رفض فكرة الحكم الثنائي الذي طالب « المعتدلون » به وقرر ، باغلبيته الساحقة ، تأسيس دولة يهودية صرف . ذلك ان المعتدلين والمتطرفين التقوا معا في صف واحد لان اهدافهم كانت واحدة وان اختلفت اساليب العمل بينهم . والتقت الجماعتان، ايضا ، في مبدأ التعاون مع الهاشميين ومعارضة الحركة الوطنية العربية . لهذا نحن نرى خط سير كل من الجماعتين يوازي خط سير الجماعة الاخرى في السنوات الثلاث الاخيرة من الحرب العالمية ، وهي الفترة التي شاهدت

نشاطا حكوميا عربيا لتأسيس نوع من التعاون بين الدول العربية ، برضى البريطانيين وبمساعدتهم . تشابهت ، مثلا ، اراء وايزمن وماجنس في فكرة الجامعة العربية . قدم ماجنس مشروعا جديدا نشرته له مجلة فرن افيرز (عدد يناير ١٩٤٣)كرر فيه اراءه السابقة من حيث تأسيس دولة ثنائية ومن حيث ضمها الى سورية الكبرى وفتح ابواب الاتحاد كله امام المهاجرين اليهود . واضاف اليها رأيا جديدا : وهو ان ترتبط الدولة الاتحادية العتيدة ببريطانية وبالولايات المتحدة معا . اما وايزمن فكان قد كتب في المجلة اللندنية نفسها (في عدد يناير ١٩٤٢) يرحب بالاتحاد العربي ويقول ان على الصهيونيين ان ينضموا الى هذا الاتحاد بعد ان يحصلوا على ضمانات كافية.

والواقع ان وايزمن كان قد بدأ يذيع هذا الرأي قبل ذلك التاريخ بسنة . قال في شكاجو ، في التاسع والعشرين من مارس ١٩٤١ « يجب ان يقوم بين الدول العربية اتحاد فدرالي من الفرات الى ليبية بعد ان يتم انتصار المعسكر الديموقراطي . ويمكن تأسيس كمنولث يهودي جنبا الى جنب هذا الاتحاد » (٣) . ودعا الى هذه الفكرة صهيونيون اخرون قبل وايزمن وبعده ، منهم السكرتير العام للاتحاد الصهيوني في بريطانية . جرى ذلك كله قبل ان يخطب ايدن خطابه المشهور داعيا الى قيام الجامعة بأشهر .

وبين الصهيونيين من وسع حدود هذا الاتحاد وجعله اسلاميا ، مثل سالو بارون ، الاستاذ في جامعة كلمبية الذي اقترح في مؤتمر اميركي في ١٩٤٢ تأسيس اتحاد اسلامي من الافغان الى المغرب ، بحيث يصبح العرب فيه اقلية ، ويتغلغل اليهود الى اماكن اخرى غير الوطن العربي ، ويضعف مركز القومية العربية ، وتزيد سيطرة الغرب على الشرق . وجدير بالذكر ان احد اعضاء المؤتمر نفسه ، الكونت سفورزا ، السياسي الايطالي الذي ناهض مسليني وغادر بلاده ، كان من قبل الحرب بسنوات قد دعا الى فتح ابواب سورية امام الهجرة اليهودية . لكن السلطات الفرنسية عارضت الفكرة مع ان جماعة من السياسيين الانعزاليين في لبنان رحبت بها واجرت اتصالات مباشرة مع الصهيونيين لتنفيذها .

ذلك ان الهاشميين احتفظوا بمجموعة من الاصدقاء في كل دولة من دول الهلال الخصيب المرشحة للخضوع لهم . ففي فلسطين كان حزب الدفاع في خدمتهم ، كما رأينا في صفحات ماضية . وقد تألف الحزب من بعض كبار الاثرياء واصحاب الوجاهات ومحترفي السياسة الذين لم يكتموا صداقتهم للانتداب وللوكالة اليهودية . ودعت لهم في سورية جماعة من

---

(٣) راجع صحيفة زيونست رفيو ، عددي الثالث من يناير والرابع من ابريل ١٩٤١ .

السياسيين التقليديين الذين عرفوا بصداقتهم للانجليز ، وكان بينهم ، في الثلاثينات واوئل الاربعينات ، الدكتوران عبد الرحمن شهبندر ومنير العجلاني، وحسني البرازي ولطفي الحفار وحسن الحكيم . اما في اواخر الاربعينات وفي الخمسينات فقد تركز النفوذ الهاشمي في جماعة حزب الشعب التي سيطرت على انحاء من شمال سورية . وفي لبنان تعاون الهاشميون مع جماعتين لا يجمع بينهما الا مركب الحقد على القومية العربية : الحزب السوري القومي ، الذي تبدل اسمه اكثر من مرة ، وجمع من السياسيين الطائفيين الانعزاليين . وسيجيء ذكر الحزب السوري القومي ودوره في مشاريع عبدالله اثر حرب فلسطين .

اما الطائفيون الانعزاليون فقد بدا تعاونهم مع عبدالله واتصالهم مع الصهيونيين منذ العقد الثلاثيني ، وكان سريا في معظم الاحيان . ومرد التعاون ان مصالح الفئات الثلاث ، في عداء الافكار الوحدوية وفي تأييد المشاريع المشبوهة ، التقت في نقطة واحدة : اراد الانعزاليون ان يقوم في لبنان « وطن قومي » مسيحي تنسلخ عنه الاقاليم ذات الاغلبية الاسلامية وتنضم الى سورية ، ويكون هذا الوطن تحت حماية دولية اجنبية ، فرنسية بالدرجة الاولى ، ويتمتع بتعهدات وضمانات من جاراته العربيات . وقد اثار فيهم هذه الامنية حس طائفي جاهل وقعوا ضحاياه مثل عناصر عربية اخرى، من الاغلبية ومن الاقليات على السواء ، بفعل مشكلة سوء العلاقات بين الاغلبية والاقليات وبفعل سوء نية المتاجرين بالطائفية بين الطوائف المختلفة . والموضوع ابعد من مجال هذا الكتاب ، واعتقد من ان يعالج على هامش قضية اخرى . وقد سبق ان تناولت جوانب منه في كتاب صدر لي منذ سنوات (٤) ، بينت فيه كيف دعا بعض موارنة لبنان لعزلة بلادهم عن سائر البلاد العربية عند نهاية الحرب العالمية الاولى ، وهي عزلة جوهرها الخوف على حرياتهم الدينية من ان تضيع في الاتحاد العربي. لذلك بذل زعماؤهم جهدهم لفصل لبنان عن سورية ، ولانزال العلم العربي الذي رفعه رجال فيصل في بيروت مدة من الزمن . وخطب مندوبون عنهم في مؤتمر الصلح ومجالات دولية اخرى ضد فيصل . ونجحوا في ذلك بمساعدة فرنسة ذات المنفعة المباشرة من تلك العزلة .

ومن الطريف ان يكون هناك اكثر من مشابهة بين موقف فيصل وموقف ممثل لبنان في مؤتمر الصلح ، شكري غانم ، بالرغم من تراشق الرجلين بالتهم ، وبالرغم من اتهام فيصل لغانم بالتآمر على العرب

---

(٤) انيس صايغ ، لبنان الطائفي (بيروت ، ١٩٥٥)

لخدمة فرنسة ، واتهام غانم لفيصل بالسعي لابتلاع لبنان لخدمة بريطانية . قبل كلاهما انتداب بريطانية وفرنسة على معظم كيانات المشرق العربي . وقبل كلاهما استيطان اليهود في فلسطين . وتفاهم كلاهما مع الحركة الصهيونية التي كانت تهدد مصالح كل منهما : هددت فيصلا بان حرمته من حكم فلسطين ، وهددت لبنان بان طمعت بمنطقة صيدا وصور ودعت الى ضمها الى فلسطين . وقبل كلا الرجلين بالكيانات مكان الوحدة الشاملة . وتخوف كلاهما من القومية العربية وحاربها في السر بكل قواه .

كان ذلك اللقاء العفوي بين ممثلي الهاشميين والانعزاليين في باريس في ١٩١٩ فاتحة عهد من العلاقات الوثيقة بين الجماعتين ، وهي علاقات غذاهـا الصهيونيون وتعهدوها بين ١٩٣٥ و ١٩٤٥ . كان عبدالله يحلم بسورية الكبرى بشكل عام ، ولم يكن يهمه اذا سلخ عنها وطن طائفي صغير في فلسطين واخر في لبنان ، لليهود وللمسيحيين ، ما دام هذا السلخ يحقق له التحكم بالرقعة الباقية ، وما دام هـو يكسبه صداقة الصهيونيين مـن اليهـود والانعزاليين من المسيحيين . وكان الصهيونيون يحلمون بلبنان ، اذ كانوا يؤهلونه ليلعب دورا خاصا لمصلحتهم شبيها بدور الاردن : ارادوا من لبنان وشرق الاردن ان يحملاهم الى حدود دولتهم الكبرى ، الى الفرات وطوروس. كما ارادوا من لبنان ان يمكنهم من السيطرة على موارد مياه فلسطين . لذلك شجعوا التيار الانعزالي لمقاومة وحدة لبنان الوطنية والحركة العربية فيه ، من جهة ، ولابراز كيان طائفي جديد يتعاون معهم ضد الخصم المشترك ويتلقى الهجمات عنهم ، ولاضعاف لبنان بعد تفتيته وبلعه بالتدريج ، من جهة اخرى.

برز النشاط الصهيوني في لبنان في اواسط الثلاثينات . وزاره عدد من كبار الصهيونيين ، واتصلوا بسياسييه وصحفه، واسسوا لانفسهم مكاتب ومراكز للعمل ، كما اسسوا صناعات وتجارات . واننا لنلاحظ ان التكتل الانعزالي بعث من جديد بفضل ذلك النشاط ، وقامت احزاب ومنظمات طائفية زادت في بعد الشقة بين المسيحيين والمسلمين في لبنان وركزت الانظار على فكرة الوطن القومي المسيحي . وكانت هذه المؤسسات ، كثيرة المصاريف ، تتصل بالمؤسسات الصهيونية بشكل او باخر . وتفاقم الخطر لما اخذ بعض رجال الدين يجددون نغمة حماية الاقليات في البلاد العربية ، وتعاون زعماء بعض الاقليات الاخرى لخلق ازمات معظمها مفتعل .

نتج عن هذه النشاطات في بعض الاوساط المسيحية ان قام تيار يعطف على الصهيونية وعلى المشاريع التي ينادون بها وعلى عبدالله ومشاريعه . فدافع بعض الصحف الانعزالية عن توصيات لجنة بيل ، وهاجم مؤتمرات بلودان والقاهرة ، وطعن بثورة عرب فلسطين ودافع عن سياسة « الاعتدال »،

ودعا الى تحقيق مشروع سورية الكبرى شرط ان يترك المشروع لموارنة لبنان رقعة يقيمون عليها دولتهم المستقلة عن العرب والمرتبطة ، معنويا على الاقل، باوربة . بل ان بعضهم اخذ يذيع ان اللبنانيين واليهود من اصل واحد ، وان عليهم العمل معا ضد الخصم المشترك ، اي العرب . وشجع الصهيونيون ، من جهة اخرى ، الدعوة لفصل لبنان عن الجسم العربي بنسبه حضاريا الى عالم البحر المتوسط المختلط ، وهي دعوة ترعرت في الاوساط الانعزالية مدة من الزمن . والحقيقة ان فئات اخرى في لبنان ، اسلامية ، تعاونت مع الصهيونيين تعاون انعزاليي الموارنة ، بينما وجد بين الموارنة من وعى الخطر الصهيوني وعيا كاملا . وقد اثمرت زيارات وايزمن وجاكبسن وهفمان ، من زعماء الصهيونيين ، الى لبنان وسورية بشراء ارض واسعة في شمال فلسطين من ملاك لبنانيين من مختلف المذاهب .

واذ نظر الصهيونيون الى لبنان كمجال خصب للتعاون معهم ، حرصوا على ابقاء الجسور الجغرافية معه مفتوحة ، مثلما كانت الجسور المعنوية . ولواء الجليل هو الجسر الرئيسي بين البلدين . وقد اعترف وايزمن في تصريح له لجريدة جوش كرنكل (عدد العشرين من يوليو ١٩٣٧) بانه رضي بالتنزل عن لواء النقب كله للانجليز مقابل الحصول على لواء الجليل عندما خير بين الاثنين ، وذلك لاهمية الجليل الاستراتيجية مع لبنان ، هذا مع العلم ان الصهيونيين كانوا يعلقون امالا واسعة على النقب لاستثماره واقامة معسكرات للمهاجرين الجدد فيه . وقد جرى ذلك الاختيار في اجتماع له مع وزير المستعمرات البريطانية ، اورمسبي جور ، لبحث مقترحات لجنة بيل قبل نشرها .

تعني هذه المفاضلة ، بالنسبة الى موضوعنا ، ان اصحاب المقترحات المذكورة التي صدرت بالتفاهم وبالتراضي مع امير شرق الاردن ، خططوا لربط لبنان بفلسطين اليهودية ، مثلما خططوا لربط فلسطين العربية بشرق الاردن . من هنا نفهم سر اجتماعات وايزمن مع المطران اغناطيوس مبارك ، المندوب الخاص للبطريرك الماروني ، في صيف ١٩٣٧ في باريز . وقد لحق بتلك الاجتماعات تصريحات ادلى بها البطريرك المذكور بتأييد الحركة الصهيونية والقبول باهدافها في فلسطين . وكان البطريرك قد وقع في تلك السنة على اتفاقية للتعاون مع الصهيونيين ، كتبها برنرد جوزف ووقعها عن الوكالة اليهودية الدكتور وايزمن نفسه . وقد ايدت الكتلة الوطنية ، رمز الانعزال اللبناني انذاك ، تلك الاتفاقية ، وادلى رئيسها بتصريح يتبنى فيه سياسة البطريرك عريضة . وفي ذلك الوقت بالذات اسس وايزمن صندوقا خاصا لانشاء مستعمرات يهودية جديدة في الجليل بالقرب من حدود لبنان . واستطاع الصهيونيون ان يبنوا عددا من هذه المستعمرات في خلال اشهر

معدودة ، وكلها بجوار الحدود ، اكبرها حانوتة . وفي الوقت نفسه استمال الصهيونيون والهاشميون الاتراك الى جانبهم بان ايدوا مطالب تركية في لواء الاسكندرونة ، تلك المطالب التي وافق عليها البريطانيون والفرنسيون ، كل لصالحه الخاص ، في آن واحد . وقد منح الفرنسيون اللواء الى تركية بعد ان سلخوه عن سورية بالتدريج بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . اما البريطانيون فاقرضوا تركية مبلغ ستة عشر مليون جنيه للانعاش الاقتصادي .

شذب الميثاق الوطني في لبنان ، الذي وضع في ١٩٤٣، اطراف الحركة الانعزالية ، وقرب بين الطوائف الى حد ما (ولو ظاهريا فقط في بعض الاحيان وفي بعض النواحي) وجعل للبنان مبرر وجود اخر غير ذلك الذي اراده الطائفيون. واختطت حكومة الاستقلال ، التي ولدت في العام نفسه ، منهجا سياسيا للبنان ينسجم مع مخططات الدول العربية الاخرى ، وخاصة تجاه قضية فلسطين . ولم يعد امام الصهيونيين ذلك المجال الرحب الخصب الذي كانوا يجدونه قبل الاستقلال . واصبحت الحركة الوطنية ، اللبنانية والعربية، تحظى بتأييد موارنة كثيرين وعوا الخطر الصهيوني وحذروه وحاربوه . ولكن، ومع هذا كله ، بقي في لبنان انعزاليون يعطفون على الصهيونية ويأملون في ايجاد تعاون معها ، ويتصلون بمسؤوليها . وقد مثل المطران مبارك ، رئيس اساقفة بيروت الذي لم يفصل شؤون الدين عن شؤون الدنيا ، ذلك الاتجاه المغالي في انعزاليته وفي الاستهانة بالخطر الصهيوني . وكان المطران في ذلك الوقت الساعد الايمن للبطريرك عريضة بعد ان تقدم به السن .

عارض المطران مبارك سياسة لبنان الخارجية الرسمية . وزعم انها لا تمثل رغبة الاكثرية وانها مجرد صدى لمخاوف حكام البلد من اخوانهم في الدول العربية . وحاول الدعوة لرايه في الداخل والخارج على السواء . ولم تتجرأ الحكومة على حرمانه من حق معارضتها وانتقادها في صحف بيروت وفي عظاته الكنسية وجولاته الرعوية ، لانها كانت تلمس قوته المعنوية في اوساط طائفته . لكنها صعقت من اتصالاته بالصهيونيين مباشرة وعلنا ، في فلسطين وفي باريز . ثم انه اغتنم مجيء لجنة التحقيق الانجلو اميركية في العام ١٩٤٦ الى البلاد العربية ، وارسل اليها مذكرة طويلة زعم انه ينطق باسم اغلبية مسيحيي لبنان ، وان هؤلاء يؤيدون بناء وطن قومي يهودي في فلسطين ، بل انهم يدعون الى بنائه ويعلنون استعدادهم للاسهام فيه ، ليكون « رمزا للتقدم والامان لجميع شعوب الشرق الاوسط » . ورفضت المذكرة تسمية المشروع « بناء وطن قومي » ، بل سمته « اعادة بناء وطن قومي » . وزعم ان مصلحة لبنان تكمن في قيام « اسرائيل » على جوار حدود لبنان الجنوبية . وارفق المطران مذكرته بحديث مع صحيفة « بلستاين بوست » الصهيونية دعا فيه الصهيونيين الى الهجرة الى لبنان وتاسيس

مستعمرات ومصالح فيه (في عددي الحادي والعشرين من مارس والسابع عشر من مايو ١٩٤٦) . وكانت مذكرة المطران مبارك العريضة الوحيدة التي تلقتها لجنة التحقيق من العرب ضد الاماني العربية بشكل صريح . لذلك كان لها رد فعل سيء جدا في مختلف الاوساط العربية . اما الصهيونيون فرحبوا بها وتاجروا بمحتوياتها عدة سنوات . ولما اصدرت اللجنة قراراتها ، ثم لما اصدرت الامم المتحدة قراراتها في السنة التالية ، كان المطران مبارك العربي الوحيد الذي اعلن تأييده لانشاء الوطن القومي اليهودي بدون ادنى تحفظ .

وفي الوقت نفسه ايد الانعزاليون من اللبنانيين مشروع سورية الكبرى الذي نشط عبدالله في الدعوة له بين ١٩٤٣ و ١٩٤٧ . وقد شجعهم على اتخاذ هذا الموقف ثلاثة عوامل :

العامل الاول ان لبنان كان قد استقل ولم يعد للانعزاليين امل ببقاء « الحماية » الفرنسية ، من بعد حوادث خريف ١٩٤٣ وبعد مجيء الوطنيين من معارضي فرنسة الى الحكم وسقوط اعوانها في الانتخابات النيابية . وقد اراد الانعزاليون ان يستعيدوا شيئا من تلك الحماية التي كانت فرنسة تشجعهم على المطالبة بها ، عن طريق فصل المناطق المسيحية واقامة كيان شبه مستقل فيها تعترف الامم المتحدة بحقوق فرنسة عليها ، بينما تنضم المناطق الاسلامية (كالجنوب والبقاع وطرابلس) الى مملكة سورية الكبرى الهاشمية .

العامل الثاني ان لبنان انضم الى الجامعة العربية ، ووقع ميثاقها الذي اعتبر الوحدة العربية هدفا اسمى ، وان كان الميثاق تعهد باستقلال لبنان ، مما نفى عن لبنان صفة الوسيط بين الشرق والغرب وبين العرب واوربة ، ونزع عنه صفته المتوسطية ، واعاد اليه صفته العربية الاخرى تجاه مشاكل العرب السياسية الاساسية ، وعلى رأسها مشكلة فلسطين . وذلك عكس ما كان الانعزاليون يريدون . والواقع ان لبنان الرسمي التزم تعهداته الى اخر حد طيلة عهد الشيخ بشارة الخوري الذي ابرم الميثاق الوطني في ايامه .

العامل الثالث ان الملك عبدالله اخذ يعلن من بعد ١٩٤٦ انه يترك لمسيحيي لبنان حقهم بعدم الانضمام الى سورية الكبرى وبالحصول على حماية دول الغرب ، ان ارادوا ذلك . وتعهد لعدد من زعماء الموارنة بان يكتفي بضم المناطق الاسلامية من لبنان ، وان يعيد الى المناطق المسيحية مركزها شبه المستقل الذي كان لها في النصف الثاني من القرن الماضي .

تولى الاتصالات مع عبدالله حزب الكتلة الوطنية ، الذي كان بعض اجنحته يهادن الانتداب في الثلاثينات ويقف الى جانبه في معارك العام ١٩٤٣ الاستقلالية ، والذي عارض دخول الجامعة العربية ولم يعترف بالميثاق الوطني ولم يستنكر تصريحات المطران مبارك ومساعيه . وكان الحزب المذكور في ذلك الوقت اكبر الاحزاب المارونية في البلاد . لكن رئيسه كان قد سقط في انتخابات الرئاسة ١٩٤٣ . اما الاتصال فجرى في زيارة قام بها عدد من اقطاب الحزب الى عمان بدعوة من عبدالله، الامير ثم الملك، في ١٩٤٥ - ١٩٤٦ . واتفق الطرفان على اجراء عمل مشترك ، قاعدته الاولى التهجم على حكومة لبنان انذاك ومحاولة اسقاطها لازاحتها من الطريق ما دامت هي العقبة في سبيل تولي الكتلة الوطنية الحكم في الداخل وفي سبيل الخضوع لاطماع عبدالله التوسعية .

فشلت تلك المحاولات ، وصمد عهد الكتلة الدستورية التي كان الشيخ بشارة الخوري يترأسها ، بفضل يقظة الرأي العام في لبنان ومعارضته لمشروع سورية الكبرى ، حتى في الاوساط التي خاصمت الدعوة العربية ، ولما كان ذلك المشروع يرمي اليه مباشرة او غير مباشرة - من تفتيت لكيان لبنان ، وضم جزء منه الى حكم رجعي ، واخضاع الجزء الاخر للنفوذ الاجنبي، ومن ابتعاد عن المجموعة العربية وتقرب من عدو العرب الاكبر ، الصهيونية . لذلك هب الرأي العام في وجه مساعي عبدالله واعوانه ، ورفض ان يتخلى عن ميثاقه الوطني ، طري العود ، الذي قرب بين الطوائف بعد شقاق طويل ، كما رفض ان يتخلى عن التزامات لبنان العربية التي تعهد بها بتوقيعه على ميثاق الجامعة . رفض اللبنانيون ، بكلام اخر ، ان يعودوا ببلدهم القهقرى ليقسموه على نفسه ويرموا شطرا في احضان فرنسة وشطرا في احضان بريطانية ، وهم بعد لم يتذوقوا حلاوة الاستقلال الا حديثا جدا .

وكان بعد ذلك ان دخلت قضية فلسطين بطور جديد . فلم يعد بامكان الانعزاليين الاتصال بالصهيونيين وقد اصبح كيانهم في حرب رسمية مع لبنان . ولم يعد عبدالله يفكر بلبنان وقد قامت سورية سدا في وجه حلمه الذي تحقق جزء منه باحتلال القسم العربي من فلسطين . وانقطعت ، بتلك التطورات ، الصلة المباشرة بين ملك الاردن وانعزاليي لبنان .

نعود الان الى الصلة الاخرى التي كانت تجمع احيانا بين عبدالله والانجليز وبين بعض اعوانه واعوانهم في الكيانات العربية الاخرى في غرب اسية : صلة المشاريع الاسلامية غير القومية .

وانه لمن الحوادث المألوفة في التاريخ ان يستغل الدين السياسة وان

تستغل السياسة الدين، وان يلبس رجال الدين أثواب السياسيين، والعكس. ذلك مألوف في التاريخين المسيحي والاسلامي على السواء . ومألوف في التاريخ العربي بصفة خاصة ، على ايدي رجال سياسة ورجال دين عرب واجانب. فقد لبس الاتراك والاوربيون لباس الدين ليتوددوا الى العرب : باسم الدين حمت السلطنة مركزها في قرون اربعة . وباسم الدين تدخلت فرنسة وانجلترة وروسية والمانية بشؤون الدولة الداخلية ، بحجة حماية الاقليات .

سنعنى في هذه الصفحات بشكل واحد من الاستغلال السياسي للدين: تستر اوربة وراء الاسلام لتحقيق اهدافها في الشرق . ذلك ان بعض الدول الاوربية وجد الحقل الاسلامي ارحب واخصب من حقل الاقليات ، ووجد ان لباس الاسلام يخدع عددا اكبر من الناس وانه افضل من لباس اي من الاقليات التي كانت نسبتها العددية الى الاكثرية السنية ضئيلة . هذا ما جعل اوربة ، وهي تتصارع فيما بينها على السيطرة على الشرق في القرنين الاخيرين تتسابق الى التقرب من المسلمين ، والمسلمين العرب بشكل خاص ، والى الزعم بانها هي التي ستحميهم من الاخطار التركية والاوربية الاخرى على السواء .

ادعى نبوليون شيئا من الاسلام ، لما حل في مصر ، ووجه مناشيره العاطفية الى مشايخ البلاد وزعمائها واعطى نفسه وحملته صفة انقاذ المسلمين من الانجليز « الكفار » . وردد هذا القول في الرسائل التي بعث بها الى امراء شبه الجزيرة العربية وشرق افريقية . واعلن القيصر الالماني نفسه نصيرا للمسلمين وهو يقف اما مقبر صلاح الدين الايوبي في دمشق ١٨٩٨ ، وخاطب مئات الملايين من المسلمين يدعوهم لان يعتبروه صديقا وحاميا كما كان صلاح الدين . وحمل مسليني الراية نفسها ، وهو يغذي نفسه بامل تزعم العرب ضد الانجليز . غير ان بريطانية هي التي سبقت الجميع في هذا المضمار، وان جاء سعيها للسيطرة على العواطف الاسلامية متأخرا عن سعي الدول الاخرى من الناحية الزمانية . بل انه جاء بعد ان كشفت عن نياتها الاستعمارية واحتلت جزءا كبيرا من الارض العربية .

بسطت بريطانية المراحل الاولى من نفوذها في الشرق العربي في القرن التاسع عشر . وكانت حماية الاقليات هي السلاح المعروف عند منافستها . فامتشقته ، ونصبت نفسها شفيعة لليهود في فلسطين (ضد العرب السنيين) وحامية للدروز في لبنان (ضد الموارنة) ، مثل حماية الروس والفرنسيين والالمان والنمساويين لعدد من الطوائف المسيحية . ولكنها حاولت في عهد دزريلي ، السياسي اليهودي الاصل الذي وسع الامبراطورية في انحاء المعمورة الاربع في النصف الثاني من القرن الماضي ، انت ستفيد من شعار اسلامي كان قد انتعش في ذلك الوقت بفضل مساعي السلطان عبد الحميد

لايجاد نوع من الوحدة الاسلامية . وكان السلطان الدموي قد قصد من ذلك الشعار ان يكثفولاءات المسلمين حوله ليستعين بهم في وجه المعارضة التقدمية والقومية داخل السلطنة ، وفي مواجهة الاطماع الاوربية في الخارج، بعد ان سلخت اجزاء واسعة من السلطنة في افريقية واوربة واسية . كذلك قصد الانجليز ، من حمل الشعار نفسه ، ان يكثفوا الولاء الاسلامي حولهم لا في داخل السلطنة فحسب بل في سائر انحاء اسية وافريقية ؛ وخاصة ما كان تابعا للامبراطورية البريطانية ، كالهند .

تعود اصول هذه الدعوة ، التي اطلق عليها اسم « بان اسلام » حسب روح العصر ، الى الدين الاسلامي نفسه ، الى تعاليمه ورسالته وفجر تاريخه. فلعل الرسول العربي لم يشدد على نقطة ، من بعد التشديد على وحدانية الله والايمان به وبرسوله ، بمقدار ما شدد على اخوة المسلمين ووحدتهم المعنوية والمادية . وقد استعاض الرسول بهذه الاخوة وهذا الحماس للوحدة عن قبلية الجاهلية وعصبياتها الضيقة . اراد منها وسيلة لصيانة الاسلام وحمايته من اعدائه وتوسيع رقعته واسعاد ابنائه . ولذلك عمل الرسول واوائل الخلفاء جهدهم للحفاظ على الوحدة الاسلامية عندما كانت الدولة الاسلامية لا تزال في مهدها ، على هدى ما ورد في القرآن « انما المؤمنون اخوة » وفي الاحاديث « المسلم اخو المسلم » (٥) .

على الرغم من صراحة الاسلام في موضوع وحدة المسلمين سار التاريخ الاسلامي نحو الانحلال والتفتت يوما بعد اخر . ولم يحافظ المسلمون بعد وفاة النبي على وحدتهم جيلا واحدا . بل تفرقوا شيعا وطوائف ودولا وممالك وخلافات وامبراطوريات ، طبقا لاختلافات قومية ومذهبية واقتصاديةوجنسية وشخصية ، حتى اصبحت الوحدة هدفا بعيدا جدا لا يراه المسلمون الا في احلامهم . وزاد في صعوبة تحقيق الحلم ان خسر العرب زعامة الاسلام ، وخضع اغلب مسلمي الشرق الاوسط لاحكام غير عربية ، تركية وفارسية في القرون الوسطى واوربية في ما بعد ذلك . ودخت العوامل السياسية الدولية، ذات المصالح المتضاربة ، عنصرا اساسيا في الموضوع، واعسرت تحقيق الوحدة اكثر من اي وقت مضى .

كان ذلك التعسر حافزا لعدد من متنوري المسلمين ، اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي ، لان يحيوا الحلم القديم في كتابات وجمعيات ودعوات تعهدها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبدالرحمن الكواكبي وعبد العزيز جاويش وشكيب ارسلان ومحمد كرد علي وبعض صحبهم .

---

(٥) للتوسع في الموضوع راجع : انيس صايغ ، تطور المفهوم القومي عند العرب (بيروت ١٩٦١)

لن نخوض هنا موضوع الوحدة كما تصورها كل واحد من هؤلاء . يكفي ان نشير الى ان الجو العثماني كان عابقا ، في عهد عبد الحميد ، بهذه الدعوة الوحدوية ، وان عبد الحميد شجع قيامها وانتشارها واستكتب اصحابها واجزل على بعضهم العطاء ، وانه حاول التمهيد للوحدة بالفعل فبنى سكة حديد الحجاز ليحكم ربط شبه الجزيرة العربية باجزاء اخرى من العالم الاسلامي ، كما اسس جمعيتي « البان اسلام » في لندن في ١٨٨٦ و ١٩٠٣ ومولهما ، مثلما مول جمعية الهلال الاحمر وعددا من المؤسسات التي دعت للتكتل حول الخلافة وحرضت المسلمين ضد اوربة .

اعتمد دزريلي ، اذن ، على الفكرة التي كانت شائعة انذاك ، والتي استطاعت ان تقف على قدميها لتحمي السلطنة ومسلميها من اخطار اوربة . غير ان مشروعه كان ، بالطبع ، لمصلحة شكل واحد من اشكال الاستعمار الذي كان قد بسط جناحيه فوق البحرين ، المتوسط والاحمر ، بفضل ذلك السياسي البريطاني اليهودي الاصل نفسه . رأى دزريلي ان تكتلا من هذا النوع ، من شبه القارة الهندية الى المحيط الاطلسي ، انما هو الحلم المثالي لاي استعمار ، ما دام هو يشمل ملايين البشر وعشرات الشعوب والعديد من الحكومات والامبراطوريات والدويلات، وكلها غني بالثروات والامكانات والمراكز الاستراتيجية . لذلك سعى في تحقيق الحلم . ثم اورث مساعيه لوزارة الخارجية البريطانية التي استأنفت العمل من بعده ، وهي تحرص على ان لا يقوم التكتل باي شكل بل يقوم بفضل بريطانية بالذات ، ليكون لها اشراف مباشر على شؤونه السياسية والاقتصادية ، والداخلية والخارجية .

يمكن تلخيص المغانم التي طمعت بريطانية بها انذاك من فكرة الوحدة الاسلامية بما يلي :

اولا ، تحطيم السلطنة العثمانية كي ترثها بريطانية . كانت السلطنة رمز الوحدة الاسلامية ، على ضعفها ، حتى ذلك التاريخ . وبلغت اطماع دول اوربة بها ان اخذت كل دولة منها تحافظ على كيان السلطنة خوفا من ان تسبقها الدول الاخرى على كسب المغانم . وكان كل من تلك الدول يسعى ، في الوقت نفسه ، لتحطيم السلطنة ساعة يعتقد انه هو الذي سيرثها ، لا منافساته . اما بريطانية فرأت ان اذابة السلطنة في بوتقة اسلامية اوسع تخضع لها يعطيها مجال السيطرة على السلطنة باكملها دون المخاطرة بتفتيتها وخسارة اجزاء معينة منها لدول اوربية اخرى .

ثانيا ، التخفيف من حدة القومية العربية التي كانت قد بدات تتكون

وتتبلور في الاوساط المثقفة . راى الانجليز فيها خطرا على مصالحهم للمستقبل وان كانوا قد اعانوها فترة من الزمن لظروف طارئة . ورأوا ان الوعي القومي الذي قد يعصف بالحكم التركي ويسهل على بريطانية ان ترث ذلك الحكم قد يعصف بحكمها هي في المستقبل . لذلك اختاروا الفكرة الاسلامية بديلا مناسبا للفكرة القومية . والحقيقة ان هدف تحطيم العروبة والهاء العرب عن السعي وراء وحدتهم القومية بدغدغة عواطفهم بامنية الوحدة الاسلامية صعبة التحقيق انما هو العامل الرئيسي في تمسك بريطانية ، الى وقت قريب بالدعوة للوحدة الاسلامية بعد ان نمت الفكرة القومية نموا ظاهرا جعلها تشكل خطرا اكيدا على المصالح البريطانية .

ثالثا ، الافادة من الفكرة الاسلامية بالسيطرة على شبه القارة الهندية ، حيث كانت القومية الهندية الفتية تهدد المصالح البريطانية تهديد القومية العربية لها في ما يعرف الان بالشرق الاوسط . وقد نجحت بريطانية في تعهد هذه الفكرة حتى تمكنت من تقسيم شبه الجزيرة الهندية الى كيانين منفصلين متعاديين ، تحتفظ بريطانية لنفسها في احدهما بقواعد سياسية شبيهة بالقواعد التي اسستها في الكيانات العربية الخاضعة لها .

رابعا ، قلت قبلا ان الدعوة للوحدة الاسلامية اشبه بالحلم ، لصعوبة تحقيقها وتعذر قيامها السريع . هكذا كانت طيلة التاريخ وهكذا هي اليوم وهكذا ستكون في المستقبل القريب على الاقل، حسبما تشير العوامل والظروف . وكدعوة خيالية عاطفية قليلة الاسس العملية ذات بريق جذاب ، يسهل على الانجليز السيطرة على الشعوب بواسطتها وبواسطة زعماء محليين يتعاونون معهم في حين يصعب على الانجليز استخدام الزعماء القوميين ذوي الاتصال المباشر مع الشعب .

خامسا ، بلاد العرب هي اثمن ما لبريطانية في الشرق ، بسبب النفط والسويس والاماكن المقدسة على الاقل . والعرب هم الشعب الذي يهم بريطانية ان تسيطر عليه اكثر من غيره . ويسهل على بريطانية ان تستغله دون ان تخشى تمرده اذا اذيب الشعب في مجموعة اسلامية وحول الى اقلية ليس لها صوت قوي ، اذ يفقد العرب عنصر السيادة بتضاءل عددهم امام غيرهم من المسلمين .

سادسا ، تتساوى العناصر العرقية والمذهبية واللغوية في الدولة القومية ، عربية كانت ام غير عربية ، وتغلق باب التدخل في وجه الاستعمار . ولكن الدولة الدينية ، حيث الشعب شعبان او اكثر ، والقانون قانونان او اكثر ، وحيث الاغلبية سيدة والاقليات مسودة ، يظل ذلك الباب مفتوحا الى

ان ينهدم كيان الدولة على اغلبيتها واقلياتها معا . وغني عن البيان ان بريطانية كانت تهتم لابقاء مجال التدخل متوافرا . لذلك كانت تفضل الدولة الاسلامية التي تعطي هذا المجال على الدولة العربية التي تسده .

سابعا ، لا تسلخ الوحدة الاسلامية المسلمين العرب عن العرب غير المسلمين وتربطهم برباط حياتي قوي مع المسلمين من غير العرب ، فحسب ، بل انها ايضا تسلخ العهود الاسلامية في التاريخ ، عهود الالف وثلاث مئة سنة الاخيرة ، عن التاريخ القومي العام الطويل لشعوب الشرق ، الذي تمتد جذوره الاف السنين ، على الرغم من اهمية حضارة وتراث ما قبل العهود الاسلامية بالنسبة الى سكان هذه البلاد .

ثامنا ، يخلط انعاش الفكرة الاسلامية في الشعب العربي بينها وبين الفكرة القومية ، ويجعل بينهما التباسا يفيد الانجليز منه اذ انه ينفر الاقليات غير الاسلامية ، والاقليات الاسلامية نفسها ، من الدعوة العربية ، ويقربها من المشاريع الانكماشية الانفصالية ، وهو ما حصل بالفعل في قطاعات وعهود سابقة في مصر والعراق وسورية ولبنان والسودان والجزائر .

لوجود مثل هذه « المنافع » استعار الانجليز فكرة الوحدة الاسلامية من المتنورين المسلمين والعرب ومن السلطان عبد الحميد وتبنوها ودعوا لها . وحملها ، بعيدا عن المجالات السياسية الرسمية بعدا ظاهرا على الاقل ، عدد من الكتاب والمستعربين ، وعدد من مسلمي الشرق من اصدقاء بريطانية . نشط هؤلاء ، بوجه خاص ، قبيل الحرب العالمية الاولى وخلالها . وقد كشفت ظروف الحرب لبريطانية عن اهمية الوحدة الاسلامية، بعد ان انحازت تركية الى جانب الالمان ، واصدر الخليفة فتوى بالجهاد ضد الحلفاء ، واستمع اليها عشرات الملايين من المسلمين ، وخاصة في مصر والهند . وقد اصبح ضروريا على الانجليز ان يأخذوا زمام المبادرة ويقيموا كيانا اسلاميا موحدا يقطع الطريق على الخلافة العثمانية ويخدم مصالحهم .

اعتمد الانجليز ، اولا ، على اغاخان ، الزعيم الروحي للطائفة الاسماعيلية، وصديق بريطانية التقليدي وحامل جنسيتها . فتجول في صيف ١٩١٤ بين دول اسية وافريقية الاسلامية يدعو شعوبها الى الالتفاف حول بريطانية ومعارضة الخلافة التركية . وكان قد سبق ان حاول اقناع الخليفة بالخروج على الحكومة ومخالفة فكرة محالفة الالمان . واتصل بخديوي مصر واغراه على زيارة بريطانية لعله يقنع حكومتها بتعينه حاكما على الدولة الاسلامية الموحدة العتيدة ان عمل من اجلها . وقد مر الخديوي بباريز ، وهو في طريقه الى لندن . واغراه جمالها وما فيها من مفاتن على صرف عدة ايام فيها . وفي

اليوم المعين للسفر الى لندن اختفى من فندقه وتخلف عن السفر . وظهر فيما بعد انه ذهب باسم مستعار الى فندق اخر ليقوم بمغامرة عاطفية ونسي نفسه . ونشر الخبر وتناقله الناس واضطر الخديوي لتبديل فكره والعودة الى مصر وفشل مشروع الوحدة الاسلامية .

كان اغاخان قد تأثر بكتابات انجليزي غريب الاطوار داعية للوحدة الاسلامية، اختبر الحياة الشرقية وعاش في مصر وناصر حركة عرابي ودافع عنه بعد فشله : ولفرد سكاون بلنت ، الذي كتب في ١٨٨٠ كتابا بعنوان « مستقبل الاسلام » دعا فيه الى توحيد العالم الاسلامي ومنح بريطانية حق الاشراف عليه (٦) . ومع ان بلنت تراجع عن مشروعه بعد ان رأى ان لا امل للمسلمين ببلاده تبنى اغاخان الفكرة وظل يدعو لها الى ما بعد الحرب ، حينما وجه الدعوة الى الوحدة الاسلامية ذات الارتباط السياسي مع بريطانية كاتب انجليزي اخر ، وينن بري ، في كتاب له نشره في لندن ١٩١٩ بعنوان « البان اسلام » (٧) . قدم اغاخان في تلك السنة مشروعا بانشاء اتحاد فدرالي من دول ذات حكم ذاتي ضمن اطار بريطاني شبيه بالكمنولث ، من شبه جزيرة الملايو في الشرق الى مصر في الغرب . وحينما رفض وزير شؤون الهند المشروع استعاض اغاخان عنه بمشروع اخر قصر الاتحاد فيه على تركية ومصر ودول اسية العربية . وقد ايد الصهيونيون المشروع لانه اتاح لهم التغلغل في انحاء كثيرة من الوطن العربي ، ثم السيطرة على الدولة العتيدة في وقت قصير سيطرة اقتصادية وربما سياسية . وقد عرف اغاخان بصداقته لعدد من الصهيونيين وعطفه على قضيتهم . واعترف هو بمذكراته انه حاول اقناع عبد الحميد ببيع اليهود اراض في فلسطين منذ ١٨٩٨ (٨) .

بينما نشط اغاخان في الدعاوة لهذه الافكار بين ١٩١٠ و ١٩٢٢ قام الانجليز بمساع اخرى لتثبيت اقدامهم في العالم الاسلامي ، بتعهد فكرة الخلافة العربية وتشجيع العرب على المطالبة بها ، بعد ان احياها كتاب امثال الكواكبي والعازوري ، وبعد ان تهامس عرب اواسط القرن التاسع عشر الكلام حولها مع عدد من الرحالة . وقد سبقت فكرة عروبة الخلافة فكرة الدولة العربية . وكان التفكير بتنصيب الهاشميين ، قبل الحسين بن علي ، على العرب يعني تنصيبهم خلفاء وليس حكاما سياسيين . والحسين نفسه اراده عرب سورية زعيما روحيا وخليفة دينيا قبل ان يفكروا به حاكما سياسيا لكافة اقطارهم .

---

(6) Wilfrid Scawen Blunt, The Future of Islam (London, 1882).

(7) Wynan Bury, Pan Islam (London, 1919).

(8) Aga Khan, The Memoirs (London, 1954) P. 152.

رحب الانجليز بامكان تحويل الخلافة الى الحسين وشجعوا الفكرة . وعده كتشنر بالخلافة ، بصورة غير مباشرة ، ثم وعده بها مكمهن باكثر صراحة في صيف ١٩١٥ . واستمر الانجليز يؤيدون مساعي الحسين للحصول على الخلافة ، ولو بتحفظ ، مدة عشر سنين ، اي الى ان حصل عليها حصولا اسميا غير مثمر في العام ١٩٢٤ . ومع ان سقوطه وطرده من الحجاز انهى الموضوع واسدل ستارا كثيفا على امال العائلة بالخلافة ، اعتبر ابناؤه انفسهم اصحاب حق شرعي بها عدة سنوات . ولم يعارضهم الانجليز في هذا الاعتقاد، ولكن مساعداتهم لهم لم تتعد نطاقا بسيطا ـ مثل منع فاروق من التمادي بمحاولة اعلان نفسه خليفة بعد ان حرضه امام الازهر ، الشيخ المراغي ، على ذلك ، في الحرب الاخيرة .

لم يقطع الانجليز حبل الرجاء بقيام الوحدة الاسلامية الموالية لهم التي تفيدهم اكثر مما تفيد العرب ، على الرغم من اشتداد الوعي القومي . وقد كتب المستشرق البريطاني المعروف جيدا ، السير هاملتن جب ، ان المسلمين يسيرون نحو التكتل والتعاون في كمنولث اسلامي بشكل اكيد لا شك فيه . ولكنه اخذ عليهم اسلوبهم البطيء ، غير العملي كما يعتقد ، اسلوب المؤتمرات (اي مؤتمرات القاهرة ومكة والقدس ١٩٢٦ ـ ١٩٣١) . فهو يرى ان المسلمين في حاجة الى زعيم او قائد يحقق الهدف اكثر مما يحتاجون اي شيء اخر . « عندما يعثر المسلمون على صلاح دين جديد ، رجل يجمع بين الفطنة السياسية الشاملة وبين الشعور العميق برسالته الدينية ، تحل المشكلة نفسها » (٩) . ذلك ان الانجليز لم يرضوا عن الزعماء الاقوياء من الناحية العملية . اما الزعماء الضعاف غير المرضي عنهم شعبيا ، كالهاشميين ، فان الانجليز ادركوا انهم اعجز من ان يحققوا الوحدة التي طمع الانجليز بالمسلمين بواسطتها . وقد عارض الانجليز والهاشميون كل تكتل اسلامي لا يكون لهم فيه نصيب كبير .

لنأخذ مؤتمرات ١٩٢٦ ـ ١٩٣١ مثالا على ذلك . انعقد في تلك الفترة ثلاثة مؤتمرات كبيرة . وكانت اسلوبا جديدا لبحث وسائل تقريب وجهات النظر بين المسلمين وامكان توحيدهم ولمعالجة مشاكل شعوبهم واقطارهم ، السياسية وغير السياسية . عارض الانجليز المؤتمرات الثلاثة لانها لم تكن تواليهم ولا تخضع لهم ، ولا للهاشميين : دعا علماء مصر الى اولها ، واشرف الوهابيون على ثانيها ، واحتضن وطنيو فلسطين ثالثها . ومع ان المؤتمرات الثلاثة حققت انتصارات عربية وطنية كثيرة ، وخاصة ثالثها ، وعبأت الراي العام الاسلامي لنصرة القضايا الوطنية (خاصة مطلبي السوريين والفلسطينيين

---

(9) H.A.R. Gibb, Whither Islam (London, 1932), P. 365.

بالاستقلال) عارضها الهاشميون : منعوا رعاياهم من الاشتراك بمؤتمري مصر والحجاز ١٩٢٦ واعلنوا تبرؤهم منهما . اما معارضتهم للمؤتمر الثالث في القدس فكانت من نوع اخر .

كان مؤتمر القدس من اخطر المؤتمرات الاسلامية في النصف الاول من هذا القرن. ولعله اخطرها واشهرها. وقد اجتمع فيه مئة وخمس واربعون شخصية اسلامية كبيرة تمثل عشرات البلدان والجوالي الاسلامية ، من مختلف الجنسيات والمعتقدات . وبعد ان تعرف الحضور على بعضهم بعضا وعلى مشاكلهم واختباراتهم وتناقشوا في قضايا تهم العرب والمسلمين اصدروا قرارات حولت قضية فلسطين العربية الى قضية اسلامية يهتم لها مئات الملايين . ونتج عن المؤتمر رد فعل قوي . تأسست حركة العلماء في الجزائر . وتأسست لجنة تنفيذية للمؤتمر ولجان دعاوة اسهمت في دعم موقف عرب فلسطين وفي مصالحة حكومتي السعودية واليمن ١٩٣٤ . كما ان المؤتمر دعا الى توحيد البلاد العربية واستنكر التجزئة ، وطالب بتأسيس مصرف عربي لمنع بيع الاراضي لليهود ، وبتأسيس جامعة عربية في القدس . وقرب المؤتمر بعض المؤسسات المصرية (كالوفد المصري والشبان المسلمين) والتونسية (كالحزب الحر الدستوري) من القضايا العربية في المشرق .

لم يرتح الانجليز ولا الهاشميون لفكرة المؤتمر ولا لاعماله ولا لنتائجه ، لانه كان مؤتمرا وطنيا في الدرجة الاولى حاول عرب فلسطين فيه ان يعرضوا على اخوانهم ظلاماتهم ضد الاستعمار ، ونجحوا . ولكن الانجليز لم يتمكنوا من معارضة المؤتمر علنا ولا من منعه فاوعزوا الى الهاشميين بالمشاغبة عليه. لذلك تزعم (الامير) عبدالله حركة ضد المؤتمر . ومول بعض زعماء فلسطين من المتعاونين معه ومع الانتداب فعقدوا مؤتمرا معاكسا سخروه للتهجم على الحركة الوطنية وطعن الوحدة القومية والاساءة الى مناصري العرب من خارج البلاد والتبشير بالمهادنة مع اعداء البلاد . ومع ان عددا من « وجهاء » فلسطين ورؤساء بلدياتهم كانوا عماد المؤتمر (ممن شكلوا فيما بعد حزب الدفاع الذي والى الانجليز والهاشميين وهادن الصهيونيين وشاغب على الحركة الوطنية) بقي اثر هذا المؤتمر محصورا في الاوساط الرسمية الضيقة ، ولم يكن له رد فعل لحسن حظ الاوساط الوطنية . اما فيصل فقد ابدى نفوره من مؤتمر القدس بشكل اخر . منع الحكومة من ارسال وفد رسمي الى المؤتمر . ورفض السماح بعقد اجتماع قومي في بغداد تنفيذا لمقررات مؤتمر القدس . وكان المؤتمر قد قرر عقد ذلك الاجتماع في السنة التالية ، في الميثاق القومي الذي ابرمه الاعضاء العرب في المؤتمر في جلسة خاصة يوم الثالث عشر من ديسمبر ١٩٣١ ، فقد خاف فيصل ان يسيطر الوطنيون على اجتماع بغداد العتيد كما فعلوا في مؤتمر القدس .

واستمر الهاشميون ، في العراق وشرق الاردن ، يشايعون المشاريع الاسلامية التي يباركها الانجليز ويقاومون المشاريع الوحدوية الوطنية التي لا يرتاح الانجليز لها. ويمر بنا، في امكنة متعددة من كتاب «الهاشميون والثورة العربية الكبرى» ، خبر بعض تلك المشاريع، على نوعيها. ونرى فيه كيف ستر الهاشميون معارضتهم للاماني القومية بدعواتهم المطاطة للوحدة الاسلامية، منذ ان خلط الحسين الاول ، بين العروبة والاسلام وانحرف بالثورة عن خطها القومي في مناشيره وكتاباته في «القبلة» الى ان فسر ابناؤه القومية العربية في مذكراتهم تفسيرات غير قومية تشكل امتدادا لما قال به الاب وانحرافا جديدا للقومية التي لم يفهمها ، او انه فهمها ولكنه لم يقتنع بمدلولاتها العلمانية التقدمية الاصلاحية .

وقد كان عبدالله بالذات يلجأ الى فكرة الجامعة الاسلامية كلما فشل على الصعيد العربي ، وخاصة بعد الحرب الاخيرة . ودعمه هاشميو العراق وسعوا معه لتحقيق هذه الفكرة من بعد تأسيس الجامعة العربية بالتعاون والتفاهم المسبقين مع حكومتي تركية وايران بوجه خاص . ابرز تلك المحاولات زيارة عبدالله لتركية ثم لايران في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٩. وقد كتب في تكملة مذكراته ان الزيارتين كانتا لاقامة اتحاد فدرالي اسلامي يقف في وجه الشيوعية ويمتد من التيبت شرقا الى طنجة غربا ، يستعيض المسلمون به عن الامبراطورية العثمانية التي اضاعها قوميو العرب والاتراك (١٠) . وقد اتبع زيارتيه بزيارة ثالثة للندن لمباحثة مسؤوليها بالامر . ووجد لديهم « تأييدا عظيما » للفكرة على حد قوله . ويمتد هذا الاتحاد المنشود ، في صفحات اخرى من الكتاب ،« من التيبت الى جبل طارق . ومن ادرنة الى باكستان . ومن شواطىء البحر الاسود الى المحيط الهادىء » .

(10) King Abdallah of Jordan, My Memoirs Completed, P. 59.



الفصل السابع

موقف هاشميي العراق وشرق الأردن من المؤامرة البريطانية على العرب في الحرب العالمية الثانية

وقف رجال الحركات الوطنية العربية ، من مفكرين وسياسيين ومثقفين وضباط ، الى جانب الحلفاء في الحرب الكونية الاولى ، خاصة بعد صيف ١٩١٦ . ولم يشذ عن هذا الموقف الا الجماعات التي بقيت ارتباطاتها التقليدية بالخلافة اقوى من احاسيسها القومية الناشئة . وبسبب ذلك الموقف الحركات الوطنية نكل الاتراك بعدد كبير من احرار العرب ، واحكموا الحصار الاقتصادي على سورية ولبنان ، وشتتوا الجنود العرب في جبهات القتال الامامية ؛ حتى استشهد عشرات الالوف من العرب ، عسكريين ومدنيين ، في حرب لم تقع عليهم مسؤولية اشعالها ولا كان لهم نصيب في غنائمها .

اما الذي حمل العرب على اتخاذ ذلك الموقف وبرر تضحياتهم فهو شعور الوطنيين بان تأييدهم لخصم عدوهم قد يحقق لهم امانيهم . كان ذلك الشعور المنطق الوحيد وراء موالاة الحلفاء ، والتفسير الوحيد الذي بررت الحركة الوطنية به موقفها للرأي العام. لم يكن هناك رابط قوي واحد يجمع بين العرب ، وكانوا شعبا مغلوبا على امره خاضعا لاستعمار متعدد الجنسيات، وبين دول اوربة التي كانت تتنازع على نفوذ ومغانم استهدفت العرب قبل غيرهم . ولم يكن العرب يهتمون لاي تعليل عقدي او منقبي زعمه الجانبان وفسرا به حربهما ولم يجدوا فرقا كبيرا بين هذا الجانب او ذاك من حيث الافكار والمذاهب والفلسفات . الدافع الوحيد الذي قاد الحركة الوطنية الى الانحياز الى جانب ضد اخر انما كان المصلحة القومية كما تبينتها الحركة وكما فهمتها انذاك . اما الزعم بدوافع اخرى وراء ذلك الانحياز ، من جانب العرب او الحلفاء ، فهو مجرد تزويقات للحقيقة الصريحة العارية ، وتحميل الاجراءات والاتجاهات افكارا لم تكن تحملها في الواقع ولا كانت مؤهلة لحملها .

مثلما كان الانحياز الى جانب الحلفاء قويا وفعالا كان رد الفعل ، بعد انتهاء الحرب وجلوس الدول المنتصرة امام اكوام المكاسب لتوزيعها ، مؤلما وفاشلا . وجد العرب انفسهم بين تلك الاكوام، بينما كان زملاؤهم يستفيدون منها . وجدوا المكافأة التي منوا بها انفسهم وبلادهم ، الاستقلال والوحدة ، تتلاشى في شهور قليلة ، وتذهب بلادهم نفسها مكافأة للمنتصرين . ادركوا انهم انتصروا على خصم ليقعوا ضحايا خصوم اخرين ، وانهم خرجوا من معركة اربع سنوات ليخوضوا معركة اربعين سنة . واذ تحول الحليف الى عدو ، اخذ العرب يبحثون عن حليف جديد . ولم يجدوا هذا الحليف . كان العالم قسمين : مجموعة دول قوية قليلة العدد تتقاسم النفوذ وتتنازع عليه احيانا وتتصالح احيانا وبينها ميثاق مهني شرير يمنعها من مساعدة اي من الضحايا ضد بعضها بعضا ، ومجموعة دول كثيرة ، اقل نفوذا في العالم ، حصرت تفكيرها بهمومها واشاحت بوجهها عن اماكن الظلم والشر وكأن لا ظلم في العالم ولا شر ، واكتفت بكسب قوت يومها الذي اخذ يستعصي اثر

تفاقم الازمات الاقتصادية في العالم بعد نهاية الحرب بعشر سنوات . لم يكن للعرب امل في اي من هاتين الجماعتين ، ولا في مؤسسة عصبة الامم التي سيطرت عليها الجماعة الاولى واكتفت الثانية بالعضوية الصامتة . ومرت السنون وغابت انظمة وعهود وجاءت انظمة وعهود اخرى في اكثر من دولة . وجاءت معها فلسفات جديدة في الحكم والقومية والعلاقات الدولية ، ومن بينها انظمة شيوعية في روسية وفاشية في ايطالية ونازية في المانية .

كان العرب لا يزالون بلا حليف ولا نصير . وكان الخصم هو الحكم ، والشهود مغمضي الاعين . وفجأة راى العرب دولا اخرى ، لم تكن لهم بها علاقة معينة خاصة من قبل، تقف على اقدامها بعد كبوة سنوات وتفرض نفسها على عالم اناني لا يفكر الا بنفسه وتنتزع حقوقها بالسيف بعد ان رفض الخصم تسليمها تلك الحقوق بالسلم وتبني امجادا يستسيغها العربي ، بعقليته التقليدية ، ويتمناها لنفسه . ولم يكن غريبا ان يعجب بعض العرب ، ولا يهم مقدار هذا البعض ، بهذه الدول وانظمتها وقياداتها الجديدة التي حققت هذه الانشاءات العظيمة . ولم يكن غريبا ان يتحدث العرب عن هذه الدول ويزوروها ويتابعوا اخبارها ، ويعطوها تمنياتهم ومحبتهم .

انتبهت الحركة الوطنية في معظم الدول العربية (وكانت قد اصبحت حركات متعددة قلما يجمع بينها رابط غير الهدف الابعد الواحد) الى هذه الحقيقة . وانتبهت الى ان الانظمة الجديدة تقف في جبهة بعيدة عن جبهة اخصام العرب في اوربة الغربية ، تماما مثلما كانت اوربة الغربية تقف فيما مضى في جبهة بعيدة عن اخصام العرب في تركية . ولم يكن النظامانالناشئان في المانية وايطالية يجهلان هذه الحقيقة ، بل استغلاها بسرعة واتقان ودراية. وكانت النتيجة ، بعد سنوات من الاعجاب العفوي من جانب العرب والتشجيع المادي والمعنوي من جانب الحلف الفاشي ـ النازي ان اعطى ذلك الحلف العرب وعودا صريحة ومحددة لمساعدتهم لتحقيق مبادئهم القومية، الاستقلالية والوحدوية ، وان اعطى العرب دولتي الحلف ثقة وترحيبا واملا كبيرا .

حتى نفهم قيام هذه العلاقات بين الحركات الوطنية العربية وبين دولتي المحور علينا ان نتفهم ظروفها وواقعها قبل ان نحكم لها او عليها :

كان العدو ، بالنسبة الى المواطن العربي ، يختصر في ثلاث جماعات في الدرجة الاولى : انجلترة وفرنسة والصهيونية . سيطرت الاولى على مصر والسودان وفلسطين وشرق الاردن والعراق ومجموعة امارات اطراف شبه الجزيرة من عدن الى الكويت . وسيطرت الثانية على سورية ولبنان وتونس والجزائر ومراكش . ولم يكن اي من هذين البلدين يدعم بالفعل ما

كان يزعمه بالقول انه موجود في ارض العرب لخدمة العرب . اما الحركة الصهيونية فكانت تطمع بفلسطين كخطوة اولى لاحتلال ما حول فلسطين ايضا. وقد ركزت نفسها في فلسطين في اكثر من ناحية . وكان لكل من الاعداء الثلاثة ماض قديم معروف في الدس على العرب ، تمتد جذوره الى اكثر من قرن على اقل تقدير . وقد اختبر العرب ، منذ القرن الماضي ، اطماع ونوايا اعدائهم الثلاثة في اختبارات مؤلمة وخسروا، بسببها، الكثير من مواردهم وخيراتهم وكرامتهم . وضاعت، بسببها ايضا ، امال الوحدة والاستقلال والحياة السعيدة .

مقابل هذا كله كان لالمانية صفحة بيضاء. لم تحتل من قبل شبرا واحدا من ارض العرب . وبالرغم من كثرة مصالحها في القسم الاسيوي من الامبراطورية التركية ، ومن اتساع نفوذها ايام عبد الحميد وتركية الفتاة ، اكتفت باخذ القليل دون جشع ، سواء كان ذلك عن عجز او قناعة . وان كان يقال انها سندت الحكم التركي على العرب ودعمت المركزية التركية فان التهمة نفسها تنطبق اكثر على فرنسة وانجلترة ، مع العلم ان المانية القيصرية حاولت اقناع الاتراك بتحسين معاملة العرب ومنحهم بعض حقوقهم اكثر مما فعلت فرنسة وانجلترة . بل ان سيرة المانية الاستعمارية خارج الوطن العربي لم تكن بضخامة السيرة البريطانية والفرنسية . كانت مستعمراتها اصغر حجما واضعف اهمية من مستعمرات الدولتين الاخريين . وحتى الذين رأوا في المانية النازية بعض الخطر على مصالح بلادهم القومية ، اعتبروا خطرها غير مباشر ، وثانويا ، بالنسبة الى الخطر الاستعماري الاخر ، ورأوا ان امكان التوفيق بين مصالحهم والمصالح الالمانية اكثر قابلية من امكان التوفيق بين مصالحهم والمصالح الفرنسية والبريطانية .

نقطة واحدة عكرت صفو الصورة المحورية في الذهن العربي : اطماع ايطالية المباشرة ، والتقليدية الى حد ، في طرابلس الغرب . فقد اختبر الليبيون الاستعمار الايطالي منذ ١٩١١ . لكن العرب املوا ان يؤدي تأييدهم للالمان الى الضغط على ايطالية فتتخلى عن تلك الاطماع وتستعيض عنها ، ان شاءت ، بمراكز متوسطية اخرى خارج البلاد العربية . وادركوا ان المجال الحيوي الذي تضمنه ليبية لايطالية كنقطة ارتكاز لتحويل المتوسط الى بحيرة ايطالية يمكن الاستعاضة عنه بقبرص او البانية او اليونان . والواقع ان العرب تظاهروا في حوالي عشرين مدينة عربية احتجاجا على نوايا ايطالية الاستعمارية في طرابلس الغرب في شهر يناير ١٩٣٩ . واضطر مسليني ان يؤكد للعرب بانه سيعدل من مخططاته ويوقف الهجرة الايطالية الى طرابلس.

واستخدمت دولتا المحور اساليب مدهشة من الدعاوة المنظمة المركزة على العقول والعواطف العربية . وكان للمحور محطتا اذاعة ضخمتان منذ

١٩٣٨ ، الاولى في باري والثانية في جوار برلين ، الى جانب محطات اخرى اصغر . وجهت هذه المحطات برامج عربية قوية في مادتها وعنيفة في لهجتها. ونجحت من حيث فشلت محطات اذاعة الحلفاء ، كدار الاذاعة البريطانية والاذاعة الفرنسية في تونس واذاعتي الشرق الادنى وعدن .

وشجع الالمان والطليان تعاون الشبيبة العربية مع شبيبتهم . ودعوا العرب الى زيارة مدنهم . وعلموا مئات الشبان العرب على حسابهم تعليما ثانويا وجامعيا . واشركوا ممثلي المؤسسات العربية ، السياسية والاجتماعية والثقافية ، في المهرجانات التي برعوا في اقامتها ، واشهرها مهرجان نورمبرج في ١٩٣٨ الذي حضره عدة مئات م نالشخصيات العربية . ودعوا التجار العرب الى معارضهم الصناعية والتجارية ، واشهرها معرض باري الدولي .

ونظر المحوريون بعين العطف على المنظمات السياسية المختلفة التـــي تشكلت في مصر وسورية ولبنان وفلسطين والعراق ، مثل النجادة والحزب السوري القومي والقمصان الحديدية وعصبة العمل القومي والنادي العربي بدمشق ومصر الفتاة والقمصان الخضر والفتوة ونادي المثنى ببغداد . وكان تأسيس مثل هذه التشكيلات شبه العسكري نمطا من العمل السياسي نال استحسان فئات من الشعب وراج رواجا كبيرا في البلاد العربية مثلما راج ف يدول اخرى غير عربية في العقد الثلاثيني .

وقام الخبراء الالمان المختصون بشؤون الدعاوة بين العرب ، وعلى رأسهم الدكتور جربا في بغداد ولوسنر في انقره ، وافراد الجوالي الالمانية والايطالية في مصر وفلسطين ، بالعبء الاكبر من الدعاوة لقضية بلديهم بين العرب . ساعدهم في ذلك تدفق البضائع الالمانية والايطالية ، المشهورة بالجودة ، خاصة الالماني منها .

يجب الا ننس ان الفضل الرئيسي في نجاح الدعاوة المحورية انما يعود الى الورقة الرابحة التي حملها المحوريون ولم يحملها الحلفاء : وهي ان المحور يحارب الاستعمار الحليف في البلاد العربية ويؤيد اماني العرب القومية . اعلنت دولتا المحور الاوربيتان تأييدهما المطلق لمطلبي الاستقلال والوحدة لمجموع الدول العربية بشكل عام ولكل دولة تقريبا بشكل خاص عدة مرات في ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٣ ، في بلاغات رسمية وفي اذاعات ومقابلات خاصة مع الزعماء العرب . ان الفضل في قيام تفاهم معنوي بين الوطنيين العرب والمحوريين يعود الى تقرب المحوريين من الاماني الوطنية ومشاركة العرب بها وليس الى مجرد تفوق المذيع المحوري على المذيع الحليف في الاسلوب واللهجة كما ظن الانجليز خلال الحرب .

تراءى للعرب ، بفضل تلك الدعاوة القوية الاسس ، ان المانية وايطالية دولتان قويتان يعتمد عليهما لانهما اقوى من فرنسة وبريطانية ، وانهما دولتان صديقتان لا تتأخران عن مساعدة العرب لو طلب منهما ذلك ، وانهما ، بطبيعة الحال ، دولتان تعاديان الاستعمار الغربي وشريكته في الاثم ، الصهيونية . واستطاعت الدعاوة المحورية والسياسة الموالية للعرب ان تغطي بعض السيئات والضعفات التي لم تخل انظمة البلدين منها ، ان في نوعية الحكم واساليب معاملة الشعب ، او في النظر الى الشعوب والحضارات الاخرى . والواقع ان الدعاوة نجحت في كتم هذه السيئات والضعفات عن ملايين كثيرة من البشر من غير العرب ايضا . ولم يكن العرب الشعب الوحيد الذي رأى الجانب البراق دون الجانب السيء . كاد لا يوجد بلد واحد لم يقم فيه تأييد شعبي للنازية او الفاشية . غير ان هذا التوكيد على دور الدعاوة يجب الا يحملنا على تصديق المبالغات في تصوير اثرها في الانتفاضات الشعبية ضد الاستعمار. كانت تلك الدعاوة تحرض الشعب وتشجعه ، ولكنها لم تكن السبب الرئيسي في ثوراته ويقظاته القومية . ونحن نلاحظ ان هناك اتجاها اوربيا مألوفا ينسب اليقظة العربية في كل عصر الى عامل خارجي ما ، الى الدعاوة المحورية في العقد الثلاثيني ، والى الدعاوة الشيوعية في العقدين الاربعيني والخمسيني ـ وكأن لا منطق في ان يثور العرب على المظالم التي تلحق بهم باصالة وبدون دفع من الخارج .

نشطت الدعاوة المحورية في حقبة احتدم فيها الانتفاض الشعبي اكثر من اي وقت مضى منذ حلول الانتداب . ثارت فلسطين ثورتها الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ . وبلغت المعارضة الوطنية ذروة نشاطها في مصر وسورية حتى حصل البلدان على معاهدتي ١٩٣٦ مع بريطانية وفرنسة . وشهد العراق اول انقلاب عسكري في حياته ، ثم تسلم قيادة جيشه عدد من الضباط القوميين . وقام نشاط وطني في امارات الخليج العربي التي لم تعهد وعيا قوميا من قبل .

جنبا الى جنب هذه الانتفاضات اختبر الوطن العربي مرحلة جديدة من التنظيم الوطني . تأسست عشرات النوادي والمنظمات ، على اكتاف جيل اخر غير الجيل القديم الذي احتكر العمل السياسي وفشل فيه ، وازدحمت بالشبان المندفعين الذين لم تدنس اغراءات المناصب والوظائف امالهم العريضة. وكانت تلك المؤسسات قوالب منفتحة يسهل املاؤها بالوعود السامية والمبادىء التحررية ، مثلما تشحذها الانتفاضات المتواصلة . وعبأ اجهزتها المئات من افراد الطبقة الوسطى التي لم تكن من قبل قد قامت بجهد خاص في تصحيح اوضاع البلاد السياسية ، بعد ان نمت نواة هذه الطبقة وتخرج ابناؤها من المدارس والجامعات وخرقوا احتكار « ابناء العائلات » للعلم والوظائف .

بينما كان الانجليز يدعمون حكاما معينين في العراق وشرق الاردن ، وجماعات سياسية معينة في فلسطين ، وهم حكام وعائلات ملهم الشعب بعد ان تعارضت مصالحهم مع مبادئه ، كان المحوريون يتصلون بالشعب مباشرة ، بمنظمات شبيبته الديناميكية ، وبمدارسه وكلياته واوساطه المثقفة ومفكريه . وتمكن الجيل الجديد المنتمي الى الطبقة الوسطى ، المتضايقة من تعسف الوجهاء ومن استسلام وخضوع الطبقات العاملة ، من تهديد الاحتكار الوجيه بواسطة سلاح العطف المحوري ، ومن رفع صوته في معارضة اعوان الانجليز وتهديم سمعتهم .

وجدير بنا ان نلاحظ ان العلاقات بين المحور والحركة العربية لم تكن عقدية بقدر ما كانت عاطفية . وان كان عدد قليل من المثقفين العرب قد درس النازية بعمق وتركيز لم تعن الاغلبية الساحقة من المواطنين بالنظريات عناية زائدة ، واكتفت بمطالعة انباء الصحف وسماع الاذاعات العابرة ، واتخذت مواقف التأييد او المعارضة دون البحث عن مدلولات الصراع المحوري ــ الحليف وسواء صح القول ان الحرب العالمية الثانية كانت حربا عقدية بين الحرية الغربية وحليفتها الاشتراكية الاممية وبين النازية والفاشية صاحبتي النظرة الخاصة بالحرية والاشتراكية والقومية (كما زعم الفريقان المتحاربان) او لم يصح (كما يعتقد الرأي العربي العام) فان العرب كانوا بوجه عام بعيدين جدا عن العوامل المبدئية في الموضوع ، لا يدركونها ولا يهتمون بها ولا يؤمنون بوجودها . وهو تكرار لما قلناه سابقا عن موقف العرب من تأييد الحلفاء ضد تركية ودول الوسط في الحرب الاولى . جعل غياب هذا المفهوم العقدي العرب لا يفرقون بين المانية الهتلرية والقيصرية ، ولا بين يابان ما قبل بيرل هاربر او ما بعدها . راى العرب في هذين البلدين في مطلع الاربعينات تتمة طبيعية لما كانا عليه منذ اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي . وقد سبق للعرب ان احبوا هذين البلدين واحترموهما منذ ذلك التاريخ ، وخاصة اليابان التي زعمها عرب اسية ومصر على دول المشرق منذ اكثر من نصف قرن ، لانها حاربت روسية وانتصرت عليها . وكان لنشاطها وانتصاراتها على الصين رد فعل قوي في الاوساط العربية الخاضعة للاتراك وللانجليز . فدعت الحركات الوطنية الشعب الى التمثل بها وجعل اسمها قدوة تبجل وتكرم .

اذن فالذي حمل العرب على تأييد المحور ضد الحلفاء انما هو شعورهم بان صداقة المحور ، وهي صداقة عريقة من قبل مولد النازية ، اضمن لهم لتحقيق مبادئهم القومية من صداقة الحلفاء الذين سبق لهم ان وعدوا واخلفوا وسبق ان استعانوا بالعرب ثم غدروا بهم . وذلك ، بكلام اخر ، تعبير صادق عن المبدأ الازلي المعترف به في كل مكان ، بان عدو العدو صديق ، وهو مبدا

تنكره الدولة الواحدة على خصمها وتعمل به هي نفسها . ويجب الا ننسى ان هذا الموقف التأييدي الذي وقفه العرب ، لاسباب عاطفية وحسب تفسيرهم لحاجاتهم القومية ، وقفته في ذلك الوقت دول اخرى انحازت الى صف الحلفاء فيما بعد ، مثل روسية وتركية وايران . بل ان جهات نافذة في كل من بريطانية وفرنسة والولايات المتحدة ابدت التأييد نفسه قبل اعلان الحرب، معظمها راسمالي استفاد من النازية والفاشية ماليا ومعنويا . ويجب الا ننسى ايضا ، ان ظروفا سياسية معينة قسمت العالم انذاك الى ذينك المعسكرين ، وانه حتى اللحظة الاخيرة كان من الممكن ان يكون التقسيم مختلفا عما حصل كل الاختلاف . فان المصالح السياسية للدول هي التي فرضت على دولة ما ان تنحاز الى هذا الجانب او ذاك . ثم ان الحلفاء الذين يزعمون انهم ثاروا في وجه هتلر لدكتاتورية نظامه واطماعه نراهم اليوم يتعاونون مع اكثر من شبيه لهتلر في اكثر من بلد ، عربي او اجنبي ، ونراهم يبدون الاطماع نفسها .

لم يتعد التأييد القومي العربي للمحور نطاق المشاعر العاطفية ولم يخرج عن حيز التمني ، في ما قبل الحرب ، بنجاح المحور ، والتمني بانتصاره في الحرب . اما المساعدات المادية المتبادلة بين الطرفين فكانت محدودة . الزعم بضخامتها هو دس صهيوني استغل ذلك العطف المتبادل وصوره باشكال مكبرة لتحريض الغرب ضد العرب ، وضد الحركة الوطنية بوجه خاص . وشارك الصهيونيين فيه كتاب وسياسيون غربيون عرفوا بتخوفهم من الحركة العربية، ان لم نقل بعدائهم لها . والحقيقة ان العرب لم يشتركوا في الحرب مع المحور. والقليلون الذين انضموا الى صفوف المحور كانوا يقيمون في المانية وايطالية انذاك لان الحلفاء طردوهم من بلادهم او نفوهم او لاحقوهم . وكان عددهم اقل بكثير من الجنود العرب الذين تطوعوا في الحرب مع الحلفاء ، وخاصة مع الجيشين البريطاني والفرنسي . اما معظم العرب فقد اخلدوا الى السكينة . وحتى فلسطين ، البلد الثائر على البريطانيين منذ سنوات ، اقتصر جهاد وطنييه ضد الحلفاء في الحرب بنزول اربعة شبان بالمظلات في اريحا في محاولة فاشلة . وحتى مصر ، الباحثة عن طريق للخلاص من البريطانيين منذ ان احتلوها ١٨٨٢ ، لم يتعد جهاد وطنييها ضد الحلفاء محاولة فاشلة اخرى انتهت بعد بدئها بدقائق بسقوط طائرة عزيز المصري ورفيقيه في الصحراء . وان كان للعراق وضع اخر فاننا سنرى بعد قليل ان ثورته الشعبية عمل الانجليز على اشعالها اكثر مما عمل الالمان . لقد اقتصر التأييد العربي للمحور على تقليد مشية الاوزة في المهرجانات وعلى تعليق الشعارات الشبيهة بالصليب المعقوف على الصدور وعلى الصلاة في الجوامع على ان ينصر الله الالمان .

الامر الاخير ، والاهم ، في الاطار الخلفي للعلاقات العربية ــ الالمانية

هو ان الصهيونية كانت عاملا رئيسيا في تقرير هذه العلاقات. فهي الخطر الاكبر على العرب . هي العدو الذي يأتي ويحتل ويبقى ، بينما يأتي غيرها ويرحل . هي الجرثومة التي تعتقد الحركة القومية انها ان استأصلتهـــا استأصلت معها جراثيم اخرى لعدة امراض اما ان تركتها فانها تترك نفسها عرضة للامراض الاخرى ايضا . هذا ما شعر العرب به في ذلك الوقت . وهو ما يزالون يشعرون به الى اليوم . وسيظلون يشعرون به الى ان يتحرر اخر شبر من الوطن من الوباء الصهيوني . وهذا ما ادركه الالمان ايضا في الوقت نفسه . لذلك فحتى لو لم يكن هناك اية رابطة عاطفية او سياسية او مصلحية تجمع بين العرب والالمان كان العداء المشترك للصهيونية ، مهما اختلفت دوافعه ومظاهره (فهمه الالمان عنصريا ضد اليهود كطائفة وفهمه العرب سياسيا ضد ما يهدد مصالح بلادهم) كافيا لان يجمع بين الفريقين جمعا عاطفيا آنيا على الاقل . وان كان ونستن تشرتشل قد استباح التعاون مع الشيطان ضد الالمان فان العرب استباحوا التعاون مع الالمان ضد الشيطان.

عبدت هذه العوامل والظروف الطريق بين الحركة القومية وبين المانية وايطالية . فتضايق الحلفاء من ذلك وحاولوا سد الطريق وبناء طريق معاكس يقود العرب اليهم . ولكنهم لم يتبعوا الاساليب السليمة لينجحوا . كان بامكانهم ان يطردوا العطف على المحور من قلوب المواطنين ويستبدلوه بعطف عليهم لو فهموا اسباب تأييد العرب للمحور وظروفه فبدلوا تلك العلاقات التي كانت بينهم وبين العرب ، اي لو توقفوا عن معارضة الاماني القومية للعرب وسحبوا اطماعهم واحتلالاتهم وانتداباتهم وتخلوا عن الطبقات الحاكمة التي لم تعد تنطق باسم الحركة القومية وكفوا عن مقاومة تلك الحركة وقطعوا معونتهم المستمرة للصهيونية . ذلك ان الانجليز ارادوا ان يصدق العرب ان مصلحتهم القومية لا تتعارض مع مصلحة بريطانية دون ان يبرهنوا للعرب ، ولو برهانا واحدا ، على انهم اصدقاء لهم . بل انهم اتبعوا الاساليب القديمة نفسها : الوعود الفارغة المطاطة التي لا سند لها ، والدعاوة التقليدية المنفرة ، والتأييد للطغمة الحاكمة ، والكرم المعهود بالالقاب والاوسمة والمناصب على اعوانهم .

فشلت هذه المساعي ، بطبيعة الحال ، وعجزت عن ان تعبد طريقا واحدا امام الحلفاء . ولم تنطل الحيلة على الحركات الوطنية في اي بلد عربي . بل انها نبهت هذه الحركات ، فتجمعت من جديد واخذت تكتل نفسها بعد تفرق طويل ، اذ ادركت ان الصراع العربي يجب انيكون صراعا موحدا ، او متكاتفا على الاقل ، ليكون ناجحا ، وان وحدة الهدف تفترض وحدة القيادة والتخطيط ولا تغني عنهما .

حصل ذلك اواخر العقد الثلاثيني ، في وقت تأهب العالم فيه للنزال، وتأهب العرب للسعي وراء مطاليبهم المعهودة في جبهات العالم الجديدة لعلهم يجدون بينها بريقا من امل يعوض عن خسائر عشرين السنة الماضية. ووجدت الحركات الوطنية نفسها تتجمع في مكان واحد ، بفعل الظروف القاسية ، دون تخطيط سابق . وجدت نفسها في بغداد ، ولم يكن لديها مجال اخر غير بغداد .

كان العشرات من زعماء النضال الوطني في فلسطين قد انتقلوا الى سورية ولبنان هربا من اضطهاد السلطات البريطانية بسبب ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ الكبرى . ثم ذهبوا الى العراق ، ومعهم جمع من المناضلين السوريين، بعد ان اضطرتهم سلطات الانتداب الفرنسي الى ذلك . فالتقى في بغداد جمع كبير من رجالات الوطنية العربية في ذلك الوقت . ويكفي ان نذكر هذه الاسماء : حسن ابو السعود وعادل ارسلان وجورج انطونيوس وسعدالله الجابري واسحق وامين وجمال وداود ومنيف وموسى الحسيني وراسم الخالدي ومنصور داود وعزت دروزة واسحق درويش وامين رويحه واكرم زعيتر وحسن سلامه ورياض الصلح وعز الدين الشوا وعارف عبد الرازق وسليم عبد الرحمن وعادل ونبيه العظمه وموسى العلمي وفوزي القاوقجي وشكري القوتلي وسعد الدين اللطيف ومعين الماضي وجميل مردم بك والطيب الناصر ومصطفى الوكيل .

سهل على هؤلاء ان يذهبوا الى العراق ويقيموا فيه ويعملوا عملا وطنيا ان العراق كان يعيش عهدا ذهبيا لم تتمتع الحركة الوطنية بمثله من قبل ولا من بعد ، في العهد الهاشمي. شهد العراق في الثلاثينات عدة حركات وطنية. ولكنها كانت قليلة الانصار وضعيفة الروابط فيما بينها وقصيرة العمر . ولم تستطع اية واحدة منها ان تتغلغل في الاوساط الشعبية او ان تصل الى الحكم او مجلس النواب . وكانت تواجه صعوبات جمة يضعها الانجليز والحكام المحليون . ومع ان بعضها استطاع التأثير في بكر صدقي فشل بعد ان حقق الرجل انقلابه ولم يلتفت الى المطالب القومية وشجع العناصر الاقليمية . كذلك لم تكن مواقف الملك غازي الوطنية ذات نفع بالغ على تلك الحركات ، لانها كانت اعتباطية ومتقطعة وشخصية . غير ان عددا من الضباط الوطنيين في الجيش اعتبروا من فشل المساعي السابقة والفوا تكتلا عسكريا نشيطا قاده اربعة منهم فسمي بالمربع الذهبي : صلاح الدين الصباغ وفهمي السعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان . وكانوا على صلات حسنة مع نفر من السياسيين ممن لم يفسدهم الحكم كما افسد غيرهم ، وعلى رأسهم رشيد عالي الكيلاني .

عرف رجال « المربع الذهبي » بجهادهم القومي قبل تلك الفترة. اشترك الاولان منهم في الثورة العربية وحاربا مع يوسف العظمة في ميسلون . واسهموا كلهم في ثورة فلسطين الكبرى : في تجنيد وتدريب وتسليح وارسال عدة مئات من المتطوعين العراقيين المؤمنين بوحدة الجهاد العربي . وكانوا على اتصال مستمر بقيادة الثورة الفلسطينية وبمراكز التجمع في سورية . وقد قاموا بذلك بالسر ، خوفا من رئيس الحكومة جميل المدفعي ، الذي اضطهد اصدقاء فلسطين في العراق بتأثير صديق يهودي له اسمه حاييم نثنائيل ، وحل جمعية اعانة منكوبي فلسطين وطارد رئيسها سعيد الحاج ثابت .

بحث رجال « المربع الذهبي » عن ميدان اخر يقومون فيه بواجباتهم نحو القضية العربية بعد ان توقفت الثورة الفلسطينية اواسط العام ١٩٣٩ . وجدوا انالعلاقات سيئة بين العراق والمملكة العربية السعودية للاسباب العائلية المعهودة . فذهب الصباغ الى السعودية وابرم اتفاقية بين البلدين . ثم اخذوا يفكرون بتحقيق مشروع قومي ضخم : الضغط على الحكومة العراقية كي تستغل صدور الكتاب الابيض ومزاعم بريطانية بانها تريد تحسين علاقاتها وسياستها مع العرب فتفرض على بريطانية ان تقبل بقيام وحدة عربية في غرب اسية تشمل العراق وسورية وفلسطين وشرق الاردن ، وتكون مفتوحة امام السعودية واليمن ، ومقدمة لوحدة اشمل تتسع لدول افريقية العربية وخاصة مصر .

سار هذا المسعى القومي ، على ما كان فيه من ضعف عملي اذ كان يفترض لتحقيقه مؤازرة كل من الانجليز والهاشميين وقد سبق لهم ان عارضوا الوحدة العربية ، جنبا الى جنب حركات شعبية قومية بدات تضايق المصالح البريطانية في الشرق ، من الكويت في طرف شبه الجزيرة الى مصر في طرف افريقية . قامت في الكويت حركة شعبية منذ ١٩٣٨ تعتبر البلد جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي ، وتدعو لتحريره من النفوذ البريطاني . وضغطت على شيخ الكويت ليؤسس مجلسا تشريعيا منتخبا حرا. ولما جرى الانتخاب فاز سبعة عشر من اعضائه العشرين من مناصري تلك الحركة ومرشحيها . فتقدموا ، بعد ان ثبتت لهم قوتهم الشعبية ، بمشروع دستور قومي متحرر. ولكن الشيخ رفضه وفرض مشروعا اخر ، معاكسا ، عارضه المجلس . فاعلن الشيخ حالة الطوارىء ، واستقدم قوات بريطانية لحمايته ، وحل المجلس واعتقل الاعضاء الوطنيين ، واعدم بعضهم ، في فبراير ١٩٣٩ . وفي البحرين سارت في نوفمبر ١٩٣٨ تظاهرات شعبية تطالب بمجلس تشريعي وبخروج الانجليز من البلاد . ولكن شيخ البحرين اعتقل جماعة المثقفين الذين اشرفوا على الحركة الوطنية ونفى عددا منهم الى الخارج . وحصل وعي مشابه في

مشيخة ذبي ربيع ١٩٣٩ فامر الشيخ باعدام ثلاثة واربعين مناضلا . وفي مصر ، البلد الثائر الذي حصر جهاده الوطني في النطاق الافريقي وتوقفت مطامح مناضليه عند سيناء ، جاء الى الحكم في اغسطس ١٩٣٩ عهد جديد ينادي ثلاثة من وزرائه بوحدة عربية تشمل مصر ، عهد وزارة علي ماهر التي خلفت وزارة محمد محمود . اما الوزيران اللذان شاركا رئيسهما في مشاعره العربية فهما عبد الرحمن عزام وصالح حرب ، وزيرا الاوقاف والحربية على التوالي. وكان السياسيون الثلاثة قد اشتركوا في اكثر من جمعية عربية منذ العشرينات. وحارب اثنان منهم في سبيل استقلال العرب ووحدتهم من قبل الحرب العالمية الاولى. وآزرهم في دعوتهم القومية قائد الجيش، المناضل العربي الكبير عزيز علي المصري . اخذت تلك الحكومة تردد في السر ، وبتحفظ ، ما ردده ضباط العراق الاحرار علنا وبتسرع نسبي ، وهو ما قاله مناضلو فلسطين وسورية من قبل : وهو ان صديق العرب هو ذاك الذي يساعدهم على التحرر والاستقلال والوحدة ، وان تحقيق الاماني العربية القومية هو المجال الوحيد لاية دولة اجنبية لكي تثبت صدق زعمها بانها تعطف على العرب . واسست الحكومة قوات طوارىء اعدت للكفاح الوطني ضد الاحتلال حينما تدعو الحاجة . وجدير بالذكر ان نواة الضباط الاحرار في مصر ، ممن قاموا بثورة يوليو ١٩٥٢ ، انما بدات تتكون في ذلك الوقت وفي تلك الظروف بالذات .

اثارت هذه الاحداث الوطنية ، وصداها البعيد في الراي العام ، مخاوف بريطانية . فاسرعت الى الحد من انتشارها : نجحت في واد حركات الخليج العربي بسهولة . ونجحت في اواسط ١٩٤٠ في اقالة وزارة علي ماهر وسجنه مع الوزيرين القوميين (ثم قائد الجيش) وفي حل قوات الطوارىء . ولم يبق امامها الا العراق ، حيث استعصى على اعوانها اقصاء الضباط الوطنيين عن قيادة الجيش وطرد عشرات المناضلين غير العراقيين من البلاد . وعلى العكس ، انتصر الضباط المذكورون على النفوذ البريطاني واقالوا وزارة نوري السعيد وكلفوا رشيد عالي الكيلاني بتشكيل حكومة وطنية .

تحولت الشرارة الى حريق هائل يهدد بابتلاع العالم ، في شهر سبتمبر ١٩٣٩ . واصبح العرب هدفا يتودده الفريقان المتخاصمان ويرسلان اليه دعاتهما لاستمالته . فنشطت الدعاوة العلنية والاتصالات السرية، وكل من الخصمين يعرض احسن ما في جعبته ويطعن بمنافسه . وازعج بريطانية الا تجد اذنا صاغية في العراق بالذات ، وهي التي اعتادت ان تجد البلد كله اذنا واحدة صاغية . وازعجها ، ايضا ، ان تجد الجيش والشعب والحكومة جبهة واحدة ضد الاستعمار ، يؤيدها وطنيو الكيانات العربية الاخرى .

راجع المسؤولون البريطانيون دفاترهم العتيقة . ووجدوا ان في الاتفاقية العسكرية للسنة ١٩٣٠ بندا يمنع الجيش العراقي من التسلح من اي بلد اخر غير بريطانية . وكانت عدة محاولات لتسليح الجيش المذكور من دول اخرى (الولايات المتحدة والمجر) قد فشلت بسبب ذلك البند . غير ان الاتفاقية سمحت للعراق بان يتسلح من حيث يشاء متى كانت بريطانية تعجز عن تلبية طلباته . ولما كانت بريطانية عاجزة بالفعل ، في خريف ١٩٣٩، بسبب حاجتها الى السلاح لتدافع به عن نفسها ، اتصلت قيادة الجيش العراقي بتجار يابانيين وايطاليين عرضوا عليها اسلحة جيدة الصنع ورخيصة الثمن . فضغطت السلطات البريطانية على الحكومة لتمنع تلك الصفقات . واضطرت قيادة الجيش ، حتى لا تستفز البريطانيين وحتى تسد باب الضغط والتدخل ، ان توقف المعاملات ، وان تعتمد على شحنة من السلاح وعدت بريطانية العراق بارسالها لها . ولكن القيادة وجدت ، عندما تسلمت الشحنة، انها احذية للجنود ، كما يروي بطل تلك الحادثة ، صلاح الدين الصباغ (١) . والطريف المؤلم انالانجليز فيما بعد حوروا القصة واطلقوها شائعة ضد مصر ، اذ زعم بعض مصادرهم ان الحكومة المصرية ارسلت في ١٩٥٥ - ١٩٥٦ الى القوات الاردنية شحنة احذية بدلا من اسلحة كانت قد وعدت الاردن بها .

طالبت الحكومة البريطانية العراق ان يقف الى جانبها ويقطع علاقاته بدول المحور كمقدمة لاعلان الحرب . فحاول الكيلاني وزملاؤه في الحكم ، مثلما حاول الضباط الوطنيون المتسلمون قيادة الجيش فعليا ، انيفهموا الانجليز ان سياسة البلاد الخارجية التي تستهدف مصلحة الشعب في العراق تقوم على مبداين اثنين : ان الافضل للعراق ان يقف على الحياد في حرب لا تهدد سلامة اراضيه وسياداتها ، وان الخروج عن الحياد ، لمصلحة بريطانية ، لن يتم الا اذا قبل الحلفاء بمبدأ الوحدة والاستقلال ، وعلى الاقل بفكرة تأسيس دولة عربية مستقلة في منطقة الهلال الخصيب كنواة للوحدة الشاملة .

رفض الانجليز ، بالطبع ، ان يوافقوا على فكرة تطعن مصالحهم في الصميم . وعهدوا الى اصدقائهم من رجال السياسة (وعلى راسهم نوري السعيد) بان يشاغبوا على الحكومة من الداخل . وكان السعيد قد قطع العلاقات مع المانية دون ان يتجرأ على اعلان الحرب عليها . كما انه اعلن ان العراق سيلتزم كافة تعهداته تجاه « حليفته » حسب البند الرابع من معاهدة ١٩٣٠ ، وذلك في الخامس من سبتمبر ١٩٣٩ . وقد فعل ذلك دون استشارة السلطة التشريعية في البلاد . واتبع اعلانه بان اعتقل عددا من الالمان وسلمهم

---

(١) صلاح الدين الصباغ ، مذكرات (صيدا ، ١٩٥٦) ، ص ٤٣

الى السلطات العسكرية البريطانية . ويروي الدبلوماسي البريطاني بيترسن في مذكراته عن اعماله في وزارة الخارجية ان السعيد هو الذي بدأ يتصل ببريطانية ويعرض عليها خدماته واستعداده لارسال فرقة عراقية تحارب مع قواتها في اي مكان . ويتحدث الكاتب ايضا عن تدخلاته ضد النشاط الالماني ، على الرغم من « استقلال » العراق ، وعن نفوذه في الدولة بواسطة اصدقاء بريطانية (٢) .

لقيت سياسة نوري السعيد معارضة قوية في مجلس النواب وفي الاوساط الشعبية . واجمع مجلس الدفاع الاعلى على رفض تطبيق تلك السياسة على الصعيد العسكري . وللتدليل على قوة الاتجاه السياسي الذي طالب باعلان الحياد وعدم خوض الحرب نذكر ان رجلا مثل رستم حيدر ، المعروف بموالاته للسعيد وللانجليز ، اخذ يدعو في السر الى الاتصال بالمحور والتفاهم مع الالمان على ايجاد وحدة عربية على حساب الصداقة التقليدية مع بريطانية ، ولذلك اخذ يقاوم مشاريع السعيد داخل الوزارة ، وكان وزيرا للمالية ، الى ان اغتيل في ظروف غامضة ، مما جعل الدكتور جربا ، الدعاوي الالماني ، يتهم الانجليز باغتياله ، في يناير ١٩٤٠ (٣) . كما ان صديقا اخر للانجليز وللسعيد ، حسين فوزي ، قائد الجيش العام ، عارض سياسة السعيد فاقيل من منصبه .

مع كل هذا اخذ السعيد يقوم بحرب اعصاب ضد الوطنيين ، ويطالب باعلان الحرب على المحور وارسال جنود عراقيين الى ليبية او البلقان ــ وكان قد عين وزيرا للخارجية في حكومة الكيلاني التي تألفت اوائل ١٩٤٠ وضمت اربعة رؤساء حكومات سابقين . وكان برنامجها تحرريا : شراء السلاح من اي مكان ، وانتهاج سياسة خارجية محايدة ، ورفع مستوى التمثيل النيابي . وايد الجيش الحكومة وانضم اليها عنه طه الهاشمي كوزير للدفاع .

عارضت الحكومة اقتراحات السعيد لانها تعارضت مع سياستها ، اولا ، ولان الحلفاء كانوا انذاك في احرج اوقاتهم واباسها بينما كان الالمان يتقدمون في سائر الجبهات ولم تكن هناك ادنى مصلحة في مناصرة الجانب الضعيف عسكريا وسياسيا . ووضع الجيش حلا وسطا للازمة : تذهب قوات منه الى ليبية وتحارب مع القوات البريطانية شرط ان يسمح لها ، وهي في طريقها الى الجبهة ، بان تدخل سورية وفلسطين ، وتعلنهما قطرين في دولة متحدة

---

(2) Maurice Peterson, Both Sides of the Curtain (London, 1950), P. 143 - 144.

(٣) يسرد الكاتب العراقي مجيد خضوري القصة دون ان يتبناها في ص ١٥١ ــ ١٥٢ من كتابه Majid Khaddouri, Independant Iraq (Oxford, 1960).

تشمل العراق ايضا ، على الاقل . وقد ايد الوطنيون الفلسطينيون والسوريون الفكرة . وعارضها الانجليز ورفضوها . وكذلك فعل نوري السعيد ، مع ان وطنيي سورية ارسلوا اثنين من دمشق لمحاولة اقناعه ، وهما جميل مردم وسعد الله الجابري .

قام السعيد بمحاولة ثانية لكسب الموقف . طالب بتقوية ميثاق سعد اباد ، وهو الاتفاق العسكري السياسي الذي جمع بين العراق وثلاث دول شرقية غير عربية ، كما طالب باضافة بند جديد اليه يعتبر اي هجوم الماني على البلد الواحد تعديا على البلدان الثلاثة الاخرى. وذهب الى القاهرة ، دون ان يستشير رئيس حكومته ، وعرض على حكومتها الانضمام الى الميثاق المذكور ، ليصبح الحلف الاسلامي مماثلا لمشروع ايدن بانشاء حلف باقاني ـ تركي ضد المحور ، ومكملا له . ولكن مشروعه فشل . رفضت مصر ان تزج نفسها في معركة سافرة مع المحور ، بالرغم من المجهود الكبير الذي بذله الكولونيل في قلم الاستخبارات ، نيوكمب ، كبير المستشارين البريطانيين في القاهرة للشؤون العربية ، في دعم فكرة الحلف . وقد تنقل من اجل هذا الفرض بين الدول العربية في يوليو ١٩٤٠ .

ادرك السعيد وصحبه ، والانجليز ، انالعراق افلت من ايديهم ، وان حكامه وشعبه مصممين على التقيد بسياسة الحياد . ولمسوا الصدى الايجابي لهذه السياسة خارج العراق ، اذ رحب بها وتبناها وطنيو سورية وفلسطين الذين حثوا الحكومة العراقية على دعم الحياد باتخاذ اجراءات حاسمة لحل المشاكل القومية خارج العراق . وتباحث الزعماء العرب المقيمون في العراق مع قيادة الجيش وبعض افراد الحكومة (الكيلاني والهاشمي وناجي شوكت وناجي السويدي) بامكان اشعال ثورة شعبية واحدة في فلسطين وسورية يساعدها الجيش العراقي بطريق او باخر لاعلان استقلال الكيانات وتوحيدها، وكان الكيلاني قد حصل على تأييد خطي رسمي من الحكومة الالمانية باحترام استقلال الدول العربية ضد الاخطار الفرنسية ـ البريطانية ـ التركية وبالعطف على الحركة الوطنية في البلاد العربية كلها . وردد المسؤولون الالمان هذا التعهد مرة اخرى في بلاغ اصدرته وزارة الخارجية اوائل ١٩٤١ بتأييد النضال العربي في سبيل الاستقلال ، مما كاد يحول الاماني النظرية الى وقائع يكسب العرب بها حقوقهم رغما من المصالح الاستعمارية .

بلغت الازمة ، انذاك ، ذروتها . لم يعد الانجليز يحتملون وجود الكيلاني والصباغ على رأس الحكومة والجيش ولا وجود مفتي فلسطين وصحبه في قلب بغداد . فعزموا على فك رباط هذا المثلث القومي وتحطيمه قبل فوات الاوان ، وذلك باحتلال العراق احتلالا عسكريا مباشرا ، بعد ان فشلت السبل

الاخرى المقنعة .

اخذ الوصي على العرش يرفض الموافقة على قرارات مجلس الوزراء، ويعدل ما يتعارض مع مصالحه ، فاستثنى ، مثلا ، المدارس الانجليزية من مشروع قانون يعطي الحكومة حق مراقبة المدارس الاجنبية وبرامجها . واخذ يتنكر لتعهداته . فرفض ، مثلا ، تسليم متهم سعودي الى حكومته بالرغم من وجود معاهدة تبادل المجرمين بين البلدين . وكان يتصل بضباط الجيش وبالسياسيين ويحرضهم ضد بعضهم بعضا وضد الحكومة وقيادة الجيش . كما كان يتصل بمشايخ العشائر ويشجعهم على معارضة السلطات المركزية . وقام رجاله في مجلس النواب بمهاجمة الحكومة والجيش . وشكل جلال بابان وعلي جودت وجميل المدفعي كتلة نيابية ضد الوطنيين . واخذ الوصي يتدخل في شؤون الوزارة . وطالب باقالة الوزير ناجي شوكت بحجة ميوله النازية . ثم طالب باقالة الوزارة كلها . فرفض رئيسها . ورد عليه بان حل البرلمان ودعا الى انتخابات جديدة . فاذاع الوصي بيانا ضد الحكومة واعلن انه يحظى بتأييد وزيري بريطانية والولايات المتحدة المفوضين في بغداد . ورفض استقبال رئيس الوزراء وعطل اعمال الحكومة وامتنع عن التوقيع على قراراتها . فقرر الكيلاني الاستقالة . الا ان الجيش تدخل واعاده الى الحكومة بالقوة . فالف حكومة دفاع وطني ضمت مجموعة من الوطنيين والاساتذة الجامعيين . وبينما آزر الشعب هذه الحكومة واعتبرها فاتحة عهد جديد لتحقيق امانيه هرب الوصي من بغداد ، بالسر ، في الثاني من ابريل ١٩٤١ . فقد لبس ثياب امراة واخذ عربة حملته الى دار الوزير الاميركي المفوض . ومن هناك توجهت سيارة الوزير الى مطار الحبانية (وكان قاعدة الطيران الملكي البريطاني) وهي تحمل الوزير وزوجه ، وكان الوصي يجلس على ارض السيارة بين قدميهما . وحملت احدى الطائرات الحربية البريطانية الوصي من الحبانية الى البصرة ، حيث لجأ الى دارعة بريطانية ترسو في الميناء . وكان معه بعض اعوانه (السعيد والمدفعي وجودت) وضباط انجليز من قلم الاستخبارات ، ومشايخ بدو (بزعامة محسن ابو طبيخ) جمعهم له صالح جبر ، وامراء واشراف من الاسرة المالكة . واخذ يحاول ، من هناك ، تحريض البدو والاكراد ضد الجيش . ولكن السلطات العراقية ضيقت عليه الخناق . فهرب الى القدس وعمان . وهناك وصف ممتع لهرب الوصي كتبه ضابط استخبارات بريطاني رافقه في معظم تنقلاته ، وكان صديقا شخصيا له . وقد دعاه عبد الاله فيما بعد للاقامة في قصره والكتابة عنه . فعاش في العراق مدة وكتب كتابي مدح ، واحدا عن الهاشميين والاخر عن

« اسرائيل » ! (٤) . .

اما الحكومة الجديدة فبدات اعمالها بتطهير البلاد من السياسيين التقليديين الذين عرفوا بمقاومة الاتجاهات الوطنية ومساندة العائلة المالكة والانجليز . واجتمع مجلسا النواب والاعيان في هذه الاثناء وبحثا قضية الوصي الهارب وخلعاه بالاجماع ، وانتخبا مكانه الشريف شرف ، في العاشر من ابريل ١٩٤١ . وكان الشريف المذكور من السائرين في ركاب الحركة الوطنية . وقد اشترك في الثورة العربية واعترف لورنس بشجاعته . وغضب الانجليز عليه منذ بدء الانتداب واضطهده الهاشميون (وبعد فشل الحركة الكيلانية نفي الى جنوب افريقية . وتابع ابناه خطاه ، في عهد تجدد الحركة القومية في الخمسينات ، وتعاونا مع الوطنيين فترة من الزمن) . وكان بعض الوطنيين قد فكر بالغاء الملكية واعلان الجمهورية . وتزعم ناجي شوكت هذا الاتجاه . الا ان الاغلبية ، بزعامة ناجي السويدي ، ارتأت التحفظ في الموضوع والحفاظ على الملكية بعد عزل عبد الاله .

مع هرب الوصي وعزله وتشكيل حكومة وطنية تتبنى الاهداف القومية التقليدية ، في ابريل ، بدأ التخطيط البريطاني الرسمي لاحتلال العراق عسكريا ولازالة الحكم الوطني واعادة الوصي واعوانه وفرض السياسة التي كانت تناسب بريطانية في ذلك الوقت العصيب . كانت بريطانية تمر في احرج ايام تاريخها الحديث : انسحبت قواتها من دنكرك واحتل الالمان كلا من الدنمرك والنروج وهولنده وبلجكة وفرنسة ويوجوسلافية، ثم هاجموا اليونان وطردوا القوات الحليفة في مايو ١٩٤١ وقفزوا من هناك الى جزيرة كريت واحتلوها في اسابيع قليلة . وفي شمال افريقية عبرت القوات الايطالية والالمانية ليبية واقتربت من طبرق وهددت مصر تهديدا مباشرا ، منذ ان عبر المرشال جرزياني الحدود المصرية ــ الليبية في خريف ١٩٤٠ . ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب لتسعف بريطانية . ولم يكن ويفل قد خلص الحبشة واريترية والصومال بعد . وكانت غارات القوات الايطالية على السودان وكينيه قد اشتدت . وكانت القوتان الالمانيتان الجوية والبحرية قد قضتا على قسم كبير من القوتين المماثلتين في بريطانية ، واخرها البارجة هد التي اغرقتها « بسمارك » في الرابع والعشرين من مايو ١٩٤١ .

---

(٤) وسف الكاتب المذكور ، جرلد دجوري ، هرب الوصي في كتابه :
Gerald De Gaury, Arabian Journey (London, 1950).
اما كتاباه الاخران فهما :
Three Kings in Baghdad (London, 1961).
The New State of Israel (London, 1952).

هددت هذه الضربات المتوالية مركز بريطانية في الشرق العربي ، منطقة النفط والفوائد الاستراتيجية . وخافت بريطانية على مصالحها اشد الخوف. خشيت الا يكتفي هتلر بوصول قواته وقوات ايطالية الى حدود مصر ، بل ان يطمع بغرب اسية العربية ، حيث ينابيع النفط الذي احتاج اليه كالبريطانيين. (وقد عانت المانية الكثير من قلة النفط: عجزت موارد فرنسة وبولندة ورومانية وهنجارية عن سد حاجتها التي بلغت ثلاثين مليون برميل في السنة . وكان الشرق الاوسط ينتج اربعة اضعاف هذه الكمية . اما بريطانية فكان ثلث النفط الذي تستهلكه يأتيها من الشرق الاوسط) . كما اناوروبة كانت لا تزال تؤمن بالنظرية الاستراتيجية التقليدية التي قال بها القدماء : وهي ان من يحكم الشرق يحكم اوربة . وكان هتلر متأثرا بشكل خاص باراء الجنرال الالماني فن هشفر الذي تبنى نظرية الجغرافي الالماني فردرك راتزل بان المتوسط يجب ان يصبح بحيرة المانية لتصبح اوربة قارة المانية . ومثلما اراد نبوليون ان يستولي على مصر ليسيطر على بريطانية ، فكر هتلر بالوصول الى غايته في قهر الجزر البريطانية عن طريق الشرق العربي . كما انه احتاج الى هذه المنطقة ليكون لنفسه قنطرة بين اوربة وشرق اسية ، ليتصل بواسطتها بحلفائه في اليابان وليحول جبهتي الشرق الاوسط والاقصى الى جبهة واحدة .

عن هذا التفكير العسكري السياسي شعرت بريطانية ان عليها ان تفتح في اسية العربية جبهة جديدة تحارب بها هتلر مباشرة ، فتنتزع منه زمام المبادرة في المنطقة ، وتحمي مصالحها الكثيرة ، وتحافظ على خطوط مواصلاتها مع الهند والشرق الاقصى ، وعلى السويس بشكل خاص ، وتتمسك بسيطرتها على البحر المتوسط على الرغم من سيطرة اعدائها على اقسام منه . لذلك اخذ العسكريون البريطانيون يرسمون الخطط للهجوم على العراق واحتلاله من قبل ان تنشب الازمة بين حكومتي الكيلاني وبريطانية بعدة اشهر . هذا هو الموضوع المهم الذي اريد ان اركز النظر عليه في هذه الصفحات ، والذي من اجله ساتوسع في الحديث عن الهجوم على العراق ربيع ١٩٤١ : **وهو ان احتلال العراق لم يكن نتيجة اتصالات زعم انالحكومة الوطنية اجرتها مع النازيين ، بل كان تطبيقا لخطة عسكرية سياسية ارادت بريطانية ان تحتفظ، بواسطتها بمصالحها وتثبت نفوذها في المنطقة، بعد ان هددت الحركة الوطنية تلك المصالح وذلك النفوذ م ن داخل الوطن العربي بينما هددها تقدم قوات المحور في اوربة واسية وافريقية من الخارج** . اما دور الازمة مع الكيلاني فكان ثانويا في الواقع ، وكان مجرد حجة تذرع الانجليز والهاشميون بها . فان بريطانية لم تشأ ان تخرق تعهداتها باحترام « استقلال » العراق خرقا علنيا صريحا ، فلجأت الى هذه الذريعة وتمسكت بها لتخفي حقيقة تعديها على بلد زعمت من قبل انها اعطته استقلاله تعديا لا يقبل به منطق ولا شرع .

واذ اتهم بريطانية بهذا الاعتداء السافر انما استمد شواهدي من مصادر بريطانية رسمية عن تاريخ الحرب الاخيرة .

يقول الميجير بليفير ان بريطانية اخذت تفكر بحماية مصالحها في العراق منذ اوائل ١٩٤٠ . ولما يقوله الكاتب العسكري المذكور اهمية خاصة لانه صاحب افضل مرجع رسمي عن منطقتي الشرق الاوسط والبحر المتوسط في الحرب الاخيرة . وقد صدر الكتاب عن الحكومة البريطانية ، وكتب بناء على تكليف رسمي منها ، في ستة اجزاء ضخمة .

يضيف الكاتب الى ذلك ان مشروع الهجوم على العراق واحتلاله اعد لينفذ في يونيو ١٩٤٠ ، غير ان الجنرال (الماريشال فيما بعد) ويفل ، القائد العام في الشرق الاوسط انذاك ، عارض المشروع خوفا من قيام رد فعل معاكس يثير القوميين العرب على المصالح البريطانية ويزيد تهديدهم لها دون ان تقوى القوات البريطانية على مجابهتهم اذ هي تعمل في جبهة طويلة تمتد من الهند الى صحراء ليبية . اضطرت السلطات الى النزول عند راي ويفل ونقلت القوات التي كانت قد اعدتها لاحتلال العراق الى السودان (٥) . والواقع ان ويفل ظل يمانع في مشروع الهجوم الى اخر لحظة . ودفع اخيرا جزاء موقفه اذ نقل الى الهند ، كتدبير عقابي ، بعد ثلاثة اسابيع من انتهاء احتلال العراق . الا ان مسؤولين اخرين لم يكونوا من راي ويفل ، والحوا في وجوب احتلال العراق ، مما حدا بالجنرال كسلز ان يضع خطة للاحتلال وهو بعد في الهند . ثم لما خلفه الجنرال (الماريشال فيما بعد) اكنلك كقائد عام في الهند ، فبراير ١٩٤١ ، تبنى تلك الخطة ، هو ونائب الملك في الهند اللورد لنلثجو ، وتباحثا بشأنها مع وزير شؤون الهند في الحكومة البريطانية في عدد من الرسائل التي نشرت فيما بعد . وتبادلا رسائل مماثلة مع ويفل . ووضعت خطة الاحتلال النهائية في مارس ، بعد مباحثات بين القاهرة ولندن وسملا في الهند . جرى ذلك كله قبل ان يؤلف الكيلاني حكومة الدفاع الوطني وقبل ان يعزل البرلمان الوصي . فضح هذه النية ورواها اكثر من مسؤول بريطاني بعد الحرب ، بينهم تشرتشل واكنلك (٦) . وجدير بالذكر ان اختلاف وجهتي النظر بين المسؤولين البريطانيين في كل من الهند (اكنلك) ومصر (ويفل) انما كان شبيها بالاختلاف الذي قام في الحرب الاولى بين

---

(5) Major General I.S.O. Playfair, the Mediterranean and Middle East (London, 1954 - 56) Vol. 1, P. 187, Vol. 2, P. 177 - 178.

(٦) راجع ، مثلا ، الكتابين التاليين :

Winston Churchill, The Second World War (London, 1948 - 54), Vol. 3, P. 229 - 231.

John Connell, Auchinleck (London, 1959), P. 186 - 233.

مدرستي الهند ومصر، مما جاء ذكره في كتاب «الهاشميون والثورة العربية الكبرى» . شددت القيادة في الهند على اهمية العراق للامبراطورية وعلى وجوب احتلاله عسكريا قبل اتخاذ اية خطوة اخرى . بينما لم تجد القيادة في مصر لذلك العمل حاجة ماسة،بل خافت ان يؤثر ذلك في العلاقات الودية بين العرب والانجليز . وكانت جماعة الهند تريد ان يتبع الهجوم العسكري حكم مباشر دائم،بينما ارتأى ويفل تأسيس حكومة وطنية تتعامل مع الانجليز . ولذلك اختارت الحكومة البريطانية حلا وسطا بين الرأين : وافقت على احتلال العراق وعلى اقامة حكومة وطنية بعد ذلك ، فارضت القيادتين في الهند ومصر .

مهد الانجليز للخطة العسكرية باتصالات سياسية اجروها مع الاتراك . زار وزير الخارجية ، السير انتني ايدن (اللورد افن فيما بعد) وبرفقته الجنرال (الماريشال فيما بعد) دل انقرة في الاسبوع الاخير من فبراير ١٩٤١ ثم اجتمعا ثانية مع سراج اوجلو ، وزير الخارجية التركية ، في قبرص ، بالسر، في اواسط مارس من تلك السنة . وقد حاول ايدن ان يقنع زميله بان تدخل تركية الحرب الى جانب الحلفاء بينما يحتل الانجليز العراق وسورية، وكمكافأة على ذلك تسمح بريطانية للقوات التركية بالاستيلاء على جزء كبير من شمال سورية . غير ان الاتراك لم يكونوا مستعدين للحرب وكانوا يخافون من القوات الالمانية التي اقتربت من حدودهم خاصة بعد احتلال اليونان وكريت . واكتفى اوجلو بالتعهد بان تتمسك بلاده بحيادها ولا تعارض استيلاء الانجليز على سورية والعراق .

لم يبق امام الانجليز ، بعد وضع الخطة ، الا نصب المصيدة . وكان ايدن قد مر بالقاهرة وهو في طريقه الى تركية واجتمع الى بعض اعوان نوري السعيد واتفق واياهم على اعداد تلك المصيدة : ان يطلب الانجليز من الحكومة العراقية ان تسمح لهم بانزال قواتهم في العراق ، حسب اتفاق ١٩٣٠ (وكان بين هؤلاء الاعوان توفيق السويدي الذي وصفه الجنرال دل في رسالة الى اكنلك بانه « ثعلب صغير قذر ») . غير ان حكومة الكيلاني الوطنية ، التي استلمت الطلب في ابريل ١٩٤١ ، لم تجد له مبررا ، اذ لم يكن العراق خاضعا لاي خطر من الخارج حسبما تنص الاتفاقية المذكورة . كانت الدول المجاورة له ، ايران وتركية والاتحاد السوفيتي، تقف على الحياد . وكانت المسافة بين القوات الالمانية وحدود العراق بعيدة . وكان الدليل على بعد الخطر المحوري ان بريطانية كانت قبل ايام تسعى لارسال قوات عراقية الى الجبهات البعيدة، مما يعني انها لم تجد خطرا قريبا من العراق نفسه .

فهمت حكومة الدفاع الوطني القصد من الطلب البريطاني : اذلالها امام الرأي العام واظهارها بمظهر الضعيف امام بريطانية ، او حملها على الرفض

ثم اسقاطها واحتلال البلاد . ولم تجد الحكومة بدا من رفض الطلب بالرغم من الحاجات السير كينن كورنولس المبعوث الدبلوماسي الجديد الذي ارسل الى العراق في الثاني من ابريل لهذا القصد . وكان كورنولس خبيرا بالشؤون العربية ، وقد خدم مستشارا عند فيصل ١٩٢١ — ١٩٢٤ . وكان ، كما يبدو من مذكرات اكنلك ، من دعاة التدخل العسكري المباشر .

كان رفض الطلب البريطاني ، وقد توقعه الذين قدموه ، الحجة التي تذرعوا بها لارسال قواتهم واحتلال العراق في شهر واحد . **ان بريطانية هي التي بدأت الحرب وليس العراقيون كما يظن اغلب الناس** . ولم يكن هناك برهان على وقوف المانية وراء موقف الحكومة الوطنية في العراق من الموضوع. ولم يكن في العراق سلاح الماني له قيمته ، وكانت نسبته الى السلاح البريطاني زهيدة . ولم يطلب العراق مساعدة رسمية من المانية . ذلك كله يكذب المزاعم التي نشرها البريطانيون والهاشميون بان هجومهم المشترك على العراق كان لتخليصه من النفوذ والخطر الالمانيين . ولعل افضل تكذيب لتلك المزاعم ما كتبه صلاح الدين الصباغ ، بطل تلك الاحداث . فهو يؤكد عدم رغبة الحركة الوطنية بمحاربة الانجليز بالرغم من العداء بينهم . بل انه يؤكد ان الحركة كانت على استعداد لمناصرة الحلفاء وحماية خطوط مواصلاتهم بشكل خاص لو ان بريطانية سمحت للجيش العراقي بحماية عروبة فلسطين وسورية ولو انها انها اعطت العراق استقلالا فعليا واحترمت ارادته . ويؤكد الصباغ في اكثر من مكان من مذكراته ان الحركة الوطنية ساوت ، من الناحية النظرية ، بين « النازية الالمانية ... والديموقراطية الانكليزية ... والبلشفية » ونظرت اليها كلها نظرة نفور واحدة (٧) .

قلت قبلا ان ويفل عارض مشروع الهجوم . ولكن اكنلك ، القائد العام في الهند ، احرجه وارسل فرقة هندية الى العراق وصلت الى البصرة في السابع من مايو ، بعد أن قبل الكيلاني بنزول فرقة اخرى في السابع عشر من ابريل حسما للنزاع ، شرط ان تكون الاولى والاخيرة . ولكن من قبل ذلك التاريخ ، اي قبل السابع من مايو ، بدأت الطائرات البريطانية تغير على تجمعات القوات العراقية من قواعدها في الحبانية حيث اقام الف جندي بريطاني . فعلت ذلك منذ الثاني من مايو ، بدون سابق انذار كما جرت العادة دوليا . يعلل الانجليز تنكرهم للقواعد المتبعة انهم خافوا ان يتهيأ العراقيون ان انذروا ويهاجموا القاعدة قبل ان تصل القوات الهندية الى البصرة ، وهو ، كما يبدو من العذر ، تبرير واه يجعل من حادثة الحبانية بيرل هاربر عربية لا يفرق بينها وبين زميلتها الاميركية في السابع من ديسمبر ١٩٤١ الا ان مجرمي

---

(٧) صلاح الدين الصباغ ، مذكرات ، ص ١٢ ، ٢٩ ، ٢٥٢ .

الحرب هناك حوكموا وجرموا بينما جلس زملاء المسؤولين عن الحادثة العربية بين قضاة مجرمي الحرب . ولم يكن ذلك الهجوم الغادر ابن ساعته . فقد تدربت عليه القوات في الحبانية مدة ثلاثة اسابيع ، كما يعترف بليفير (٨) .

تلقى قائد السلاح الجوي الملكي في الحبانية ، ماريشال الجو سمارت ، برقية من القيادة العليا تقول باقتضاب « اضرب بقسوة » . فبدأت طائراته تغير على القوات العراقية قرب الحبانية ، ثم على بغداد نفسها ، مما امكن الجنود البريطانيين في الحبانية ان يخرجوا من قواعدهم ويحتلوا ما حولهم من تحصينات ، في الخامس من الشهر . وكان معهم مئات من الجنود الاشوريين الاضافيين الذين دربهم الانجليز منذ الحرب الاولى على الحرب عند الحاجة ضد عرب العراق . وانحاز يهود بغداد الى جانب قوات الاحتلال ودعوا لها علنا . ففضب الشعب واضطر يهود كثيرون الى اللجوء الى دار السفارة البريطانية للاحتماء بها . وقد عبر الشعب عن غضبه عليهم ثانية بعد فشل الحركة الوطنية ، فهاجم حيهم في بغداد وادبهم . وانحاز الى جانب الانجليز ايضا عدد من الضباط العراقيين الموالين للقصر . كانوا يتصلون بالمسؤولين البريطانيين ويفشون لهم اسرار الدفاع العراقي . وكان غازي الداغستاني احدهم . وقد لمع اسمه في السنوات الاخيرة من العهد الهاشمي في العراق ، اذ اشرف على مشاريع التآمر على الحركة القومية في سورية والتعاون مع الفئات المشبوهة في لبنان .

اما الدور الاكبر داخل العراق في موالاة الانجليز والهاشميين فقد لعبه البدو ، وهم اصدقاء بريطانية في كل عهد وزمان ، باشراف عدد قليل من شيوخهم ممن كانوا يتلقون رواتب شهرية من السلطات البريطانية . واننا نقرأ وصفا حيا لاثر البدو والاقليات في الحملة البريطانية في كتاب وضعه احد ضباط الحملة . ويعبر الكتاب ، من جهة اخرى ، عن اهداف الحملة وعن الدوافع التي تحمل بريطانية على تأييد الهاشميين في كل مناسبة . ينهي المؤلف (وقد اصبح بعد الحرب نائبا في مجلس العموم) كتابه بقوله عن الملك فيصل الثاني ، وكان انذاك لا يزال طفلا « انه ورقة لعب قوية في ايدينا ... وليس هناك من سبب لان لا يكون صديقا وحليفا كبيرا لنا » (٩) .

اما الشعب فقد تضامن، بوجه عام، مع حكومته وجيشه . اضرب عمال البصرة عن العمل في الميناء عند مجيء الاسطول البريطاني . وهاجم اهل الرطبة منشآت شركة النفط . وحاصر اهل بغداد المنشآت الانجليزية وهددوا اعوان الانجليز . والتف ، بشكل خاص ، المثقفون ورجال الاحزاب المعارضة

---

(8) I.S.O. Playfair, The Mediterranean and Middle East, Vol. 2 Ch. 9.
(9) S. De Chair, The Golden Carpet (London, 1943), P. 116.

واللاجئون السياسيون حول الحكومة طيلة الشهر العصيب ، مايو ١٩٤١ . واصدر رجال الدين فتاوي دينية بمحاربة قوات الاحتلال . وآزر العرب في كياناتهم المختلفة اخوانهم في العراق ، وخاصة في كيانات المشرق ومصر . واعتبر الرأي العربي العام الاحتلال تعديا سافرا على بلد لا يريد الا الاستقلال ومحاولة جديدة لتحطيم أمنيتي الاستقلال والوحدة التي امل العرب ان يتزعم العراق حركة تحقيقهما . وللتعبير عن المشاعر الاخوية سارت العشرات من التظاهرات العفوية الشعبية في المدن العربية المختلفة تأييدا لشعب العراق . واعلن العشرات من السياسيين العرب المعروفين استنكارهم للاحتلال وموالاتهم للحكومة الوطنية في العراق (بينهم هاشم الاتاسي وعادل ارسلان واحسان الجابري ورياض الصلح وصبري العسلي وشكري القوتلي وعزيز المصري) . حتى عمان شهدت تظاهرة وطنية صاخبة لم تخف من تهديد الشرطة ، هتف الناس فيها ضد « العملاء » امام (الامير) عبدالله وتوفيق ابي الهدى اللذين اسرعا الى اعلان الاحكام العرفية خوفا من تطور الامور الى غير صالحهما . ويجد القارىء وصفا صادقا لصدى حركة العراق في العالم العربي في كتاب اصدرته الحكومة العراقية في ربيع ١٩٤١ بعنوان « الوثبة » .

اما الهاشميون فكان لهم رأي اخر في هذه الحركة يختلف عن موقف الشعب والحركة القومية في كل بلد عربي . وبينما نقل الملك الطفل ، فيصل، الى اربيل ، حمل الانجليز خاله الوصي الى القدس حيث اعلن انه سيعود الى بغداد حالما تقضي قوات الاحتلال على معارضيه . وبقي في القدس عدة اسابيع ، ضيفا على سلطات الانتداب ، بانتظار انتصار تلك القوات ، في فندق الملك داود الذي امتلأ « بفنانات » اقبلن للترفيه عن الامير المخلوع وصحبه . ووزع الانجليز الاموال والمناشير باسمه في العراق . وارغموا الناس ، بعد ان احتلوا عدة مدن ، على المطالبة به . ثم حملوه الى بغداد وادخلوه العاصمة تحت حراستهم ، وهو يحمل الة تصوير يلتقط بها صور جثث الشهداء من ابناء الشعب . اما عمه ، الامير عبدالله ، فابرق الى السلطات البريطانية يشكرها على عملها الذي « عبر عن روح المودة والتعاون بين العرب والانكليز » . والواقع انعبدالله قام بدور كبير في القضاء على العهد الوطني. اما الوصي فلم يكن له دور خاص ، كما رأينا آنفا ، لا في هربه في ثوب امرأة وجلوسه بين قدمي الوزير الاميركي وزوجه ، ولا عند عودته تحت حراسة الحراب البريطانية .

لقد مر بنا ان الاحتلال كان مقصودا ، وان تبريره بانقلاب الضباط الوطنيين كان مفتعلا . فلم يكن هناك مساعدات ولا مؤامرات المانية. اما العطف الشعبي على المحور (وكان موجودا في كل بلد عربي ، ولم ينحصر في العراق) فان السياسة البريطانية المعادية للعرب هي التي كانت تعززه وتذكيه . اما

الهاشميون الذين ايدوا الاحتلال البريطاني وامدوه بما لديهم من امكانات ودعوا اليه وباركوه فانهم فعلوا ذلك مختارين ، ومن تلقاء انفسهم ، ودون ان يتوافر لهم اي مبرر وطني او شعبي . كانت غايتهم الحد من التيار الوطني المنتشر من مصر الى الكويت ، وتطعيم النفوذ البريطاني المتداعي بدم جديد . كان ابطال هذا المسمى هم انفسهم « محررو » العرب من الاتراك وحملة امجاد القومية العربية ١٩١٦ ، ممن تحولوا بعد الثورة الى دعاة صداقة تقليديين بين العرب والانجليز ، واصحاب نظرية استدعاء القوات البريطانية كلما اشتد ساعد الشعب ، سواء حصل ذلك في العام ١٩٤١ ام في الخمسينات .

وقف عبدالله الى جانب الحلفاء منذ اللحظة الاولى ووالاهم دون قيد ولا شرط . « واعلن » الحرب على المانية منذ منتصف سبتمبر ١٩٣٩ اعلانا جعل مذيعي القسم العربي في اذاعة برلين يسخرون من الامير « الذي اقسم بان يدافع عن شرف بريطانية باخر نقطة دم في جسم اخر عبد من عبيده » . وكان عبدالله يتغزل بصداقته لبريطانية ويتباهى بانحيازه الى جانبها تغزل المستعربين الانجليز بتلك الصداقة واشادتهم بها في كتبهم . وقد قالت فريه ستارك في كتاب لها عن احداث العراق عنوانه « الشرق هو الغرب » ان عبدالله هو الرجل الذي لم يتوقف لحظة واحدة عن محبته للانجليز . وقال بيك ان عبدالله هو الامير الذي لم يلتو عن التعاون مع بريطانية في كل سنوات حكمه. وردد جلب وكركبرايد اراء مماثلة في هذا الحليف المزمن لبريطانية .

دعا عبدالله شعبه الى مشاركته في موالاة بريطانية وكان ينشر هذه الدعوة في خطبه في ذكرى الثورة العربية بنوع خاص . وحرص ان يعلم الناس انه لا يعلن الحرب ضد المحور بالاسم فقط . ولما ابرق الى الحكومة البريطانية يخبرها باعلانه الحرب ذكر انه يضع قوى بلاده العسكرية ومواردها تحت تصرفها ــ ولم يكن عدد جنوده ، بما فيهم من شرطة وجنود بادية ، يزيد على الف وثلاثمئة رجل ، مسلحين بسلاح خفيف فقط . غير ان بريطانية لم تحتج انذاك الى خدمات جيشه ، وهو على هذا الضعف ، واكتفت بشكر الامير على تبرعه بشعبه .

غير ان الامور تطورت بسرعة لغير صالح الانجليز ، خاصة بعد ان اعتدت قواتهم على العراق ودخلوه وكأنه مستعمرة وكأنه ليس عضوا في عصبة الامم ، مما انزل بسمعة بريطانية الى الحضيض . وكانت القوات البريطانية قد تقدمت بادىء الامر ببطوء بسبب المقاومة التي ابداها الجيش العراقي ، وقد خاض الضباط الاربعة القتال شخصيا . في هذا الوضع برز عبدالله كمنقذ للمشكلة : مسؤول عربي لا يكتفي بارسال جيشه لمساعدة الحلفاء في البلقان او اليونان ، بل يرسل جيشه الى بلد عربي مجاور ليحارب ثورته الوطنية

ويدعم الاحتلال البريطاني . كان لجيش عبدالله قيمة عسكرية في العراق من حيث خبرة الجنود العرب بالارض وبالنفسية العربية هناك . ولكن قيمته الكبرى كانت معنوية . فان اشتراكه في القتال ينفي عن بريطانية تهمة الاحتلال والغدر ، ويعطيها صفة الصديق المنقذ والحليف الذي يلبي الطلب .

لذلك ادلى عبدالله بدلوه في القضية . قدم مذكرة الى الجنرال السير هنري ولسن (الماريشال واللورد فيما بعد) يعطي فيها رايه بالحركة الوطنية في العراق ، فيستنكرها جدا ، ويطلب من بريطانية ، باسم العرب ، ان تتدخل وتضرب « الخونة » بيد من حديد . اما السبب فلان تلك الحركة ، كما يراها الامير الاردني ، « **فتنة نازية** » اجنبية الاهداف والدوافع لا علاقة لها باهداف الامة وامانيها ، بل هي تتمة لاعمال وفتن نازية انتشرت ايضا في الاردن وفلسطين وسورية ومصر ، على اكتاف وبواسطة حركات ((**هدامة**)) . اي ان عبدالله يدعو السلطات البريطانية لمكافحة الحركات الوطنية ، التي يتهمها بالنازية ، ليس في العراق فقط بل في الاردن وفلسطين وسورية ومصر ايضا. وهو يصر على ان تكون المكافحة « عملا سريعا » اذ لا يجوز تأجيله ، من اجل ((**القضاء على الخونة**)) في البلاد العربية ، وفي شرق الاردن بالذات حيث كان « الخونة » يحرضون الشعب ضده .

كتب عبدالله بيانا اخر اذاعه على الشعب ، ضمنه تلك الاراء ثم عرض فيه اسباب تأييده لبريطانية ، ورد على معارضي سياسته في البلاد ممن رفعوا صوتهم في تأييد حركة العراق الوطنية . وقد بلغ من قوة المعارضة لعبدالله ان طالب بعض السياسيين المحترفين باجراء مباحثات رسمية مع الالمان والتخلي عن بريطانية . غير ان عبدالله لم يكتف بالتأييد النظري للحلفاء بل امر بارسال جيشه الى العراق ليحارب مع القوات البريطانية ، بالرغم من عطف الرأي العام في شرق الاردن على ثائري العراق . كان الانجليز وراء هذا الاجراء ، لانهم كانوا في حاجة لجنود اخبر من جنودهم بالاتصال مع بدو العراق وتأليبهم على الاوضاع ، ولانهم اعتادوا ان يجعلوا الصفوف الامامية من الجنود غير البريطانيين ، ولانهم ، اخيرا ، ارادوا اظهار الحملة وكأنها اجراء ضروري يرضى عنه العرب ويشتركون به . اما عبدالله فقد طمع بأن يحصل في الحملة على ما حصل عليه اخوه فيصل في حملته مع لورنس في الحرب الاولى : سمعة عطرة في بريطانية ، ومكانة دولية ، وملك امل عبدالله ان يشمل سورية والعراق معا . لم يهمه ، ما دام هذا هو الهدف، ان هناك فارقا اساسيا بين الحرب الاولى والثانية ، وان الثورة الاولى قامت باسم القومية العربية ضد الاتراك بينما حملة اليوم تقوم ضد القومية العربية لمصلحة الانجليز . ولم يهمه ان تكون تلك الحملة اول حرب بين جيشين عربيين نظاميين من بعد تأسيس الكيانات خارج شبه الجزيرة في السنة ١٩٢٠ . **كانت الحملة، بالنسبة**

اليه ، عملا هاشميا خاصا ، هدفه دعم مركز العائلة في العراق ثم تحقيق امجاد اخرى له شخصيا . ولانه نظر الى الحملة من هذه الزاوية الضيقة كان شكره لجنوده عند عودتهم من العراق منتصرين على « واجب الطاعة والاخلاص للبيت الهاشمي » .

كانت المهمة الرئيسية للجيش الاردني في الحملة ، الى جانب مواجهة الجيش العراقي ، ان يؤلب البدو ويقضي على المعارضة الشعبية . وكانت الخطة ان يحتل الاردنيون محطة ح ٣ على خط نفط العراق ــ حيفا ، ثم الرطبة ، لتأمين خطوط نقل القوات البريطانية والهندية والصهيونية في سيرها نحو بغداد . وقد قام الجنود الاردنيون بالمهمة ، في حين ارسل اكنلك جنودا من الهند نزلوا في الحبانية من الجو وصمدوا فيها الى ان وصل الاردنيون واحتلوا المنطقة ، بينما تقدمت قوات هندية من البصرة الى بغداد. التقت هذه القوات معا على الطريق الى بغداد ، ودخلت العاصمة في اليوم الاخير من مايو ، لتمهد الطريق امام الوصي ليدخل العاصمة آمنا ، بينما هرب رجال العهد الوطني الى تركية وايران بعد ان فشلوا في حماية البلاد .

لم يكن جهد الجيش الاردني الذي قاده (الميجر) جلب بنفسه كبيرا من الناحية العسكرية ، لان الدفاع العراقي لم يكن مستعدا للقتال وكان قليل السلاح والذخيرة . ولكن اثر الحملة كان كبيرا من حيث المغزى الذي انطوت عليه : ليس فقط في ان عربا يحاربون عربا ، بل ايضا في قيام الجنود الاردنيين باعمال ارهابية ضد الشعب المسالم بلغت من القسوة والفظاعة ما لم يكن الشعب يتصوره ويصدق انه يحصل على ايدي جنود عرب . وقد استهدفت هذه المعاملة المواطنين العزل ، نساء واطفالا وعجائز . كان الجنود البدو الاردنيون يطلقون الرصاص على المواطنين دون التحقق من شخصياتهم،حسب ما ذكرهالوزير البريطاني المفوض كركبرايد في كتاب اهداه لعبدالله وسخره لمدحه بعد ان خدمه ورافقه ثلث قرن تقريبا (١٠) .

غير ان التهمة لا تلحق في الحقيقة الا بفيلق البادية ، وهو الفيلق الذي كان الهدف من تأسيسه في ١٩٣٠ مقاومة الحركات القومية في اي مكان تختاره بريطانية هدفا لغضبها . اما قوة الحدود ، وقد انشأها الانجليز قبل الحملة بخمس عشرة سنة ، وكان معظم افرادها من الفلسطينيين ، فقد عبرت عن روح وطنية اصيلة. عهد الى هذه القوة ان تشترك في الحملة ، مع قوا تالبادية لحماية حدود الاردن . فلبت الامر وسارت الى محطة ح ٣ واحتلتها . ولكن لما طلب منها ان تواصل الزحف لمقاتلة ابناء العراق رفضت

---

(10) Sir Alec kirkbride, A Crackle of Thorns (London, 1956) P. 134.

متابعة السير . كانت حجة ضباطها ، على حد تعبير قائد الحملة العام (الجنرال) ولسن « لا يوجد اي خصام بين الطرفين . انالانجليز يستخدمونهم لمحاربة غيرهم من اجل الانجليز » (١١) . اي ان رجال قوة الحدود رفضوا ان يحاربوا اخوانهم في العراق لمصلحة البريطانيين . بل انهم رفعوا السلاح في وجه الضباط الانجليز . كانت الحادثة لطمة لعبدالله وحلفائه حجبت الرقابة العسكرية خبرها عن المواطنين ، في حين اعيدت القوة الى شرق الاردن واعتقل ضباطها وسرح جنودها من الخدمة ـ وقد بلغ عددهم حوالي سبعمئة رجل . ولم تعد القيادة البريطانية تأمن لقوة الحدود ابدا . ولما اشرك الجيش الاردني باحتلال سورية في الشهر التالي لم تشرك قوة الحدود في القتال بل عهد لها بمنع التهريب بين سورية وتركية !

اما قوات البادية فكانت موالية للحلفاء، مما حدا بالعسكريين ان يمدحوها في تقاريرهم بينما سخطوا على قوة الحدود . وعلى رأس هؤلاء ولسن نفسه الذي يرجع الفرق بين موقف هاتين القوتين الى ان ضباط قوة الحدود كانوا من غير الاردنيين بينما كان ضباط البادية من شيوخ البدو وابنائهم .

اشتركت قوات (الامير) عبدالله في الحملة جنبا الى جنب المجندين اليهود الذين حاربوا مع الجيش البريطاني في الشرق الاوسط ، ومعظمهم من رجال العصابات الصهيونية السرية . وكانت قيادة تلك العصابات الارهابية قد تبرعت بارسال افرادها الى العراق لمساعدة البريطانيين في مد نفوذهم هناك ، من جهة ، وللحصول على اسلحة وتدريب عسكري لازمين لتحقيق الامل الصهيوني بالاستيلاء على فلسطين بعد الحرب ، من جهة ثانية ، ولضرب العناصر الوطنية في العراق التي سبق ان ساندت ثورة فلسطين العربية ودعت لتحريرها ، من جهة ثالثة ، ولتثبيت العرش الهاشمي الذي عرف بصداقته للحركة الصهيونية منذ ١٩١٨ كما بينا في اكثر من مكان سابق من الكتاب . والدليل على ان الصهيونيين حاربوا في العراق ، ثم في سورية ، من اجل هذه الاهداف ، انهم رفضوا ان يشتركوا في حملات اخرى ، في اوربة ، لما طلب منهم ذلك ، بشهادة ولسن نفسه (١٢) . وجدير بالذكر ان كمية كبيرة من السلاح والعتاد الذي استعمله الجيش الاردني في الحملة العراقية صنعه اليهود في فلسطين خصيصا لتلك المهمة .

هذه هي قصة الحملة البريطانية ـ اليهودية ـ الهاشمية على العراق . بدأت في اوائل مايو وانتهت في اواخره . ونتج عنها ان فشل الحكم الوطني

---

(11) Feild Marshal Lord Wilson, 8 Years Overseas (London, ?), P. 106.

(١٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٧٢ .

بعد شهرين فقط من اعلانه . واعيد الهاشميون الى السلطة بقوة جديدة صانتهم مدة سبعة عشر عاما . وتسلط الانجليز بشكل مباشر وشلت الحركة الوطنية . جرى ذلك بالرغم من نفور الشعب من الاحتلال الجديد . وقد عبر الشعب عن هذا النفور منذ ان دخلت قوات الاحتلال ، ومعها الوصي ، بغداد في اخر الشهر . وتعترف فريه ستارك التي كانت في بغداد انذاك ان الدعاوة البريطانية تكذب اذ تزعم ان الشعب هادن الاحتلال (١٣) . اما ابطال الحكم الوطني فقد شنق معظم الذين قبض عليهم في العراق او ايران او تركية وتشرد الباقون . ومنهم من ظل هاربا من العراق الى ١٩٥٨ . وقد حضر الوصي بنفسه اجراءات شنق بعض هؤلاء ، في مايو ١٩٤٢ ، وسمع احدهم، محمود سلمان، يهتف وهو يصعد على خشبة الاعدام : ان الامة تقوم على اجساد الشهداء ، على اجسادنا . وظلت المشانق تنصب مرة بعد اخرى ، كلما اعتقل الانجليز وطنيا هاربا جديدا ، الى ان حملت الدفعة الاخيرة بعد نهاية الحرب باشهر ، حينما صعد عليها صلاح الدين الصباغ في اكتوبر ١٩٤٥ . وقد سقط الى جانب هؤلاء حوالي خمسمئة مناضل في شهر مايو ١٩٤١ . وفي بعض المصادر الانجليزية ان عدة مئات من العراقيين قتلوا يوم دخول الحلفاء بغداد . كذلك سقط قتلى اخرون يوم دخول الوصي .

ضربت الحكومة الجديدة الحركات الوطنية بيد قاسية . حلت جميع الاحزاب والنوادي والمنظمات والجمعيات . واوقفت معظم الصحف . وانشأت معتقلات خاصة للاحرار ، في الكوت وفاو ، وضعت فيها الاف الشبان . وطردت المئات من المعلمين والموظفين واللاجئين الفلسطينيين والسوريين . وفرض الانجليز حكما احتلاليا مباشرا . وقد بقيت قواتهم في العراق الى يناير ١٩٤٨ . واعلن نوري السعيد الحرب على دول المحور الثلاث في يناير ١٩٤٣ . وسمح للانجليز بتحقيق طلباتهم : استعمال القواعد وطرق المواصلات واستغلال الموارد . ووضع مراقبون بريطانيون لتنفيذ الرقابة العسكرية على وسائل النقل والفكر والصحف والبرقيات ومنع الشعب من الاستماع لاذاعات المحور . واقصي الموظفون الاحرار عن اجهزة الحكم والادارة واعيد اليها المشبوهون وطنيا . وعادت الاوضاع الى الفساد الذي كانت عليه ، من تزوير في الانتخابات ، وتضييق على الحريات وامتهان للكرامات .

وتبرع نوري السعيد والوصي على العرش بارسال الجيش العراقي للقتال في شمال افريقية . لكن السلطات البريطانية رفضت العرض خوفا من ان ينقلب الجيش عليها . كذلك تبرع عبدالله بجيشه الاردني ليحارب في ليبية وتونس او في ايطالية او البلقان او بورمه . ورفضت السلطات

(13) Freya Stark, Dust in the Lion's Paw (London, 1961), P. 114.

البريطانية للسبب نفسه . وقد تألم الاميران الهاشميان لانهما لم يعطيا الفرصة للتعبير عن محبتهما للانجليز بواسطة المجازفة بارواح جنود البلدين .

واذ ارتاح الانجليز لانهم سيروا الامور حسب رغباتهم في العراق ، ثم في سورية ، اخذوا يحكمون الحلقة في الشرق الاوسط . فاحتلوا ايران وعزلوا الشاه في سبتمبر ١٩٤١ . وعقدوا اتفاقية مع تركية في اغسطس ١٩٤١ . وعقدوا معاهدة ثلاثية مع روسية وايران تضمن مصالحهم النفطية في يناير ١٩٤٢ . وسندوا وضعهم في مصر وفرضوا مصطفى النحاس على الحكم في فبراير ١٩٤٢ . وتمكنوا ، بعد هذه الاجراءات ، ان ينصرفوا الى جبهة شمال افريقية : فكوا الحصا ر الايطالي ، ودحروا رومل ، واصبحوا اسياد البحر المتوسط والشرق الاوسط ، معا ، من جديد .

صحب اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية تيقظ الوعي القومي في سورية ، مثلما حصل في العراق . وبينما تجمع احرار العرب ومندوبوهم في بغداد ، اواخر الثلاثينات واوائل الاربعينات ، واخذوا يديرون السياسة الخارجية للبلاد نحو وجهة قومية تستهدف تحرير العراق واخواته العربيات، اشتد ضغط الراي الوطني العام في سورية على حكومة الانتداب وطالب بالمزيد من حقوقه ، وخاصة تصديق المعاهدة التي صاغها قادة النضال الوطني ورفضت الحكومة الفرنسية قبولها ، والتي ضمنت لسورية خطوة كبيرة نحو الاستقلال .

وجدت السلطات الفرنسية في نشوب الحرب حجة لتعطيل نشاط الحركة الاستقلالية . فاعلن المندوب السامي ، بو ، الاحكام العرفية . وحل الاحزاب والجمعيات السياسية والثقافية . ومنع التجمع والتظاهر . واعتقل المئات من السياسيين المعارضين . واوقف الصحف الوطنية . وشدد الرقابة. واخذ يشجع رجال الدين على تعاطي الامور السياسية والادارية لسد الفراغ الوطني . وطارد من لجأ الى سورية من المناضلين الفلسطينيين حتى انتقلوا الى العراق . وحكم احكاما قاسية على قادة عصبة العمل القومي ، وكانت تمثل المعارضة المتطرفة . غير ان تلك الاجراءات التعسفية لم تخدم الغاية المطلوبة وعلى العكس ، اشتد الصراع اكثر مما سبق . وواجه الفرنسيون شعبا غاضبا بكامله وليس حفنة من القادة رموا في السجون .

شجع على نمو مطلب الاستقلال ان سقطت فرنسة ، وهي دولة الانتداب التي زعمت انها اسد هصور يحمي سورية من اعدائها ، سقطت امام القوات

الالمانية في صيف ١٩٤٠ سقوطا مخجلا دل على ضعف البلاد وانحلالها وعدم اهليتها لان تحمي نفسها ولا غيرها . قضى ذلك المصير على القليل من الاحترام الذي ربما كان لا يزال لفرنسة عند بعض العرب . واخذ السوريون يهزأون بالسلطات التي تحكمهم وبالعلم الاجنبي الذي يرتفع فوق ارضهم وهو لا يقوى على الظهور في باريز نفسها .

طرا على اوضاع الانتداب تطور قانوني دعم حجة السورين بالمطالبة بانهاء الانتداب وتحرير البلاد . وهو ان حكومة فيشي ، التي والت الالمان ، اعلنت انسحاب فرنسة من عصبة الامم في ربيع ١٩٤١ . لم يعد لفرنسة حق، بالتالي ، بالابقاء على انتداب اوكلتها به عصبة انسحبت هي منها ولم تعد تتقيد بتعليماتها ومبادئها . لذلك بدل الوطنيون السوريون سياستهم . لم يعودوا يطالبون بتنفيذ معاهدة ١٩٣٦ التي رفض الفرنسيون التصديق عليها من قبل ، بل اصبحوا يطالبون بالغاء الانتداب من اساسه بعد ان زالت المؤسسة التي اوجدته .

كان الالمان ، اثناء ذلك ، قد شقوا لانفسهم طريقا محترما الى نفوس المواطنين العرب . فاعلنوا ، في نصوص رسمية وفي منشورات عملت اجهزة الدعاوة على اذاعتها ، انهم يؤيدون تحرر العرب تحررا كاملا من اي استعمار اوربي . وتعهدوا بحماية هذا الاستقلال ومساعدة العرب على تحقيقه ، في عبارات اصرح واوضح واحزم من وعود الحلفاء في الحرب العالمية الاولى . كما انهم هاجموا الحكام الرجعيين الذين تعاونوا مع الانتداب وآزروا الزعماء الذين وضع الراي العام فيهم ثقته .

نقل الالمان وعودهم ، التي اتهمها البريطانيون بانها مجرد دعاوة فارغة، الى حيز الاعمال . اوفدوا رجالا الى المدن السورية واللبنانية ليساعدوا الشعب في الثورة على السلطات الحاكمة ، مع انها كانت تتبع حكومة فيشي حليفة النازيين وعميلتهم الى حد بعيد ، وليشجعوا الوطنيين على القيام بعمل ما يقضي على اخر معالم الانتداب . وقد اشرف على هذه المساعي بعثة رسمية تراسها كل من جورج فن هنتج وردلف راهن . وكان كلاهما خبيرا مشهورا بالشؤون العربية ومن تلامذة لورنس الالماني ، واسمس . واسست البعثة محطة اذاعة ، واستقدمت اشرطة سينمائية راجت كثيرا . واذاعت البعثة اخبار عداء المانية للصهيونية . واقامت علاقات متينة مع الحركات الشعبية.

كان صدى تلك المساعي ان تكتل السياسيون السوريون في حلقات حرضت الشعب على التمرد والاضراب عن العمل والمطالبة باطلاق الحريات. وقامت ، بفضل جهودها ، اكثر من انتفاضة محلية في شهري فبراير ومارس

١٩٤١ . واجبرت الحكومة التي كانت تتعامل مع الفرنسيين على الاستقالة في منتصف مارس . وعمت الاضرابات عدة مدن سورية غير العاصمة . وتألفت لجان محلية في كل مدينة لتنظيم الجهاد ، تتلقى توجيهاتها من مؤتمر شعبي عام ترأسه شكري القوتلي . وحاولت السلطات تهدئة الشعب فافرجت عن بعض المعتقلين والمحكومين لاسباب سياسية . ولكن الشعب استمر في العصيان . فنزلت القوات العسكرية الى الشوارع وقتلت العشرات واعتقلت الالاف ـ وقد جرى اعتقال الف ومئتي مواطن في يوم واحد . وحرصت السلطات على منع نشر اخبار هذه الانتفاضة في خارج البلاد ، كما ان السلطات البريطانية عملت على منعها ايضا حتى لا تنتقل الشرارة الى مناطق الاحتلال البريطاني .

انزعجت حكومة فيشي من هذه الاوضاع ، بطبيعة الحال ، وطلبت من الحكومة الالمانية سحب دعاتها من سورية ولبنان . وذهب دارلان بنفسه لمقابلة هتلر ومباحثته بالامر في ربيع ١٩٤١ . ولم يكن انزعاج الانجليز من تلك الاوضاع نفسها باقل من الانزعاج الفرنسي . ذلك ان نجاح الحركة الوطنية واستقلال سورية كان يعني ترسيخ ثقة العرب بالالمان اذ يتبين للمواطن العربي الفرق الملموس بين ما فعله الالمان في تحرير سورية وما زعمت بريطانية انها تريد تحقيقه منذ ربع قرن دون تنفيذ . ويعني تأسيس دولة سورية مستقلة تضامن حركتها الوطنية مع العراق في عهده الوطني تضامنا يزعزع المصالح البريطانية في الشرق الاوسط كله . وقد سبق لوطنيي البلدين ان تعاونا معا. ولم يشذ من السياسيين السوريين في تأييد حكومة الكيلاني الا بقايا جماعة الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، صديق الانجليز والهاشميين منذ الثلاثينات (مع انه كان من اوائل معارضي الحسين في الثورة) الذي اغتيل في يوليو ١٩٤٠ بسبب موقفه وجماعته السلبي من الحركات الوطنية في سورية. اما غالبية الشعب فقد استنكرت الاحتلال البريطاني للعراق . وتظاهر الاف المواطنين في دمشق ، في الاسبوع الاول من يونيو ١٩٤١ ، ورشقوا دار القنصلية البريطانية بالحجارة .

خاف البريطانيون ، من ناحية اخرى ، ان تحمل الثورة الوطنية ضد الحكم الفرنسي في سورية حكومة فرنسة الحرة (التي اسسها الجنرال دجول في افريقية) على التدخل العسكري في سورية ولبنان للاحتفاظ بهما. خافوا ان ينجح التدخل فيترسخ نفوذ فرنسة فيهما الى مدة طويلة بعد ان اشرف ذلك النفوذ على نهايته . وخافوا ان يفشل فيعلن الشعب استقلاله التام . اي ان اي تدخل ديجولي يجعل بريطانية خاسرة في الحالتين ، اذ ينغلق امامها باب التدخل في شؤون البلدين ، وتنفتح على مصالحها في البلدان المجاورة لهما ابواب كثيرة لا يسهل سدها . وكانت حكومة فرنسة الحرة قد

اخذت تفكر بارسال حملة ، لوحدها ، الى سورية ولبنان منذ صيف ١٩٤٠ للسيطرة عليهما وللتعويض عن خسائرها في افريقية ولتغطية فضيحة سقوط فرنسة . لكن الانجليز عارضوا المشروع بحجة انه غير عملي .

هذا مع ان الانجليز كانوا يفكرون ، في ذلك الوقت ، باحتلال البلدين ذاتيهما ، ليمنعوا تأسيس حكومة مستقلة تبعث امال العرب ، وليشلوا الحركة القومية التي عجز فرنسيو فيشي عن شلها ، وليقطعوا علاقات وطنيي سورية مع احرار العراق ، وليحموا ظهر مصالحهم في المنطقة ، وليستبقوا ، اخيرا ، « فرنسة الحرة » المنافسة لهم في اكثر من ميدان . وللتمهيد لهذا الاحتلال اتخذ البريطانيون سياسة شبيهة بسياستهم في الحرب الاولى : وعدوا العرب ووعدوا الفرنسيين بان احتلال سورية ولبنان هو لمصلحة كل من الجماعتين ، على ما بين مصالحهما من اختلاف وبعد وتناقض . زعموا للعرب انهم « سيحررون » البلدين من انتداب فيشي ونفوذ الالمان . وزعموا للفرنسيين الاحرار انهم سيحافظون على المصالح الفرنسية وسيبقون فرنسة في المنطقة .

اما المزاعم للعرب فقد حملتها بيانات اصدرها (السير) مايلز لامبسن السفير البريطاني في مصر (اللورد كلرن فيما بعد) : خاطبت البيانات العرب بلغة تودد ، واكدت ان الانتداب قد انتهى وان الشعب هو الذي سيقرر مصيره بنفسه . وكانت لهجتها شبيهة بلهجة عشرات البيانات الاخرى التي اعتاد البريطانيون ستر نواياهم بها كلما اقدموا على احتلال او هجوم . وفي الاسبوع عينه تحدث رئيس الحكومة في مجلس العموم (في العاشر من يونيو ١٩٤١) عن الحملة على سورية ولبنان . وقال ان هدف الحملة هو « سنفعل كل ما في وسعنا على استعادة حقوق فرنسة » . وقال تشرتشل في خطاب ثان في الموضوع نفسه ، القاه في مجلس العموم في التاسع من سبتمبر من تلك السنة « اننا نعترف بان لفرنسة ، من دون سائر الامم الاوربية ، امتيازا خاصا في سورية ، وبان نفوذها هناك يجب ان يقوى على نفوذ اية دولة اوربية اخرى ... اننا لم نذهب الى هناك لنحرم فرنسة من مركزها التاريخي في سورية » . وظل الرئيس البريطاني يؤكد على هذه السياسة الى الايام الاخيرة من حكومته . قال في خطاب القاه في مجلس العموم في السابع والعشرين من فبراير ١٩٤٥ عن نتائج رحلاته خارج البلاد « اننا مصممون على احترام استقلال هاتين الدولتين (سورية ولبنان) وعلى بذل جهودنا **لحفظ مركز خاص لفرنسة لان لفرنسة علاقات تاريخية وثقافية مع سورية** » (١٤) . كما ان وزير الدولة البريطاني في الشرق الاوسط ، الفر لتلتن (اللورد

---

(14) Parliamentary Debates, House of Commons, No. 372, 1941. P. 157 - 158 ; No. 374, 1941, P. 76

تشاندس فيما بعد) ، اعترف في رسائل متبادلة مع الجنرال دجول في اواخر يوليو واوائل اغسطس ١٩٤١ بان الحملة البريطانية تقصد دعم المركز الخاص لفرنسة في سورية ولبنان . واكد له ، باسم حكومته ، ان السيادة ستكون لفرنسة . وقد نشرت جريدة التايمز اللندنية نصوص هذه الرسائل في السادس عشر من اغسطس ١٩٤١ . وكانت المكاتبات بين الطرفين قد جرت بعد ان جاء القائد الفرنسي الى القاهرة غاضبا ، في العشرين من يوليو، وهو يتهم بريطانية « بسرقة » سورية ولبنان من فرنسة ، لانها ابرمت اتفاقية الهدنة مع حكومة فيشي لوحدها (في عكا ، في الرابع عشر من يوليو) ومنعت مندوب « فرنسة الحرة » من الاشتراك فيها ، مع ان الحملة ضمت جنودا فرنسيين .

صحيح ان ذكرا عابرا لاستقلال سورية ولبنان ورد في بعض هذه الخطب والتصريحات . ولكن اي استقلال هو ؟ انه ذاك الاستقلال الذي اعلنه كاترو في سورية في السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٤١ ، برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني صديق فرنسة وعدو الحركة الوطنية ، بعد ان رفض كاترو ان يمنح الشعب الحكم الذاتي الذي طالب به. وهو الاستقلال الذي اعلنه في لبنان ، في السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٤١ ، حينما نصب الفرد نقاش رئيسا للجمهورية ، بدون صلاحيات كثيرة . لقد تبنى البريطانيون هذين الاستقلالين واعترفوا بهما راسا مع انهما كانا مزيفين ، وبقيا كذلك مدة سنتين كاملتين ، اذ ظل البلدان بلا حكومتين نيابيتين ، وظل الحكم اداريا طارئا . وكانت جميع الامور بايدي سلطات الاحتلال : السياسة الخارجية ، قيادة الجيش وقوات الامن ، الشؤون المالية والادارية . لم يتحقق الاستقلال الصحيح الا حينما فرض الشعب نفسه وحمل ممثليه الحقيقيين الى سدة الحكم في النصف الثاني من ١٩٤٣ .

ارادت بريطانية ، في دعم المصالح الفرنسية مؤقتا وبشكل غامض ، تأليف جبهة تساندها ضد اية جبهة اخرى قد تقوم في عالم ما بعد الحرب ضد مصالحها في الخارج ، خاصة وان كلا من روسية والولايات المتحدة كان قد بدأ يهاجم الاتفاقات الثنائية بين دول الحلفاء ضد شعوب الشرق . اي ان بريطانية ارادت ان تستبق الاحداث وتضمن لنفسها حليفا ضد من قد يحاول ان يحرمها من نفوذها في الشرق الاوسط . ولكن لما رفض الفرنسيون ان يكتفوا بنفوذ بسيط فوق البلدين ، وعارضوا اعطاء النفوذ الحقيقي فيهما لبريطانية ، واصروا ان ينفردوا بالحكم وان تخرج القوات البريطانية ، عند ذاك حاولت بريطانية ان تستبق الاحداث مرة اخرى ، فاعادت لبس ثوب صديق العرب (ولعله كان مهلهلا من كثرة الاستعمال) واخذت تحرض اهل البلدين ضد « فرنسة الحرة » وتتعاون مع الاحزاب الوطنية التقليدية ، خاصة

املت بريطانية، من تلك المحاولة ، ان تكسب صداقة حكام البلدين الجدد ، وان تهزم منافستها وتسحق نفوذها ، وان ترضي الولايات المتحدة وروسية ، ثم ان تكافأ ، بعد ذلك كله ، بان تبقى قواتها في البلدين ويبقى معها نفوذها السياسي . ولكن البلدين خيبا املها . اصرا على طلب سحب القوات البريطانية والفرنسية معا . ورفعا شكوى ضد فرنسة وبريطانية الى مجلس الامن في فبراير ١٩٤٦ . فاضطرت بريطانية ان تنسحب ، وفرنسة معها ، في النصف الثاني من ذلك العام . وفشلت في ان ترث فرنسة بعد ان تحرقها مثلما فشلت قبلا في ان تشاركها الورثة قبل ان تحرقها . وجدير بالذكر ان ونستن تشرتشل ، وكان زعيما للمعارضة عند انسحاب قوات بلاده ، رفض ان يشارك المفوضية السورية في لندن احتفالها بيوم الجلاء في ابريل ١٩٤٦، لان الاحتفال بالجلاء، على حد قوله « ابعد من ان يوفي حق الجنود البريطانيين الذين كان وجودهم في سورية ضامنا لاستقلالها » . وكان تشرتشل نفسه، في ١٩٤٤ ، قد قاوم فكرة دعوة سورية الى هيئة الامم ، وكان في ١٩٤٣ قد حاول منع اعلانها الحرب على المحور ، مع انه ضغط على العراق من اجل هذا الاعلان ، وذلك ليحرم سورية من حق الاستقلال بعد الحرب .

نعود ، الان ، الى الاحتلال البريطاني لسورية ولبنان صيف ١٩٤١ . كان الوضع حرجا جدا لما توجهت القوات البريطانية والهندية والاردنية واليهودية لاحتلال العراق واعادة الوصي على العرش في مايو ١٩٤١ ، وخاصة في شرق المتوسط حيث سقطت اليونان وكريت واقترب الالمان من قبرص . وخشي الانجليز ان يبعث الالمان بقواتهم الى سورية من تركية فيهددون قبرص من جميع النواحي. كما ان هجوما كهذا كان لا بد ان يعزل تركية عن الحلفاء ويقودها الى موالاة المحور . لذلك نظر الانجليز الى سورية بحذر وطمع . فاوعزوا الى الاتراك بان يستولوا على الاقسام الشمالية منها الى حلب ، كما يعترف الكاتب العسكري المسؤول بليفير (١٥) . وزعموا للاتراك ان المانية تنوي احتلال سورية وان الفرصة تسنح الان امامهم لتحقيق رغباتهم القديمة في سورية قبل مجيء الالمان . ولكن الحكومة التركية خافت عاقبة الامر وترددت في التنفيذ . واكتفت بان امرت جيشها بالتأهب والتوجه نحو الحدود السورية . وكان الانجليز في هذه الاثناء قد انتهوا من احتلال العراق في اقل من شهر ، واصبح بامكانهم احتلال سورية بدون معونة تركية . وقد امن احتلال العراق جانبهم الشرقي. الا ان الحاجة ظلت للجنود غير البريطانيين لان السلطات العسكرية لم تستطع الاستغناء عن الجنود الهنود المحاربين

(15) I.S.O. Playfair, The Mediterranean and Middle East, Vol. 2 P. 204.

في جبهات اخرى لارسالهم الى الجبهة السورية ، وبريطانية ، كما نعلم ، لا تحارب بدون جنود غير بريطانيين في مقدمة جيشها . وبسبب قلة الجنود الهنود المتوافرين لقيادة الشرق الاوسط عارض ويفل فكرة الهجوم على سورية مرة اخرى .

مرة ثانية ، تبرع الهاشميون والصهيونيون بقواتهم . ارسل الصهيونيون مجموعة من الفدائيين تغلغلوا في اراضي سورية ولبنان قبل الهجوم الرسمي بايام ، ونسفوا الجسور والحصون ، وتجسسوا للانجليز . وكان على راس الفدائيين ضابط صغير عرف فيما بعد كرئيس لاركان حرب الجيش «الاسرائيلي» - موشي ديان . وقد فقد احدى عينيه في اعماله في سورية انذاك . اما عبدالله فضم بعض قواته الى الطابور الشرقي في الحملة . وقد تقدمت تلك القوات الى حوران وجبل الدروز واسهمت في احتلالهما . وتحركت قوات اردنية اخرى من العراق ، بقيادة جلب ، وهاجمت شمال شرق سورية ، واسهمت في احتلال اقضية دير الزور وتدمر وحمص ، وبقيت هناك ، بعد المعركة ، لتشرف على الامن ، بعد ان انسحبت فرقة الالوار الهندية . وشكل الاردنيون في الحملة جبهة رئيسية من الجبهات الاربع ، تحت قيادة (الجنرال) ولسن نفسه .

اثار دخول (الامير) عبدالله المعركة وانضمامه الى قوات الاحتلال المعادية استنكار الاوساط الوطنية ، كما حصل قبل شهر في العراق . نظرت تلك الاوساط الى الحملة كتجديد للاحتلال القديم ، واعتبرته محاولة استعمارية اخرى لتعطيل عجلة الزمن . بل انها رات فيه اخطارا لم ترها في القديم ، اذ كان الاحتلال القديم قد هرم وكاد يزول بزوال فرنسة نفسها . اما الجديد فانه كان بعد في ذروة شبابه وقوته ، وكان يحظى برضى دولتين كبيرتين . ثم ان قادة فرنسة الجديدة ، الحرة ، لم ينفوا تمسكهم « بحقوقهم » التقليدية في سورية ولبنان . كما ان تأييد الصهيونيين للاحتلال واسهامهم به كان كافيا لتوجيه الانظار نحو اخطار المؤامرة . لذلك استقبل السوريون قوات الاحتلال بالاستنكار عند دخولها دمشق صباح الثاني والعشرين من يوليو ١٩٤١ (وهو يوم هجوم هتلر على روسية) . ووقف عرب كثيرون في وجه الاحتلال ، ومنهم من قاومه ، كما حصل في منطقة الرقة . وعبثا حاول الانجليز والفرنسيون ، بمعونة عبدالله ، اظهار الحملة كعمل تحريري . لم ير الناس الخطر النازي الذي قال المحتلون الجدد بوجوده ، بل رأوا مكانه خطرا بريطانيا فرنسيا . ولم يكن من السهل اقناع المواطنين ، بعد ان خاب مسعاهم للاستقلال بمجيء المحتلين الجدد ، بان الاربعة الاف وسبعمئة قتيل وجريح حليف في معركة سورية انما قتلوا وجرحوا من اجل تحرير البلاد ، بدون طلب من الشعب ، وان لا مصلحة هناك للذين قاموا بالحملة وارسلوا هؤلاء

الشبان للقتل .

استنكرت الاوساط الوطنية موقف (الامير) ولكنها لم تستغربه . فلم تكن اول مرة يعادي الامير الهاشمي فيها التيار القومي لترسيخ النفوذ البريطاني في المنطقة . ولم تكن ، على اي حال ، اخر مرة .



الفصل الثامن

عبدالله ومؤامرة إنشاء "إسرائيل"

اقنعت السلطات البريطانية العرب واليهود في الحرب العالمية الثانية انها مضطرة الى وضع قضية فلسطين على الرف وضعا مؤقتا بانتظار نتيجة الصراع مع المحور . لكن ذلك التخدير لم يمنع الصهيونيين من درس المناهج للحصول على مبتغاهم في فلسطين ما بعد الحرب . وقد اختاروا منهجين رئيسيين : الافصاح العلني الرسمي عن رغبتهم في فلسطين كلها ، دفعة واحدة كما حصل في مؤتمر فندق بلتمر في نيويورك ربيع ١٩٤٢ ، وتدريب رجال الهاجانه والمنظمات السرية الاخرى على القتال في معسكرات الجيش البريطاني والجيش الاردني على حساب غيرهم .

اما العرب فقد قنعوا بالصبر والامل واركنوا الى الهدوء ، ان لم نقل الى الاستسلام . ولم يقوموا بعمل ايجابي كاف للحفاظ على عروبة فلسطين واستخلاص حقها . حتى تأسيس الجامعة الذي رأى المتفائلون فيها بادرة امل ، كان عملا اعتباطيا ناقصا ، عجز عن تحقيق الاماني القومية لانه لم ينعكس عن تلك الاماني انعكاسا صحيحا .

مع الحديث عن الجامعة العربية وقضية فلسطين ومشاريع التقسيم ، وهو حديث اشترك به العرب واليهود والبريطانيون ، شاع حديث اخر بدأت الالسنة تتناقله من بعد اجتماع تشرتشل وروزفلت وستالن في طهران ، بان الحكومة البريطانية تعد مشروعا جديدا لما بعد الحرب نالت له موافقة حليفتيها الكبيرتين ، وبان المشروع يقوم على فكرة التقسيم ويمنح اليهود مساحة اكبر مما وعدتهم به اللجنة الملكية في العام ١٩٣٧ . سينالون ، حسبما شاع ، غرب فلسطين كله . ولا يترك للقسم العربي ، الذي سيضم الى شرق الاردن، غير مثلث جنين ـ طولكرم ـ نابلس ، ومساحته ثمن مساحة فلسطين، وسكانه ربع مليون فقط .

مع ان رئيس الحكومة البريطانية كذب تلك الانباء ، واكد في مؤتمر يالته (فبراير ١٩٤٥) ان لا قرار بشأن فلسطين قبل انتهاء الحرب ، ترك حزب المحافظين الحكم والفكرة السائدة ان ذلك المشروع هو المخطط الذي اعده لفلسطين . وقد سبق لحكومة المحافظين ان تراجعت عن تعهدات الكتاب الابيض بمجرد ان زال خطر المحور المباشر في الشرق الاوسط بانتصار الجيش الثامن في العلمين اوائل ١٩٤٣ .

عارض العرب ذلك المشروع وهاجموه ، باستثناء (الامير) عبدالله الذي اشترك مع الصهيونيين في الترحيب به ، مع ان الصهيونيين تظاهروا في فترة من الوقت انه لا ينصفهم . ويروي الارهابي الصهيوني مناحيم بيجن ، زعيم عصابة الارجون ، ان موشي سنيه ، قائد الهاجانه فيما بعد ، اخبره

في اجتماع رسمي صيف ١٩٤٤ ان تشرتشل اعد مشروعا لتهويد فلسطين بالاتفاق مع امير شرق الاردن ، وان تشرتشل قال « **لقد قسمت فلسطين مرة. ساوحدها ثانية ثم اقسمها من جديد** » . وقد عنى بالتقسيم الاول ما حصل في ١٩٢١ حينما فصل تشرتشل شرق الاردن عن فلسطين واسس فيه امارة لعبدالله . ونقل سنيه لزميله بيجن ما قاله تشرتشل لوايزمن في اخر لقاء بينهما « تأكد انكم ستحصلون عند نهاية الحرب على اكبر نصيب من قرص الحلوى » . وقد فسر الزعيم الارهابي هذا النصيب بانه « فلسطين كلها باستثناء المثلث » . وقارن سنيه لزميله بين هذا المشروع ومشروع اخر كان مسؤولان بريطانيان في القاهرة (كيسي ومون) قد وضعاه لفلسطين ، وقد قسمها المشروع الى قسمين وضم القسم العربي منهما الى شرق الاردن لتقوم فيه نواة سورية الكبرى . الا ان الصهيونيين رفضوا ذلك المشروع لان نصيبهم في فلسطين كان اصغر من القسم العربي . وهددوا الحكومة المحافظة بالثورة ان عمدت الى تنفيذه بالقوة . لذلك قدم تشرتشل مشروعه الاخر ، الذي اعطى اليهود سبعة اثمان البلاد . فاعلنت الوكالة اليهودية والحركة الصهيونية العالمية والهاجانه انها تقف وراء هذا المشروع (١) .

ضاعت امال الصهيونيين وعبدالله بسقوط حزب المحافظين في ربيع ١٩٤٥ وانفراد حزب العمال بالحكم لاول مرة منذ سنوات . وضاع مع ذلك السقوط مشروع تشرتشل . غير ان تبدل الحزب الحاكم لم يكن نكبة على الصهيونيين بشكل من الاشكال . بل كان لمنفعتهم كما ظهر فيما بعد . فان حزب المحافظين ، على ما اداه للصهيونيين من خدمات في نصف قرن ، لم يكن قدقطع العهود التي قطعهاالحزب المنافس على نفسه بتأييد الحركة الصهيونية. كان حزب العمال لا يترك مناسبة دون ان يندد بالعرب وبحكوماتهم ويناصر الصهيونية علنا لسبب او لاخر . كانت الحجة ، في الثلاثينات، ان العرب « قوم رجعيون ومحافظون وانظمتهم اقطاعية » بينما اليهود « قوم تقدميون متحررون اشتراكيون » . وكانت الحجة ، في الاربعينات ، ان العرب نازيون فاشيون بينما اليهود اصدقاء للديموقراطية والحريات . وقد دعا الحزب الى اقامة الوطن القومي اليهودي منذ ١٩١٧ . وتزعم المعارضة ضد الكتاب الابيض في ١٩٣٩ . وداب على المطالبة بفتح ابواب فلسطين امام الهجرة اليهودية لاقامة الوطن القومي في احد عشر مؤتمرا سنويا عقده الحزب بين الحربين العالميتين . وكان بعض اقطاب الحزب يجاهر بموالاته للصهيونية . وكان عدد هؤلاء الاقطاب يزداد حتى تضمن البرنامج الانتخابي للحزب في ربيع ١٩٤٥ تعهدا رسميا بتنفيذ الاهداف الصهيونية . وسنرى ، بعد صفحات، كيف تعاقدت حكومة حزب العمال مع الهاشميين في ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨

(1) Manachem Begin, The Revolt (London, ?), P. 138 - 141.

مع انه من المفروض في هذا الحزب ان يكون اكثر مؤسسات بريطانية تقدمية بينما الهاشميون كانوامن اكثرالبيوتات العربية رجعية، تعاقدا اثبتان مصلحة بريطانية السياسية هي التي تملي على الحزب الحاكم سياسته، وليس عقيدته ونظراته الاجتماعية والفكرية ، بحيث تبدو سياسة كل من الحزبين الرئيسيين المتنازعين وكأنها تتمة لسياسة الحزب الاخر ، ويبدو على الاختلاف العقدي بينهما انه ينحصر في الجزيرة ولا يعبرها فوق المانش. هذا ما جعل الصهيونيين يرجون الخير بوصول العمال الى حكم بريطانية مع ان مشروع تشرتشل كان بارقة امل لهم ، اذ « **ان نجاح حزب العمال في الانتخابات عنى للملايين (من اليهود) دخول ارض الموعد** » كما كتب كنجسلي مارتن في كتابه عن هرلد لاسكي (٢) . فاعلنت الهاجانه في يوليو ١٩٤٦ توقفها عن اعمال العدوان على القوات البريطانية التي كانت قد شرعت بها منذ خريف ١٩٤٥ لاعطاء العمال فرصة للتفاهم معهم .

لم يكن غريبا ، اذن ، ان يبادر حزب العمال ، وقد استلم الحكم والعالم على ابواب عهد جديد في تاريخه السياسي والاقتصادي ، الى اتباع سياسة جديدة تجاه القضية الفلسطينية ، مستقلة تمام الاستقلال عن سياسة حزب المحافظين ، وان كانت تشبهها في نواح كثيرة .

انكب وزير الخارجية الجديد ، ارنست بفن ، على دراسة القضيـــة ومعالجتها من زواياها المختلفة ، في نصف السنة الاولى من عهده في الحكم . فوصل الى الاعتقاد بان الحل الافضل للقضية بالنسبة الى مصلحة بلاده هو نقل الحكم البريطاني من الانتداب الى الوصاية ، لينسجم ذلك مع مقتضيات تبدل الاوضاع الدولية وزوال عصبة الامم التي ابتدعت نظام الانتداب واشرفت عليه . وارتأى ايضا ان يشرك الولايات المتحدة ، الحليفة الكبرى والاغنى ، في تحمل مسؤوليات الغرب تجاه فلسطين ، وفي تحمل النفقات المالية واللوم المعنوي بوجه خاص ، وان ينقل القضية من وزارة المستعمرات حيث كانت منذ العشرينات الى وزارة الخارجية مباشرة . وحتى لا يترك للصهيونيين وحلفائهم الاميركيين خصوصا مجالا للشك بنياته ، اعلن بفن عن رغبته في تأليف لجنة انجلو اميركية لدرس القضية وتقديم مقترحاتها لعلها تساعد في الوصول الى حل يرضي الفرقاء كلهم .

احتج العرب على السياسة الجديدة . فهي ، اولا ، تلغي الكتاب الابيض، بعد ست سنوات من اصداره والزعم بالتمسك به ، وتعود بالقضية الى ما كانت عليه من قبل . وهي ثانيا ، تشرك الولايات المتحدة اشراكا اساسيا في

---

(2) Kingsley Martin, Harold Laski, P. 181.

تقرير مصير فلسطين ، مع انه سبق لحكومتها ولحزبيها الرئيسيين ولمصادر التوجيه ومنابر الرأي العام فيها ان تبنت كلها المطاليب الصهيونية بصراحة، خاصة بعد ان ارتقى ترومن سدة الرئاسة ، وقد عرف عنه تشيعه التام للصهيونية . وهي ، ثالثا ، تربط بين قضية فلسطين العربية وبين المشكلة اليهودية العالمية ، فتفتح الابواب امام الاف المهاجرين الجدد ، مما يزيد في تهديد مصالح العرب وكيانهم ، بحجة اضطهاد اليهود في اوربة . وهي ، رابعا، تطلب المزيد من الوقت لدرس القضية وكأنها بنت ساعتها ، وكأن لم تتألف من قبل سبع عشرة لجنة رسمية لتقوم بمهمة الدرس . اما الاحتجاج الخامس والاخير فكان لان الوصاية لم تكن تختلف عن الانتداب كثيرا ، بل كان الفرق بينهما في المدى البعيد شبه معدوم .

مع هذا كله استعد العرب لمجابهة اللجنة التي سميت « لجنة التحقيق الانجلو اميركية لمشاكل يهود اوربة وفلسطين ». وكان عبدالله اشد المتحمسين لا لعرض وجهة النظر العربية كما فعلت الحكومات والجامعة العربية وهيئات عرب فلسطين المختلفة ، بل ، وعلى العكس من ذلك ، لقطع الطريق عليها ، خوفا من ان تتعارض مقترحات اللجنة مع الوعود البريطانية السابقة لــه بتقسيم فلسطين واعطائه جزءا منها . وقد عزز مخاوفه ان الحكومة الاميركية التي كانت تتدخل بالقضية الفلسطينية رسميا لاول مرة لم تنظر الى مطاليبه بفلسطين بعين العطف والرضى التي نظر الانجليز بها ، خاصة لانها كانت على عتبة عهد صداقة وارتباط سياسي ومالي مع الحكومة السعودية ، الخصم التقليدي للهاشميين . لذلك استغل عبدالله وصول اللجنة واحيى مطالبته بمشروع سورية الكبرى وفرضه على حكومته وجعلها تتبناه كسياسة رسمية للاردن، وحرض انصاره في سورية ولبنان وفلسطين على الدعوة له وللمشروع خلال تجول اعضاء اللجنة في البلاد العربية . اضعف عمله هذا الجانب العربي وهو يواجه اللجنة المشتركة، واثار منازعات داخلية لم يكن من المستحسن ان تثار والعرب امام خصم يلبس ثوب قاض . واراد عبدالله ، في الوقت نفسه ، ان يستميل اللجنة الى جانبه ، ما دام هو المسؤول العربي الوحيد الذي يرضى بنصف فلسطين ، او باقل من نصفها ، ويترك الباقي للاغراب .

غير ان مساعي الامير الهاشمي كادت تذهب هباء . اسقطت اللجنة حكومة الاردن من حسابها ولم تقم لرأي اميرها وزنا كبيرا . لم تطالب توصياتها التي صدرت في العشرين من ابريل ١٩٤٦ ، بضم فلسطين او قسم منها لشرق الاردن ، بل دعت الى وضع فلسطين كلها تحت وصاية الامم المتحدة ، مثلما اوصت بالسماح بالهجرة بشكل عام ، ولمئة الف يهودي اوربي في اسرع وقت بشكل خاص . كما اوصت اللجنة بايقاف مفعول قرار منع بيع الاراضي الذي عمل به منذ صدور الكتاب الابيض . هذا مع ان انشط عضوين

في اللجنة ، كرم الاميركي وكرسمن البريطاني ، ايدا فكرة التقسيم وضم القسم العربي الى شرق الاردن ، لكنهما فشلا في اقناع اغلبية اللجنة برايهما.

خدمت تلك التوصيات القضية الصهيونية دون ان تقترح انشاء دولة يهودية . ولكنها لم تكن ما اراده حزب العمال . لذلك صرف الحزب النظر عنها ونبش فكرة الكنتنات القديمة التي كان وزير الداخلية ، هربرت مرسن (اللورد مرسن اف لامبث فيما بعد) قد احياها صيف ١٩٤٦ : وملخصها اقامة كنتنين (عربي يهودي) وقضائين تابعين لبريطانية مباشرة (في القدس والنقب) واعطاء كل كنتن سلطة تحديد عدد المهاجرين اليه . وقضى المشروع ايضا بجعل الحدود بين الكنتنين ادارية فقط ، وباقامة حكومة مركزية واحدة تشرف على العلاقات الخارجية والدفاع والجمارك والضرائب ، وبادخال مئة الف لاجيء يهودي راسا .

كشف هذا المشروع عن نية حزب العمال بالاحتفاظ بفلسطين ــ لم تظهر نية الانسحاب الا في صيف ١٩٤٧ . كما انه كشف عن استمرار عزم الحزب على تحميل الولايات المتحدة شيئا من المسؤولية ، وعلى دفن الكتاب الابيض نهائيا . مع هذا اشترك الصهيونيون والاميركيون مع العرب في رفض المشروع . رفضه الصهيونيون لانهم ارادوا دولة مستقلة تماما، وارادوا الجليل والساحل والقدس والنقب من صلب دولتهم . ورفضه الاميركيون لان المشروع يحتفظ بالوصاية في يد بريطانية لوحدها . ورفضه العرب لانه يسلخ رقعة من وطنهم ، ولانه يبقى الحكم بيد الانجليز ، ولانه يزيد من عدد اليهود في البلاد . ولان المشروع لم يضمن لعبدالله مصالحه التقليدية رفضه هو الاخر ، وكان ذلك من المرات القليلة جدا التي انسجمت فيها سياسة ملك الاردن مع الحركة الوطنية ، وان تنوعت الاسباب وتناقضت . لكن هاشميين اخرين عارضوا عبدالله والحركة الوطنية معا وايدوا المشروع : وهم هاشميو العراق. فقد كان نوري السعيد يقف وراء المشروع . وهو الذي وضع خطوطه العريضة واوحى به الى المسؤولين في لندن . لكنه عاد فاستنكر المشروع لما احرجته المعارضة الشعبية .

اضطرت حكومة العمال الى التخلي عن مشروعها الاتحادي . ودعت وزارة المستعمرات الى مؤتمر لبحث الموضوع في لندن . وقد انعقد المؤتمر في شهري اكتوبر ونوفمبر ١٩٤٦ ، وتراسه كلمنت اتلي (اللورد اتلي فيما بعد) بنفسه . وبينما رفض عرب فلسطين والوكالة اليهودية تلبية الدعوة ، قدم مندوبو الحكومات العربية مشروعا بتأسيس دولة فلسطينية مستقلة في مدى سنتين ، للعرب في حكومتها سبعة وزراء ، ولليهود ثلاثة ، وللحكومة صلاحيات تشريعية وتنفيذية . وقضى المشروع ايضا بايقاف الهجرة، وبانتخاب

مجلس تأسيسي يضع دستورا للبلاد ، وبحصر المواطنة بمن اقام في فلسطين عشر سنوات على الاقل . وبالطبع رفضت بريطانية المشروع لانه تعارض مع رغبتها في البقاء في فلسطين . وانتهى المؤتمر بالفشل .

حاول بفن في فبراير ١٩٤٧ محاولته الاخيرة ، فقدم مشروعا جديدا بادخال مئة الف مهاجر يهودي في سنتين ، ثم ترك امر الهجرة الى الامم المتحدة ، وباقامة حكومة موحدة من عدة مناطق لكل منها حكم ذاتي واسع الصلاحيات ، في خلال خمس سنوات ، ويكون تحديد هذه المناطق حسب ما جاء في مشروع مرسن . ولما رفض الطرفان المشروع قرر الوزير رفع القضية الى هيئة الامم ، في السابع عشر من ذلك الشهر لان بريطانية « لا تستطيع ان تفرض حلا نهائيا بالقوة لانها دولة منتدبة . لذلك اصبح من واجبها ان ترفع الامر الى الامم المتحدة » كما جاء في خطاب بفن . وقد اراد الوزير ، في تخليه عن تبعة تقرير مصير فلسطين ، ان يستبق الاحداث ، ويسلم تلك الهيئة الدولية القضية قبل ان تطالب هي بتسلمها ، وان تخرج بريطانية من فلسطين من تلقاء نفسها قبل ان ترغم على ذلك . لكنه كان ، في الوقت نفسه ، يبحث عن وسيلة لابقاء النفوذ البريطاني في المنطقة ان خرجت من فلسطين ، وسيلة تضمن استمرار حمايتها لمصالحها في السويس التي اخذ شعب مصر انذاك يطالب بشدة بالجلاء الفوري عنها .

وجد بفن الحل عند عبدالله ، صديق بريطانية الذي كان بفن قد رقاه من امير الى ملك في ١٩٤٦ ، متمما بذلك العمل الذي قام به تشرتشل قبل ربع قرن حينما اوجد له عرشا يغنيه عن البطالة واستجداء المناصب . وقد استغل عبدالله هذه الترقية فمهد لتوسيع رقعة المملكة عبر نهر الاردن باناسقط تعبير شرق الاردن من اسم مملكته وجعله « المملكة الاردنية » . ذلك ان قبول عبدالله بالتقسيم وتهاونه مع بفن على مصير فلسطين سهل على حكومة بريطانية العثور على ارض لقواتها في مكان قريب من السويس ، لحماية القواعد والمصالح البريطانية هناك وللانتقال اليها ان ارغمت القوات البريطانية من الخروج من مصر . وهكذا ، وبينما سارت قضية فلسطين في هيئة الامم من مرحلة الى اخرى في اقل من سنة ، دارت بين الانجليز والهاشميين مفاوضات ومباحثات لتأمين المصلحة العسكرية البريطانية بعد انهاء الانتداب عن فلسطين. ونتج عن هذين المجريين ، اخيرا ، تخطيط جديد يربط بين مصير فلسطين ومصير القوات والمصالح البريطانية ، ويجعل حل القضية في الامم المتحدة يتناسب مع نيات بريطانية واتفاقها مع عبدالله .

اجتمعت الهيئة العمومية للامم المتحدة لبحث قضية فلسطين في الثامن والعشرين من ابريل ١٩٤٧ . والفت بعد اسبوعين لجنة خاصة للنظر في

القضية اسمها « لجنة الامم المتحدة الخاصة لفلسطين » برئاسة القاضي السويدي سندستروم — وكانت هي اللجنة التاسعة عشرة في مدى سبع وعشرين سنة . وقد زارت فلسطين في صيف تلك السنة . ثم رفعت تقريرها الى الهيئة العامة في السادس والعشرين من سبتمبر ، فتدارسه المندوبون بسرعة وتبنوه مع تعديلات قليلة في التاسع والعشرين من الشهر ، باغلبية ثلاثة وثلاثين صوتا ، مقابل معارضة ثلاثة عشر وامتناع عشرة اصوات .

اوصى التقرير الذي تبناه ثمانية اعضاء وعارضه ثلاثة بانهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وباعلان استقلال البلاد مع تقسيمها سياسيا الى دولتين منفصلتين تمام الانفصال . اما الدولة اليهودية فتبلغ خمسة وخمسين في المئة من البلاد ، وتشمل الجليل والنقب ومعظم السهل الساحلي . **وكان اليهود لا يملكون الا خمس ارض هذه المنطقة** . اما الباقي فكان للعرب . وهو تقسيم شبيه بما طالب الصهيونيون به في مذكرة الوكالة اليهودية الى مؤتمر لندن في اغسطس ١٩٤٦ . لقد منحهم هذا التقسيم اكثر مما وعدهم به تقرير لجنة بيل الملكية .

كانت بريطانية، في هذا الوقت ، قد وصلت الى راي نهائي من حيث موقفها من القضية . فقررت القبول بقيام كيان يهودي مستقل في فلسطين ما دام ذلك لا يتعارض مع استمرار مصالحها في المنطقة بواسطة اتفاقها مع عبدالله في الحفاظ على تلك المصالح من وراء ضم القسم العربي الى مملكته الخاضعة لبريطانية مباشرة . لذلك اعلن وزير المستعمرات ، كرتش جونز ، رسميا (في العشرين من سبتمبر) ان بريطانية ستنهي الانتداب على فلسطين . وبعد ثمانين يوما حدد منتصف مايو موعدا لانهاء الانتداب . وبينما كان الوزير العمالي يعلن ذلك كان موظفوه في البلاد العربية يحرضون ممثليها المجتمعين في عاليه (خريف ١٩٤٧) على التدخل في فلسطين ومحاربة اليهود عسكريا اذا تبنت الامم المتحدة قرارات لجنة التحقيق . اوعز الانجليز الى ممثلي الحكومات العربية باتخاذ هذه السياسة الحازمة بواسطة مندوبي الاردن والعراق الذين كانوا يستشيرون الموظفين البريطانيين المحيطين بالمؤتمر . قصد الانجليز من ذلك ان يعطوا عبدالله مجالا لكي يبعث بجيشه الى فلسطين بعد ان تنسحب القوات البريطانية تحت ستار انقاذها حسب مقررات الجامعة ، ثم يحتل جيشه القسم العربي ويحمي القسم اليهودي ويحافظ عليه من الفدائيين الفلسطينيين الذين سيرفضون القبول بالامر الواقع . وكان الانجليز يعتقدون ان مصر لن تتدخل في الحرب فعليا ولن ترسل جيوشها الى داخل فلسطين (وكان رئيس الحكومة ، محمود فهمي النقراشي ، يؤكد ذلك في الاجتماعات السرية) . وكانوا يعلمون ان الجيش العراقي لن يحارب اليهود ان اوعز الانجليز الى الحكومة العراقية بمنعه من الحرب (وهو ما حصل

بالفعل) ، وان اليمن والسعودية لن يشتركا في القتال فعليا على نطاق واسع ، وان الجيش اللبناني لن يلعب دورا بارزا خارج منطقته الصغيرة نسبيا ، وان الجيش « الاسرائيلي » يستطيع ، والحالة هذه ، ان يتفرغ للجيش السوري، وهو الجيش العربي الوحيد الذي سيخوض القتال على نطاق واسع وبنية قومية وبقيادة سليمة، ويستطيع الجيش « الاسرائيلي » ايضا ان يوقف الجيش السوري عند حده . وهكذا يتحقق حلم عبدالله ويحصل على القسم العربي سلميا . ويتحقق حلم الصهيونيين وتقوم لهم دولة في فلسطين . وتحتفظ بريطانية بموطىء لقدميها في المنطقة .

لا بد من الاشارة الى بعض العوامل التي شجعت بريطانية على ان تتخلى عن فلسطين نهائيا ، بعد ان وضعت تلك الخطة الجهنمية . منها ان حزب العمال كان يئن من المصاريف التي تخسرها الحكومة على فلسطين ــ وكانت تبلغ خمسة وثلاثين مليون جنيه في السنة . ومنها عودة الارهابيين اليهود الى العنف ، واعتداءاتهم المتكررة على ارواح الجنود البريطانيين ، وتذمر الامهات البريطانيات من استمرار ذلك . ومنها محاولة كسب ود الولايات المتحدة حيث اشتدت الدعاوة الصهيونية ، وقد دخل الانجليز والاميركيون عهدا جديدا من التحالف ضد الخطر الشيوعي . ومنها رفع اسهم البيت الهاشمي بين العرب بعد ان سخر الرأي العام من « استقلال » الاردن ١٩٤٦ . ومنها ان مجلس الامن رفض طلب مصر في اواخر اغسطس ١٩٤٧ بالغاء معاهدة ١٩٣٦ بحيث ظل « يحق » للقوات البريطانية ان تبقى في مصر حتى ١٩٥٦ ، ولا حاجة لها بالتالي ان تبحث عن مكان اخر بدل مصر .

وقد كان من اثار الحرب العالمية الثانية في العلاقات الدولية وتاريخ العالم السياسي انها عزلت المانية عن مركز الصدارة ، ولو عزلا مؤقتا، وادخلت محلها قوتين جديدتين ، روسية على راس المعسكر الاشتراكي والولايات المتحدة على راس المعسكر الغربي الراسمالي . اهتم المؤرخون بهذين الاثرين حتى كادوا ينسون اثارا اخرى : منها خض الشعوب غير المستقلة لتنتبه لوجودها وتعي امانيها وتبعث مطاليبها باستقلال يليق بنضالها القديم وبحرية سياسية تليق بنضوج وتطور امكاناتها وباشراف شعبي وطني على الحكم والجيش والادارة . كان للحرب المذكورة اثر في هذا المجال شبيه باثار الحرب العالمية الاولى وبحروب نبوليون وبغيرها من الاحداث العالمية البارزة التي كان صداها البعيد في وعي الشعوب اقوى من نتائجها السياسية المباشرة .

لم تجهل بريطانية تطور الوعي العربي بعد الحرب . ولم تتجاهله . بل حاولت ان تطوقه باسلوب جديد يحفظ مصالحها دون ان يعاكس التيار ، مثلما حاولت من قبل ان تطوق الرغبات القومية بنظام الانتدابات الذي بطل

بالغاء عصبة الامم عند نشوب الحرب . تمثل الاسلوب الجديد في فكرتي الجامعة العربية والمعاهدات ، وقد قصد منهما التظاهر برعاية مطلبي الوحدة والاستقلال بينما يجري العمل سرا لتقويضهما. وسنعود ، في مكان اخر من الكتاب ، الى الكلام عن الجامعة العربية وظروف تأسيسها وغاياتها .

اما المعاهدات الجديدة فقد ارادت بريطانية ان تستبدل بها تلك المعاهدات القديمة التي خلفتها عهود الانتداب والاحتلال ، في مصر والعراق وشرق الاردن ، لتقطع طريق معارضيها المطالبين بالغاء المعاهدات القديمة ، بينما تحافظ في المعاهدات الجديدة على الكثير من معالم المعاهدات القديمة ومادتها، وان اختلفت النصوص كلاميا فقط . فقد وجدت بريطانية نفسها في موقف حرج : تجابه شعبا يطالب بالاستقلال التام ، من جهة ، وتجابه حاجة استعمارية ملحة تفرض عليها التمسك بمصالحها الى ابعد حد . وكان مطلب الاستقلال قد اشتد بنوع خاص في مصر . وضغط الصهيونيون على الحكومة البريطانية لتنهي الانتداب على فلسطين ولتؤسس دولة قومية لهم فيها . ولم يكن يبقى لبريطانية ، في حال زوال سلطانها عن مصر وفلسطين ، من مكان كاف لوضع جنودها واقامة قواعدها في الشرق الاوسط . فكانت قبرص اصغر من ان تفي بالحاجة . واشتدت الحاجة لتأمين تلك القواعد بتحول الحرب الدموية ، بين الحلفاء والمحور ، الى حرب باردة بين المعسكرين الشرقي والغربي ، وبوقوف بريطانية في المعسكر الثاني ، مما جعلها تبحث عن قواعد متوسطية قريبة من روسية ترد بها عن نفسها وتقفز منها الى عدوها عند الحاجة . وزاد في حراجة الموقف ان مصالح بريطانية وقواعدها في شبه القارة الهندية اخذت في الزوال والتصفية ، بحيث تضاعفت الحاجة الى الاحتفاظ بقواعد الامبراطورية في انحاء اخرى .

قاد ذلك كله المسؤولين البريطانيين الى تعديل الصفة الرسمية لمركز بلادهم في دولتي الهاشميين في الوطن العربي ، دون اجراء تعديل كبير في المركز ذاته . فاتفقوا مع (الامير) عبدالله في ١٩٤٦ على منحه استقلالا اسميا يحل محل الانتداب ، ثم على تحويل الامارة الى مملكة في ١٩٤٨ . وعقدوا معه معاهدتين من اجل هذا الفرض : وقع اولاهما بفن وابراهيم هاشم في لندن في الثاني والعشرين من مارس ١٩٤٦ ، ووقع ثانيهما توفيق ابو الهدى والك كركبرايد في عمان في الخامس عشر من مارس ١٩٤٨ . لم تخسر بريطانية في معاهدتي الصداقة شيئا كثيرا ، وان اصبح الاردن مملكة مستقلة تطالب بعضوية الامم المتحدة . فقد احتفظت بحقوقها وامتيازاتها : اقامة قواعد عسكرية في طول البلاد وعرضها ، ارسال الجنود الى البلاد ساعة تريد ، الاشراف التام على الجيش الاردني وتقييده بقيود كثيرة ، تأمين جزء كبير من ميزانية البلاد والاشراف على طرق صرفها اشرافا مباشرا لا يترك

للحكومة الاردنية حرية تقرير ميزانيتها .

استفادت بريطانية ، بهاتين المعاهدتين ، من نواح اخرى : نفت عن نفسها تهمة التمسك بالانظمة القديمة وعدم تطورها مع الزمن ، وبدت وكأنها لا تحتفظ باطماع استعمارية في المناطق التي عرفت بها منذ وقت طويل . وزعمت ان نظام الانتداب ، المعروف بانه استعمار مقنع ، كان وسيلة لتطوير البلاد الى ان يحين موعد استقلالها . وازداد تعلق الهاشميين بها وازداد ولاؤهم واستعدادهم لخدمتها . وقد حولت الامير فيهم الى ملك . وارضت غرور بعض سياسيي شرق الاردن ، واقنعتهم انهم اصبحوا بفضلها شخصيات دولية . وسعت لادخال الاردن هيئة الامم لتزداد الاصوات التي تؤيدها في الازمات . وتعزز مركز الاردن في الجامعة العربية لصالح بريطانية ، ولم يعد بالامكان اتهام عبدالله بانه موظف عند الانجليز وهو يطالب بضم سورية الى مملكته .

ان يكن هذا المخطط نجح في بعض المجالات فقد فشل في اقناع العرب بان الاردن قد تحرر بالفعل ، ما دامت سياسة البلاد الخارجية وجيشها وميزانيتها وادارتها العامة بيد الانجليز ، بصورة او باخرى . وعبرت الاوساط الوطنية ، في الاردن وخارجه ، عن معارضتها لهاتين المعاهدتين وعن سخريتها من الاستقلال المزور . حتى راي لبنان العام ، وهو اكثر الدول العربية تحفظا في علاقاته مع جيرانه ، لم يتأخر عن تسمية ذلك الاستقلال بالاحتلال . وجارت اغلبية دول العالم وجهة نظر العرب بالاستقلال المذكور ، فاقصت الاردن عن هيئة الامم عدة سنوات .

مع هذا طبقت بريطانية الاسلوب نفسه في العراق . زعمت انها تجاري راي العراقيين بوجوب الغاء معاهدة ١٩٣٠ الفيصلية وعقدت مكانها معاهدة ثانية ، بعد مباحثات استمرت سنتين تقريبا ، وقعت مبدئيا على ظهر السفينة فكتري الراسية في مياه بورت سماوث ، في الخامس عشر من يناير ١٩٤٨ . وكان نوري السعيد قد وضع صالح جبر ، معارضه الشيعي وزميله في التعاون مع الانجليز والهاشميين ، على راس الوفد المفاوض ليستميل الاوساط الشيعية المعارضة له وليحرق خصمه سياسيا . لكن الوصي على العرش اضطر الى الامتناع عن تصديق المعاهدة بعد ان اثبت الشعب وجوده وتظاهر ضدها عشرين يوما متواصلا ، وقد سار في بعض التظاهرات في بغداد اكثر من مئة الف مواطن في مواكب بلغ طول بعضها ستة اميال ، بدعوة من « لجنة التعاون » الوطنية التي ضمت، فيمن ضمت، حزبي الاستقلال والوطني الديموقراطي واليساريين .

عارض الشعب المعاهدة لانها ابقت الكثير مما كان في معاهدة ١٩٣٠ . ورآها امتدادا للمعاهدة القديمة ، ومؤامرة لتغليف النفوذ البريطاني بستار جديد . فقد اعطت المعاهدة الانجليز حق استعمال اكبر قاعدتين جويتين في العراق : الحبانية وشعيبة . وتعهد كل من البلدين الا يتبع سياسة تعارض البلد الاخر ، او تخلق له ظروفا صعبة ما . وتعهدا ان يساعدا بعضهما بعضا عند اشتراك اي منها بحرب ما . ونصت المعاهدة على تأسيس مجلس دفاع عسكري مشترك لتبادل وجهات النظر لحماية حدود البلدين وللاشراف على كافة الشؤون العسكرية . وفرض على العراق ان يدرب عسكرييه في بريطانية ، وان يستخدم خبراء بريطانيين في الجيش ، والا يتسلح الا من بريطانية . وسمح للسفن البريطانية بالمجيء الى شط العرب كلما ارادت . وربطت المعاهدة العراق ببريطانية مدة عشرين سنة .

اننا نرى في هذه المعاهدات الثلاث ، الاردنيتين والعراقية ، اصرارا هاشميا – بريطانيا على ابقاء العلائق القوية الخاصة بين الطرفين في قوالب تتعارض بين حين واخر مع مفاهيم الاستقلال ورغبات غالبية الشعب من بعد ان زال الانتداب واصبح لكل من العراق والاردن كيان مستقل بعض الاستقلال، ولو ظاهريا ، ومن بعد ان انضم كل منهما الى عدد من المؤسسات الدولية التي ضمت الدول المستقلة كل الاستقلال . وسنرى بعد قليل كيف كان لهذه المعاهدات علاقة مباشرة بتطورات القضية الفلسطينية بعد الحرب العالمية ، وكيف قصد منها تسهيل تنفيذ المخطط البريطاني – الهاشمي ١٩٤٧ – ١٩٤٨ لتقسيم فلسطين وتأسيس دولة صهيونية في الجزء الاخصب منها وضم الجزء العربي الى المملكة الاردنية ، وهو مخطط كتمه اصحابه خوفا من نقمة الشعب . وسنرى ايضا ان المعاهدات المذكورة كانت حلقات من سلسلة واحدة قصد بفن منها تكوين حلف في منطقة الشرق الاوسط يربط العرب بالمعسكر الغربي ويسخرهم للدفاع عن مصالح لا علاقة مباشرة لهم بها . وقد رفضت مصر ، ثم السعودية وسورية ولبنان ، فكرة الاحلاف انذاك ، ولم يبق امام بفن الا ان يقنع بالدولتين الهاشميتين .

ومهما يكن من امر فان المعاهدات الثلاث (حتى الثالثة التي لم تصدق) ضمنت استمرار العلاقات الهاشمية البريطانية بعد الحرب على ما كانت عليه قبل الحرب ، بحيث استمرت « الصداقة » التقليدية بين الطرفين ولم تنقطع بزوال حكومة ومجيء اخرى ، مما عنى ان كل هاشمي بقي ، بالرغم من كل التطورات الجذرية والاحداث المصيرية في العقد الاربعيني ، « انجليزيا اكثر من الانجليز » كما قال كرمت روزفلت ، لان « ما يريد الانجليز ان يحصل اصبح يحصل دون ان يأمروا » وذلك لان « الهاشميين اكثر الاسر العربية الحاكمة خضوعا للسيطرة الانجليزية » . وقد تنبأ الصحفي الاميركي المذكور

بالمصير الذي سيلقاه الهاشميون ان تخلى البريطانيون عنهم . « لولا حماية الانجليز لقتل عبد الاله والاخرون في ساعتين » (٣) . والواقع ان الصحافيين الاجانب كتبوا اكثر من غيرهم عما لاحظوه من خضوع الاردن التام لبريطانية بالرغم من اعلان الاستقلال . وقد روى احدهم انه لم يكن هناك من سبيل الى مقابلة الملك عبدالله الا بعد اخذ اذن من المسؤولين البريطانيين في عمان (٤) .

استعاض الانجليز عن معاهدة بورت سماوث الفاشلة بان وافق الهاشميون ونوري السعيد على وضع الجيش العراقي تحت اشراف بعثة تدريب بريطانية ، في ١٩٥١ . وقد تراس البعثة التي منعت الصحف من نشر اخبارها الميجر رولنفز . واستمر بواسطتها الاشراف التام على الجيش العراقي كما كان منذ تأسيسه في اعقاب الحرب الاولى . وكان الانجليز يهتمون منذ ذلك الحين بان يخضع جيشا البلدين الهاشميين لهم ليستفيدوا منهما وليضمنوا ولاءهما . وكانوا، لذلك، يتحكمون في كل امورهما : التدريب والتسليح والميزانية وتعيين الضباط وترقيتهم ورسم خطط الدفاع . كما انهم اشرفوا في الوقت نفسه على الشرطة في البلدين ، لضمان مراقبة الاوساط السياسية والاحزاب ، وخاصة معارضي النفوذ الاجنبي . وقد بلغت نسبة ميزانية الشرطة في البلدين الى الميزانية العامة ارقاما عالية . وكانت ميزانية الشرطة تفوق ميزانية المعارف او الصحة او الاشغال . اما خبراء الشرطة فكان معظمهم من العسكريين البريطانيين .

والحقيقة ان الخبراء البريطانيين كانوا في كل الحقول في البلدين المذكورين . كانوا ، في العراق ، بحجة الانتداب في العشرينات ، وبحجة الاستقلال في الثلاثينات ، وبحجة الحرب في الاربعينات ، ثم بحجة الاعمار والحماية من الشيوعية في الخمسينات . وكان الكبار منهم يحضرون اجتماعات الوزراء ويشتركون في تقرير الامور . اما في الاردن فقد استمر حضور الموظفين الانجليز جلسات مجالس الوزراء الى ان منع طلال ذلك . وكانوا يشتركون في المناقشات واتخاذ القرارات . وبرز بين البريطانيين في البلدين من كان حاكما حقيقيا من وراء الستار ، في مدى ثلث قرن : امثال كليتن وكورنولس وبرسكت وسندرسن وادمندز وهوتري في العراق وبيك وجلب ولاش وكركبرايد في الاردن .

لعل ابرز اثار النفوذ البريطاني في البلدين الهاشميين ابعادهما ، قدر المستطاع ، عن الدول العربية الاخرى ، مع العمل على تقويتهما كبلدين

(3) Kermit Roosevelt, Arabs, Oil and History (London, 1949), P. 102-103.
(4) Allan Michie, Retreat to Victory (London, 1942), P. 102.

منفصلين عن المجموعة العربية . اذ ان مصلحة بريطانية التقليدية كانت تتخذ لنفسها اسلوبا معينا في التقوية والاضعاف في آن واحد : تقوية البلد الصغير لتستفيد منه واضعافه حتى لا يتمرد . لذلك اغدق الانجليز المساعدات المالية على حكام العراق والاردن ليحافظوا على مصالحهم ومصالح الطبقة الحاكمة المتعاونة معهم وليضمنوا ولاء البلدين ضد المحور ثم ضد الشيوعية ثم ضد القومية العربية وليبقى البلدان قاعدتين كبيرتين لقواتهم ونفوذهم ، عسكريا وسياسيا ونفسيا . وفي الوقت نفسه حصروا الانتفاع من هذه المساعدات في طبقة معينة من السياسيين المحترفين وبعض شيوخ البدو وزعماء الاقليات وكبار ضباط الجيش الموالين . كما انهم اوسعوا الهوة بين الشعب والجيش . وجعلوا الجيش اداة في ايديهم ضد الحركات الوطنية ، واغروا ضباطه بالرتب والرواتب والخدمات والمنازل ليقبلوا تأدية المهمات البوليسية الارهابية في البلاد . ولم يتأخر الانجليز عن الاحسان على جيشي البلدين الهاشميين ليضمنوا مساعدتهما لهم عند الحاجة ، حاجة بريطانية بالطبع ، التي لم تخش ان يتمرد الجيشان عليها ما دامت قيادتهما في ايدي نفر من اصدقائها المخلصين لها . لهذا السبب بلغ اهتماع بريطانية بالجيش الاردني بوجه خاص ان حولت العسكرية فيه الى حرفة وصنعة واصبحت مؤسسته هي المؤسسة الرئيسية في البلاد ، لها الجزء الاكبر من الميزانية والامتيازات والسلطة ، طيلة عهد الملك عبدالله .

بحثنا من قبل عن المعاهدة التي عقدها ارنست بفن مع ابراهيم هاشم في مارس ١٩٤٦ ، التي اعلن عبدالله نفسه ملكا على اثرها (في مايو من تلك السنة) وسمى البلاد مملكة الاردن الهاشمية . قصد بفن من تلك الترقية أن يعفي عبدالله، ولو علنا فقط ، من تهمة الخضوع لبريطانية. وقصد ان يزيح عن الاردن صبغة الحكم الاجنبي فيسهل عليه السعي لبلع نصف فلسطين ولبنان ، وسورية . لكن تلك الحيلة لم تنطل على الكثيرين . ظل الاردن وملكه تابعين لبريطانية بالنسبة الى الراي العربي العام . بل ان الامم المتحدة نفسها رفضت الاعتراف بتلك التبديلات الشكلية. وذلك لان جيش البلاد وميزانيتها وسياستها الخارجية ، ذلك كله ظل بايدي المسؤولين البريطانيين بالرغم من اعلان الاستقلال . هذا ما دعا وزير الخارجية البريطاني ، وهو يسعى للبدء بتنفيذ مخططه لتصفية فلسطين في مطلع ١٩٤٨ ، ان يدفع عبدالله خطوة اخرى الى الامام ، وان يرقيه درجة استثنائية جديدة بان يلبس « استقلاله » ثوبا براقا جديدا ، لعله يصلح لدور البطولة الوهمي في الغد المجهول . فعقد بفن مع الاردن معاهدة جديدة في منتصف مارس ١٩٤٨ . وكان قد عقد معاهدة مماثلة مع العراق قبل شهرين ، لكن ضغط الشعب ارغم الوصي على العرش ان يتراجع ويرفض تصديق المعاهدة التي ابقت العراق قاعدة عسكرية لبريطانية . وكانت المعاهدتان ، الناجحة والفاشلة ، محاولة اخرى

من سلسلة المحاولات التي قام بها الانجليز لتقوية علاقاتهم بالعرب قبيل طعنهم من الخلف ، مثل رسائل ووعود مكمهن قبيل اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفر ، ومثل الكتاب الابيض قبل احتلال العراق وسورية ولبنان . لذلك يصح القول ان المعاهدات البريطانية الثلاث مع البلدين الهاشميين ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ انما كانت تمهيدا لتصفية قضية فلسطين تصفية لا تخدم الاماني العربية بأي وجه من الوجوه . وقد اطمع بفن بنجاح مشروعه ان امل العرب بتخليص فلسطين كان ملقى على كاهل مصر والعراق والاردن ، باعتبار هذه الكيانات الثلاثة الوحيدة بين الكيانات العربية ذات جيوش قوية . وقد كانت الكيانات الثلاثة تخضع للانجليز بصورة ما . اما سورية ولبنان فكانا لا يزالان حديثي العهد بالاستقلال وخاصة على الصعيد العسكري .

في هذا الجو بدأ بفن مباحثاته الرسمية مع الملك عبدالله لتنفيذ حل مشترك ، سري ، لقضية فلسطين ، حين يحين موعد انهاء الانتداب وحين يترك جلاء القوات البريطانية فراغا عسكريا وسياسيا . تولى المباحثات التي جرت في لندن في الاشهر الاولى من ١٩٤٨ رئيس الحكومة الاردنية ، توفيق ابو الهدى ، وبرفقته الجنرال جلب للترجمة بينه وبين بفن . وكان عبدالله قد اقال سمير الرفاعي من رئاسة الوزارة واستبدله بابي الهدى في اخر ديسمبر ١٩٤٧ لان الرفاعي وقف ضد انفراد الاردن بمشاورات خاصة مع بريطانية في معزل عن الدول العربية الاخرى . وكان بفن وعبدالله يتعمدان حجب تلك المشاورات عن انظار الحكومات العربية الاخرى . ووضع الملك ثقته الكاملة في ابي الهدى في تلك المهمة الخطيرة لان ابا الهدى شاركه رأيه بوجوب التفاهم السري مع الانجليز والصهيونيين . هذا دون ان يتردد الرجل عن الاعلان في برنامجه الوزاري ان مبادىء حكومته هي تطبيق السياسة « التي ينادي بها الشعب الاردني باسره فيما يتعلق بفلسطين العزيزة » . كان ابو الهدى يتظاهر بالعمل من اجل فلسطين لان شعب بلده هب للدفاع عن عروبة فلسطين واعد فرقة بلغ عدد افرادها في مايو ١٩٤٨ الفا ومئتي محارب ، وجمع التبرعات ودعا لنصرة البلد المنكوب ، لدرجة ان الحكومة تضايقت من احراجات الشعب لها وسجنت زعيم المعارضة ، سليمان النابلسي .

اننا نضطر ان نعتمد على ما كتبه جلب عن تلك المفاوضات السرية لانه الوحيد الذي نشر خبرها . اما ابو الهدى وبفن فلم يتركا ما يزيد علمنا في الموضوع (تاهت مذكرات اولهما بين ابنته وبعض الناشرين ، وكتمت مذكرات ثانيهما لتمر فترة كافية قبل السماح بنشرها) . وقد حضر جلب كل الاجتماعات التي عقدت بين الرجلين للتباحث في تطبيق قرار التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة ، وفي منع العرب ، عرب فلسطين واخوانهم في الكيانات المجاورة ، من التعدي على « اسرائيل » وفي طرق تنفيذ استيلاء القوات الاردنية على القسم العربي من فلسطين .

ينقل جلب ما قاله ابو الهدى لبفن ، وقد لقنه اياه ملكه في عمان : ان الانتداب البريطاني على وشك ان ينتهي . وسيحاول اليهود احتلال البلاد . وليس لدى عرب فلسطين زعامة صالحة لانقاذهم . لذلك فان نتيجة الحرب بين العرب واليهود ستكون واحدا من اثنين : اما ان يحتل اليهود فلسطين كلها ، او ان ينجح مفتي فلسطين في تخليص القسم العربي ويعين نفسه حاكما عليه . وكلا الاحتمالين لا يناسب بريطانية ولا يناسب الاردن .

كان هذا كلام ابي الهدى . وبعد ان هاجم زعماء فلسطين وحرض بفن ضدهم قدم الاقتراح الذي حمله اياه عبدالله : وهو **ان يدخل الجيش الاردني فلسطين عند انتهاء الانتداب ، بحجة حماية فلسطين كلها ومحاربة اسرائيل ، ويحتل القسم العربي ويضمه الى شرق الاردن ، دون ان يحارب اليهود بالمرة. وتعهد الرئيس الاردني لبفن بان ينفذ الاردن بالشروط الثلاثة التي وضعها الانجليز : الا يحتل الجيش الاردني غزة والجليل ، مع انهما من اطراف القسم العربي ، والا يعتدي الجيش المذكور على اليهود بأي شكل كان ، والا يحتل شبرا واحدا من القسم الذي اعطته الامم المتحدة لهم** (٥) . انتهت المفاوضات بهذه الاتفاقية . «وقمنا وسلمنا بحرارة . وخرجنا» كما قال جلب. والشعب، الشعب المناضل في فلسطين وخارجها ، يجهل ان ملك الاردن الهاشمي قد باعه بهذه السهولة وبهذا الرخص .

وليس لدينا اي دليل حاسم على اشتراك العراق بتلك المؤامرة السرية. **لكن من المعقول** ، ومن المحتمل جدا ، ان تكون الحكومتان البريطانية والاردنية، او احداهما على الاقل ، قد نقلت الخبر للعراق . مما يحملنا على الاعتقاد بحصول ذلك ، الى جانب وجود اتصالات وثيقة بين العراق والبلدين المذكورين هو ان تصرفات العراق تجاه قضية فلسطين كانت في ذلك الوقت منسجمة تمام الانسجام مع تصرفات الاردن . كما ان نوري السعيد اصدر كتيبا رسميا بعنوان « حقائق عن التطورات الاخيرة في العراق وفلسطين » زعم فيه ان هناك تدابير خاصة بين الحكومتين الهاشميتين والانجليز لصالح العرب ، وحاول ان يوهم مواطنيه بان الحكومة البريطانية تقف الى جانب العرب . ولعله اراد بذلك ان يمهد لاعلان اتفاقية بفن ــ ابي الهدى وان يدافع عنها في الوقت المناسب . وكان السعيد قد زار لندن مطولا في يناير ١٩٤٨ واجرى مع بفن مباحثات سرية حول مصير فلسطين ، على هامش مباحثاته بشأن المعاهدة البريطانية ــ العراقية . وجدير بالذكر ان احدى زوجتي السعيد كانت يهودية وان له ابنا منها « هاجر الى فلسطين مع مئات الالاف من اليهود وتجند فيها

---

(5) John Bagot Glubb, Soldier with the Arabs (London, 1957), P. 63 - 66.

وحارب مع جيش اسرائيل » بشهادة مؤرخ العائلة الهاشمية المتقرب منها ، جيمس مرس (٦) .

اجرى الملك عبدالله في الوقت الذي كان يفاوض فيه البريطانيين ، مباحثات مماثلة مع الحكومة الاميركية ومع الصهيونيين . وقد قصد ان يوضح لهم تفاهمه مع الانجليز ويتعهد بالتقيد بقرارات الامم المتحدة . وقد اوفد الى الولايات المتحدة عمر حسن صدقي الدجاني ليعرض على حكومتها رأي الاردن ومخططها لينال موافقتها واعترافها بالكيان الجديد في حال انشائه في مايو ١٩٤٨ . وكان قد سبق للدجاني ان اجرى مفاوضات مماثلة مع الصهيونيين في فلسطين بعد صدور قرار التقسيم باسم الملك . وحمل اليهم رغبة الملك في ان يعترف بدولتهم ان تخلوا له عن الجليل الغربي والقدس والمثلث . فوافقوا ، الا لانهم استثنوا القدس التي ارادوها عاصمة لدولتهم ، بينما اصر عبدالله عليها لان فيها قبر والده « كما قال . وقد اعترف الدجاني بهذه الوساطة لعارف العارف صاحب افضل تأريخ لنكبة ١٩٤٨ (٧) .

ثم نقل الجانبان المتفاوضان الموضوع الى صعيد رسمي اخر في ابريل ١٩٤٨ ، وقد قارب الانتداب على نهايته . فسافر شرتوك (شاريت فيما بعد)، احد كبار رجال المكتب السياسي في الوكالة اليهودية، الى جسر المجامع واجتمع مع عبدالله ، بالسر طبعا ، في مبنى مشروع روتنبيرج اليهودي . ولم يرافق الملك الا قاضي قضاته واحد كبار زلمه ، محمد امين الشنقيطي — وكانت له حظوة عند الملك . وليس لدينا تفاصيل ذلك الاجتماع الخاص . الا ان عبدالله التل ، وكان مقربا من الملك في ذلك الحين وكاتما لاسراره ، يقول ان الملك وشرتوك اتفقا على اتباع سياسة واحدة تجاه قرارات التقسيم : القبول بها وتنفيذها لمصلحة الفريقين (٨) .

والواقع ان ذلك الاجتماع الخطير كان تتمة لاجتماع سابق عقده الملك مع جولدا مايرسن (ماير الان) مديرة المكتب السياسي في الوكالة اليهودية، في المكان نفسه قبل خمسة اشهر (في منتصف نوفمبر ١٩٤٧) . ولم تكن قرارات التقسيم قد صدرت عن الامم المتحدة . وقد اخبر الملك مايرسن انه لن يحارب اليهود في حال صدور قرار بالتقسيم بل سيكتفي باحتلال القسم العربي . واتفق معها في ذلك الاجتماع على ان يجتمع معها ، او مع

---

(6) James Morris, The Hashemite Kings (London, 1959), P. 184.

(٧) عارف العارف — نكبة بيت المقدس (بيروت ، ١٩٥٦) ، جـ ١ ، ص ١٢٥ .

(٨) عبدالله التل ، كارثة فلسطين ، ص ٦٥ .

من ينوب عن الوكالة ، مرة اخرى بعد ان تصدر قرارات الامم المتحدة (٩) .

جرى ذلك كله بالسر . اما على الصعيد العلني فقد كان عبدالله يدلي بالتصريح تلو الاخر ، للصحف العربية والاجنبية ، عن عزمه الاكيد على تحرير فلسطين كلها من مغتصبيها الصهيونيين وتسليمها الى شعبها ليتولى تقرير مصيرها بحرية تامة . وكان ينفي اخبار اتصالاته مع الانجليز والصهيونيين بجراة غريبة . كان احيانا يقسم بابيه وبجده الرسول العربي على انه لن يخون الامانة . وكان يؤكد لزواره وفي احاديثه الصحفية والاذاعية ان ما ينشر عن مهادناته واتفاقاته ما هو الا دعاوة صهيونية كاذبة .

خدعت تلك التأكيدات العرب ، واجبروا انفسهم على تبديد الشكوك من اذهانهم . لكنها لم تخدع اليهود الذي عرفوا عبدالله صديقا وتأكدوا انه سيظل كذلك وسيوفي بتعهداته لهم . ويقول احدهم ، هري لفين ، في مذكراته عن مشكلة فلسطين في يوم السابع والعشرين من ابريل ١٩٤٨ ، وهو من الايام التي اعلن فيها عبدالله انه سيقاتل في فلسطين « ... واخيرا سنحت الفرصة امام عبدالله . يجب ان يحصل على قسم من المنطقة العربية. لا بد ان يتفق مع اليهود . انه ، منذ زمن ، يعترف لليهود بحقهم في البقاء بفلسطين . كان دائما اقل زعماء العرب عداء لهم ... » (١٠) اي ان الكاتب، وهو كاتب يهودي معروف ، فهم في تلك اللحظة عند سماع خبر اعتزام عبدالله على خوض المعركة انعبدالله سيحارب الى جانب اليهود ضد العرب، حسب الاتفاق بينه وبين الوكالة اليهودية والحكومتين البريطانية والاميركية . ويصف كاتب اخر ، اميركي ، رد فعل اذاعة الخبر نفسه بشكل ثان . « لم استطع ان امنع نفسي عن الضحك » . ضحك كرمت روزفلت عند سماع خبر عزم عبدالله على الحرب لانه كان يعلم ان عبدالله انما يريد ان يخدع شعبه لانه كان على اتصال مباشر بالصهيونيين (١١) . وجدير بالذكر انه حتى الثاني عشر من مايو كان اليهود مقتنعين ان عبدالله لن يحاربهم قط وان خطبه ضدهم ليست الا تمثيلا لالهاء الشعب . لم يبدلوا فكرتهم الا في ذلك النهار ، لما نقلت جولدا مايرسن الى الوكالة اليهودية نتائج مباحثاتها مع عبدالله في عمان في اليوم السابق (كما سنذكر بعد قليل) . عندها فقط اوعز مسؤولو الوكالة الى رجال الهاجانه بالاستعداد لمقاتلة الاردنيين .

الذي حال دون تحقيق هذا المشروع « السلمي » بين عبدالله وبفن والصهيونيين هو ، حسب راي الجنرال جلب ، موقف عرب فلسطين ونضالهم

(9) Zeef Shareef, Three Days (London, 1962), P. 72 - 76.
(10) Harry Levin, Jerusalem Embattled (London, 1950), P. 102.
(11) Kermit Roosevelt, Arabs, Oil, and History, P. 118 - 126.

ضد الصهيونيين وتمسكهم بحقوقهم، من جهة ، وموقف مصر ودخولها الحرب وضغطها على الجامعة العربية من جهة اخرى. ادى هذان العاملان الى استحالة تنفيذ المخطط الذي افترض انفراد الجيش الاردني في مظاهر عملية القتال الوهمي . ان صمود عرب فلسطين امام التعديات الصهيونية عدة اشهر ، وقرار حكومة مصر بخوض القتال ، اضطرا عبدالله ان ينكث بعهده ويأمر جيشه بان يحارب . يحاول جلب ، لذلك ، ان يدافع عن سيده ويعتذر عن خروجه على العهد . « **لقد فعل طاقته لان يتجنب الحرب . لكن الظروف الخارجة عن** ارادة الحكومة اضطرتنا ان نحارب : خاصة قرارات الحكومات الاخرى بالهجوم ومحاولة الاسرائيليين ان يحتلوا القدس » (١٢) .

حاول عبدالله نفسه ان يعتذر من الصهيونيين قبل ان يبدأ مخالفة اتفاقه معهم . فدعا جولدا مايرسن لزيارته في عمان ، وقد اصبح يخاف من الذهاب الى جسر المجامع والاجتماع مع الصهيونيين هناك . ولبت السيدة الصهيونية الدعوة وذهبت الى الاردن محجبة كامرأة مسلمة وقضت ليلتها في قصر الملك ، قبل ثلاثة ايام فقط من بدء حرب فلسطين . وقد رافقها عزرا دانن مستشار الوكالة للشؤون العربية . وكان عبدالله في ذلك النهار نفسه قد اجتمع بقادة القوات العربية في قاعدة الجيش الاردني في الزرقاء وتدارس واياهم خطة الهجوم على فلسطين « لتحريرها » . وكان الصهيونيون في ذلك الاسبوع قد بلغوا ذروة الوحشية في التنكيل بالنساء والاطفال العرب الامنين ليرغموا السكان على النزوح عن اراضيهم .

اعلم عبدالله ضيفيه انه مضطر ان يحارب اليهود ما دام جيشه لن يكون لوحده في الميدان . لكنه طمأنهما الى ان الحرب ستكون **شكلية** فقط : **لن يدخل جنوده ارض « اسرائيل » ولن يعتدوا على شبر واحد منها . وتعهد لهما بان يقف القتال الاسمي رأسا بعد انتهاء هذه الظروف الطارئة وبعد زوال ضغط الجامعة والحكومات العربية** . ومهما يكن من امر فان جيشه « لن يحتل الا تلك الاقسام التي عينها للعرب مشروع التقسيم الصادر عن الامم المتحدة » كما اكد الكاتب ادجر اوبلنس في كتاب له عن حرب فلسطين يحابي الصهيونيين والهاشميين معا (١٣) . وعلل عبدالله سبب حرصه على مصادقة الصهيونيين بان « لكلينا عدو واحد مشترك يعرقل مشاريعنا : المفتي» على حد قول كتاب اخر عن تلك الحرب (١٤). وقد جاء فيه وصف مفصل لذلك الاجتماع السري ، وكاتباه على اتصال وثيق بسلطات « اسرائيل » . الا ان المرجع الافضل حول الموضوع هو ما كتبه عضو الوكالة اليهودية الذي حضر

---

(12) John Bagot Glubb, Soldier with the Arabs, P. 133.
(13) Edgar O'Ballance, The Arab Israeli War, 1948 (London, ?), P. 79.
(14) John and David Kimche, Both Sides of the Hill (London, 1960), P. 60.

اجتماعا خاصا عقدته الوكالة في الثاني عشر من مايو للاستماع الى تقرير مايرسن عن رحلتها الى الاردن . وقد جاء في التقرير ان عبدالله اقترح على مفاوضيه الصهيونيين بان تستعيض الوكالة عن فكرة « اسرائيل » بمشروع اخر ينضم فيه كيانهم شبه المستقل الى مملكته الاردنية . ومقابل ذلك يصبح لهم نصف المقاعد الوزارية والنيابية . اما النصف الاخر ، العربي ، فقد تعهد عبدالله باقصاء العناصر الوطنية عنه (١٥) .

الواقع ان عبدالله حاول ان يقنع ضيفيه في بادىء الامر بان يؤجل الصهيونيون اعلان تأسيس دولتهم عدة اسابيع حتى تهدأ الحالة وتعود مصر عن قرار اشتراكها بالحرب ، وعندها يلجأ الطرفان الى تنفيذ اتفاقاتهما السابقة . غير ان عضوي الوكالة افهماه استحالة التراجع عن قرار اعلان مولد « اسرائيل » في الرابع عشر من مايو . وكان عبدالله قد ابرق ايضا الى الياهو ساسون يرجوه ان يضغط على الوكالة لترجيء الاعلان . ولكن ساسون اجابه باستحالة ذلك . وقد عرف عن عبدالله صداقته لساسون هذا، الذي كان يتولى ادارة الشؤون العربية في الوكالة (وقد اصبح فيما بعد سفير بلاده في سويسره) . ثم قام عبدالله ، في الثالث عشر من مايو ، بمحاولة اخيرة : كتب رسالة خاصة الى شرتوك من قاعدة المفرق (وقد زارها الملك الهاشمي لتفقد القوات العراقية التي استعدت لدخول فلسطين) ورجاه ان يتفاهم معه لتهدئة حماس العرب . اما سر عناد المسؤولين الصهيونيين وعدم اقتناعهم بوجهة نظر حليفهم الهاشمي فيعود الى اغراء البريطانيين لهم بعدم التراجع . كان البريطانيون انذاك اصبحوا يريدون ان تجري الحرب الصورية ما دام فاروق قد قرر الاشتراك بها وخيب ظنهم ، ليحطموا سمعة الجيش المصري ومعنوياته فيجدوا بذلك عذرا لابقاء قواتهم في السويس بحجة عجز مصر عن الدفاع عن القناة .

وهكذا فشلت محاولات الملك عبدالله المتكررة لتنفيذ اتفاقه السلمي مع اليهود . لكنه لم يفشل في الاحتفاظ برضى الصهيونيين وتفهمهم لوضعه الحرج . « لقد كنت قبلا لوحدي . اما الان فانا مجرد واحد من خمسة . لا اقدر الا ان احاربكم » . ثم تابع عبدالله مؤكدا لصديقيه الصهيونيين حبه واحترامه واعجابه. **((ان العناية الالهية اعادتكم الى الشرق الذي يحتاج اليكم. لن يتمكن الشرق من استعادة امجاده الا بمساعدتكم وارشادكم))** . لذلك لم يبدل الصهيونيون رأيهم الودي السابق به . بل عذروه ، وخافوا عليه ، وربما صلوا لاجله . استحلفه دانن ، وهو يخرج من الاجتماع ويستعد للعودة الى القدس لبدء القتال ، ان يزيد من الحراسة والا يعرض نفسه للخطر . وقد

---

(15) Zeef Sharef, Three Days, P. 72 - 76.

وصف احد اليهود هذه الصداقة الخاصة بين عبدالله والصهيونيين بانها « لم تكن من اجل اتمام صفقات سياسية معينة ، بل كانت تحقيقا لرغبة اصيلة عند عبدالله وعند جماعة المحيطين به » (١٦) . وصاحب هذا الراي هو الكاتب المعروف ارثر كوستلر . وقد بلغ من تطرفه في صهيونيته ان اتهم حكومة « اسرائيل » في ١٩٤٩ بالتساهل مع العرب حتى امرت تلك الحكومة بطرده من البلاد . وبعد سنوات قليلة كانت كتبه تجتاح الاردن ، اذ كانت بعض المصادر الاجنبية توزع ترجماتها الى العربية على طلاب المدارس ورواد المقاهي بالمجان لمحاربة « الشيوعية » بواسطتها .

ناضل عرب فلسطين ، في الشهر الاخير من ١٩٤٧ والاشهر الخمسة الاولى من ١٩٤٨ ، نضالا مشرفا ، بالرغم مما كان ينقص المناضلين من تدريب وسلاح وخبرة وزعامة واعية تصل الى مستوى مسؤولياتها ، وبالرغم من قوة عدوهم واستعداده وتنظيمه .

بدا النضال اثر اضراب للاحتجاج المعنوي مدة ثلاثة ايام ، تحمل شرف اعلانه عشرات الالاف من الشبان الفلسطينيين ، انضم اليهم ، بعد اسابيع ، اربعة الاف مجاهد عربي هرعوا لمساعدة اخوانهم في فلسطين . وقد قتل في الاشهر الثلاثة الاولى حوالي الف ومئة شخص ، اكثر من نصفهم من الشهداء العرب ، حسب احصاءات حكومة الانتداب . ومع هذا صمد العرب امام اعتداءات الهاجانه وزميلاتها الارهابيات ، ولم يتراجعوا ولم يتهربوا مع ان عدد القتلى تضاعف بعد ذلك ثلاث مرات ، وارتفع عدد الجرحى الى الف ومئتين في الشهر . لم يصمد عرب فلسطين طيلة الاشهر الستة فحسب بل انهم كانوا مصدر خطر يهدد العدو . لقد تغيب عن الاحتفال الخاص الذي قام به الصهيونيون في تل ابيب بعد ظهر الرابع عشر من مايو ، احتفاء بمولد « دولتهم » ، مندوبو يهود القدس وحيفا والجليل لان عرب فلسطين كانوا يحاصرون هذا المناطق ويقطعون طرق المواصلات .

اكبر العرب ذلك الجهاد بقدر ما خاف الملك عبدالله منه . كان استمراره ونجاحه يعنيان ، بالضرورة ، فشل الحلم الذي راوده منذ ربع قرن ، والذي جعلته قرارات الامم المتحدة واتفاقاته مع يفن شبه اكيد . وكانا يعنيان ، ايضا ، تزعزع مركزه داخل الاردن ، بقيام دولة عربية في جواره توقظ مشاعر الاردنيين الوطنية وتؤلبهم ضد الاستعمار والتجزئة والرجعية . هذا ما دعا عبدالله الى اتخاذ عدد من الاجراءات لتحطيم ذلك الجهاد المقدس واتقاء « اخطار » قيام فلسطين عربية حرة على طول حدود مملكته الصحراوية .

---

(16) Arthur Koestler, Promise and Fullfilment (London, 1949), P. 177.

بدأ عبدالله مساعيه بالضغط على الجامعة العربية لتخفف من الميزانية التي خصصتها لتنفيذ الجهاد الفلسطيني . وانصاعت له الجامعة ، المفككة الحائرة . وذهبت رحلات قادة الجهاد ال ىدمشق والقاهرة لاقناع مسؤولي الجامعة بمد يد العون عبثا ، وعلى راسها محاولات عبد القادر الحسيني الذي بلغ به اليأس والقرف ان قاد هجومه الانتحاري الشهير في القسطل ليلقى ربه شهيدا في المعركة ـ مسترشدا بما كان قد فعله ، قبله بحوالي ثلاثين سنة ، شهيد عربي قومي اخر : يوسف العظمه في ميسلون . فقد حاول العظمه في سورية التكفير عن تردد ملكها الهاشمي ، فيصل ، وتهاونه امام الفرنسيين، كما حاول الحسيني التكفير عن تردد ملك هاشمي اخر وتهاون امام البريطانيين والصهيونيين . وترك عرب فلسطين بسلاح قليل، بعضه فاسد عتيق ومعظمه قليل الذخيرة ، بينما كانت مصانع اليهود تنتج مئتي مدفع رشاش في اليوم الواحد ، الى جانب مئات البنادق وسائر الاسلحة ، والى جانب ما كانوا يتلقونه من الخارج من اسلحة ثقيلة .

اما الحجة التي تذرع عبدالله بها في منع السلاح عن عرب فلسطين فهي ان لا ضرورة لارسال السلاح لهم وتعريض حياتهم للخطر وتعريض السلاح للدمار او الفقدان ما دامت الجيوش العربية ستدخل فلسطين وتقوم بالدفاع عنها فـ يالموعد المعين . زعم انه افضل لفلسطين ان يحمل سلاح الدفاع عنها جنود مدربون وخبيرون بالقتال . وكان العراق اول من اقتنع بوجهة النظر هذه . فتوقف عن تزويد معسكرات التدريب في سورية بالسلاح الذي كان المناضلون في اشد الحاجة اليه . والواقع ان عبدالله اراد من عزل عرب فلسطين عن مهمة النضال في سبيل بلادهم ان يضمن لنفسه احتكار العمل ليحقق المخطط المتفق عليه مسبقا مع بفن والصهيونيين ، من جهة ، وليأمن خطر معارضة عرب فلسطين لذلك المخطط .

وشاغب عبدالله على القوات العربية المناضلة في فلسطين ، بواسطة اعوانه في البلاد . واخذ ينشر الشائعات ضدها وضد قياداتها ويحرض الراي العام عليها ويطلب من الموطنين الا يفعلوا شيئا بانتظار تدخل الجيش الاردني الذي سينقذ البلاد بايام معدودة . واخذت الصحف الموالية له تنشر المقالات التي تثبط عزائم الفلسطينيين وتثيرهم على المجاهدين ، ومن بينها صحف للحزب السوري القومي في لبنان . وفي الوقت نفسه منع عبدالله جنود جيش الانقاذ ، الذي ارسلته اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية الى فلسطين في يناير ١٩٤٨ ، من عبور الاراضي الاردنية في طريقه الـى الجبهة من معسكر قطنة في سورية ـ مع ان عبدالله كان هو صاحب الراي بعدم اشراك الفلسطينيين في القتال وبالاستعاضة عنهم بعرب من خارج فلسطين . ولم يتراجع ويسمح لهم بالعبور الا بعد ضغط والحاح شديدين

وبعد ان وعدته قيادة الجيش بالا يذهب اولئك الجنود الا الى المناطق العربية من فلسطين حسب مشروع التقسيم والا يدخلوا القدس ابدا . ويقول جلب في مذكراته ان عبدالله كان ينوي اعتقال جنود الانقاذ عند مرورهم بالاردن ولكنه خاف من رد الفعل الشعبي .

وسكت عبدالله عن نزوح عدد من الفلسطينيين عن ديارهم الى البلدان العربية المجاورة بعد ان ارهبتهم المجازر الصهيونية في بعض المدن والقرى وبعد ان اجلاهم الصهيونيون بقوة السلاح . كان قصد العدو من ارهاب العرب وتهجيرهم اخلاء المناطق التي وعدوا انفسهم بها كجزء من «اسرائيل». وقد تحمل العرب الاضطهادات وصمدوا في ديارهم . ولم ينزح الا نسبة ضئيلة . الا ان الوحشية الصهيونية اضطرت عشرات الالاف من السكان الامنين الى الهجرة في الشهر الاخير من تلك الفترة العصيبة . ومع ان الصهيونيين هم المسؤولون في الدرجة الاولى عن هذا النزوح الجبري القاسي لشعب باكمله لم يسهم عبدالله في منعه مثلما اسهمت الهيئة العربية العليا والمؤسسات الفلسطينية الاخرى اسهاما فشل في اخر الامر ، خاصة ان مسؤولي الاردن علموا ، من قبل حصول عملية التهجير واسعة النطاق ، ان الصهيونيين يعدون خطة لاخلاء فلسطين من سكانها ، منذ ديسمبر ١٩٤٧ ، باعتراف الجنرال جلب نفسه . وقد افاد عبدالله من النزوح بان حصلت بلبلة في اوساط الشعب وتزعزعت ثقة المواطنين بقياداتهم وضعف الجهاد العربي الفلسطيني وحصل في البلاد فراغ سهل على عبدالله سده . وقد حدث ان ارسل قائد جيش الانقاذ في الجليل الى عبدالله يطلب مساعدة عسكرية لما هاجم الصهيونيون طبرية في ابريل ١٩٤٨ ليعود الى المدينة ويمنع سقوطها فارسل له عبدالله وضباطه البريطانيون سيارات شحن لاجلاء السكان . وهو ما حصل في يافا في الشهر التالي .

ومنع عبدالله جيشه الذي كانت بعض حامياته تقيم في فلسطين من قبل منتصف مايو ان يعين عرب فلسطين . وهدد الضباط المتحمسين بالنقل وبالعقاب ان استمروا في محاولاتهم للتدخل بالرغم من تحذيرات الضباط البريطانيين . لذلك امتنع الجيش الاردني عن الاشتراك بالمعارك التي دار رحاها في الاشهر الاربعة والنصف الاولى من ذلك العام . وما تزعمه المصادر الصهيونية عكس ذلك انما هو كذب . اما الذين حاربوا بالفعل فهم من مجندي قوة الحدود التي حلها الانجليز قبل ذلك التاريخ ، او من الجنود السابقين في الجيش الاردني ممن طردهم جلب لسبب او لاخر (لسبب وطني في معظم الاحيان) . كان افراد القوات الاردنية يشاهدون الصهيونيين يعتدون على اخوانهم ويحتلون المنطقة تلو الاخرى ولا يستطيعون عمل شيء خوفا من الملك والقيادة . وكان جلب يتذرع بحجة تفقد الحاميات الاردنية ويتجول في

فلسطين ويدعو السكان لمبايعة عبدالله ملكا والخروج على زعمائهم . وكان يعدهم بالمال والمناصب ، وبتحرير فلسطين ، اذ هم فعلوا ذلك .

ذلك ان عبدالله استمر يخدع المواطنين ويكتم عنهم اتفاقه مع الصهيونيين، ويدعي انه مصمم على خوض معركة الانقاذ. وقد خطب في وفد من زعماء فلسطين زاره في قصره بعمان ، في الرابع والعشرين من ابريل ، ليناشده ان لا يتخلى عن بلادهم ، فقال « اذا قبل العراق وقبلت الدول العربية الاخرى خوض معركة فلسين خضناها . **وانا بحول الله لقادرون على طرد اليهود في مدة لا تزيد على عشرة ايام** . واما اذا اعتذرت هذه الدول بحجة الالتزامات التي تربطها بهيئة الامم **فاني مستعد لخوض المعركة وحدي مستعينا بالله عز وجل . فاما نصر واما استشهاد ...** » . يقول عارف العارف ، الذي روى تفاصيل تلك المقابلة ، ان عيني عبدالله كانتا « تذرفان الدمع . فلم يشك احد من رجال الوفد في صدق ما قاله . ولشد ما ذهلوا عندما اتاهم بعد قليل نبأ يقول ان الملك اجتمع في ١٢ نيسان (ابريل) باثنين من زعماء اليهود في غور المجامع واتفق معهما على قبول قرار التقسيم ، ثم عاد فاجتمع في منزل محمد الضباطي مدير الخاصة الملكية بعمان بالسيدة غولدا مايرسون واتفقا على ان يقف الجيش الاردني والعراقي عند الحدود التي رسمها قرار التقسيم » (١٧) .

بسبب هذه الاجراءات التي قام ملك الاردن بها تطورت الاوضاع من سيء الى اسوأ . وبدأ الجهاد يضعف في الاسابيع الاربعة الاخيرة قبل انسحاب القوات البريطانية بعد صمود طويل . سقطت طبرية في السابع عشر من ابريل ، وحيفا في الثالث والعشرين ، وقضاء يافا في الرابع والعشرين من الشهر نفسه . ثم سقطت صفد في العاشر من مايو ، وبيسان في الثاني عشر ، ويافا في الثالث عشر ، وعكا وقضاؤها في الرابع عشر ، وكذلك بعض احياء القدس الجديدة . اجلي عن هذه المدن لوحدها مئتا الف مواطن ، بعد ان شاهدوا ما اقترفه الصهيونيون في دير ياسين وناصر الدين وغيرهما . ولم يكن عدد النازحين عن فلسطين قبل هذه المذابح يبلغ اثنين في المئة من عرب فلسطين . وكان جل هؤلاء من الاثرياء الذين اعتادوا قضاء فصل الصيف خارج فلسطين، لم يكن من غير المألوف ان يغادروا بيوتهم في ربيع تلك السنة العصيبة . اما بعد اجراء المذابح الوحشية فقد تبدل الحال . تشتت افراد العائلة الواحدة. وتخلى المحاربون عن مواقعهم. وخلت الحصون من المدافعين. فلما غادر الجنرال السير الن كننجهم، اخر مندوب سام، فلسطين في منتصف مايو ، وانتهى بخروجه الحكم البريطاني الذي دام ثلاثين سنة ، كان اليهود قد

---

(١٧) عارف العارف ، نكبة بيت المقدس ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

استولوا على القسم الاكبر من القواعد والمعسكرات والاعتدة البريطانية، باتفاق الطرفين في معظم الاحيان .

والواقع ان اصرار الحكومة البريطانية على الانسحاب من فلسطين في منتصف مايو ، بالرغم من رجاء الامم المتحدة لها بالبقاء الى ان تتحسن الاوضاع داخل فلسطين ، انما كان خطة مدبرة مسبقا لتنفيذ اتفاق بفن - عبدالله . فقد قصدت من انسحابها في ذلك الوقت بالذات ان يستفيد عبدالله من الاضطرابات الراهنة ويجد حجة للتدخل واحتلال المناطق العربية دون سواها . وكانت طريقة انسحاب الجنود البريطانيين من ضمن ذلك المخطط . انسحبوا اولا من المناطق اليهودية ، فاحتلها الصهيونيون واستولوا على ما خلفه حلفاؤهم من سلاح وعتاد . اما في المناطق العربية فقد مكث البريطانيون مدة اطول ، ليسهلوا خلالها عملية اجلاء السكان العرب عن بيوتهم وتهجيرهم الى خارج فلسطين ، من جهة ، وليمنعوا المناضلين من الصمود في وجه اليهود وعبدالله من جهة اخرى .

واننا نلاحظ ان معظم المدن التي سقطت في ابريل ومايو ، ومعظم القواعد والمعسكرات التي جلا الانجليز عنها ، انما كان يوجد حاميات اردنية بالقرب منها ، وكانت حاميات قوية تكفي لحماية المدن وبالحفاظ على القواعد البريطانية السابقة لو سمح لها بالقتال قبل التاسع عشر من مايو ، وهو موعد بدء القتال بينها وبين العدو . وهناك شواهد كثيرة على ان عبدالله تعمد وضع جنوده في الاماكن المهمة ليسهل تهويدها بدل ان ينقذها . كان جيشه يحتل جسر المجامع في ابريل . لكنه امر الحامية بالانسحاب فجاء اليهود ودخلوا المنطقة في النهار نفسه قبل ان يستعد المناضلون الفلسطينيون لاخذ محل المنسحبين . وقد قصد عبدالله بعمله هذا ان يقطع جسور الاتصال بين فلسطين وجاراتها ، التي كان المناضلون يسلكونها في طريقهم الى جبهات القتال في فلسطين . واعلن البريطانيون انهم سيتركون حيفا في اغسطس ١٩٤٨ . لكنهم انسحبوا فجاة ، في الثاني والعشرين من ابريل . وكان الصهيونيون قد علموا بذلك مسبقا . فاحتلوا المدينة ساعة خروج القوات البريطانية . اما عبدالله فسكت عن المؤامرة ، مع انه كان يعلم بها مسبقا هو ايضا ، ولم يبلغ خبرها للعرب ليغتنموا الفرصة التي اغتنمها اعداؤهم . وكان جيشه يرابط وسط المدينة ويسهل تنفيذ المؤامرة اذ لم يتحرك ابدا لمنع اليهود من احتلال المناطق الحصينة . وفي صفد انسحب الجيش الاردني لما هاجمها اليهود بامر مباشر من عبدالله . ومنع قائد الحامية جنوده من مساعدة المناضلين الفلسطينيين الذين استطاعوا الصمود مدة اربعة ايام . وتخلى ذلك القائد عن حصن تجارت لليهود دون ان يعلم العرب مسبقا ، مما عرض جانب المدافعين للخطر . وكان القائد المذكور من زلم الملك وجلب .

وعند الهجوم البريطاني الفرنسي « الاسرائيلي » على سيناء ومصر في ١٩٥٦ عمل في حقل الدعاوة البريطانية في قبرص ، اذ كان في ذلك الحين قد طرد مع الضباط الذين خسروا وظائفهم مع جلب . وفي يافا استنجد المجاهدون بالقوات الاردنية المرابطة بين المدينة واللد والرملة، عندما تأزمت الحالة واشرف اليهود على دخول المدينة. لكن قيادة الاردنيين اعتذرت بانها مشغولة بالتحضير لهجوم على القدس (والواقع انها لم تهاجم القدس الا بعد اسبوع) . نتج عن ذلك انخاب امل المجاهدين وانسحبوا من المدينة . وحصل في القدس ما حصل في المدن الاخرى : سحب عبدالله القوات المدفعية والمصفحة التي كانت في القطمون فاتى اليهود واحتلوا الحي . ولم يبق للعرب، بعد انسحاب القوات البريطانية ، غير وادي الجوز وباب الساهرة في القدس الجديدة ، اذ اغتنم اليهود الفرصة واستولوا على ما تبقى . ولم يهاجم الاردنيون الا بعد ايام اربعة كانت كافية لليهود لكي يركزوا انفسهم في مواقعهم الجديدة ويستعدوا .

واخذ رجال عبدالله يدعون له ويزعمون انه المسؤول العربي الوحيد القادر على انقاذ البلاد ــ وكان الناس قد بدأوا يفقدون ثقتهم بانفسهم بعد ان تحرجت الحالة وسقط معظم المدن الكبيرة . نشطت هذه الدعوة اكثر ما نشطت في يافا في شهر مايو . ولم يكن قد بقي للعرب من المدن في المنطقة التي وعد اليهود بها الا هي . فشن رئيس بلديتها (وكان كغيره من رؤساء البلديات ، من جماعة « المعتدلين » الذين سبق الكلام عنهم) حملة لحمل سكانها على مبايعة عبدالله . ولان قائد الحامية العسكرية كان من الضباط الوطنيين (عبد الوهاب الشيخ علي ، احد ضباط العهد الوطني في العراق ١٩٤١) طرده رئيس البلدية ، هو وحاميته ، وترك المدينة بلا دفاع كاف . وقد اكد الجنرال العراقي طه الهاشمي في تقرير له عن حرب فلسطين ان خلافات رئيس بلدية يافا مع الوطنيين كانت من عوامل سقوط المدينة . واتهم عسكريون اخرون هذا الرجل بانه استولى على الاسلحة التي بعثتها اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية الى مدينة يافا وخبأها وكتم امرها عن اللجنة القومية في المدينة الى ان سقطت فحمل الاسلحة معه في سيارات شحن الجيش الاردني الى عمان حيث باعها وتقاسم ثمنها مع بعض افراد حاشية الملك . واتهمه اخرون بانه استولى على صندوق مالية البلدية قبل خروجه من يافا الى الاردن حيث انضم الى الطبقة المنتفعة بالحكم وتعين سفيرا مدة طويلة . وما يقال ان الرجل المذكور فعله انما فعله ايضا مسؤولون اخرون من اعوان البيت الهاشمي . ان عبدالله التل يتهم زوج الملك عبدالله واحد وزرائه بالاشتراك مع غيرهما في الحصول على « غنائم الحرب » ، وهي اما منهوبات الاماكن المحتلة او بقايا ممتلكات النازحين من العرب .

ولعب عبدالله في الجامعة العربية دورا مزدوجا : كان مندوبوه في اجتماعات الجامعة ولجانها الفرعية يؤكدون في الاجتماعات العلنية وفـــي التصريحات الصحفية (اواخر ١٩٤٧ واوائل ١٩٤٨) على نية حكومتهم في خوض معركة فلسطين واداء الواجب القومي كاملا . وكانوا في الاجتماعات السرية يحاولون اقناع المندوبين العرب الاخرين ان يتركوا الامر للجيش الاردني وحده ، اذ هو يكفي لتخليص فلسطين . وكان قصدهم الرئيسي ان يعزلوا عرب فلسطين ويقصوهم عن قضية بلادهم ليسهل على الهاشميين تصفيتها . وكانوا يصرون على تحكيم الانجليز وعلى استشارتهم في كل امر. حتى ان احدهم ، محمد الشريقي ، اصر على اشراك البرجدير كليتن (المسؤول عن الشؤون العربية في السفارة البريطانية في القاهرة) فـــي مباحثات الجلسات السرية . هذا بينما كان ممثلو الهاشميين يدعون الى اقصاء مندوبي فلسطين عن الاجتماعات . وقد هدد مندوبو الاردن بالانسحاب ان سمح للحاج امين الحسيني بحضور احدى الجلسات . وقد تجلى عزم عبدالله على التفريط بالقضية الفلسطينية من خلال اقوال ممثليه وتصرفاتهم في الاجتماعات السبعة التي عقدتها اللجنة السياسية للجامعة العربية لدرس القضية بين منتصف ١٩٤٧ ومنتصف ١٩٤٨ ، في بلودان وصوفر وعاليه والقاهرة وعمان ودمشق .

لم يكتم عبدالله طمعه بضم فلسطين الى شرق الاردن ، بعد ان يتم له تحريرها ، في بعض تلك الاجتماعات السرية . لكن المندوبين الاخرين ، باستثناء مندوبي العراق ، كانوا يعارضونه . حتى ان مجلس الجامعة اصدر في شهر ابريل ١٩٤٨ قرارا بترك تقرير مصير فلسطين الى شعبها بعد تحريرها . اما في العلن فكان عبدالله يزعم انه سيخوض القتال من اجل شعبها وان لا مطامع له فيها وان هدفه الوحيد هو ان يسلم فلسطين الى اهلها « عنبرة زكية الرائحة » لان الوقت « ليس وقت فتح ولكنه وقت جهاد وجلاد » كما قال في خطابه عند بدء الحرب . وكان قد تعهد بعدم الاستيلاء على فلسطين في اكثر من خطاب ، خاصة في خطابي الثاني والعشرين والسادس والعشرين من ابريل .

بدت هذه الازدواجية الهاشمية في قضية فلسطين في عدة مظاهر اخرى . ففي النهار نفسه الذي صرح نوري السعيد ان العراق مصمم على محاربة مشروع التقسيم بالقوة وعلى مد الجهاد العربي بكل معونة ممكنة كانت حكومته تطارد اصدقاء فلسطين من رجالات الحركة الوطنية في العراق وكانت تمنع جمعية انقاذ فلسطين التي اسسها هؤلاء لارسال المتطوعين والسلاح من القيام بعملها النبيل . وقد حل صالح جبر تلك الجمعية واستولى على اموالها واقام مكانها « الجبهة المتحدة لانقاذ فلسطين » من موالي القصر

والانجليز . ولم تفعل الجبهة المذكورة شيئا غير قتل الجمعية القديمة وسلب ما تبقى من اموالها ، كما يقول احد كبار اركانها ، محمود الدرة .

ورفض البلدان الهاشميان ان يدفعا اكثر من اثني عشر في المئة ، فقط، من نفقات مساعدة عرب فلسطين ، حسب مقررات مجلس الجامعة العربية في عاليه في السابع من اكتوبر ١٩٤٧ - بينما تعهدت مصر بدفع اثنين واربعين في المئة ولبنان وسورية بثلاثة وعشرين في المئة والسعودية بعشرين في المئة. وعارض البلدان اجراءات الجامعة بتاليف لجنة عسكرية تتولى ادارة القتال قبل انسحاب الانجليز ، وتشرف على تدريب عرب فلسطين وتسليحهم - وكان المفروض ان يتولى عرب فلسطين الجهاد بينما تكتفي القوات النظامية بالوقوف على الحدود . وضايق البلدان جيش الانقاذ الذي الفته اللجنة العسكرية . ومنع الاردن عنه السلاح . وزوده العراق ببنادق بدون رصاص . وظل الجيش هزيلا ضعيف العتاد قليل العدد . ورفض الاردن ان يزود معسكرات التدريب التي انشأتها اللجنة العسكرية في قطنة بسورية بالسلاح او بالمال. بل انه منع مواطنيه من الالتحاق بتلك المعسكرات . فخلا المتطوعون الخمسة الاف من الاردنيين .

ولما اقترحت مصر ، في احد اجتماعات الجامعة في القاهرة في السابع من ديسمبر ١٩٤٧ ، بان تؤسس الجامعة ادارة فلسطينية تشرف على البلاد رفض العراق والاردن الاقتراح وهاجما زعماء فلسطين وطعنا في قوات الجهاد المقدس التي قامت بالعبء الاوفر من القتال في ذلك الوقت . ورفض البلدان المذكوران ان يسهما في تسديد نفقات الهيئة العربية العليا التي اعتمدتها الجامعة كممثل لعرب فلسطين . واخذ عبدالله يكثر من التدخل في شؤون اللجنة العسكرية وعرقلة اعمالها حتى احرج رئيسها العراقي ، اسماعيل صفوت ، فاستقال . وعندها فرض عبدالله نفسه واصر ان يتولى هو القيادة العامة . وكانت قيادة جيشه الاردني اقل القيادات تعاونا مع تلك اللجنة . وقد اتهمها اسماعيل صفوت ، في تقرير رفعه الى وزير الدفاع العراقي في السادس عشر من نوفمبر ١٩٤٧ ، بانها « ما كانت تنصاع لاوامر القيادة العامة . بل انها كانت مستقلة في حركاتها وغامضة في مقاصدها » . وكرر هذا الاتهام الجنرال العراقي نور الدين محمود الذي خلف صفوت في منصبه. فقد شكا في تقرير رفعه الى وزارة الحربية العراقية من ان عبدالله كان يحجب عنه اسرار جيشه وخططه .

ارفق عبدالله مجموعة هذه المحاولات للتضييق على مساعي انقاذ فلسطين بمحاولة اخيرة لاضعاف مركز العرب في الاوساط الدولية عن طريق تفتيت اخر لوحدة الصف ، بعد ان حصل التفتت بشكل واسع عند اثارته

قضية سورية الكبرى ١٩٤٣ ـ ١٩٤٧ . اما هذه المحاولة الجديدة فكانت في معارضته ، مع العراق ، لقرار مجلس الجامعة العربية ، في مارس ١٩٤٧ ، بالدفاع عن قضية فلسطين في المجالات الدولية وهيئة الامم بوجه خاص . واعلن البلدان الهاشميان انهما سينهجان خطة منفصلة تجاه فلسطين . فاظهر موقفهما هذا ان قول العرب بانهم يختلفون في كل شيء الا في قضية فلسطين بعيد عن الصحة ، وان البيت الهاشمي خرج عن ارادة الاغلبية حتى في تلك القضية . وقد ظل عبدالله الى اخر لحظة يعلن انه لن يتقيد بقرارات الجامعة، وانه سيحارب حسب هواه ولوحده . بل انه قام بهجوم عنيف على الجامعة في العاشر من مايو ، واتهمها بالتهاون والتقصير وببيع فلسطين . واعلن انه سيخوض حرب فلسطين وينقذها مع ان الحكومات العربية تخلت عن فلسطين وعنه .

ان لغز هذه التناقضات في تصرفات عبدالله وهذه الغرائب ينحل عند الاطلاع على تقرير نشرته جريدة اليقظة العراقية في عدد الرابع والعشرين من فبراير ١٩٤٨ ونسبته الى البرجدير كليتن الذي وضعه في منتصف ديسمبر ١٩٤٧ وقدمه الى حكومته حول انطباعاته في جولة قام بها بين العواصم العربية . جاء في التقرير ان جميع الحكام العرب عارضوا مشروع التقسيم باستثناء رئيس الحكومة الاردنية ، توفيق ابو الهدى . وذكر التقرير انابا الهدى خالف الاخرين وطالب بتنفيذ التقسيم باسلوب اخر ، على عدة مراحل : **تنسحب القوات البريطانية من فلسطين كما كان مقررا . وتحتدم ثورة عرب فلسطين التي بدأت منذ صدور قرارات الامم المتحدة . لكن الثورة تنحصر في الفلسطينيين ، اذ يمنع الاردن عبور المناضلين من الدول المجاورة في ارضه . فتشتد حاجة الفلسطينيين الى مساعدة الجيوش العربية النظامية . وعندها يرسل الاردن جيشه الى فلسطين ، تحت ستار العمل من اجل انقاذها . ويكون الجيش ، بالطبع ، بقيادة بريطانية . ويرضى عرب فلسطين عن ذلك التدخل لانهم يعتقدون انه لتحرير البلاد . الا ان الجيش يتوقف فجأة عند حدود « اسرائيل » . ولا يحتل الا القسم العربي . وللحال يعلن ضم هذا القسم للاردن ويقضي على المعارضة الشعبية فيه . بعد ذلك كله يتصل الاردن « باسرائيل » ويصالحها** . يقول كليتن انه سأل ابا الهدى اذا كان يتحدث باسمه فقط فقال ان المشروع يمثل وجهة نظر الملك عبدالله في الدرجة الاولى .

اثار فضح هذا التقرير الرسمي ريبة الحكومات العربية . فتراجعت عن فكرة الاكتفاء بالوقوف على الحدود كما كان مقررا في ١٩٤٧ واخذت تفكر بالاشتراك الكامل في حملة فلسطين ، وذلك لتقطع الطريق على المؤامرة الهاشمية . كان التقرير من العوامل الفعالة في اتخاذ ملك مصر السابق قراره

بدخول الحرب . وعندها اسقط في يد عبدالله ، واستدعى جولدا مايرسن، كما رأينا من قبل ، وعرض عليها تأجيل تأسيس « اسرائيل » مدة من الزمن حتى يخف حماس العرب ويسهل تنفيذ قرار التقسيم انذاك . لكن محاولته فشلت لان الصهيونيين صمموا على اعلان مولد دولتهم في الموعد المحدد : الرابع عشر من مايو . وكان عبدالله لا يزال يأمل الا تنفذ مصر قرارها . ولعل حكومة مصر نفسها كانت لا تزال غير متأكدة انها ستحارب . الا ان فاروق جمع مجلسي الشيوخ والنواب وحمل اعضاءهما على تقرير دخول الحرب في ذلك النهار عينه ــ الثاني عشر من مايو . وقد اراد فاروق، من ذلك القرار الحاسم، كسبا لشعبية كانت تنهار بسرعة في مصر ودنيا العرب، وبحثا عن حجة لاعلان الاحكام العرفية ومنع الحريات الصحفية التي البت الشعب ضده .

كان رد الفعل الفوري لهذا التطور ان تبدد حلم عبدالله بان يستولي على القسم العربي من فلسطين بالسلم . لذلك اسرع بتبديل مخطط الهجوم الظاهري السابق على فلسطين الذي كانت اللجنة العسكرية قد وضعته باشراف القائد العراقي اسماعيل صفوت والذي نص على ان يدخل الجيش العراقي فلسطين فوق نهر الاردن الى الجنوب من بحيرة طبرية ، ويتوجه رأسا نحو الجليل الادنى ومرج بن عامر ويهاجم العفولة من اتجاهين ، من جسر المجامع ومن جنين ، ويلتقي هناك مع الجيش الاردني ، فيحتل الجيشان معا وادي جزريل وشفا عمرو ويتابعان السير الى حيفا التي جعلت هدف الجيشين الهاشميين والجيش السوري . وكان على الجيش السوري ان يستولي على الجليل الاعلى ، من بنت جبيل الى صفد ، ويسير الى حيفا بعد ان يمهد العراقيون له طريقه . اما الجيش المصري فقد ترك له امر جنوب فلسطين ، الى القدس وتل ابيب .

كان هذا هو المخطط الشكلي الذي اريد منه حفظ المظاهر ولكن عبدالله استلم قيادة القوات العربية المشتركة في الثاني عشر من مايو ، اذ اصر ان يتولى القيادة بنفسه والا فانه يمتنع عن الحرب . وقد سمح له القادة بذلك حفظا على ما كان يسمى « وحدة الصف » . والحال وضع مخططا جديدا للهجوم يناسب غايته واتفاقاته السرية . وفرض هذا المخطط بالرغم من ممانعة القائد العا مالسابق نوري الدين محمود . فنقل الجيش العراقي من الشمال الى وسط فلسطين وحصره في منطقة عربية تكاد تخلو من اليهود ، منطقة مثلث جنين ــ نابلس ــ طولكرم . ونقل الجيش السوري الى اخطر المناطق، منطقة سمخ ــ طبرية الحصينة والملغومة في كل شبر منها . كانت النتيجة المباشرة لهذا التبديل في اللحظة الاخيرة ان ترك السوريون في الشمال لوحدهم ، فتكبدوا خسائر فادحة ولم يتقدموا كثيرا لانه اصبح عليهم ان يسيروا في ارض يجهلون تحصيناتها ولان العدو شاهد تحركاتهم من سمخ وحاصرهم

امام مستعمرة دجانية ولان الجيش الاردني رفض مساعدتهم مع انه كان بالقرب منهم (الى الجنوب من تجمعاتهم) والحقيقة انالرقعة التي خسر السوريون فيها معظم شهدائهم هي نفسها التي تخلى عنها عبدالله للعدو قبل بدء القتال بوقت قصير . اما الجيش العراقي فجمد في المثلث العربي ولم يفعل شئا كثيرا . وتركت القدس اربعة ايام بلا جيش نظامي الى ان تم نقل القوات الاردنية اليها ، التي كانت في طريقها الى حيفا ، فدخلت العاصمة في التاسع عشر من الشهر ، بدل ان تكون هناك منذ الخامس عشر . كان هذا التبديل المفاجىء في المخطط عاملا كافيا لفضح نية عبدالله . ادرك المسؤولون ان تسلم عبدالله القيادة ووضعه المخطط الجديد انما كان للايقاع بجيوشهم . فاقترح احدهم (شكري القوتلي) في اخر لحظة تأجيل الهجوم بضع ايام حتى تضع القيادات خطة ثانية . لكن عبدالله عارضه .

فعل عبدالله ذلك لانه خشي ، اولا ، ان يترك انشغال جيشه في حيفا مجالا امام المصريين لكي يحتلوا القدس وتل ابيب ويسيطروا على قسم كبير من فلسطين ويزول بالتالي حلمه هناك ، في حين يشاركه العراقيون في امجاد فتح حيفا وهم اصحاب رغبة فيها منذ ايام اخيه فيصل . وكان المصريون قد بدأوا يساعدون القدس على الصمود بالفعل . وارسلوا طائرات تحمل الاسلحة الى مجاهدي المدينة من ابنائها . فارسل جلب الى قيادة الجيش المصري يتهددها بان يطلق جنوده نيرانهم على كل طائرة مصرية تقترب من القدس . وقد فضح منير ابو فاضل (النائب الحالي في البرلمان اللبناني واحد قادة المدينة انذاك) دور جلب هذا في مقال نشره في جريدة النهار البيروتية في السابع عشر من يونيو ١٩٥٠ .

السبب الثاني لالغاء المخطط السابق ان تنفيذه كان يفترض قيام معارك بين الجيشين الهاشميين وبين العدو في جسر المجامع ومرج بن عامر والعفولة وحيفا . اما المخطط الجديد الذي وضعه عبدالله فحصر الجيشين في المناطق العربية . والسبب الثالث هو ان عبدالله اراد ان يشغل الجيش السوري ويضعفه ويعرضه للخطر في جوار طبرية ، حتى يسهل على عبدالله فيما بعد تنفيذ مشروع سورية الكبرى . وهناك سبب رابع املاه الانجليز : وهو حرصهم على ان لا ينفرد المصريون بمنطقة النقب ، لانهم ارادوها لعبدالله مع انه هو نفسه لم يكن يهتم لها كثيرا وكان يفضل عليها القدس او الجليل .

لم يكن الانجليز بعيدين عن هذه التبديلات ، وان كان جلب حاول كثيرا، بعد ذلك بسنوات ، ان يبرىء نفسه ، وذلك في مذكراته المنشورة . ولدعم حجة عبدالله وتبرير فعلته ، انسحبت القوا تالبريطانية من القدس وافشل سياسيو بريطانية مساعي لجنة الهدنة التي شكلتها الامم المتحدة في الثالث

والعشرين من ابريل ١٩٤٨ (من قناصل الولايات المتحدة وفرنسة وبلجكه في القدس) بحيث اعطوا حليفهم الهاشمي الفرصة والعذر ليهجم على القدس ويترك المخطط القديم الذي اعترف خبراء « اسرائيل » العسكريون انه لو طبق لكان احتمال انتصار العرب قويا . اما الملك عبدالله نفسه فانه يزعم انه امر بهذا التبديل لانه رأى والده المدفون في جوار الحرم الشريف في منامه يدعوه لفتح القدس ويؤنبه على عدم انقاذ مثواه !

هذه هي قصة ملك الاردن في حرب فلسطين قبل ان تبدا في منتصف مايو . قصة نرويها دون ان نسمح لعواطفنا بان تكون هي التي تحكم عليه ، ولكن دون ان نغفل عن تبيان الخطوط الرئيسية التي اتجهت بفلسطين الى مصيبتها الكبرى :

اولا ، عارض عبدالله ، بتصرفاته ، المطلب العام للشعب العربي في شرق الاردن وفي عموم الكيانات العربية : مطلب الحفاظ على عروبة فلسطين والعمل من اجل انقاذها . كأمير ثم كملك ، كان عليه ان يتقيد بارادة الاغلبية المطلقة في بلده وفي الوطن العربي بشكل عام .

ثانيا ، خرج عبدالله على تلك الارادة القومية عشرات المرات في فترة ١٩٢١ ـ ١٩٤٨ . وقا مباعمال تناقض تلك الارادة . وتنزل للصهيونيين عن امور كثيرة ، اخرها واخطرها جزء ضخم من فلسطين ، تنزلا تلقائيا مقابل ارباح غنمها شخصيا فضلها على حق الشعب وارادته .

ثالثا ، كان عبدالله عنصرا فعالا في عدد من مشاريع التقسيم التي اعدها الصهيونيون والاستعمار ، ودعا اليها وروجها وشجع القائمين عليها .

رابعا ، كتم عبدالله الحقائق عن الشعب ، وناقضت اقواله افعاله ، وزعم للناس انه يتقيد بارادتهم .

خامسا ، حارب الوطنيين في فلسطين ، بالفعل وبالقول ، وتعاون مع الخارجين على الميثاق الوطني والمنحرفين .

سادسا ، حاول ادخال اليهود الى شرق الاردن . وحاول بيعهم الاراضي او تأجيرها لهم . وشجع هجرتهم ودعاهم الى استثمار اموالهم .

سابعا ، حاول تفتيت وحدة الصف العربي اكثر من مرة ، وخاصة كلما كانت ازمة فلسطين تتأزم فيحتاج العرب الى الوحدة المعنوية اكثر من اي وقت اخر .

ثامنا ، حاول فرض مشروع سورية الكبرى الذي رفضه اغلب سكان الكيانات المعنية بالامر ، والذي كان يعرقل عملية الوحدة الشاملة ويعقد مطلب تحرير فلسطين وينسجم مع المشاريع الصهيونية والنوايا الاستعمارية .

تاسعا ، قاوم الحركة الوطنية في شرق الاردن التي كانت تؤازر عرب فلسطين وسجن افرادها وحل احزابها ومنع صحفها وتعقب نشاطها واعاقها عن نصرة الفلسطينيين .

عاشرا ، حافظ على ولائه التام تقريبا لارادة بريطانية ، في وقت كانت بريطانية فيه اكبر نصير للصهيونية واخطر عدو للعرب بشكل عام ولعرب فلسطين بشكل خاص .

حادي عشر ، اعتبر القضية الفلسطينية مسألته الخاصة ، ومسألة الاسرة الهاشمية الخاصة ، وليست قضية شعب بكامله وجزءا من القضية العربية القومية الشاملة . واصر ان يحتكر معالجتها بنفسه بمعزل عن شعب فلسطين .

ثاني عشر ، حاول ان ينفي الصبغة القومية لحرب فلسطين وان يحولها الى حرب طائفية ضد «الالحاد والكفر الشيوعيين» بدلا من ان تكون حربا قومية عربية ضد اعداء القومية العربية . (قال في تصريح للاهرام القاهرية في عدد السابع عشر من ابريل ١٩٤٨ « ان الجيش العربي سيقاتل الخطر الروسي اليهودي المحدق بالعالم العربي ... بلغني انهناك قوادا من الروس على رأس اليهود المقاتلين في فلسطين . وهذا خطر روسي يهودي يهدد العرب لا في فلسطين وشرق الاردن فحسب بل في العالم العربي ») .

ثالث عشر ، جعل عبدالله التساهل مبداه واسلوبه في معالجة القضية، مع ان التساهل عجز عن تخليص فلسطين في كل مراحل القضية . ورضي ان يلدغ من الجحر ذاته المرة تلو الاخرى . ولم يعتبر من احداث الماضي .

وبعد ، لست ازعم ان لولا عبدالله لما ضاعت فلسطين . ولا ان عبدالله انفرد لوحده من بين الملايين من العرب والعشرات من حكامهم في التفريط بها . فغيره مسؤول ايضا . وهناك اسباب اخرى للنكبة . لكن هذا لا ينفي الحقيقة الكبرى التي تنطق بها صفحات هذا الكتاب، وهي **ان مسؤولية عبدالله في ضياع فلسطين كبيرة جدا ، ان لم تكن هي المسؤولية الكبرى ، وان خروجه على ارادة الشعب العربي في الايمان بعروبة فلسطين مسؤولية خطيرة جدا ، ان لم تكن هي الاخطر . ليس بين العرب ، مسؤولين ومواطنين ، من واجه**

قضية فلسطين في خمسين السنة الماضية بمخطط رسمي مقصود ومتعمد يقبل بضياع جزء من البلاد ، ويعمل له ، من اجل ضم الجزء الاخر ، كما فعل عبدالله في ثلث قرن . وليس بين العرب من جعل ضياع ذلك الجزء هدفا له وسياسة يعمل لها على مر الايام مثلما فعل عبدالله . هناك من حاول ان يتشبه بعبدالله . وهناك من اقترف بعض اخطاء عبدالله . لكننا لا نجد عربيا واحدا ، مسؤولا او غير مسؤول ، بلغ الحد الذي بلغه عبدالله في تشطيب اسم فلسطين من الخريطة السياسية للوطن العربي .

يردد محترفو الدفاع عن الملك الهاشمي ، من عرب ومن بريطانيين وصهيونيين ، ان موقفه « المتساهل » هذا كان عين الصواب لانه عبر عن بعد نظر وعن استباق للاحداث وعن معرفة للمستقبل ، وانه كان دليلا على واقعية في التفكير ومرونة في العمل تمتع هو بهما بينما افتقر اليهما غيره من المسؤولين العرب (١٨) . الا ان الرد على هذه المزاعم يكمن في المزاعم نفسها . والحجة ضد عبدالله هي الحجة التي يتذرع هو وانصاره بها . فان كان عبدالله ، وهو المسؤول العربي صاحب النفوذ والحول والطول ، قد عرف منذ سنوات كثيرة قبل ١٩٤٨ ان النكبة ستقع ، وان الصهيونيين هم الرابحون ، لماذا اذن لم يأخذ للامر عدته قبل ان تحصل النكبة ؟

لماذا لم يقد بلاده ولم يعبىء امكاناتها المادية والنفسية ولم يجند الشعب في « صليبية » قومية جبارة ؟ لماذا لم يتخل عن النفوذ البريطاني ويرد النفوذ الصهيوني المتسلل ؟ لماذا لم يرسم لبلاده ولجيشه سياسة عربية صحيحة ؟ لماذا لم يؤازر الحركات الوطنية ولم يقص العملاء ؟ لماذا لم يدع العرب الى وحدة حقيقية تحيط بالخطر من جهاته البرية الثلاث ؟ لماذا لم يترك القضية لاصحابها ما دام هو اضعف من ان يتحمل مسؤولياتها ؟ ولماذا ، اخيرا، فعل عكس ذلك كله ، وقفز من السفينة قبل ان تغرق بثلاثين سنة مع انه كان قادرا ، لو اتبع السبيل القومي ، على تخليصها بالتعاون مع احرار العرب؟

اذا كان لعبدالله فضيلة معرفة ما سيحصل ، بدهائه وذكائه وبعد نظره وثاقب فكره وصدق حدسه ، كما يقول اصدقاؤه وموظفوه ، فقد كان اولى به ، اذن ، ان يستعد للامر ويجابه الاحداث بما لدى الامة من امكانات وان يصارح مواطنيه بدل ان يغرر بهم ويخدعهم ثم يتخلى عنهم في اللحظةالحرجة. بعيد النظر هو الذي يستعد ، لا الذي يستسلم قبل ان يبدأ القتال .

ان هناك فرقا بين الخرافة والحقيقة . الخرافة ان عبدالله وافق على

---

(١٨) راجع ، كمثال على ذلك ، بيان « لجنة نشر » تكملة مذكرات الملك عبدالله في مقدمتها لبعض مذكراته ، ص ٨٥ .

اضاعة نصف فلسطين لانه عرف ان «اسرائيل» لا بد ان تقوم في ذلك النصف. والحقيقة ان «اسرائيل» قامت لان عبدالله وافق على اضاعة نصف فلسطين .

هنا تقع مسؤولية عبدالله امام التاريخ . هنا يفقد الملك الهاشمي رحمة التاريخ عندما يتحرى مسؤولية النكبة . وقد سبق ان فقد عبدالله رحمة مواطنيه . ودفع حياته ، ودفع اقارب له في العراق حياتهم ، ثمنا .

الفصل التاسع

عبدالله وحرب فلسطين



نكبة فلسطين اوسع من ان يحصرها كاتب في جزء او فصل من كتاب. والمسؤولية فيها اضخم من ان تستعرضها صفحات قليلة . ولا اريد ان يفهم القارىء من هذه الصفحات ان لولا الهاشميين لما حصلت النكبة وان لا سبب للنكبة غير ما فعله وما لم يفعله هاشميو العراق والاردن في النصف الاول من القرن العشرين . فالاسباب اعمق جذورا واوسع شمولا. غير ان هذا لا ينفي خطورة الدور الذي لعبه الهاشميون في النكبة ، وتناقضه مع الاماني والمشاعر القومية . لذلك فنحن اذ نحصر كلامنا في هذا الفصل في الدور الهاشمي لا نعني حجب التهمة عن غير الهاشميين، نحاول تركيز النظر على دورهم هم دون ان نتوسع في تبيان ادوار الاخرين ممن هم ليسوا موضع بحث هذا الكتاب.

تكون الجيش العراقي في عام النكبة من واحد وعشرين الف محارب . لكن السلطات لم ترسل الى ارض المعركة غير ثلاثة الاف . ابقت ستة اسباع الجيش في العراق لحماية العهد من اية انتفاضة شعبية ممكنة قد تقوم ضد الاوضاع بعد ان يكتشف الرأي العام الخدعة التي حبكها الهاشميون مع البريطانيين والصهيونيين . وبسبب استغراب الشعب من تلكؤ الحكومة عن وضع ثقل جيشها في ميدان المعركة اضطرت السلطات الى ارسال عدة الاف اخرى فيما بعد . وكان الجيش ضعيف التدريب ، قليل السلاح والامدادات والاحتياط .

بسبب تبديل مخطط الهجوم في اخر لحظة كما مر معنا في الفصل الماضي تعرضت القوات العراقية لمقاومة ضارية منذ ان حاولت عبور نهر الاردن ودخول فلسطين قرب بيسان ، يوم الخامس عشر من مايو . واضطرت الى الانسحاب ، متكبدة خسائر لم تتوقعها . ثم تراجعت دون ان تحتل بلدتين انيط بها امر احتلالهما بعد ان حاصرتهما اسبوعا كاملا . وانتقلت تلك القوات نحو منطقة عربية صرف ، ووصلت الى نقطة قريبة من طولكرم ، على بعد عشرة اميال من ساحل البحر المتوسط فقط ، بفضل جهود قوات المجاهدين التي كانت قد اخلت المنطقة من العدو . واشرف العراقيون بذلك على طريق حيفا ـ تل ابيب الساحلية وعلى مستعمرة ناثانية . واصبح بامكانهم قطع خطوط المواصلات بين مدن العدو الرئيسية وشطر « الدولة » الجديدة الى قسمين وهي بعد في اسبوعها الاول .

لكن الجيش العراقي اكتفى بان تمركز في اماكنه ، وصرف الاسبوع الاخير من مايو وكأن ليس في فلسطين حرب . ثم خاض مناوشات متقطعة مع الصهيونيين ، في الايام العشرة الاولى من يونيو . ولكنها كانت محاولات دفاعية ، فحسب . ولم يحاول العراقيون الهجوم وتعقب « الاسرائيليين » حينما كان المجال مفتوحا امامهم لما انسحب العدو من جوار جنين بخسارة

كبيرة ، في الثالث من يونيو . اكتفى الجيش العراقي بمشاهدة العدو وهو يهرب . وكانت معركة جنين هي المعركة الوحيدة التي خاضها الجيش في تلك الفترة . ورفضت قيادته مساعدة القوات العربية الاخرى التي ارسلت تستغيث به . فقد هاجم اليهود اللطرون في منطقة الجيش الاردني لتخفيف ضغط الاردنيين على القدس القديمة. واذ كان معظم القوات الاردنية قد ترك اللطرون وذهب الى القدس ، ناشد مجاهدو البلدة الفلسطينيون الذين تركوا في الميدان لوحدهم تقريبا اخوانهم العراقيين بان يبعثوا اليهم فرقة تعززحاميتهم لكن القيادة العراقية رفضت ذلك بحجة انشغال الجنود بترقب العدو . وقد حصل الامر نفسه عندما حاصرت القوات « الاسرائيلية » المصريين في الفالوجه في خريف ١٩٤٨ : رفض الجيش العراقي ان يتدخل ، مع ان الشعب في العراق ضغط على حكومته كثيرا لتساعد القوات المصرية .

يعني هذا ان الجيش العراقي ، بسبب موقف قيادته الخاضعة للقصر مباشرة ، لم يحارب في فلسطين الا قليلا جدا ، مع ان حكومته كانت اكرم الحكومات العربية بالتصريحات والوعود العلنية والدعاوةعن استعدادها للحرب. ولم يكن العمل الصغير الذي قام به العراقيون يحتاج الا لمئات قليلة من الجنود. كان الجيش ، بوجه عام ، كالمتفرج . حتى شاع بين الناس القول المتهكم المؤلم والمتالم « ماكو اوامر » . وحتى ان كتابا « اسرائيليا » شبه رسمي عن مولد « اسرائيل » تحدث عن حرب فلسطين في مئة وخمس وعشرين صفحة وعن دور العراق بالذات في فقرة واحدة فقط في اقل من عشرة اسطر (١) . ويبدي مؤلف كتاب اخر في الموضوع نفسه استغرابه لموقف الجيش العراقي ويقول « لا يمكن الانسان الا ان يعجب من خمول قوات كبيرة كهذه » ويعتقد ان العراقيين كانوا « ابادوا » اليهود في المنطقة لو حاربوا . لكن الكاتب يزعم ان عدم خوض العراقيين الحرب كان « لعدم وجود نفسية هجومية عندهم » (٢) . وهو يجهل ، او يتجاهل ، ان السبب غير ذلك : عدم وجود اوامر لديهم بالحرب . ولعله لا يعلم ، او لا يريد ان يعلم ، ان جنودا وضباطا كثيرين اصيبوا بانهيار عصبي من جراء منعهم من ملاحقة العدو ، وان جنودا وضباطا اكثر كفروا بعرشهم وحكومتهم لما ادركوا الخديعة التي صنعها هؤلاء . وقد بلغ من سعي الحكومة لاذلال جيشها ان ترك الجنود في الجبهة بلا رواتب عدة اشهر ، حتى ينفروا من فلسطين ومن حرب فلسطين ويطالبوا بالعودة . وجدير بالذكر ان الجيش العراقي خاض الحرب وهو لا يزال مقيدا بالبعثة العسكرية البريطانية التي سيطرت على اوضاع الجيش وكشفت اسراره .

---

(1) Harry Sacher, Israel (London, 1952).
(2) Edgar O'Ballance, The Arab Israeli War, 1948, P. 118.

وكانت البعثة تتألف من ثمانية وعشرين ضابطا . وقد اشرفت على الحملة اشرافا تاما وخاصة من حيث التدريب والتسليح .

هذا عن الجيش العراقي . اما الجيش الاردني ، المسمى بالجيش العربي، فقد سلك سبيلا اخر . دخل هذا الجيش فلسطين باقل من اربعة الاف جندي ، ظل بعضهم في اريحا وذهب الباقون الى نابلس وسائر انحاء المثلث العربي ، في حملة عرض عضلات واخافة للحركة الوطنية بين السكان ، قبل ان يتوجهوا نحو الجبهة . اما التسعة عشر الف جندي اخر فانهم لم يقوموا باي دور انذاك ، في القتال . كان نصفهم يعسكر في فلسطين من قبل الحرب الخاطفة. لكن عبدالله سحبهم الى شرق الاردن مع انسحاب القوات البريطانية. وقد حرصت الحكومة الاردنية على الا تزيد ميزانية الجيش العادية عند الاستعداد لحرب فلسطين ، فدخل الجيش الحرب وهو بميزانيته العادية لحالة السلم . هذا مع ان الحكومة الاردنية رفعت الميزانية كثيرا بعد ذلك ، حتى اصبحت ميزانيته ثلاثة ارباع ميزانية البلاد . وارتفعت مخصصات الجيش في مدى عشر سنوات من مليون ونصف جنيه (١٩٤٨) الى ثمانية عشر مليونا (١٩٥٨) . ويروي قائد الجيش في حرب فلسطين ان رئيس الحكومة ، ابا الهدى ، اجابه لما طالبه القائد بميزانية خاصة كما هي العادة في الحرب « ليدفع ذلك اولئك الذين يريدون الحرب » (٣) . وفي كتاب جلب صورة مؤلمة لوضع الجيش في الحرب، وقلة استعداداته واسلحته واحتياطه.

كان البريطانيون يشرفون على الجيش الاردني اشرافا تاما بواسطة قيادته التي كانت تتبع وزارة الحربية البريطانية والتي تسلمها عدد من الضباط « المعارين » لخدمة الاردن . وكان في الجيش انذاك ستة واربعون ضابطا من هؤلاء ، اشهرهم اللفتننت جنرال جلب قائد الجيش والبرجدير لاش مدير العمليات . وكان قادة الوحدات ومدراء ادارات الجيش كلهم من البريطانيين . وتقدم مذكرات عبدالله التل ، الذي كان احد الضباط العرب الكبار القلائل في حملة فلسطين ، صورة مؤلمة عن احتكار الانجليز لقيادة الجيش وتسلطهم على كل الامور وسعيهم للحيلولة دون قيام الضباط العرب بمحاربة « اسرائيل » بالفعل . وكان جلب يعلن امام الصحفيين الاجانب بانه يعمل لايقاف الحرب. ومع ان الصهيونيين اثاروا قضية اشراف الضباط الانجليز على جيش الاردن وتاجروا على حسابها ، علموا تمام العلم ان ذلك الاشراف انما كان لمصلحتهم هم . وقد ابلغهم المسؤولون البريطانيون بصراحة ان بقاء الضباط الانجليز في الجيش لا بد ان يساعد الصهيونيين ويخفف من حدة القتال بينهم وبين العرب ـ حسب تأكيد احد المسؤولين الصهيونيين ،

---

(3) John Bagot Glubb, Soldier with the Arabs, P. 82

وكان حاكما للقدس المحتلة خلال الحرب (٤) .

هذا هو الجيش الاردني في ١٩٤٨ الذي تأمل العرب فيه انقاذ فلسطين. لم تبدأ قواته بالقتال الا في التاسع عشر من الشهر ، بعد ان اخذ اليهود وقتا كافيا للدفاع والتحصن منذ ان خرج البريطانيون من القدس في الرابع عشر من الشهر . ولم تبدأ قواته بالضغط على « الاسرائيليين » الا بعد ذلك بثلاثة ايام . ومع ان الجيش استطاع ان يحتل القدس القديمة كلها في مدى اسبوع واحد بقيادة عبدالله التل كانت قيادة الجيش العليا تعمل على تأخير تقدم الجنود وشل نشاطهم . فكان الضباط البريطانيون يمانعون في ارهاق اليهود المحاصرين في القدس ويسحبون القوات الاردنية الى الوراء كلما توغلت في هجماتها ويمنعون عنها المدفعية والمصفحات حتى لا يخرج الجنود عن حدود المنطقة التي « اعطيت » للعرب في قرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة . ومنع عبدالله جنوده من الهجوم على جبل سكوبس الاستراتيجي ، وابقاهم تحت رحمة المحاربين اليهود المتخفين في البسة مدنية في مستشفى هداسه وفي الجامعة العبرية . وامر عبدالله جنوده بالانسحاب من اكثر من قرية لانه كان قد وعد اليهود بها ، مثل قريتي البرج وعرطوف . كما امر عبدالله بحماية المنشآت اليهودية في مصانع البوتاس في الضفة الغربية للبحر الميت ، بحيث تمكن اليهود في ما بين الخامس عشر والثامن عشر من مايو من نقل اعتدتهم واسلحتهم من مستعمرة كاليه التي احتلها العرب الى الجهة الوسطى والجنوبية من تلك الضفة ، واستأنفوا العمل هناك ، ولا يزالون ، دون ان يمنعهم الجيش الاردني .

بالرغم من مختلف العراقيل تمكن الجيش الاردني من السيطرة على الموقف . وكان في اواخر الاسبوع الاول من يونيو قد احكم حصار القدس الجديدة بعد ان استسلمت القدس القديمة ، حصارا كان لا بد ان ينتهي باستسلام اليهود لولا الهدنة التي اعلنت بين الجانبين . كاد اولئك اليهود المحاصرون ، وعددهم مئة الف ، يهلكون جوعا . ونفد ماؤهم بعد ان قطع العرب عنهم مياه راس العين واستولوا على محطات الضخ في اللطرون وباب الواد . فلجأت حكومة « اسرائيل » الى البريطانيين . واقترح مندوب بريطانية في الامم المتحدة اعلان هدنة لمدة اربعة اسابيع . وكانت الحكومة البريطانية قد دهشت لفشل اتفاقها مع عبدالله ، وحاولت ان تطوق اصرار الحكومات العربية غير الهاشمية على القتال فاقترحت في مجلس الامن ، في الثاني والعشرين من مايو ، ايقاف القتال خلال ست وثلاثين ساعة. لكن العرب رفضوا

---

(4) Dov Joseph, The Faithful City (London, 1962), P. 119.

الاقتراح . فاقترحت هدنة الاسابيع الاربعة التي الح اليهود بطلبها . وللحال اعلن عبدالله موافقته وضغط على الحكومات العربية لترضى بالهدنة . ولكن معظمها لم يكن متحمسا للهدنة لان الاوضاع العسكرية كانت في صالح العرب . كانت القوات العربية تسيطر على مختلف الجبهات . احتل المصريون اغلب النقب وعسكروا في بئر سبع والخليل وبيت لحم وجنوب القدس . واحتل العراقيون المثلث العربي واقتربوا من ساحل المتوسط . وسيطر الاردنيون على القدس وحاصروا الانحاء الجديدة منها . كان العرب هم المنتصرون بوجه عام وان لم يبلغوا اهدافهم تماما ، اذ انهم احاطوا « بالدولة » المعادية وشطروها الى شطرين تقريبا وهددوها تهديدا مباشرا . لذلك ايدت حكومات سورية ولبنان والسعودية مصر في محاولتها في مجلس الجامعة العربية لاصدار قرار برفض الهدنة التي امرت الامم المتحدة بها في التاسع والعشرين من مايو . لكن عبدالله شذ عن الحكومات العربية . واعلن مندوبه في مجلس الجامعة ، ابو الهدى ، بان شرق الاردن سينسحب من الجامعة ومن حرب فلسطين ان لم يتوقف القتال . فتقيدت الحكومات العربية برغبة الملك الهاشمي ووافقت على الهدنة التي اعلنت في صباح الحادي عشر من يونيو لمدة اربعة اسابيع .

بدا اليهود ، مع اعلان الهدنة ، يتموّنون بالماء والطعام وبالسلاح الذي كان ينقل تحت سمع ضباط الجيش الاردني وبصرهم . واستغلوا الهدنة لتعزيز مركزهم في القدس . فشقوا طريق « برمه » بين القدس وتل ابيب لتفادي استعمال طريق باب الواد الذي سيطر الاردنيون عليه . واشتروا الاسلحة من الكتلتين العالميتين على السواء ، الشرقية والغربية . وتزودوا بعدد كبير من الطائرات والدبابات والمدافع . ودربوا المدنيين . ووحدوا قواتهم المسلحة ونظموا امورهم المختلفة .

اما السلطات الاردنية فلم تفعل ، مقابل هذه الاستعدادات، شيئا يذكر . لم تستورد اي سلاح لانها كانت لا تستورد السلاح الا من بريطانية التي رفضت انذاك تزويد العرب بسلاح جديد بحجة التقيد بمقررات مجلس الامن الذي حظر على الدول تقوية جانب ضد اخر في الشرق الاوسط . ترك الجيش الاردني في حاجة قصوى للعتاد والذخيرة بسبب خضوعه لبريطانية بينما خرق اليهود الحصار واستوردوا السلاح من اكثر من مكان .

واستغل ملك شرق الاردن الهدنة ليضرب الحركة الوطنية في المناطق التي احتلها من فلسطين . فامر بجمع اسلحة المجاهدين الذين لم يخضعوا لقيادة جيشه . وامر بتسريح جيش الانقاذ وطرد غير الفلسطينيين من رجاله بعد الاستيلاء على سلاحهم . وكان عبدالله ، بصفته قائد القوات العربية ،

قد امر بشل نشاط هذا الجيش ، وابعاده عن المناطق الخطرة من قبل الهدنة. وكادت مدن الناصرة واللد والرملة تخلو من المجاهدين بسبب هذه الاجراءات، وتعرضت للخطر ثم سقطت بعد انتهاء الهدنة بايام . اما في القدس فبلغت نقمة عبدالله على المجاهدين اقصاها . بدأ اولا بطرد جيش الانقاذ من المدينة . ثم اخذ يضيق على قوات « الجهاد المقدس » . وامر جنوده باحتلال مراكز تلك القوات واعتقال ضباطها والاستيلاء على اسلحتها بحجة تعاونها مع مفتي فلسطين ومع مصر ورفضها اخذ الاوامر منه . وطوق جنود عبدالله مركز تلك القوات في بيت لحم وهددوا باطلاق النارعلى من في المركزولكن الفدائيين المصريين احاطوا بالاردنيين وارغموهم على الانسحاب . واستمر الضغط على « الجهاد المقدس » الذي رفض ان يستسلم لعبدالله ولم يتهاون امام تهديداته الى ما بعد الهدنة الاولى ، والى مطلع ١٩٤٩ . فكانت القوات الاردنية تغير على مراكز المجاهدين في القدس ورام الله وبيرزيت وتعتقل او تطرد من تعثر عليه منهم ، حتى هرب معظمهم الى بيت لحم حيث حماهم الفدائيون المصريون الى ان انسحبوا من المنطقة في ابريل ١٩٤٩ . وعندها حل الاردنيون المنظمة المجاهدة نهائيا اذ لم يعد لها من يحميها من غضب عبدالله .

وقام ملك شرق الاردن بعمل اخر يتعارض مع سلامة الجانب العربي في الحرب : عقد اتفاقا مع « الاسرائيليين » في السابع من يوليو ١٩٤٨ ، اي في اخر ايام الهدنة الاولى ، تنزل فيه لهم عن جبل سكوبس ، شاملا مستشفى هداسه والجامعة العبرية ومستشفى اوجسته فكتورية وقرية اليسوعية . وجعل المنطقة ارضا دولية باشراف شرطة « اسرائيلية » هي في الواقع فرقة من جيش العدو . ويعترف جلب ان اليهود في تلك المنطقة كانوا « حصنا عسكريا وراء خطوطنا » . ولكنه لم يقل لماذا اوكل نائبه ، البرجدير لاش ، بالتوقيع على هذه الاتفاقية التي استنكرها العرب في كل مكان (٥) .

اخذ عبدالله ، مقابل هذا الموقف المتعارض مع اهداف القضية الوطنية، يتودد الى السياسيين ورجال الاعمال والملاك العاطلين عن العمل والنضال ويظهر عطفه عليهم ويحسن اليهم . بل انه حاول ان يتودد ايضا الى بعض السياسيين الموالين للحركة الوطنية ليكسبهم الى جانبه وليحارب بهم الحركة المذكورة . فزار القدس في يوم اعلان الهدنة وعين احمد حلمي حاكما عسكريا عليها مسؤولا امامه مباشرة . ولم يثر العرب ضجة حول هذا التعيين الذي دل على نية عبدالله بضم القدس الى مملكته ، لانهم كانوا مشغولين بمصير البلاد بكاملها . اما احمد حلمي فان اغراء الملك له بالمنصب لم يزعزع ثقته بالحركة الوطنية . وقد انسحب من المعسكر الهاشمي بعد اسابيع قليلة

(5) John Bagot Glubb, Soldier with the Arabs, P. 343.

ليتراس اول حكومة فلسطينية ، حكومة عموم فلسطين التي تشكلت بالاسم فقط في غزه . وقد ظن عبدالله ان خسارة الرجل لمصرفه في حرب فلسطين ستسهل عليه غسل دماغ هذا السياسي وتبديل موقفه .

استغل عبدالله الهدنة وتجول بين بعض العواصم العربية ، القاهرة والرياض وبغداد ، ودعا حكوماتها الى الاقلاع عن فكرة مواصلة الحرب بعد انتهاء فترة الهدنة في الثامن من يوليو ، والى مصالحة « اسرائيل » والتقيد بقرارات هيئة الامم – وحجته ان برندت ، الوسيط الدولي ، قد وعده بالعمل على انقاذ فلسطين بالسلم . وطالب رئيس الحكومة الاردنية باتخاذ هذه الاجراءات نفسها في اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية في القاهرة في اخر اسابيع الهدنة . لكن اغلبية الحضور عارضته واسكتته .

قصد عبدالله من محاولته ان يمهد الطريق امام برندت ، عضو الاسرة السويدية المالكة الذي عينه مجلس الامن وسيطا دوليا في العشرين من مايو، لدرس ظروف النزاع العربي « الاسرائيلي » وايجاد حل يرضي الفريقين . وقد علم عبدالله ان الحكومة البريطانية كانت وراء فكرة ارسال الكونت السويدي وسيطا الى فلسطين ليضع حلا ينسجم مع المخطط السابق الذي تفاهم عبدالله والبريطانيون عليه ، وهو يحمي مصالح البريطانيين في المنطقة ويحقق اطماع عبدالله في فلسطين ويحمي « دولة اسرائيل » في آن واحد . وعلم عبدالله بحقيقة محتويات تقرير الوسيط من قبل ان تنشر ، بل من قبل ان يضعها صاحبها في شكلها النهائي ، اي في الايام الاخيرة من يونيو . وهذا ما حمل عبدالله على ان يلح في طلب التمنع عن خوض الحرب ثانية وفي طلب تمديد الهدنة حتى تنفذ الامم المتحدة مشروع برندت الجديد .

تلخصت مقترحات برندت ، في المسودة الاولى ، بتأليف اتحاد في فلسطين وشرق الاردن معا ، من دولتين عربية ويهودية ، ترسم الحدود بينهما فيما بعد باشراف وسيط دولي . ويشرف الاتحاد على المصالح الاقتصادية والجمركية والانمائية والتعميرية والدفاعية وعلى السياسة الخارجية لكل من البلدين . وتبقى لحكومة كل منهما رقابة كاملة على الشؤون الداخلية . ولها الحق بالسماح لاي عدد من المهاجرين . وقالت المقترحات ايضا بضم الجليل الى الدولة اليهودية وبضم القدس والنقب الى الدولة العربية . اما اللد وحيفا ويافا فتبقى تحت وصاية دولية . ويعترف برنادت في مذكراته انه ادرك ، قبل ان يضع تقريره ، ان البريطانيين يريدون منه ان يعدل مشروع التقسيم الذي وضعته الامم المتحدة قبل نصف سنة تعديلا يرضي عبدالله ، فيضم اليه القسم العربي من فلسطين ويضم القدس والنقب الى ذلك القسم . ويعترف ايضا ان البريطانيين ارادوا تقوية عبدالله ليصبح زعيما على العرب

ويتغلب على الزعامات العربية المنافسة (٦) . وقد فضحت المقترحات علاقة بريطانية بالمشروع من قبل نشر المذكرات . اذ كان المشروع تتمة لمشاريع التقسيم القديمة التي سبق ان وضعها بريطانيون متعددون ورفضها العرب لانهم وجدوا فيها اذلالا لحقوقهم . وقصد من تسليم النقب الى شرق الاردن تأمين مصلحة بريطانية في حماية السويس وضمان امكان حفر قناة تنافس السويس يوما ما . كما قصد من تسليم الجليل للعدو التمهيد لعزل لبنان عن المجموعة العربية ولانشاء كيان انعزالي فيه ينسجم مع فكرة سورية الكبرى.

لهذه الاسباب كانت بريطانية اول من اعلن تبنيه للمقترحات ، مثلما كان ممثلوها في الشرق الاوسط اول من اتصل برندت بهم وهو يضع مشروعه. كانت بريطانية ، في الحقيقة ، تعمل انذاك جديا لضمان استمرار نفوذها في المنطقة . وكانت واثقة انها ستبقى تسيطر على النقب حتى انها بنت معسكرات وقواعد حربية جديدة قبل جلاء قواتها عن فلسطين بوقت قصير . ويجب الا ننسى ان مصر كانت قد بدات تتململ رسميا من بقاء القوات البريطانية فوق اراضيها ، حتى اصبح مركز تلك القوات مهددا بالخطر . لذلك كان اعطاء النقب لعبدالله يخدم اغراض البريطانيين من نواح اخرى غير عزل مصر وابعادها عن فلسطين (وكانت القوات المصرية هي التي تحتل منطقة النقب عسكريا) . منها اثارة مصر ، الحديثة العهد بالتزاماتها العربية ، ضد شرق الاردن الذي يأخذ النقب، وزعزعة الفكرة العربية فيها نتيجة لذلك ــ وهو ما قد حصل بالفعل ١٩٤٨ ــ ١٩٥٢ . ومنها تعقيد سبل اتصال مصر باسية العربية اذ ان النقب هو الطريق البري الرئيسي بين القارتين . ومنها وضع عبدالله تحت رحمة بريطانية « واسرائيل » لان النقب الصحراوي لا يمكن استغلاله والافادة منه الا باموال طائلة تجعل من عبدالله خاضعا لمن يمده بها. واخيرا فان النقب يشمل العقبة في اقصاه الجنوبي، وهي اهم نقطة استراتيجية لبريطانية بين السويس وعدن . وهذا ما جعل بريطانية تبعث بقواتها الى العقبة في اخر ١٩٤٨ حينما اقتربت القوات « الاسرائيلية » منها ، مع ان الاردن لم يشك «اسرائيل» وتصرف ازاء ذلك الهجوم وكأن الامر ثانوي لا يهمه . وقد وصلت قوات بريطانية اضافية الى المنطقة في الرابع من يناير ١٩٤٩ واوقفت التقدم « الاسرائيلي » . وعزز البريطانيون حاميتهم هناك من جديد في مارس من تلك السنة . اما الصهيونيون فاكتفوا ، مؤقتا ، ببناء ميناء ايلات .

وكان لمشروع برندت اهداف اخرى لارضاء المعسكر الغربي بوجه عام، وليس لبريطانية وحدها ، في وقت كان هذا المعسكر يتكتل فيه لمقاومة التكتل الاشتراكي في شرق اوربة . من هذه الاهداف التي جعلت ناظر الخارجية

(6) Folk Bernadotte, To Jerusalem (London, 1956), P. 10-11.

الاميركية يتحمس للمشروع انه كان يؤمن للغرب هدوءا نسبيا في المنطقة ، باتفاق شرق الاردن مع « اسرائيل »، مما يغلق احد مجالات التدخل السوفيتي الا ان « اسرائيل » ، التي ارادت اكثر مما وعدها به مشروع برندت ، ضغطت على الرئيس ترومن فسحب تأييد حكومته للمشروع (اكتوبر ١٩٤٨) . وكان ترومن يحتاج في ذلك الوقت بالذات الى رضى يهود الولايات المتحدة بسبب انتخابات الرئاسة في ذلك الوقت .

رفضت الحكومات العربية مقترحات برندت التي تجول صاحبها بين العواصم العربية للدعوة لها. ومع ان عبدالله صارح الحكومات العربية وبرندت بتأييده لتلك المقترحات تحفظ قليلا في تصريحاته العلنية وعلق على المقترحات تعليقات مبهمة ومتناقضة يفهم منها الرفض والقبول معا . وبلغ من تأييده للوسيط الدولي ان اعجب الوسيط به ومدحه واعلن انه بينما يتشاءم كلما زار عاصمة عربية يتفاءل كلما زار عمان بالذات . وقد قارن في مذكراته بين تمسك مصر بمسؤولياتها العربية وتهاون عبدالله بحقوق العرب .

واذ فشلت محاولات برندت ، التي ازره فيها عبدالله وبفن ، اشتعلت نار الحرب من جديد ، في الثامن من يوليو ١٩٤٨ . ويقول الوسيط ان عبدالله « لم يكن مرتاحا قط للعودة الى القتال » . فقد خشي الملك الهاشمي ان تضطره الحرب الى الخروج على المخطط المتفق عليه مع بفن ثم مع برندت. لذلك بذل جهده ، بعد ان ارغمته الجامعة على استئناف القتال ، الا يخرج على قيود ذلك المخطط . ففي القدس ، حيث كاد جنوده يحتلون المدينة بكاملها بعد ان انتصروا في معركة الشيخ جراح ، اصدر اليهم اوامره بالتوقف عن التوغل في المنطقة اليهودية والاكتفاء بمحاصرتها فقط ، مع ان الحصار كان عديم المفعول من بعد ان فتح اليهود طريق برمه . كما امر عبدالله رجاله بتنفيذ قرار تسليم جبل سكوبس للشرطة « الاسرائيلية » ، وهو تسليم انتهى بسيطرة اليهود على المنطقة سيطرة تامة . ولم يتقدم الجيش الاردني ، بعد بدء المرحلة الثانية للقتال ، خطوة واحدة ، ولكنه تراجع في اكثر من مكان، لا عن عجز وانما بسبب اوامر الملك . وخسر العرب في ايام القتال العشرة (٨ ــ ١٨ يوليو ١٩٤٨) عدة مواقع كان الاردنيون قد احتلوها من قبل ، وابرزها بلدتا اللد والرملة .

كتب الكثير في استشهاد هاتين البلدتين العربيتين اللتين كانتا من نصيب العرب حسب مشروع هيئة الامم للتقسيم . وقد قبل عبدالله ان يتخلى عنهما واسهم في تسليمهما لليهود ، لانهم اشترطوا الحصول عليهما قبل ان يصار الى اي تفاهم بينهم وبينه ، ولانه اراد ان يبرهن لهم عن حسن نيته نحوهم . وتعود اهمية البلدتين الى وقوعهما ضمن مجموعة من المعسكرات اليهودية ،

واشرافهما على طريق تل ابيب ـ القدس وتهديدهما سبل المواصلات داخل « اسرائيل » ، والى وجود مطار اللد الشهير فيهما . ثم ان سقوطهما كان يكفي لتحطيم المعنويات العربية ولتعريض ميمنة الجيش المصري للخطر . وكان اجلاء سكانهما الخمسين الفا يقدم « للدولة » الجديدة ثلاثة ارباع مليون دونم من الارض الخصبة .

حصلت المؤامرة بتنظيم وبسرعة : طرد عبدالله المئات من المجاهدين الفلسطينيين من المنطقة قبل انتهاء الهدنة الاولى بايام قليلة . وسحب الحامية الاردنية من البلدتين وارسلها الى وادي الغور ، حيث كان الجيش العراقي ، بينما انسحب العراقيون فجأة من حصون راس العين الاستراتيجية . ولم يبق في المنطقة الا سرية مشاة اردنية واحدة . اي ان البلدتين تركتا تحت رحمة عدو لا يرحم . فهاجمهما اليهود يوم عودة القتال ، واحتلوهما خلال اربعة ايام رفض الاردنيون والعراقيون فيها مد يد العون الـى المناضلين الفلسطينيين الذين صمدوا في وجه العدو تلك الايام الاربعة ببسالة. وانسحبت سرية المشاة الاردنية عند مجيء اليهود وتركت اسلحتها غنيمة باردة لهم . وبينما تشتت الالاف من سكان البلدتين النازحين عنهما حتى وصلوا عمان كان عبدالله وجلب يؤمنان لليهود استمرار تقدمهم في المنطقة نحو القدس ، فتخليا لهم عن عين كارم والمالحة وصوبه . وبالطبع لم تنفع النازحين عن اللد والرملة تظاهراتهم في عمان ضد الملك وقائد جيشه . ولم يبق لهم من سلاح يرمونه في وجه من اخرجهم من ديارهم الا حجارة للموها من جنبات الطرق في عمان ورشقوا بها قصر الملك وسيارة قائده . ولم تنفع الملك مزاعمه التي اعلنها في خطابه امام المتظاهرين الساخطين بانه لم يتخل عن البلدتين وان الصهيونيين غدروا بجنوده . ولم تنفع جلب مزاعمه التي نشرها في مذكراته بالدفاع عن موقف القيادة البريطانية في جيش شرق الاردن . فقد فضحت المذكرات دور صاحبها وعبدالله في تسليم البلدتين وعزمهما على ذلك حتى من قبل ان تبدأ حرب فلسطين ـ ذلك انها تعترف ان تسلم الاردنيين للد والرملة كان بصورة مؤقتة ، ولذلك تركوهما بلا حماية . وان كانت هتافات النازحين لم تعدهم الى بيوتهم ، فان خطب عبدالله واقوال جلب لم تصنهما من غضب الشعب الذي فتك بالاول وطرد الثاني في مدى ثمانية اعوام من حصول النكبة .

مرة اخرى ضغط البريطانيون والامم المتحدة على الحكومات العربية المقاتلة حتى تتوقف عن القتال وتعلن هدنة ثانية ، بعد ان رفض الاردنيون والعراقيون ان يتقدموا شبرا واحدا ضد « اسرائيل » . وادرك الجيشان المصري والسوري ان توقف الجيشين الهاشميين عـن القتال معناه تفـرغ الصهيونيين لهما في جبهتي الجنوب والشمال . فخضعت الجامعة العربية

للضغط وقبلت بالهدنة . فاعلنت الهدنة الثانية في صباح الثامن عشر من يوليو ١٩٤٨ . ومع انها بدات رسميا في صباح التاسع عشر كان عبدالله قد منع جيشه من اطلاق النار على العدو منذ السابع عشر من الشهر . وكانت الهدنة لصالح « اسرائيل » من كل النواحي : كان الجيش المصري لا يزال ثابتا في مكانه وكان الجيش السوري لا يزال يحتل مناطق واسعة ، ولم يكن جيش الانقاذ الذي تركه العراقيون في الميدان لوحده قد انسحب بعد من شمال فلسطين . ولكن عبدالله كان قد قام بدور كبير في حمل الحكومات العربية على القبول بالهدنة . واعاد التهديد نفسه الذي اعلنه قبل الهدنة الاولى . ومع هذا فقد زعم للرأي العام انه لم يرض بالهدنة الا مرغما « تحت الضغط الدولي العام » . وكعادته ، زعم ، بل اقسم، انه سيعود الى القتال لما تسمح له ظروفه .

لكن الهدنة لم تكن للصهيونيين هدنة قط . استغلوها لاحتلال ما لم يحتلوه في الحرب : هاجموا عدة قرى في منطقة المثلث (عين غزال ، وجبع ، واجزم) واحتلوها في الثاني والعشرين من يوليو دون ان يحرك الجيش العراقي ساكنا . كانت حجة قيادته ان هذه القرى من صميم المنطقة التي قررتها الامم المتحدة لليهود . كما احتل الصهيونيون ما تبقى من قرى عاصية على طريق القدس ــ تل ابيب ، واكبرها قرية عجنجول . ولم يحرك الجيش الاردني ساكنا ، ولقيادته الحجة ذاتها . ثم اخذ الصهيونيون يضغطون على القدس ، بعد ان استلم موشي ديان قيادة المنطقة . واغاروا على احيائها العربية . فناشد اهلها عبدالله ان يدافع عن المدينة ولا يفرط بها مثلما فرط بغيرها . واضطر عبدالله ، خوفا من تفاقم النقمة ، ان يعهد الى قائد الجيش العراقي في فلسطين، مصطفى راغب ، بتسلم مهمة الدفاع عن القدس . وكان عبدالله يأمل ان يسكت القائد المذكور عن الاخطاء التي يراها لانه كان محسوبا على الهاشميين وقد ترأس محكمة عسكرية حاكمت وادانت بعض رجال ثورة ١٩٤١ الوطنية ، وكان تركي الاصل . غير انه اضطر الى الاستقالة بعد وقت قصير لانه اكتشف ان تعيينه كان لستر جريمة ترك المدينة بلا حماية . وقد حاول ان يعزز الدفاع عنها وان يستقدم فرقة عراقية تدعم السبعمئة جندي اردني فيها . لكن عبدالله وعبد الاله رفضا طلبه . وقد فضح في رسالة استقالته تلك المؤامرة على القدس . لكن السلطات العراقية امرت بمنع نشرها .

انتشرت موجة من التذمر ازاء هذه التصرفات بين ضباط الجيش الاردني . ووصلت اسماع عبدالله وجلب احتجاجات وانتقادات كثيرة . فاضطر عبدالله ان يؤسس وزارة للدفاع في حكومته ، لتهدئة الثائرين لكرامة عروبتهم من الضباط ، وليوهم الناس ان الجيش الاردني اصبح في ظل قيادة

عربية وان كان قائده بريطانيا ـ وكان الجيش حتى ذلك الحين لا يزال يتبع وزارة الحربية البريطانية .

وتعرض عبدالله لانتقاد مر بسبب موقفه من حلفائه في القتال ، وخاصة المصريين . فقد قام وجلب بحملة قوية لتحطيم سمعة المصريين في فلسطين ولافشال المخطط العربي العسكري ليتمكن عبدالله بذلك من تحطيم المعارضة التي قامت في وجه مصالحته مع « اسرائيل » وضم القسم العربي من فلسطين، وليتمكن الانجليز ، في الوقت نفسه، من اضعاف الجانب المصري فيمباحثاتهم معه حول الجلاء عن القواعد العسكرية في منطقة القنال .

اوجد اشتراك مصر في حرب فلسطين وتحملها مسؤولياتها العربية رد فعل سيء عند الملك عبدالله . فقد حرمه ذلك الاشتراك الذي لم يكن يتوقعه، ولا كان الانجليز يتوقعونه ، من تحقيق مخططه الذي وضعه مع الانجليز منذ البدء . وخشي ان يخرج من الحرب صفر اليدين . فكان يتابع اخبار الجيش المصري وتحركاته ومعاركه مع « الاسرائيليين » بشكل خاص . وكان يبحث دائما عن عذر ليثير المشاكل مع المصريين . وفي نهار اشتد القتال فيه بين القوات العربية والعدو قبل الهدنة الاولى كان عبدالله مشغولا عن تتبع القتال ومصير جيشه بتوجيه احتجاج شديد اللهجة الى السلطات المصرية لان العلم المصري ارتفع فوق بناية في بيت لحم سنتمترات قليلة اعلى من علم شرق الاردن . وكان عبدالله يشرك السعودية في نقمته على حلفائه . ومع ان ابن سعود استقبله بحرارة في صيف ١٩٤٨ بقي عبدالله يفكر بالانتقام منه . ويروي عبدالله التل ان ملكه باحث ولي عهد اليمن وعددا من رفاقه ، عندما زاروا فلسطين في يناير ١٩٤٩ ، في مشروع سري بمهاجمة المملكة العربية السعودية من الاردن والعراق واليمن ، من الشمال والشرق والجنوب . وقد قال لهم ، بلهجته البدوية « ما لنا ولفلسطين . انتم شفتم تعلق الناس بنا . وليه ما تيجو من الجنوب وانا بجيشي من الشمال وابن اخي من الشرق فنلتقي في مكة ؟ » (٧) .

كان من اول اعمال عبدالله بعد بدء الهدنة الثانية ان سحب القوات الاردنية من منطقة بيت لحم ، حتى يتعرض المصريون المسؤولون عن حمايتها بقيادة الضابط احمد عبد العزيز للخطر . وفي الوقت ذاته خطب في استعراض لجنده في عمان ، في السادس من اغسطس ١٩٤٨ ، خطابا طويلا عرض فيه بالقوات المصرية وسخر من اعمالها في فلسطين وزعم انه هو الوحيد الذي جاهد . « **نحن وغيرنا ذهبنا الى القتال في فلسطين . ها نحن هنا . ولكن**

---

(٧) عبدالله التل ، كارثة فلسطين ، ص ٣٩٧ .

اين هم ؟ لقد حاربنا وانتصرنا وتقدمنا . ولكن لا نراهم منتصرين ولا متقدمين)).
واوعز الملك الى رجاله بان يقوموا بحرب اعصاب ضد مصر لتحطيم سمعتها في البلاد . فاخذ الحاكم الاردني العام لفلسطين يذيع ان القوات المصرية ستنسحب فجأة وتترك فلسطين لليهود . وتجول الضباط البريطانيون في القرى العربية يحذرون اهلهامن التعاون مع المصريين. وتحدث عبدالله وجلب اكثر من مرة امام رجال الصحافة الاجانب عن ((ضعف)) المصريين . ويروي صحفي اميركي انجلب حدثه لمدة عشر دقائق عن فشل المصريين في الحروب منذ ايام الفراعنة الى اليوم (٨) . وبلغ من تهجم عبدالله على المصريين ان اخذ يمدح الصهيونيين على حسابهم . وقد كتب احد مؤرخي الجيش الاردني في كتاب له بعنوان ((جيش جلب)) ((سريعا ما اخذ الجيش (الاردني) يكره المصريين بقدر ما يكره الاسرائيليين تقريبا . بل اني لم اسمع اي جندي من الجيش يقول كلمة واحدة جيدة في الجيش المصري . بينما سمعت عدة ضباط عرب يعبرون عن اعجابهم بالصفات المقاتلة في الجنود الاسرائيليين الذين حاربوا في الحرب العالمية الثانية)). ثم يورد الكاتب قصيدة نظمها احد الضباط البريطانيين في الجيش الاردني في الهزؤ بالمصريين وشتم بلادهم (٩) .

والواقع ان اسلوب مهاجمة مصر ومحاولة تحطيم سمعتها للمشاغبة على القضية العربية ولخدمة اعدائها نما كثيرا في العقد الخمسيني ، في عهد تطور الفكرة العربية وخوف هاشميي العراق والاستعمار من اثرها في مصر . ولعل م ناكثر ما عبر عن هذا الاسلوب في الطعن بالقضية العربية كتابات الحزب السوري القومي في لبنان ضد مصر والمصريين في النصف الثاني من العقد . ولاحد رجالات الحزب كتيب باللغة الانجليزية في الهزؤ من انسحاب الجيش المصري من سيناء خريف ١٩٥٦ . وقد وزعت الاف النسخ من الكتيب على جنود البحرية الاميركية الذين كانوا يترددون كثيرا على بيروت في اعقاب حرب السويس . ويحسن بالقارىء للمقارنة مع دعاوة الهاشميين واعوانهم ضد مصر في حرب فلسطين وذيولها ، ان يعود الى ما كتبه الصهيونيون انفسهم عن تلك الحرب ، ليلمس سوء نية الهاشميين واعوانهم في تزوير الوقائع . فقد اعترف عدد من الكتاب الصهيونيين ببطولات المصريين في فلسطين بالرغم من سعيهم الدائم للتهجم على مصر . من بين هؤلاء اللفتننت كولونيل في جيش ((اسرائيل)) نتنئيل لورش في كتابه ((حد السيف)) ، وهو مصدر شبه رسمي من الزاوية ((الاسرائيلية)) ، لان

---

(8) Kenneth Bilby, New Star in the Near East (New York, 1951), P. 54.
(9) Godfrey Lias, Glubb's Legion (London, 1956), P. 184, 199 - 200.

المؤلف رئيس دائرة التأريخ الحربي في قيادة الجيش « الاسرائيلي » (١٠) . وجدير بالذكر ان مصر تحملت ثلاثة ارباع نفقات حرب فلسطين عسكريا ، وقدمت نصف شهداء العرب غير الفلسطينيين في تلك الحرب ، وارسلت الى ميادين القتال عشرة الاف جندي . واستطاع جيشها ان يحتل امنع ثلاثة حصون في فلسطين منذ الاسابيع الاولى من القتال (اسدود ودير سنيد وبيت سالم) . ثم ان اسرى « اسرائيل » من الجنود المصريين كانوا اقل من نصف اسراها من جنود شرق الاردن ، بالنسبة الى عدد المحاربين المصريين والاردنيين في فلسطين .

شكلت مصر ، حتى صيف ١٩٤٨ ، الخطر الاكبر على كيان « اسرائيل »، وعلى اطماع عبدالله التي كانت ترتبط بوجود « اسرائيل » وصمودها . فهي زعيمة الدول العربية وموضع ثقة الرأي العام واكبر قوة داخل الجامعة . وجيشها اكبر جيش في الشرق العربي عموما واكبرها في فلسطين خصوصا . وكان هو الجيش الذي لم ينتصر اليهود عليه بعد ، في حين كانوا قد انتصروا على الاردنيين في اللد والرملة على الاقل . وكانت المنطقة التي احتلها الجيش المصري في فلسطين اوسع المناطق العربية . وكان نفوذ بريطانية في الاوساط الحاكمة في مصر اقل منه في اوساط اي من البلدين الهاشميين . ومصر هي التي اقامت حكومة عموم فلسطين في غزة واخذت تشحذ همم الفلسطينيين ليستمروا في القتال عسكريا وسياسيا . وهي التي قاومت المساومات والمشاريع المشبوهة ورفضت التساهل الذي رضي الهاشميون به . وكانت تفضح المؤامرات ودور عبدالله كلما تهاون وهادن وتثير الراي العربي العام عليه داخل الاردن وخارجه .

هذه هي الاسباب التي جعلت « اسرائيل » تعد العدة ، بعد اعلان الهدنة الثانية ، لضرب المنطقة المصرية في فلسطين واجلاء القوات المصرية عنهـا لتكسب مجموعة غنائم في معركة واحدة : تتقاسم وشرق الاردن فلسطين نهائيا بدون وجود مانع مصري داخل البلاد ، تحطم سمعة مصر بين العرب وفي العالم وتهز زعامتها في الشرق لعل عبدالله يرثها ، تضعف مصر عسكريا حتى تضطرها الى مهادنة « اسرائيل » (وكانت مصر تتزعم الحركة ضد توقيع الهدنة مع « اسرائيل » وتمنع عبدالله من فعل ذلك مع انه كان قد قبل بمبدأ الهدنة انما خاف ان يوقع عليها علنا) ، وتضع « اسرائيل » العرب امام الامر الواقع عند اجتماع الامم المتحدة في ليك سكسس لبحث مصير فلسطين (وكان قرار التقسيم قد اعطى النقب « لاسرائيل » لكن المصريين حموه للعرب)،

---

(10) Natanel Lorch, The Edge of the Sword (New York, 1961).

وترغم « اسرائيل » مصر على التراجع عن معارضتها لوجود القواعد البريطانية في السويس وعلى مطالبة بريطانية بمساعدتها عسكريا حسب شروط معاهدة ١٩٣٦ . ولذلك لم تتضايق بريطانية من الهجوم « الاسرائيلي » على المصريين في النقب . ولعلها كانت تحرض عليه . وقصدت « اسرائيل » من عقد هدنة منفردة مع مصر بالذات ان تشجع الدول العربية على عقد معاهدات مماثلة وان تمهد لصلح دائم مع عبدالله وان تشجع العراق على سحب قواته من فلسطين بعد الهدنة بحيث يتقاسم المنطقة اليهود وعبدالله .

بدأ الهجوم الغادر على القوات المصرية في منتصف اكتوبر ١٩٤٨ بالرغم من احكام الهدنة في يوليو . وبعد اسبوع من القتال المرير الذي لم يشهد اي جيش عربي اخر مثله في فلسطين احتل « الاسرائيليون » بئر سبع وقسما من النقب وحاصروا الفين وخمسمئة جندي مصري في الفالوجة . وقد سمى اليهود حربهم الخاطفة تلك بحرب الاوبئة العشرة نسبة الى ايامها العشرة (١٥ ـ ٢٥ اكتوبر ١٩٤٨) . ولم تتوقف الا بعد ان تدخلت الامم المتحدة . لكن « الاسرائيليين » استأنفوا القتال من جديد بعد شهرين تماما ، في الثاني والعشرين من ديسمبر ، لان مصر رفضت ان توقع على اتفاقية للهدنة قبل ان ينسحب العدو من المناطق التي احتلها غدرا . واستمر القتال الجديد ثلاثة اسابيع اضطرت مصر على اثرها الى ان توقع على هدنة جديدة ، بعد ان اغتيل رئيس حكومتها وتبلبلت اوضاعها الداخلية ولم يعد بامكانها ان تصمد امام العدو طويلا .

وجد الهاشميون في ذينك الهجومين فرصة نادرة لتحقيق اطماعهم في فلسطين وعدائهم العريق لمصر وشعبها . فلم يكتفوا بالاحجام عن مساعدتها بل انهم اختاروا ذلك الوقت بالذات ليوسعوا ممتلكاتهم في فلسطين . ونحن نفهم من مذكرات عبدالله التل ان الهاشميين علموا بنية « اسرائيل » على الهجوم على الحاميات المصرية قبل بدء القتال . ولذلك اجتمع جلب بالضباط المتذمرين في جيش الاردن وحذرهم من خرق الهدنة مهما حصل في الجبهات الاخرى . ومع ان قائد الجيش المصري قدم طلبا رسميا الى ملك الاردن بان يتدخل ويناوش « الاسرائيليين » في انحاء اخرى من فلسطين ليخفف ضغط العدو على قواته في الجنوب ، ومع ان القيادة العربية المشتركة للجيوش العربية اجتمعت في عمان بحضور عدد من رؤساء الحكومات لدرس امكان القيام بعمل موحد ، رفض عبدالله تلبية نداء الاخوة القومية . اما الجيش العراقي فاكتفى باطلاق مدافعه في الهواء في ساعات متقطعة من نهار واحد . وتحركت بعض قواته باتجاه بلدة بيت ساحور دون ان تصطدم بالعدو . وذلك لذر الرماد في العيون . وخوفا من ان يخضع رئيس الحكومة (مزاحم الباججي) لارادة الشعب ويأمر الجيش بالتدخل فعلا عزله الوصي عن العرش واعاد نوري السعيد الى الحكم . وكان الباججي قد رد على الحاح الشعب

وضغطه بان اعلن في مجلس النواب انه اصدر اوامره الى الجيش بان يهرع الى مساعدة المصريين . اما السعيد فاغتنم فرصة عودته للحكم واخذ يرتب امر سحب الجيش من فلسطين وترك المنطقة التي يحتلها للاردنيين .

اذ كان عبدالله قد رفض ان يفعل شيئا لصالح مصر في تلك الحرب الخاطفة التي انتهت باخراج القوات المصرية من النقب فقد فعل اشياء اخرى لغير صالح مصر . اولها انه منع سورية من ارسال فوجين من جيشها عبر شرق الاردن الى فلسطين ليسهما في تخفيف العبء عن المصريين . وكان واضحا ان اي هجوم عربي على «اسرائيل» لا بد ان ينجح لان جيش «اسرائيل» كان مشغولا في الجنوب ، ينجح في استرجاع جزء من القسم السليب وفي فك الحصار عن القوات المصرية. ثانيها ان عبدالله حاول ان يشجع «الاسرائيليين» على المضي في هجومهم ، فسحب قواته من المناطق الامامية من خليج العقبة لما احتل « الاسرائيليون » بئر سبع ، وترك تلك المناطق لهم فاحتلوها في الثامن من نوفمبر ، مما امكنهم الوصول الى البحر الاحمر في وقت قصير . وقد اعترف ديان ، قائد الحملة ، بان الجيش الاردني انسحب من هناك عن قصد وتصميم . وقال مرة مستهزئا بهذا الجيش ، « لماذا لم يحاربنا جلب ؟ كان له الحق ان يحارب ما دمنا نحن الذين خرقنا اتفاق الهدنة . وكان بامكانه ان يحمي مراكزه . **ولكنه ادار ظهره وهرب** » (١١) .

المحاولة الثالثة لعبدالله وجلب لقهر المصريين هي انهما ارادا ان يغدرا بالقوات المصرية المحاصرة في الفالوجه التي ضربت بصمودها مثلا في النظامية العسكرية. وقد تضايق «الاسرائيليون» وحلفاؤهم من ذلك الصمود وبحثوا عن سبيل لاذلال المصريين . فاعد جلب خطة « لانقاذ » المحاصرين في الظاهر ولاخراجهم من قواعدهم وتعريضهم لنيران العدو في الواقع . اما الخطة التي حاول اقناع المصريين بها فهي ان يتولى ضابط بريطاني اخراجهم من الفالوجه والسير بهم في الظلام في طريق سري لا يعلمه الا ذلك الضابط مسافة عشرة اميال داخل خطوط العدو ، بعد ان يدمر الجنود اسلحتهم بكاملها ويسيرون وراء الضابط البريطاني بدون اية حماية . بالطبع رفض المصريون الخطة لانها وضعت في عمان على ايدي من لم يعد للعرب بهم اية ثقة او امل ، ولان تنفيذها يقوم على الثقة بضابط بريطاني ، ولانها تعرض حياة الفين وخمسمئة جندي لخطر الوقوع فريسة نيران العدو ، ولان مصر كانت تعلم ان اسرار الجيش الاردني تقع في قبضة الصهيونيين عادة ومن المحتمل جدا ان يكون الصهيونيون على علم بتلك الخطة ـ ويبدو ان « اسرائيل » كانت تحصل على اسرار الاردن رأسا ، كما يتضح من كتاب كنث بلبي آنف الذكر . ويتضح من

---

(11) Kenneth Bilby, New Star in the Near East, P. 105 - 106.

كتاب اخر (« جانبا التل » للاخوين كمشي) ان « الاسرائيليين » كانوا بالفعل على علم مسبق بتلك الخطة ، وانها لو تمت لما نجا من المصريين العزل من السلاح واحد . « لقد علم الاسرائيليون بكل شيء عن العملية . ولو حصلت لكان الاسرائيليون ينتظرون القوات الهاربة بالمرصاد » كما كتب المؤلفان (١٢).

رابع اعمال الملك عبدالله في معاكسة مصر في تلك الفترة العصيبة انه ارسل قواته الى بيت لحم والخليل واحتلهما مغتنما فرصة انشغال المصريين في مجابهة العدو ، بدل ان يرسل قواته لمساعدة المصريين في تلك المجابهة . وصلت طلائع قواته الى المدينتين قبل ان ينسحب المصريون منهما. واذ خشي ان يساعد رجال الجهاد المقدس المصريين (كما فعل جيش الانقاذ، دون نجاح يذكر ، في شمال الجليل) امر بالقضاء التام عليهم ، ولو بالعنف ، في اواخر اكتوبر ١٩٤٨ . وكان ممثلو الاردن في اجتماع عسكري لقادة الجيوش العربية لبحث مصير النقب (في اواخر ديسمبر) قد نقلوا البحث من كيف يجب ان يساعد جيش الاردن اخاه المصري الى كيف يستولي الجيش الاردني على منطقة اخيه المصري باسرع وقت .

وواصل عبدالله حملته الكلامية ضد مصر والمصريين. فاعلن امام عشرات الصحفيين انه يفضل ان يحتل « الاسرائيليون » النقب من ان يبقى بيد المصريين، **«لان استرجاع النقب من اليهود اهون من استرجاعه من المصريين»**. وكان يردد امام الناس « اخاف على فلسطين من قريب حاسد اكثر من عدو حاقد » . ويقول عبدالله التل الذي يتحدث عن حملة الملك على مصر ان عبدالله ذكر في السابع من يناير ١٩٤٩ انه يفضل ان يأخذ « الاسرائيليون » غزة من المصريين لانهم وعدوه بجعلها ميناء حرا له ، اما المصريون « فقد تعفرت انوفهم » كما كان يقول ساخرا (١٣) . وكان يزعم انه لو كان مكان المصريين لما انسحب عن شبر واحد . وهو يكثر من الهزؤ بالمصريين في مذكراته (١٤). ولعل افضل رد على المطاعن التي نشرها ضد المصريين ما سجله كاتب لم يعرف عنه حب لمصر قط « ان انهزام المصريين لا يعود ، ولا بشكل من الاشكال، الى قلة شجاعة او نقصان صفات الجندية عند الجنود المصريين او السودانيين. فقد حاربوا بشجاعة وبدرجة ممتازة جدا ، خاصة دفاعيا » (١٥) .

---

(12) John and David kimche, Both Sides of the Hill, P. 255.

(١٣) عبدالله التل ، كارثة فلسطين ، ص ٤٣٢ .

(١٤) راجع ، مثلا ، تكملة مذكراته ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

(15) Edgar O'Ballance, The Arab Israeli War, 1948, P. 184.

واستغل عبدالله الاوضاع ليدعو لمشروع برندت ولينفذه بان يوعز الى اتباعه بالموافقة عليه . وكان الوسيط السويدي الدولي قد اغتيل في القدس في السابع عشر من سبتمبر ١٩٤٨ ، على أيدي افراد من عصابة شتيرن الارهابية التي كانت تطالب بضم شرق الاردن الى « اسرائيل » ، اغتالوه لانه طالب بضم جزء من فلسطين الى شرق الاردن . وحمل نائبه ، الدكتور رلف بنش ، مشروعه الى الامم المتحدة بعد ان كان برندت قد ادخل عليه تعديلات كثيرة . لكن الجمعية العمومية رفضت المشروع باغلبية الاصوات، في اجتماعها بباريز في ديسمبر ، بمساع من الدول العربية واميركة الجنوبية والكتلة الاشتراكية . الا ان عبدالله واصل جهوده لتنفيذ المشروع . واذاع بيانا بهذا الخصوص ناشد العرب فيه مشاركته بتأييد المشروع ، مع العلم ان بين تعديلاته سحب القدس من القسم العربي وضمها الى القسم الدولي . ولعل عوامل شخصية اثرت في الملك الهاشمي وجعلته يوافق على اراء الوسيط الدولي الى جانب المصلحة الاقليمية التي كانت له في المشروع . ويروي برندت في مذكراته ان عبدالله قال له عند اول مقابلة بينهما انهما يستطيعان التفاهم لان في عروق كليهما دماء ملكية . لكن عبدالله تجاهل فرقا رئيسيا بينهما : وهو ان ابا برندت كان قد رفض العرش لما عرض عليه ، بينما سعى هو الى العرش منذ ١٩٢٠ .

اما الاجراء السابع من الاجراءات التي اتخذها عبدالله في تلك الفترة العصيبة من التاريخ فكان انه عاد الى التغزل « باسرائيل » من جديد ، مثلما كان يفعل قبل ان تتحول الوكالة اليهودية الى « دولة » . فامر باستئناف المباحثات التي قامت بين الطرفين قبل نشوب حرب فلسطين. جرى الاجتماع الاول في الثامن والعشرين من نوفمبر ١٩٤٨ بين موشي ديان وعبدالله التل لوضع هدنة بدل اتفاق ايقاف اطلاق النار المؤقت . وامر الملك التل ان يوقع على الاتفاق بسرعة . ففعل التل ذلك في اخر ايام نوفمبر . وقد انحصر الاتفاق بين الطرفين من دون سائر الحكومات العربية ، ومنطقته هي تلك التي تخضع للقوات الاردنية في فلسطين . وهكذا يكون الاردن اول من عقد اتفاقا مع « اسرائيل » ، مثلما كان اول من اوقف النار في الهدنتين . وقد سمحت الاتفاقية لليهود بالعمل خلف الخطوط الامامية الاردنية بحرية ، وادخلتهم جبل المكبر .

كان اخر اعمال عبدالله ، في هذه السلسلة من الاجراءات الخطرة ، انه ضم القسم العربي من فلسطين الى شرق الاردن . اذ انه وجد مصر مشغولة انذاك بنفسها وبمشاغلها الداخلية والدولية انشغالا يعجزها عن مقاومة الضم . فاوعز الى رجاله واعوانه من الفلسطينيين ان يعقدوا مؤتمرات عامة تطالب

به ملكا على فلسطين وشرق الاردن معا . فاجتمع بعضهم في اريحا في اليوم الاول من ديسمبر ، « وناشدوا » الملك ان يشملهم بعطفه وبحكمه . وبالرغم من استنكار الحركة الوطنية للمؤتمر وتأييدها لحكومة عموم فلسطين التي اقيمت في غزة في العشرين من سبتمبر ، توالت المؤتمرات الهاشمية الميول الى ان فرض عبدالله الضم نهائيا . وسنتوسع في صفحات لاحقة فـــي موضوعي المفاوضات بين عبدالله والعدو والتطورات التي حصلت للكيان الفلسطيني .

اما العراق الهاشمي فانه ازر عبدالله مؤازرة معنوية كبيرة وان لم يشترك معه في الاجراءات آنفة الذكر التي قام بها اشتراكا مباشرا . دافع العراق عن عبدالله وحاول تبرير افعاله ، ووقف الى جانبه لما اشتدت النقمة الشعبية عليه . غير ان العراق الهاشمي خدم « اسرائيل » من ناحية اخرى خدمة مباشرة : سمح لعشرات الالاف من اليهود المقيمين فيه بالهجرة الى اسرائيل » ونقل ثرواتهم معهم ، ليذهبوا الى الوطن السليب ويستولوا على ممتلكات سكانه النازحين عنه ظلما استيلاء سهلا رخيصا . هذا مع ان وطنيي فلسطين كانوا منذ ١٩٢١ قد حذروا مسؤولي العراق من مغبة السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين .

حصل الملك عبدالله على بعض ما اراد ، ثم اخذ يسعى للحصول على ما تبقى . حصل على القسم العربي من فلسطين حسب مشروع التقسيم في ١٩٤٧ ، ارضا مساحتها ثلاثة الاف ميل مربع . بقي عليه ان يحقق المراحل الاخرى في مشروعه القديم : ان ينطلق من فلسطين والاردن الى سورية ولبنان فيضمهما مثلما ضم جزءا من فلسطين ، وان يعقد مع « اسرائيل » صلحا دائما يحمي ظهره من مصر (!) ويؤمن له الافادة من موانىء فلسطين المتوسطية ويملأ خزينته بجنيهات الصهيونيين واصدقائهم وبدولاراتهم . لذلك صرف عبدالله السنوات الثلاث بين انتهاء حرب فلسطين ومقتله (يوليو ١٩٤٨ — يوليو ١٩٥١) وهو يسعى نحو هذه المشاريع الثلاثة : ضم فلسطين لشرق الاردن ، واقامة دولة سورية الكبرى ، والصلح مع « اسرائيل » . سنتحدث في هذا الفصل عن المشروعين الاول والثالث . اما محاولاته لتحقيق « سورية الكبرى » فسنرجىء الكلام عنها الى الفصل التالي . يكفي هنا ان نذكر ان عبدالله اعتبر مأساة فلسطين وسيلة لتحقيق حلمه القديم ، واستغلها من اجل بناء الدولة العتيدة . وقد اعتقد ان في ضم قسم من فلسطين وفي مصالحة العدو الذي استولى على القسم الاخر املا بتحقيق حلمه بان تمتد مملكته من حدود تركية الى حدود مصر .

اجتمع عدد من رجالات فلسطين العاملين في الحقل السياسي، ومعظمهم

ممن واكب التيار الوطني ايام الانتداب وعارض سياسة عبدالله ، في مجلس تأسيسي كونوه بشكل اعتباطي ، بتشجيع من حكومة مصر في ذلك الوقت ، في مدينة غزة في الايام الاخيرة من سبتمبر ١٩٤٨ ، بدعوة من حكومة عموم فلسطين التي تشكلت ، بشكل اعتباطي ايضا ، في المدينة نفسها برئاسة احمد حلمي قبل عشرة ايام ، بناء على قرار صادر عن مجلس الجامعة العربية بتشكيل هذه الحكومة تنفيذا لقرارات سابقة ولوعود بتسليم قضية فلسطين الى اهلها . وقد وافق جميع مندوبي الدول العربية على ذلك القرار ، بما فيهم مندوبا شرق الاردن (سعيد المفتي ، وزير الداخلية ، وفوزي الملقي ، وزير الخارجية والدفاع) . لكن عبدالله رفض ان يتبنى موقف وزيريه ، وغضب وعارض الحكومة الفلسطينية منذ مولدها ، متناسيا العهود التي قطعها على نفسه قبل ان يخوض حرب فلسطين بان يترك البلاد لاهلها ، ومتناسيا قوله انه لم يأت غازيا الا في سبيل الله . تناسى اقواله وعهوده اذ رأى في قيام هذه الحكومة تحطيما لاحلامه بضم جزء من فلسطين . واخذ يقوم باعمال معاكسة ، لتعطيل عمل الحكومة وافشال مؤتمر غزة الوطني . فعل ذلك بواسطة سلسلة من المؤتمرات نادت به ملكا ونادت بذلك القسم من فلسطين جزءا من مملكته الهاشمية .

مهد عبدالله لهذه المؤتمرات منذ ان دخل جيشه فلسطين . وقد سبق ان تحدثنا كيف كان الضباط البريطانيون في الجيش الاردني يتعاونون مع الموظفين العرب الباقين من عهود الانتداب ومع بعض السياسيين الموالين لحزب الدفاع في تشكيك الشعب بقدرة الجيوش العربية على تحرير البلاد وينصحون المواطنين العاديين بان يوالوا ملك الاردن لان لا نصير لهم الا هو ولا امل في رد رغبة بريطانية واميركة والامم المتحدة الا بواسطته . وسهل عبدالله مساعي اتباعه بان وضعهم في المراكز العليا في فلسطين ، فجعل مناصب حكام الالوية ورؤساء البلديات في ايدي اتباعه . اما رجال الحزب العربي الفلسطيني وافراد الجهاد المقدس ، واما الشبان العقديون المتحررون الواعون ، فقد اقصاهم عن البلاد وقيد حركات من تخلف منهم في القدس وبيت لحم ورام الله ونابلس ، وفرض عليهم رقابة شديدة . وفي الوقت نفسه منح عبدالله السكان جنسيات اردنية ، حتى من قبل ان يفرض ضم فلسطين الى شرق الاردن . واخذ يدعو النازحين من القطاعات التي احتلها العدو في فلسطين الى الاعلان بانهم لا يرغبون في العودة الى ديارهم . كان ذلك العمل الذي ناقض قرارات الجامعة العربية وخرج عن المخطط القومي العربي يناسب مصلحة « اسرائيل » ومخططها لاخراج عرب فلسطين .

بدأ الرد على مؤتمر غزة في اليوم التالي له ، اذ عقد خمسمئة وجيه وسياسي فلسطيني مؤتمرا في عمان ، في اول اكتوبر ١٩٤٨ ، تحت اشراف

الحكومة الاردنية وعلى حسابها ، باسم « مؤتمر فلسطين القومي » . وقد حصر خطباء المؤتمر (كان بعضهم من الاصدقاء التقليديين للهاشميين وبعضهم من « الحياديين » الذين يسلكون السبيل الذي يناسب مصلحتهم وبعضهم من افراد الحركة الوطنية سابقا) كلامهم في وجوب ضم فلسطين الى شرق الاردن ، وفي مهاجمة ميثاق غزة وحكومة عموم فلسطين والجامعة العربية والدول العربية غير الهاشمية . وعقب المؤتمر المذكور عدة اجتماعات اقليمية في عدد من المدن الفلسطينية التي احتلها الاردنيون ، وكان الخطباء يرددون الاقوال والمطاليب والاتهامات ذاتها . وانعقد اخيرا مؤتمر اريحا المشهور ، في اول ديسمبر ، باشراف عدد من رجالات فلسطين الذين قاوموا التيار الوطني منذ عهد بعيد ، وعرفوا برجعيتهم وبتعاونهم مع الانتداب . اننا نعود الى مذكرات القائد الاردني في القدس ، عبدالله التل ، مرة اخرى لنكتشف حقيقة هذه المؤتمرات وكيفية عقدها وجمع الناس فيها ، اما بالاغراء او بالارهاب (١٦) . وقد ادار دفة المؤتمر موظفان اردنيان ، وهما الحاكم الاردني العام لفلسطين (الذي قام بالحملة الدعاوية ضد مصر شتاء ١٩٤٨ — ١٩٤٩) وضابط في الجيش (الضابط الذي اشترك في عملية تسليم اللدوالرملة للصهيونيين) . الا ان وطنيا فلسطينيا (لبناني الاصل) من رجالات المؤتمر يؤكد في مذكراته عن تلك الحقبة ان غاية المؤتمر لم تكن لخدمة « المطامع السلالية » ولا « لمحو اسم فلسطين من الوجود » بل كان قصد الاقلية الوطنية ان توجد لفلسطين من يحميها ويدافع عما تبقى من ارض عربية فيها ، وان تدعو « الدول العربية بلا تمييز لاكمال تحرير فلسطين بالسيف » . لذلك كان توفيق ابو الهدى ، كما يقول الكاتب ، يعرقل نشاطات تلك الفئة الوطنية من وراء الستار ليحول غاية المؤتمر نحو الاغراض التي ارادها هو وعبدالله ، اي محو اسم فلسطين بالمرة (١٧) .

جاء في المادة الثانية من ميثاق مؤتمر اريحا طلب توحيد فلسطين مع شرق الاردن . وجاء في المادة الرابعة طلب اجلاس عبدالله على عرش الدولة الموحدة العتيدة . وانبثق عن المؤتمر وفد حمل الميثاق الى الشونة حيث كان عبدالله يصرف الشتاء عادة (في قصر شاعانه بني على حساب الوكالة اليهودية) . لكن عبدالله لم يترك المناسبة دون ان يتبجح بما عمله من اجل فلسطين « مما لم يعمله مسؤول عربي اخر قط » كما زعم . ومن سخريات القدر المؤلمة ان عبدالله كان يتفاوض ، في ذلك اليوم نفسه ، مع « اسرائيل » بالسر ، وكان قد وقع اتفاقا عسكريا لوقف اطلاق النار ، وراء ظهر الحكومات العربية الاخرى

---

(١٦) عبدالله التل ، كارثة فلسطين ، ص ٣٧٥ — ٣٧٧ .
(١٧) راجع سلسلة مقالاتلعجاج نويهض في مجلة الصياد (بيروت) في النصف الاول من ١٩٦٢

وفي معزل عنها .

اوعز الملك الى حكومته ان تنفذ « مطالب » شعب فلسطين راسا . فاعلن مجلس الوزراء « موافقته » على توحيد الضفتين ، ثم تبعه مجلس الامة في الموافقة ، في الثالث عشر من ديسمبر . وفي مارس ١٩٤٩ الغى عبدالله الحكم العسكري على فلسطين . وادخل ، في السابع من مايو ، ثلاثة وزراء فلسطينيين في حكومة ابي الهدى الجديدة ــ وكان ثلاثتهم من موظفــي الانتداب . ثم اضيف اليهم فلسطيني رابع بعد ثلاثة اشهر : رئيس حزب الدفاع ! وحل الملك مجلس النواب في اواخر ذلك العام تمهيدا لاجراء انتخابات في « الضفتين » كخطوة اخيرة نحو الضم رسميا . جرت الانتخابات في جو عسكري ارهابي ، منعت فيه التجمعات وقيدت الحرية ، خاصة في المنطقة الفلسطينية . والف سعيد المفتي ، اثر صدور نتائج الانتخابات ، حكومة من احد عشر رجلا خمسة منهم فلسطينيون . وحلت الحكومة مجلس الاعيان في ابريل واعادت تأليفه من عشرين عضوا (وكانوا عشرة في السابق) سبعة منهم فلسطينيون . واجتمع مجلسا النواب والاعيان في الرابع والعشرين من الشهر واعلنا وحدة « الضفتين » وذلك « استنادا الى حق تقرير المصير والوحدة القومية والطبيعية والجغرافية وضرورات المصالح المشتركة والمجال الحيوي ومن اجل المحافظة على كل الحقوق العربية في فلسطين والدفاع عن تلك الحقوق بكل الوسائل وعدم المساس بالتسوية النهائية لقضية فلسطين في نطاق المبادىء القومية والتعاون العربي والعدالة الدولية » كما جاء في الاعلان الرسمي .

هكذا حقق عبدالله ، في الاشهر الخمسة عشر الاخيرة من حياته ، الحلم الذي راوده ثلاثين عاما . وتحقق ، في الوقت نفسه ، مشروع بفن الذي سبق الكلام عنه : قامت « اسرائيل » ، وقسمت فلسطين ، وضم عبدالله القسم العربي منها ، وعزلت مصر واقصيت عن النقب . تحققت هذه الاجراءات كلها باسهل واسرع مما تصور الفرقاء الثلاثة : عبدالله وبفن والصهيونيون . ولم تتأخر بريطانية عن مباركة هذه الاجراءات ، وقد كانت صاحبة الفضل في تحقيقها . فاسرعت بالاعتراف بدولة « اسرائيل » إعترافا قانونيا ، وبضم فلسطين الى شرق الاردن في مملكة اسمها « المملكة الهاشمية الاردنية » . وكانت هي اول من اعترف بهذا الضم . بل انها زادت مساعداتها المالية للاردن مبلغ ست مئة الف جنيه في السنة (١٩٤٩) ثم زادتها مبلغ خمس مئة الف جنيه اخرى في السنة (١٩٥٠) فاصبحت المعونة السنوية ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه (وقد ارتفعت المعونة وتضاعفت عدة مرات بعد ذلك) . وسعت بريطانية ، اكثر من اي وقت مضى ، للجمع بين الاردن « واسرائيل » وعقد صلح دائم بينهما . وكانت المباحثات بين ممثلي عبدالله

« واسرائيل » تجري في السر منذ اكثر من سنة ، كما سنرى بعد قليل . واعلن وزير الدولة البريطاني في مجلس العموم ، بعد اعلان الضم بثلاثة ايام، انه يسعى حاليا للجمع بين عبدالله والدكتور وايزمن شخصيا ــ وكان ونستن تشرتشل قد اقترح ان تقوم الحكومة بمسعى من هذا النوع. وكانت المفاوضات قد واجهت بعض الصعوبات في ذلك الاسبوع بسبب رفض « اسرائيل » مشروعا للصلح قدمه عبدالله لمدة خمس سنوات ، بتأثير من العسكريين فيها وضغطهم على رئيس الحكومة ، بينما كانت وزارة الخارجية تميل الى قبول المشروع .

ومع ان صك اعلان ضم فلسطين الى الاردن جاء منسجما ، في ظاهره، مع مبادىء الحركة القومية واهدافها ، ومع ان بعض دعاة الضم من الوطنيين املوا ان يستغلوه لصالح الحركة الوطنية ضد اطماع عبدالله وانحرافاته ، وقفت اغلبية العرب ضد الضم . هاجمته المعارضة في العراق بالرغم من الاحكام العسكرية التي فرضها الوصي قبل حرب فلسطين وبالرغم من تأييد حكومته للضم بالسر . وهاجمته صحف واحزاب وابواق الراي العام في مصر وسورية ولبنان . وهاجمته حكومات هذه الدول الثلاث وحكومتا السعودية واليمن . وهاجمه ، قبل كل هؤلاء ، اغلب عرب فلسطين ، النازحون منهم الى الاردن والمقيمون في فلسطين والنازحون الى الكيانات العربية الاخرى. استنكروه واعتبروه طعنة في قلب القضية الوطنية ، ليس لان كيانا مستقلا لنصف فلسطين لم يقم كما تعهدت الحكومات العربية ، فقط ، بل لان الذي باع نصف فلسطين الاخر هو نفسه الذي استولى على النصف الباقي ، ولان الضم لا يشكل خطوة لاسترجاع النصف الضائع بقدر ما يشكل اعترافا بضياعه وتنزلا عنه . وقد راوا في الضم ازالة لكيان فلسطين ومحوا لصفتها الدولية الرسمية : وهو ما كان الصهيونيون يطمعون بحصوله ويرجونه ، اذ انه يعرقل مطالبة العرب باعادة الكيان الفلسطيني في المستقبل .

وقامت الجامعة العربية بحملة « لوم » ملك الاردن ، بعد ان طالبت مصر وسورية بطرده من الجامعة . لكن المطالبة فشلت لمعارضة العراق واليمن، لما كان بين العراق والاردن من وحدة حال في الاهواء السياسية الحاكمة ، ولما كان بين اليمن والاردن من وحدة حال في نظام الحكم . واستندت الجامعة في اعلانها الضم عملا غير قانوني على مقرراتها السابقة التي وافق عبدالله عليها بنفسه . واستمرت تدعو حكومة عموم فلسطين الى اجتماعاتها ، حتى قاطع الاردن تلك الاجتماعات مدة . واخذ عبدالله يخطب ، في مجلس الامة وفي الشوارع والجوامع ، ضد الجامعة العربية ، واخذ يهزا بها في تصريحاته الصحفية التي عرف عنه ولعه بالادلاء بها . وكانت بريطانية « واسرائيل » تباركان تلك الحملة على الجامعة والدول الاعضاء فيها .

بينما كان عبدالله يضم فلسطين على خطوات ، ويقاوم قرارات الجامعة ويصم اذنيه عن انتقاد الرأي العام وشكاويه واحتجاجاته ، فاوض « اسرائيل » لعقد صلح دائم ، لتحقيق المرحلة الاخيرة من اتفاقه مع وزير خارجية بريطانية العمالي . والخطأ الشائع بين الناس ان عبدالله فاوض اليهود بعد ان حاربهم . والصحيح انه فاوضهم حتى وهو يحاربهم . وكانت مفاوضاته تلك تتمة لما سبق من ابحاث بينه وبين شرتوك ومايرسن قبل منتصف مايو ١٩٤٨ . الفرق بين مفاوضات ما قبل الحرب وما بعدها ان عبدالله كـــان يفاوض الصهيونيين قبل ١٩٤٨ ليكسب منهم — ليكسب مالا ورضى ، منهم ومن الانجليز في معظم الاحيان . اما بعد ١٩٤٨ فان عاملا جديدا غير الطمع اخذ يلعب دوره : عامل الخوف من الصهيونيين . كان عبدالله يخاف « اسرائيل » كل الخوف . كان يرتعب كلما سمع بتحركات عسكرية على الحدود . وبدلا من ان يحمله هذا الخوف على تقوية جيشه وتحصين حدوده وتعبئة شعبه ضد العدو ، اختار الطريق الانهزامي وحاول الاستسلام لرغبات الصهيونيين استسلاما شبه مطلق ، وهو يعتقد انه بذلك يحمي مملكته . وروي انه في كل مرة اشتبكت فيها قواته مع جنود العدو ، مهما كان الاشتباك صغيرا ، كان يصدر اوامره لحرسه ببناء الحصون وحفر الخنادق حول قصره . وكان يأمر جيشه دوما بعدم استفزاز العدو والسكوت عن استفزازاته والانسحاب من امامه .

جرت المحاولة الاولى للصلح ، بعد منتصف مايو ، بواسطة صحفي اميركي مراسل جريدة هرلد تربين في الشرق الاوسط ، اسمه كنث بلبي . وقد نشر اخبار اتصالاته في مقالات في جريدته ثم في كتاب بعنوان « نجم جديد في الشرق الادنى » ، وقد سبق ان اشرنا اليه في اكثر من مكان . وكان الصحفي المذكور قد قابل الملك عبدالله والجنرال جلب عدة مرات خلال حرب فلسطين بحكم عمله . وفهم منهما انهما يريدان ايقاف الحرب . فقد صارحه الملك ، في مقابلة دامت ثلثي ساعة ، ان غايته هي **« ان يضم ما تبقى من فلسطين ويعيش مع اليهود في سلام »** وان نصيحته لليهود هي « ان يكونوا اكثر منطقية . . . » وللعرب « ان يقبلوا بالمنطق » . وقد نقل بلبي هاتين النصيحتين ، وعلق عليهما بقوله « هوذا ملك مسلم ، تبوأ اجداده حكم مكة ، ينصح العرب بان يقبلوا بدولة يهودية . . . ان ذلك حدث جديد في التاريخ . . . » . ونقل الصحفي المذكور ايضا اراء اخرى لعبدالله في مهاجمة الحكومات العربية الاخرى وجامعتهم . وبلغت حدة تلك التهجمات ان منعه رئيس الحكومة الاردنية من نشر اقوال الملك في ذلك الحين .

واذ اخبر عبدالله وجلب بلبي انهما يرغبان في صلح دائم مع «اسرائيل» تضمنه بريطانية والولايات المتحدة ، حمل هذه الرغبة الى بن جورين . فابدى

الرئيس « الاسرائيلي » رضاه على عبدالله . « اني اؤمن باخلاص عبدالله . اؤمن بانه يريد السلم حقا . ما عليه الا ان ينقل كلامه الى حيز التطبيق . ونحن على استعداد لمقابلته في منتصف الطريق ... **لقد كان عبدالله صديقا لشعبنا دائما** . وكان شرتوك صديقه . اذكر انهم عزفوا لوفد منا النشيد القومي الصهيوني في مسرح في قلب عمان ... » . لم يختلف هذا الرأي « الودي » في عبدالله عن رأي عبدالله في الحركة الصهيونية . بل ان رأي عبدالله فيها كان اكثر ودا ومدحا حسب وصف بلبي . كان عبدالله ، كما قال احد مستشاريه لبلبي « لاشيء يثير فرحه مثل رسالة من شرتوك . انه يبتهج طول النهار . وهو يصدق كل اطراء يقوله اليهود له . ويهتم بكلامهم كثيرا » (١٨) . ولكن وساطة بلبي لم تنجح بالرغم من كل هذه العلاقات الودية والعواطف المتبادلة ، لانها لم تكن وساطة رسمية ، ولان « الاسرائيليين » كانوا يخشون من سيطرة الانجليز على عبدالله ويودون لو يتحرر ملك الاردن منها اولا . ومن رأي بلبي ان الذي اخاف « الاسرائيليين » من عبدالله هو معاهدته مع بريطانية التي سمحت بوجود قواعد عسكرية بريطانية في الاردن .

نقل عبدالله المفاوضات الى درجة اعلى من الجدية والرسمية في صيف ١٩٤٨ . جس نبض « اسرائيل » اولا بواسطة قنصل بلجكة العام في القدس، نغنوز . ثم حمل اليه القنصل رد « اسرائيل » : ان تجري المراحل التمهيدية للمفاوضات في باريز . فاوفد عبدالله احد موظفي بلاطه الى العاصمة الفرنسية للتباحث مع مندوب « اسرائيل » . وكان الموظف ، الفلسطيني الاصل ، قد عمل فترة من حياته موظفا لدى الاستخبارات البريطانية (ولا يزال ، في لندن) حتى ان المجاهدين في فلسطين حاولوا الانتقام منه في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . واستمرت المباحثات طيلة شهري اكتوبر ونوفمبر بعلم الدكتور رلف بنش ، الوسيط الدولي الذي خلف الكونت برندت ، وبتشجيع منه . لكنها لم تبق سرية كما اراد عبدالله . فقد نشرت وكالة اليهنايتدبرس خبرها في بعض نشراتها . واذا صحت رواية عبدالله التل فان « اسرائيل » ارادت ان تبرهن على حسن نياتها تجاه عبدالله فابلغت مندوبه عن عزمها على الهجوم على النقب وطرد القوات المصرية منه قبل موعده بايام .

يعتبر التل مصدرا اساسيا لموضوع المباحثات الاردنية ـ « الاسرائيلية »، لانه كان مندوب ملكه فيها عدة اشهر بحكم منصبه كمتصرف للقدس حيث جرت المرحلة الثانية من المفاوضات بعد المرحلة الاولى ، التمهيدية ، في باريز . وقد خصص الفصل الرابع عشر من مذكراته لهذا الموضوع . وكان دوره قد بدأ حينما امر بنقل رسالة من الياهو ساسون الى الملك عبدالله ، في العاشر

---

(18) Kenneth Bilby, New Star in the Near East, P. 54 - 56, 96 - 97.

من ديسمبر ١٩٤٨ . وكان ساسون هذا مديرا للشؤون العربية في وزارة الخارجية « الاسرائيلية » (بعد ان عمل مديرا للشؤون العربية في الوكالة اليهودية عدة سنوات) وكان صديقا لعبدالله وسبق ان زار عمان عشرات المرات وحمل للملك هدايا الوكالة وعواطفها . وقد تحدثت الرسالة التي اطلع التل عليها عن اتصالات جرت قبل ايام ، اثناء حرب النقب ، بين مندوبي « اسرائيل » في باريز وبين بعض ممثلي عبدالله ، وبينهم شوكت الساطي ، طبيب عبدالله الخاص ، « والشريف » عبد المجيد حيدر وزير الاردن المفوض في لندن انذاك . ثم حمل الساطي جواب الملك على رسالة ساسون ، بعد ان عاد الى عمان من باريز ليتابع المفاوضات الرسمية . وجرى الاجتماع الاول بين الساطي وساسون في المنطقة الحرام بباب الخليل في القدس، في الحادي عشر من ديسمبر ، بحضور التل . وقد وضع الساطي اللوم ، في الاجتماع ، على جولدا مايرسن في اشعال الحرب بين الطرفين ، وقال متزلفا انه لو كان ساسون هو الذي يفاوض عبدالله في النصف الاول من مايو لما وقعت الحرب.

اعلن ساسون ، في الاجتماع الثاني ، في الثالث عشر من ديسمبر ، عن موقف حكومته : توافق على ضم قسم من فلسطين للاردن ، بل انها تطالب باجراء هذا الضم بسرعة . وتطالب بتأجيل بحث مصير القدس وحصر الموضوع بين الطرفين فقط . وتوافق على عقد هدنة دائمة وعلى سحب قوات العراق من فلسطين وتسليم المنطقة لعبدالله لان التفاهم معه اسهل . وتطالب عبدالله بان يعمل على طرد المصريين من بيت لحم والخليل . وافق عبدالله على هذه الشروط ، حسبما اعلن مندوبه الساطي في الاجتماع الثالث في اليوم التالي ، مع تحفظين : بخصوص الهدنة الدائمة ، طلب بابقائها سرية خوفا من ان تحرجه امام شعبه . وبخصوص القدس ، اقترح تقسيمها بين الطرفين ، يأخذ هو البلدة القديمة ويأخذ «الاسرائيليون» الاحياء الحديثة .

استلم عبدالله التل المفاوضات رسميا من الدكتور الساطي في الاجتماع الرابع . وقد حمل تفويضه هذه العبارة في تعيين غاية المفاوضات : « من اجل ايجاد سبل سلام حقيقي » . اما تفويض مندوبي العدو (الكولونيل موشي ديان وروبين شيلوه من وزارة الخارجية) فكان « من اجل انهاء اعمال العدوان وانشاء علاقات السلام بين دولة اسرائيل والمملكة الاردنية الهاشمية» .
وقد تعسرت مهمة التل لان الصهيونيين كانوا قد وعدوا الملك في مفاوضاتهم السابقة مع الساطي ان يعطوه مجدل عسقلان ان هو سكت عن هجومهم على النقب ولم يساعد مصر عسكريا ، ولكنهم اخلفوا وعودهم بعد ان انتصروا

في تلك الحرب الخاطفة واخلوا النقب من المصريين ولم تعدلهم حاجة لعبدالله. فغضب عبدالله وامر بان يتولى المفاوضات بنفسه . وامر باحضار « اخي وصديقي»، ساسون، و«الاعور»، ديان، (كماكان عبدالله يلقبهما) الى الاردن. فذهب الرجلان واجتمعا به في الشونة في السادس عشر من يناير ١٩٤٩ . ونقل التل، الذي حضر الاجتماع ، قول عبدالله **« انا ملك عربي لا اخلف وعدا ولا اخون عهدا . تعرفون نواياي وشعوري نحوكم . ورأيي ان لا يقف احد بيننا الان بعد ان خمدت الفتنة وانتهى لكم الامر في الجنوب** . وانت تعلم يا ساسون **اننا لم نحاربكم ولم نعتد على ما خصص لكم »** . ووصف التل ابتهاج ملكه بانهزام المصريين في النقب وكشفه عن ضعف جيشه امام العدو .

تصلب « الاسرائيليون » وتحفظوا بمقدار ما تهاون عبدالله وتزلف . ادركوا انه يريد ان يصالحهم باي ثمن ، فحاولوا ان يحصلوا على اكثر ما يمكن ان يحصلوا عليه . وكان هذا الوضع من اسباب فشل المفاوضات على اختلاف مراحلها ، فشلا جعل الصهيونيين يندمون فيما بعد على الفرصة التي فاتتهم بمقتل عبدالله دون ان يفيدوا منها شيئا . بل انهم استفزوا القوات الاردنية وتحرشوا بها ليخضعوا عبدالله الى مطالبهم اكثر من السابق . فطلب عبدالله استئناف الاجتماعات الخاصة بينه وبين رسل « اسرائيل » . وعقد الاجتماع في الشونة ، في اخر ايام يناير ، بحضور المندوبين السابقين وتوفيق ابي الهدى . وتميز الاجتماع بامرين : وافق عبدالله على طلب اليهود بان ينسحب العراقيون من فلسطين (طلبوا ذلك خوفا من ان يتمردوا على حكومتهم ويحاربوا العدو بدافع وطني) ، وعاتب محدثيه لانهم لم يحتلوا غزة في اشتباكهم مع القوات المصرية في النقب . وقد رد ساسون وديان على هذه المعاتبة « الله يقدرنا على تنفيذ ما يرغب فيه سيدنا » .

اجتمع عبدالله ، تنفيذا لوعده « للاسرائيليين » ، بقريبه الامير عبدالاله في محطة ح ٣ النفطية في اليوم الاول من فبراير . وكان برفقة الوصي على عرش العراق رئيس حكومته ووزيرا الخارجية والدفاع ورئيس اركان الحرب. واتفق الطرفان على ان ينزل البلدان عند طلب « اسرائيل » ، فينسحب الجيش العراقي من فلسطين ويأخذ الجيش الاردني مكانه . وعاد عبدالله الى عمان وارسل الى مفاوضيه في القدس يطمئنهم الى اتفاقه مع ابن اخيه. ولذلك ، وبعد هذا الاتفاق ، بدات مفاوضات رودس بين الاردن « واسرائيل »، في فبراير ١٩٤٩ . وكان الوسيط الدولي للامم المتحدة قد بدأ سلسلة من المباحثات بين الدول العربية « واسرائيل » في جزيرة رودس لعقد هدنة دائمة ، بناء على قرار مجلس الامن الصادر في السادس عشر من نوفمبر ١٩٤٨ . وقد رحب الاردن بفكرة المباحثات وانفرد من بين الحكومات العربية

كلها بقبول الهدنة . لكن عبدالله خشي ان ينفرد في التوقيع على اتفاقية الهدنة ويزيد من غضبة الشعب عليه . لذلك انتظر حتى ارغمت « اسرائيل » مصر على دخول المفاوضات (بعد انتصار « اسرائيل » في النقب في اكتوبر وديسمبر ١٩٤٨) ، اذ انها اشترطت اجراء المفاوضات حتى توقف عدوانها الذي كان عبدالله على علم به وكان يمني نفسه ان ينتفع منـــه . وانتهت المباحثات المصرية ـ « الاسرائيلية » في رودس بهدنة في الرابع والعشرين من فبراير ١٩٤٩ . وكانت المباحثات علنية تجري بحضور مندوبي الامم المتحدة . فقد رفضت الحكومة المصرية ان تجري مفاوضات خاصة مع العدو، ورفضت عرض رئيس حكومة العدو بان يساعدها في سعيها لتحقيق الجلاء عن قناة السويس ان هي صالحت « اسرائيل » . اما مفاوضات عبدالله فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، في الظروف وفي الغايات وفي الشكل .

يقارن ولتر ايتن ، المدير العام لوزارة خارجية العدو واحد المندوبين الـى مباحثات رودس (السفير في فرنسة ، فيما بعـد) ، بـين موقف الاردن وموقف مصر وسورية في مباحثات رودس . ويقول ان وفدي مصر وسورية كانا عنيدين وصلبين امام مطالب بلاده ، وكانا يعارضان كل رأي ، ويتمسكان بحقوق العرب ، عكس وفد الاردن . ويعترف بان مفاوضات الاردن مع « اسرائيل » في رودس لم تكن الا للتغطية ، لان وفد الاردن لم يكن مزودا باي تعليمات وذلك لان الملك « لم يكن يثق بالوفد للتفاوض باسمه ... لذلك اقترح ان يتولى الامور بنفسه ... كانت مباحثات رودس ستارا . امـــا المفاوضات الحقيقية فقد جرت سرا مع الملك نفسه في قصره الشتوي في الشونة . ولم يعرف بها الا اخلص المؤتمنين على اسراره . اما باقي العالم فكان يكتفي بمشاهدة المسرحية التي تمثل في رودس » (١٩) . يشكل ايتن هذا مرجعا ممتازا لمباحثات الشونة التي اشترك بها ، اذ كان يذهب اليها في المساء ويعود الى القدس في الساعات الاولى من الصباح التالي . وقد حضر المباحثات معه جمع من شخصيات الاردن، من الوزراء والخبراء والمستشارين. ويقول ان جلب حضر الاجتماعات كلها . لكنه لا يسمي الوزراء الذين حضروها « خوفا ان ينالوا المصير الذي لحق بملكهم » ! وهو يمدح الملك ويعتبره انسانا « مثاليا » . اما عبدالله التل الذي تولى نقل الوفد بين القدس والشونة فان ايتن يصفه بالجراة في النقد وبالاختلاف عن سائر افراد حاشية الملك .

توجه الوفد الاردني الى رودس في اخر فبراير . وبدات المفاوضات في اول مارس . وقد مهد عبدالله لها بتصريح ادلى به لمندوب التايمز فـي الثاني والعشرين من فبراير قال فيه **« اني على استعداد لان اقيم مع اليهود**

---

(19) Walter Eytan, the First Ten Years (London, 1958), P. 28 - 42.

وحدة اقتصادية وجبهة عربية متحدة من خليج العقبة الى خليج البصرة يشترك فيها الانجليز والاميركيون » . وقدم الوفد « الاسرائيلي » قائمة بمطاليبه : فتح خطوط المواصلات في منطقتي الجيشين الاردني والعراقي (الذي لم يكن قد انسحب بعد) امام القوات « الاسرائيلية » (وهي طريق اللطرون ، وسكة حديد القدس ، وسكة حديد مستعمرتي الخضيرة وروش هايين) . وانسحاب العرب ، جنودا ومدنيين ، من السهل الساحلي ومن حول المستعمرات اليهودية فيه ، في منطقة يبلغ طولها ستة وخمسين ميلا وعرضها ميلين ، مملوءة بالمزارع والحقول والبساتين . وفتح الطريق الى جبل سكوبس في القدس واعادة العمل في مستشفى هداسه والجامعة العبرية . واعادة ضخ المياه الى اللطرون . واحتلال ما بين البحر الميت وميناء ايلات . واعادة العمل الى مصانع البوتاس في البحر الميت . مقابل هذه العريضة الطويلة من المطاليب عرض مندوبو « اسرائيل » على الوفد الاردني منطقة صغيرة في جبال الخليل ومبلغا من المال لمد طريق بين قلقيلية وطولكرم . ورفضوا ، في الوقت نفسه ، مطاليب الاردنيين الاخرى مثل اعادة النازحين الى ديارهم والسماح للاردن باستعمال ميناء حيفا .

بينما كان الوفدان يجتمعان في الجزيرة المتوسطية كان « الاسرائيليون » يضعون خطة عسكرية لاحتلال المنطقة الساحلية التي طالبوا بها في رودس . لكنهم لم ينفذوها لان عبدالله وعدهم بان يسلمهم المنطقة في الحال وبدون قتال . وكانت المنطقة تخضع للجيش العراقي ، بين قلقيلية ونهر الاردن شمال جنين ، ذات مرتفعات تشرف على حدود « اسرائيل » وتهددها عسكريا . واذ تأخر عبدالله بالتسليم ارسل « الاسرائيليون » فرقتين من جيشهم الى العقبة . وبدلا من ان يرد الجيش الاردني الهجوم الغادر انسحب من طريق الفرقتين الى ان وصلتا العقبة خلال ايام معدودة، واحتلتا ايلات وام الرشراش ومنطقة مساحتها ثلاثة الاف كيلومتر مربع ذات اهمية استراتيجية بين اسية وافريقية . اكتفت حكومة الاردن بالاحتجاج الى الامم المتحدة . واعترف عبدالله بذلك الاحتلال ورضي به واوعز الى وفده في رودس بالاقتداء به وعدم اثارة الموضوع . بل ان الوفدين اخذا يدرسان الحدود بينهما حسب الامر الواقع . وارسل عبدالله الى ديان يدعوه للشونة من جديد لدرس تسليم المنطقة الساحلية المطلوبة . فلبى ديان الدعوة ، وكان بانتظارها ، ولبس ثياب مراقب دولي ، وغطى عينه العوراء بشريط ابيض ، واجتمع بعبدالله في الشونة ، بحضور بعض الوزراء الاردنيين. ومرة اخرى اعلن عبدالله انه لم يحارب في فلسطين الا مرغما وخوفا من مصر ومن الراي العام العربي. واخذ يقرع الوزراء الاردنيين ، امام الوفد « الاسرائيلي » ويلومهم لانهم لم يمنعوه من الحرب ، لمدة عشرين دقيقة كما يقول الاخوان كمشي. وكان يرافق ديان كل من ايتن ويدين وشيلوه وهركبي .

استمرت المفاوضات اسبوعا كاملا . وكان عبدالله في اثنائها يتبادل الرسائل مع شاريت شخصيا ليتفاهم واياه على النقاط التي يعجز عن التفاهم حولها مع مندوبي « اسرائيل » . ونفهم من تلك الرسائل ان عبدالله وافق اخيرا على التنازل « لاسرائيل » عن النقب كله ، ومن ضمنه ما احتلته قواتها في هجومها الغادر في ذلك الشهر ، وعن المنطقة بين قلقيلية والاردن . وجدير بالذكر ان رئيس الحكومة الاردنية كان يعلن في اجتماعات رؤساء الحكومات العربية مع لجنة التحقيق الدولية ، في بيروت في مارس ١٩٤٩ (اي في الوقت الذي كان عبدالله يقوم بتنازلاته في عمان) بان الاردن « لن يتنازل عن شبر واحد من ارض فلسطين المقدسة » .

احتفل عبدالله مع وفد « اسرائيل » بالوصول الى اتفاق في قصر المصلى . وتبادل الفريقان الهدايا : قدم عبدالله لضيوفه خنجرا وقدموا له توراة تحمل خريطة فلسطين ومن ضمنها شرق الاردن وسورية ولبنان والعراق . وطار ديان وعبد القادر الجندي الى رودس ووقعا هناك ، في الثالث من ابريل ، اتفاقية الهدنة ، حسب الحدود الجديدة التي اتفق الطرفان عليها في عمان ، وحسب تصميم خريطة جديدة للحدود وضعها «الاسرائيليون» مع ضابط بريطاني في جيش الاردن اسمه كوكر . وكانت تلك الاتفاقية هي الوحيدة بين اتفاقيات الهدنة الاربع (المصرية والسورية واللبنانية والاردنية) التي تنزلت للاعداء عن ارض لم يحتلوها قط وعن ارض احتلوها بعد بدء مفاوضات الهدنة . وهكذا حصل الاعداء على ما طمعوا به من ارض فلسطينية خاضعة للسيطرة الاردنية دون ان يلجأوا الى الخطة العسكرية التي فكروا اول الامر باستعمالها . والواقع انهم نالوا ، بالاضافة الى منطقتي النقب وقلقيلية ، قسما من القدس وقضائها : قرى قبو وصور باهر وبتير وبيت صفافه وثلثي جبل المكبر . ومع ان عبدالله اضطر انذاك للتراجع في جبل المكبر ورفض تسليمه خوفا من الراي العام حصل العدو عليه فيما بعد . وكان الاردن ، من جهة اخرى ، البلد العربي الوحيد الذي وقع على اتفاقية الهدنة غير مرغم ولا مضطر ودون ضغط عسكري (اي عكس مصر وسورية ولبنان) وانما برغبة ملكه ورضاه التام .

كان هاشميو العراق على علم بالمؤامرة . وقد اسهمت قيادة الجيش العراقي بها فارسلت الى مندوبي الاردن في رودس خريطة للمنطقة التي كان ذلك الجيش يحتلها تجعل قسما من شرق الاردن ، جنوب بحيرة طبرية حيث يوجد مشروع روتنبيرج للكهرباء، ضمن المنطقة العراقية . وبذلك انتقلت ملكية هذا الجزء من البلاد الى « اسرائيل » بانسحاب العراقيين وتقاسم عبدالله والعدو ما خلفه الجيش العراقي وراءه . واعلنت حكومة العراق قبولها باتفاق عبدالله « واسرائيل » واعلنت ايضا عن عزمها على الانسحاب من فلسطين في

اليوم الذي وصل عبدالله فيه الى الاتفاق مع مفاوضيه في الشونة وتبادل معهم الهدايا كما رأينا آنفا ، مع ان تلك الحكومة كانت قبلا ترفض الانسحاب خوفا من غضب الراي العراقي العام عليها . ويعتقد ان بين العوامل التي جعلت العراق يرضخ لارادة ملك الاردن وحلفائه « الاسرائيليين » بالانسحاب ان سفير العراق في لندن (الاخ الاصغر لعبدالله ، الامير زيد) علم ان « الاسرائيليين » ينوون الهجوم على القوات العراقية في فلسطين بالتفاهم مع عبدالله ، مثلما كانوا قد هاجموا القوات المصرية في النقب . لذلك امرت الحكومة الجيش بالانسحاب . وقد تم ذلك في الاسبوع الثاني من ابريل . واستولى الاردنيون على المنطقة التي انسحب منها العراقيون ، وسلموا جزءا منها الى « الاسرائيليين » . اما متاجرة العراق الهاشمي بانه البلد العربي الوحيد الذي لم يعقد مع العدو هدنة فانها تفقد معناها لما نجده ضالعا في المؤامرة السرية ضلوع الاردن نفسه .

دابت مصادر الدعاوة الهاشمية على تحميل الجنرال البريطاني جلب مسؤولية كل الاحداث التي رافقت حرب فلسطين والسنتين اللتين تلتا تلك الحرب : من تفريط بارض فلسطين ، وتفاهم مع الصهيونيين ، ومفاوضات مع « الاسرائيليين » بعد ان اسسوا « دولتهم » . غير ان الوثائق تثبت مسؤولية الملك عبدالله مسؤولية تامة ، ومسؤولية بعض حاشيته من العرب ، خاصة توفيق ابي الهدى ، في الدرجة الثانية — دون ان تنفي ، بالطبع ، مسؤولية جلب ، ورفاقه من الضباط البريطانيين . وان كان اللوم يخف عن جلب لجنسيته التي تفترض فيه خدمة بلاده على حساب العرب (مع ان العرب استضافوه وكرموه ثلث قرن) فانه لا يخف ولا يسقط ولا بشكل من الاشكال عن الملك الهاشمي ولا عن رئيس حكومته ، وهما اللذان تبنيا سياسة جلب وعملا بنصائحه ودافعا عنه مع علمهما بان ما يقوله ويقترحه ويشير به انما هو يتعارض مع المبادىء القومية ومع ارادة الشعب ومصلحته . ولعل القاء اللوم على الضابط الاجنبي ليس الا من قبيل اتهام الغير لتبرير النفس ، وذلك ، في الحقيقة ، تهرب جبان من الواقع وضعف امام المسؤوليات ، وهو يعكس صفة غير مشرفة لصاحبها الذي يأخذ بلوم الاخرين ولوم الظروف كلما جوبه بنكبة او سجل عليه خطأ او تقصير ، دون ان يتجرأ على محاسبة نفسه اولا واخرا .

كيف تحصر المسؤولية في جلب وعبدالله لم يترك فرصة الا صادق فيها الصهيونيين وتعامل واياهم وسعى لمصالحتهم ؟ . « **لم يكن في نيتنا ان نحارب ... دفعنا الى الحرب دفعا ... اريد ان اتحمل المسؤولية كلها لانهاء المشكلة والوصول الى تسوية معكم ...** » كما قال هو بنفسه في خطابه عند الاتفاق مع مندوبي العدو في الرابع والعشرين من مارس ١٩٤٩ . وكيف

يعفى ابو الهدى من المسؤولية ؟ لقد اعلن ، في خطاب رسمي مسجل امام الوفد « الاسرائيلي » في الثلاثين من ذلك الشهر ، بحضور الملك والوزراء وكبار الضباط : « اتكلم باسم حكومة المملكة الاردنية الهاشمية وبحضور جلالة سيدنا . وارحب بقدومكم الذي نأمل منه كل خير لصالح البلدين . اذا ذكرنا الماضي نجد كيف **تورط الاردن في الحرب**. والاسباب المباشرة كانت **مدينة القدس القديمة** ومحاولة قواتكم الاستيلاء عليها مما ادى الى اشتباك الجيش العربي مع جنودكم اشتباكا فعليا . وما عدا ذلك لم تقع معارك من طرفنا . وتعلمون سعادتكم ان السياسة الاصلية التي سرنا عليها هي ان يقف الجيش العربي على حدود القسم العربي من فلسطين ولا يتعداه . ولم يتعده بالفعل . ولو ان تلك السياسة لم تقل او تنشر الا انها كانت بالفعل مرسومة . **ولم يكن هناك ميل للحرب بالمرة ولا نية اكيدة** . ويمكنكم ان تقدروا صعوبة موقفنا في تنفيذ تلك السياسة المرسومة وفي **الانجراف مع سياسة الدول العربية مجاراة لها وللتغطية فقط** . والان لن نتقيد بعد اليوم بنصائح خارجية حتى ولا بالسياسة العربية . ونرغب من كل قلوبنا ان نصل معكم الى **تسوية وصلح دائم** . واذا توافرت لكم حسن النية كما هي عندنا ، لا شك باننا سننهي كل المشاكل بما تمليه **المصالح المشتركة وحسن الجوار بين بلدينا »** . ان في هذا الخطاب ما يغني عن اي تعليق . وقد سجله احد حضور الاجتماع تسجيلا حرفيا . كما انه سجل تعليق الملك عبدالله على الخطاب المذكور تعليقا سريعا مرتجلا « والله نحن احسن لكم من غيرنا . **ومصالحنا متشابكة** . ونحن جيران شئتم ام ابيتم . فلا تحرجوا الحكومة وتحرجوني » . ويقول عبدالله التل ، الذي روى ذلك كله ، ان الملك كان في اجتماع سابق قد هدد « الاسرائيليين » بانه سيتنزل عن العرش لابنه طلال . **« اذا ذهبت لن يأتيكم من هو احسن مني او مثلي . طلال تعرفونه جيدا »** .

وان نحن ضربنا صفحا عن ما كتبه العرب والصهيونيون في الموضوع ولجأنا الى مصدر ثالث مطلع على تلك الاتصالات والمفاوضات اطلاعا واسعا ، نجد ان المصادر العربية والصهيونية لم تغاير الحقيقة حينما اعتبرت ملك الاردن المسؤول الاول والاكبر عن سياسة التقارب مع « اسرائيل » . تقدم هذا المصدر مذكرات جيمس مكدنلد، اول سفير للولايات المتحدة في «اسرائيل» ولم تكن بلاده بعيدة عن مفاوضات ١٩٤٩ بين عبدالله « واسرائيل » لانها كانت تعمل على ترسيخ مركز « اسرائيل » في الشرق الاوسط وتصفية علاقاتها السلبية بالدول العربية المحيطة بها . وتشجيعا للاردن لكي يمضي في اتصالاته مع « اسرائيل » اعترفت الولايات المتحدة بالاردن وسعت مع عبدالله ليخفف من خضوعه للنفوذ البريطاني لعلها تجد منفذا لنفسها لتتسلط هي عليه ولتدخل سياسة المنطقة من باب اخر غير باب السعودية وشركات النفط فيها . وكان عبدالله يعي نية الولايات المتحدة واهدافها البعيدة ، فاستغل

الظروف وطالبها بان تتوسط له في مباحثاته مع « اسرائيل » .

تكشف مذكرات السفير ، وعنوانها « بعثتي في اسرائيل » ، عن عدد من القضايا التي اطلع السفير عليها بحكم منصبه وعزاها الى «مصادر موثوقة » في عمان، حول موقف عبدالله من القضية الفلسطينية بعد حرب ١٩٤٨ (٢٠). انه ينسب الى عبدالله الاراء التالية : ان على الولايات المتحدة ان تفرض « السلم » في الشرق الاوسط ما دامت بريطانية تعرقل مساعيه لمصالحة « اسرائيل » . وان قضية النازحين الفلسطينيين ليست اساسية ويجب ارجاء حلها الى ما بعد عقد الصلح . وان نتائج الانتخابات النيابية في « اسرائيل »، الاولى ، تسهل سبيل التفاهم بين العرب « واسرائيل » لان الشيوعيين لم يحصلوا فيها الا على عدد صغير جدا من المقاعد . وان نية « اسرائيل » نحو الاردن جيدة ، بالرغم من هجومها على العقبة في مارس ١٩٤٩ . وينسب السفير الاميركي الى عبدالله ، بالاضافة الى هذه الاراء ، عددا من المطاليب التي كان عبدالله يتقدم بها : عقد صلح دائم مع « اسرائيل » بسرعة (في اعقاب هدنة رودس مباشرة) . والحصول على غزة ، بدل النقب ، لان غزة مهمة له تجاريا بينما لا يرى في النقب الا صحراء جرداء . وتقسيم القدس بينه وبين « اسرائيل » ، مكتفيا بالاحياء القديمة منها .

كان عبدالله في الواقع يعلن دائما عن رغبته بالحصول على جزء من القدس وعلى غزة بدلا من النقب . وكان قرار تسليمه النقب في مشروع برندت مراضاة للبريطانيين وليس مراضاة لعبدالله . ولعل اهتمام البريطانيين الخاص بالنقب بدل القدس وغزة كان من العوامل التي جعلت عبدالله يتصل « بالاسرائيليين » في معزل عن البريطانيين ، لانه خاف ان يعارضوا تخليه عن النقب « للاسرائيليين » من اجل غزة والقدس القديمة .

اما مسألة تقسيم القدس فتحتاج الى انتباه خاص . لقد عارض عبدالله مطلب التدويل الذي ايدته الحكومات العربية بالاجماع . التقى ، في ذلك الموقف ، مع « اسرائيل » ، اذ رفض كلاهما الرضوخ لقرارات الامم المتحدة بالتدويل في خريف ١٩٤٩ . وكانت « اسرائيل » قد ضمت القدس لها رسميا وانهت عنها صفة الاحتلال في فبراير ، ثم نقلت اليهـا الكنيست والوزارات في ديسمبر ١٩٤٩ . فاصبحت المدينة عاصمة لها رغما عن العالم والعرب . فراى عبدالله ان يتفاهم مع « اسرائيل » على القدس دون اشراك الدول العربية الاخرى والامم المتحدة في الموضوع . وجعل من قضية التدويل هذه حجة للاتصال بالمسؤولين في « اسرائيل » وتبرير مساوماته معهم .

(20) James G. McDonald, My Mission in Israel (London, 1951).

لذلك استغل قرار الامم المتحدة بالتدويل واقترح على « اسرائيل » ، حسب شهادة السفير الاميركي ، ان يتنزل لها عن ميناء العقبة ومصانع البوتاس في شمال البحر الميت مقابل تنزلها هي له عن احياء القدس العربية والطريق منها الى بيت لحم ومقابل منحه امتيازات خاصة في حيفا . غير ان « الاسرائيليين » رفضوا مقترحاته . وانقطعت الاتصالات التي كانت تتم بواسطة وفد اردني رسمي عدة اسابيع . ومع ان عبدالله اعاد الاتصال من جديد حينما عادت الامم المتحدة الى بحث الموضوع ، فشل مرة اخرى .

فاستعاض عن مشروعه باقتراح اخر بعث به الى المسؤولين « الاسرائيليين » : بعقد معاهدة اعتداء لمدة خمس سنوات ، تبقى الحدود خلالها على ما كانت عليه انذاك ، الى ان يحين موعد عقد صلح دائم ، مع فتح الحدود بين البلدين للسفر وللتجارة . ويقول السفير الاميركي ان « اسرائيل » وافقت اخيرا على تلك النقاط كأساس للمباحثات . الا ان معارضة الشعب العربي في الاردن وخارجه للمباحثات التي لم تعد سرية وتسرب خبرها الى الناس ، ومولد مجلس نواب جديد في الاردن يضم عناصر فلسطينية معارضة ، قضى على حلم الفريقين واجل النظر في المعاهدة الى وقت متأخر اغتيل عبدالله قبل حلوله . لذلك فان السفير الاميركي ، سفير البلد الذي يتزعم مطلب حماية الديموقراطية ويتاجر بها ، يلوم مسؤولي « اسرائيل » والاردن لانهم لم يكتموا المباحثات بينهم عن الشعب كتمانا كافيا ، ويبدي اسفه لان عبدالله خفف من شدة نظامه التعسفي في الحكم مما اتاح المجال امام بعض ممثلي الشعب ان يصلوا الى مجلس النواب ويفرضوا رايهم . وهو يلقي اللوم على الانجليز الذين شجعوا اجراء الانتخابات النيابية في الاردن . ويذكر السفير اخيرا انه شعر ان عبدالله بحاجة الى تأييد معنوي من الخارج ، من الولايات المتحدة بالذات ، ليقف في وجه المعارضة الوطنية . لذلك اقترح على واشنطن مد عبدالله بالمساعدات . وبقي حبل الامل بوصول عبدالله « واسرائيل » الى معاهدة صلح ممدودا الى اخر ايام عبدالله ، اي الى ان قطعته يد احمد عشو في اليوم العشرين من يوليو ١٩٥١ حينما اطلق رصاص مسدسه على ملك الاردن فارداه قتيلا . وكان عبدالله قبيل اغتياله قد ارسل الى اصدقائه في « اسرائيل » يقول « ان عبدالله ، ابن الحسين ، لا يتخلى عن وعده » .

الحقيقة ان الفضل الاكبر في فضح مباحثات عبدالله مع « اسرائيل » يعود الى عبدالله التل الذي حصل على وثائق كثيرة في الموضوع بحكم عمله كاحد مندوبي عبدالله في تلك المفاوضات ، وقد نشرها بعد هربه من الحكم الهاشمي ولجوئه الى القاهرة في عام ١٩٥٠، في جريدتي اخبار اليوم والمصري القاهريتين . وكانت صحف اجنبية كثيرة ، اشهرها التايمز اللندنية ونيويورك تايمز ، قد تحدثتا عن تلك المفاوضات في الايام الاولى من مارس ١٩٥٠ .

فهاج الراي العربي العام لخطورة المعلومات . وانتقل التهديد بتاديب المسؤولين من السر الى العلن . فاضطر عبدالله ان يوقف مباحثاته مؤقتا ، وامتنع عن دعوة الوفد « الاسرائيلي » الى زيارته في الشونة فترة من الوقت. فان الصلح مع « اسرائيل » « خيانة بالنسبة الى القوميين العرب » كما اعترف ولتر ايتن، كبير رجال وفد العدو المفاوض، في كتابه عن السنوات العشر الاولى من حياة « دولته » .

توقفت المباحثات ، اذن ، في الرابع والعشرين من مارس ١٩٥٠ ــ وهو يوم انعقاد مؤتمر الجامعة العربية في القاهرة لبحث تطورات القضية الفلسطينية ولدرس موضوع الاتصال مع « اسرائيل » بشكل خاص . ومع ان الملك الاردني استخف باحتجاج الجامعة على ضم قسم من فلسطين ومضى في تنفيذ مراحل الضم واجرى الانتخابات النيابية الاولى في الشهر التالي ، اقلع عن التفاوض خوفا من نسف جميع الجسور بينه وبين الدول العربية الاخرى . لكنه عاد للتفاوض من جديد بعد ان استتب له الامر وهدات ضجة الجامعة . وبالطبع لم يجد صعوبة في حمل « اسرائيل » على مواصلـة التفاوض معه . فانها كانت تحرص دائما على عدم قطع الصلة معه ، لانه كان الحاكم العربي الوحيد الذي اجرى معها مثل تلك المفاوضات الخاصة . وكانت « اسرائيل » تسعى دائما (ولا تزال ، لو تعطى المجال، اي لو تجد حاكما عربيا اخر مثل عبدالله) لان تجعل من مباحثاتها مع العرب افرادية وخاصة. وقد وقفت سياستها هذه وراء قطع علاقاتها بلجنة التوفيق الثلاثية التي ارسلتها الامم المتحدة في ديسمبر ١٩٤٨ لان اللجنة اعتبرت العرب وحدة ورفضت الا ان تتباحث معهم ككل ، بحيث اضطر الاردن « المتساهل » ان يجاري مصر وسورية « المتطرفتين » في اجتماعات لوزان في ربيع ١٩٤٩ .

استؤنفت المفاوضات في يناير ١٩٥١ . ومرة اخرى اضطر عبدالله ان يوقفها لان المعارضة اشتدت ليس في داخل البلاد فقط بل في داخل الحكومة ومجلس النواب ايضا . قام بين السياسيين (ومعظمهم من الشبان غـير المحترفين) من تحدى الملك ان يصالح العدو ويحتفظ براسه . وقد سبق ان هاج الشارع في ربيع ١٩٥٠ وارغم ابا الهدى على الاستقالة . ثم هاج في صيف السنة ذاتها حينما طرد الملك حكومة سعيد المفتي لانها امرت الجيش باطلاق الرصاص على جيش العدو الذي اعتدى على وادي نهرالاردن واسس مستعمرة قرب نهاريم . لكن جلب رفض اوامر الحكومة وشكاها للملك فاقالها من الحكم . وقد فسر بعض المراقبين تلك الحادثة بان عبدالله كان على تفاهم مسبق مع « اسرائيل » املا بان تدعمه هي في موقفه من سورية ومطالبته بضمها الى مملكته . وكان عبدالله في الواقع قد احيى مشروعه القديم بعد ان استولى على جـزء من فلسطين ، واوعز الى اعوانه في جنوب

سورية بالمشاغبة على عهد شكري القوتلي ، الجمهوري ، السعودي الميول . ثم حاول ان يتبنى انقلابي حسني الزعيم وسامي الحناوي ، وغذى الحملة ضد الانقلاب الثالث الذي قام به اديب الشيشكلي ، وساعد انصاره في دمشق وجبل الدروز بالمال والسلاح .

لم تكن الغضبة الشعبية التي استعر لهيبها في ١٩٥١ (والتي بلغت الذروة باغتيال الملك في يوليو من تلك السنة) السبب الوحيد في تقطع المفاوضات مع الصهيونيين . كان هناك سبب اخر لا يقل اهمية : وهو ان « اسرائيل » لم توافق على شروط عبدالله بل كانت تدرك نقاط الضعف فيه وتحاول ان تستغلها بالحصول على اكثر مما كان يعدها به . كانت تطالب دوما بالمزيد . فانها ، كما يقول جلب في « جندي مع العرب » ، كانت « تريد السلم كما تراه هي » . ثم ان هناك سببا اخر يذكره موشي ديان في مذكراته التي صدرت مؤخرا ويعاكس ما قاله جلب . فبينما وضع جلب ، الضابط البريطاني ، اللوم على « الاسرائيليين » وضع ديان ، الضابط « الاسرائيلي » ، اللوم على البريطانيين . « لقد اخبرني الملك عبدالله قبل مقتله بمدة . . . انه كان مستعدا للوصول الى اتفاق معنا لكن الممثل البريطاني كركبرايد كان ضد ذلك لانــه شعر ان الاتفاق سوف يــؤذي العلاقات الودية بــين بريطانية ومصر » (٢١) .

(21) Moshe Dayan, Diary of the Sinei Campaign (London, 1966) P. 20 - 21.

الفصل العاشر

فلسطين حلم عبد الله الطويل



قد لا يتعدى الفرق بين مشروع وحدوي واخر فرقا في الرقعة الجغرافية او في مدى الارتباط ونوعية الحكم . يشمل بعض المشاريع الوحدوية اراضي واسعة وكيانات متعددة ، وينحصر بعضها في رقعة صغيرة . ويقيم بعضها وحدة تامة ، ويكتفي بعضها باتحاد غير وثيق . ترتبط هذه الفروقات ، في الدرجة الاولى ، بارادة الشعب في الكيانات المعنية بالامر ، وبمدى مفهومه للوحدة ، وبنوعيته ، وبتاريخ صراعه من اجلها ، وبنوعية الروابط القائمة بين ابناء الكيانات ومدى لحمتها ثقافيا ونفسيا بوجه خاص .

غير ان بعض المشاريع الوحدوية قد يختلف عن مشاريع اخرى اختلافات اعمق : قد يكون الاختلاف من حيث غاية وجود هذه المشاريع واسلوب تحقيقها ومن حيث فلسفة وجودها ومبرراته . اختلافات من هذا النوع هي التي يقيم بها مشروع بالمقارنة مع اخر . وهي التي تشغل بال المواطن الحذر . اما اختلافات الرقعة الجغرافية ومدى لحمة الارتباط فانها اختلافات طبيعية في وجهات النظر ليست خطيرة ، بل ان وجودها لا بد منه لتعيين صفات ومعالم اي مشروع وحدوي .

وبكلام اخر : ان الفروق الحاصلة بين مشروع وحدوي واخر غير مهمة كثيرا ، من الناحية التقييمية ، اذا كانت لا تتعدى الفروقات في حجم الدولة ومركزيتها ، ما دام المشروع ينبثق عن ارادة الشعب ويرتبط بوجوده وبرضاه ويعتمد الوسائل التي لا تتعارض مع ارادة الشعب ورضاه ، ولا تخرج اهدافه البعيدة عن المطاليب القومية السائدة . اما اذا خالف مشروع وحدوي ما هذه القاعدة الاساسية فانه يبطل ان يكون مشروعا قوميا اصيلا ، مهما كانت رقعة الارض التي يعمل على توحيدها ومهما كان شكل تلك الوحدة. يخالف المشروع الوحدوي هذه القاعدة الاساسية حينما يمثل ارادة اجنبية ما ، او حينما لا يحوز رضى اغلبية الشعب ، ويستخدم وسائل معينة لا شرعية وغير مقبولة (كالكبت ، والدس ، والخداع ، والسرية غير الضرورية) ويقصد منه خدمة اغراض ومصالح غير قومية ، فردية او اجنبية او عنصرية او عائلية او اقليمية او طائفية .

هناك اكثر من مفهوم للوحدة العربية ، وهي الامنية التي راودت احلام الملايين من العرب منذ ان بزغت تباشير الوعي الوطني . هناك مفاهيم سياسية واخرى فكرية ، مدرسية واخرى حزبية ، جماعية واخرى فردية ، نظرية واخرى عملية . يدعو بعضها الى وحدة شاملة من الخليج الى المحيط ، ويقنع بعضها بنواة تتوسع مع الايام حسب الظروف . يطالب بعضها بوحدة مركزية تحول الكيان الواحد الى مجرد ولاية ، ويكتفي بعضها بتوحيد العلاقات الخارجية الرئيسية بين الكيانات مع ابقاء اوضاعها الداخلية على حالها .

وهناك مفاهيم اخرى كثيرة . قد يفوز احدها في بلد ويفشل في بلد اخر . وقد يتغلب بعضها على عقلية المواطنين في زمن وينهزم في زمن اخر . والامثلة على ذلك كثيرة : كان المفهوم الشائع للوحدة عند قوميي مطلع القرن في غرب اسية ومصر ينحصر محليا . ولكن القول بعزل مصر وشمال افريقية عن غرب اسية اصبح ، بعد سنوات ، دعوة اقليمية منبوذة ترفضها الحركات القومية العربية في كل مكان . وبينما كان السوريون والفلسطينيون يطالبون بوحدة شاملة ، كان العراقيون يكتفون بالاتحاد وكان اللبنانيون يفضلون ، على الوحدة والاتحاد ، روابط خفيفة من نوع الجامعة العربية . وبينما حققت مصر في ١٩٥٨ اول وحدة عربية قومية في تاريخ العرب الحديث اخذت منذ اواخر ١٩٦١ تعتقد ان الاتحاد الفدرالي اكثر عملية في باديءالامر من الوحدةالكاملة. يتوقف ذلك كله على الرغبة الشعبية وعلى مدى تفهم الوحدة والشعور بها كحاجة ضرورية ، وعلى الظروف والاوضاع النفسية والاقتصادية والثقافية لكل كيان ، وعلى اختبارات العرب بشكل عام . المهم في الامر ان تظل هذه الاجتهادات والاختلافات في وجهات النظر ضمن نطاق الرغبات الشعبية والتعبير الصحيح عن حاجة الامة وظروفها . والمهم ان تكون وسائلها سليمة، اي ان يكون مرضيا عنها ، والا يكون لها مبرر اخر غير ارادة الشعب ومصلحته القوميتين .

نأتي ، بعد هذه المقدمة ، الى المشاريع الوحدوية التي روج لها الحكم الهاشمي على العراق والاردن في عهدي الامير عبد الاله والملك عبدالله لنبحث عن موقعها من الوحدة التي تنشدها الحركة القومية ، على اختلاف درجات هذه الوحدة ومساحاتها ، وعلى اختلاف فلسفات هذه الحركة ومفاهيمها . ومشروعا سورية الكبرى والهلال الخصيب هما ابرز المشاريع الوحدوية الهاشمية . واني ارى ان هذين المشروعين الهاشميين يختلفان عن مجموعة المشاريع الوحدوية التي تنادي الحركة القومية بها اختلافات اساسية تنفي عنهما الصفة القومية الاصيلة التي يفترض وجودها في اي مشروع وحدوي .

لست متفائلا فأجاري بعض اخواني من القوميين الذين يصرون ان ينظروا الى الوحدة العربية كحقيقة يسهل تنفيذها ، بسرعة وباقل عدد من المراحل والخطوات . فانا انظر اليها من زاوية المصاعب التي تعترض سيرها والمراحل التي تستلزم المرور بها قبل الوصول الى الغاية النهائية . يضطرني هذا النظر من هذه الزاوية بالذات ان المس ضرورة تدرج عملية الوحدة تدرجا زمانيا ومكانيا ونوعيا ، تدرجا قد يتباطأ في ظروف كثيرة ، ولكنه لا يتعارض، في اية مرحلة من مراحله ، مع الغاية الرئيسية البعيدة . ويضطرني ذلك ، ايضا ، ان اقبل بكل خطوة تسهم في تحقيق هذه الغاية ، مهما كانت الخطوة بسيطة او بطيئة ، شرط ان تكون خطوة الى الامام والى الاحسن ونحو الهدف

المنشود ، والا يكون في اتخاذها ما يعطل مجرى العملية بشكل عام باي حال من الاحوال ، ولا يتعارض مع اهدافها. اما اذا كانت الخطوة في الواقع حاجزا، وكانت المرحلة الجديدة من مراحل سير الحركة الوحدوية عقبة امام مراحل اخرى ، فان الوعي القومي يفترض رفضها رأسا .

اني اتهم المشاريع الهاشمية في عهد عبدالله وعبدالاله بانها كانت حاجزا ولم تكن خطوة مسهلة للوحدة الشاملة : كانت حاجزا في مجرى الوحدة باهدافها ووسائلها والنتائج المترتبة عنها ، بغض النظر عن الرقعة الجغرافية التي اريد من هذه المشاريع ان تشغلها وعن درجة الارتباط في الدولة العتيدة. وما ينطبق على المشروع الهاشمي الواحد ينطبق على الاخر ، لان هذه المشاريع بالرغم من اختلاف المصالح فيما بينها وتضاربها وابتعاد الواحد منها عن الاخر ابتعادا كبيرا في بعض الظروف ، لها كلها نفسية وروحية واحدة ، سواء ما كان يدعو منها لوحدة كيانات البلاد السورية التقليدية الاربعة (سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين) او ما كان يدعو لوحدة الكيانات السورية الاربعة مع العراق وربما مع الكويت ايضا .

طالب قوميون عرب كثيرون ، منذ اكثر من نصف قرن ، بتوحيد البلاد السورية ، لما بين كياناتها من روابط قومية لها في تفكير الشعب ومصيره اثر حياتي لا ينكر . وقد وعى رواد التفكير القومي العربي هذه الحقيقة فجعلوا الوحدة السورية حجر الزاوية في بناء الدولة العربية الشاملة الواحدة ، في اسية الغربية فقط او في اسية الغربية وافريقية الشمالية معا . وكانت الوحدة السورية املا ملازما لامل الوحدة العربية الشاملة ، ملازمة وحدة وادي النيل لامل وحدة العرب في القارتين ، في اذهان معظم اولئك الرواد . لذلك كان مطلب الوحدة السورية من صميم المطالب القومية . وقد تجلت صحة هذا القول في مقررات المؤتمرات القومية التي عقدت في دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس والقدس وغيرها من المدن العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين . اعتبرت تلك المؤتمرات (وهي تزيد على العشرة عددا) وحدة سورية خطوة اساسية اكيدة ، عملية ومنطقية ، لا بد ان تتبعها خطوات مماثلة للوصول الى الوحدة الشاملة .

مما اعطى فكرة الوحدة السورية صفة الخطوة الاساسية للوحدة الاوسع ان الرقعة العربية المعروفة تاريخيا باسم « البلاد السورية » او « سورية الطبيعية » انما احتفظت بكثير من التلاحم بين اجزائها وولاياتها خلال القرون، من قبل الفتح الاسلامي ومن بعده ، وان الفروقات القائمة بين العرب في كيان واخر ، بفعل الفرقة الزمانية والمكانية والظرفية ، انما توجد بين العرب في سورية نفسها الى حد ادنى مما هي عليه بين العرب خارج سورية .

وزاد في ضرورة البدء بهذه الوحدة الجزئية كاساس للعمل الشامل ان الاخطار تدفقت على الرقعة السورية العربية في عهد تبلور الافكار القومية وانتشارها وتطورها في حوالي مئة سنة من الزمان ، اذ انتقل استعمارها من يد الى يد، وقسمت الرقعة الواحدة الى اربعة كيانات على كل اثنين منها انتداب يختلف عن الانتداب الاخر ، وحضر احدى هذه الكيانات ليحول الى وطن قومي لشعب باغ دخيل يطمع بالكيانات الاخرى ايضا .

اذن فقد حلم القوميون العرب بسورية دولة موحدة لصيانة اراضيها وشعبها وتراثها ، اولا ، ولتكون نواة الدولة العربية الموحدة الكبرى التي تصون الشعب العربي واراضيه وتراثه في جميع انحاء الوطن الكبير ، ثانيا . حلموا بسورية العربية الموحدة « بروسية » جديدة تحمل راية الوحدة الشاملة . واختاروها هي بالذات لانها كانت ، اذ ذاك ، هي المؤهلة جغرافيا وثقافيا ، لان الوعي القومي فيها كان يتفوق عما هو في اي بلد عربي اخر . اما الاجزاء العربية الاخرى فكانت متخلفة عن سورية في الوعي والتمدن وبعيدة نسبيا عن الاجزاء الاخرى ، مثل العراق واقطار شبه الجزيرة العربية ، او كانت مشغولة بنفسها وضعيفة الحس العربي وبعيدة ايضا عن الاجزاء الاخرى من طرف ثان ، مثل شمال افريقية . اما مصر ، وهي في الوسط وذات تيقظ قومي وتقدم حضاري ، فكانت تشارك اقطار شمال افريقية في الانشغال بمشاكلها الاقليمية ولم يكن للحس العربي وجود بارز فعال فيها انذاك .

كان من الطبيعي ان يفكر القوميون بالاستعانة بالهاشميين لتحقيق احلامهم . فبروسية بحاجة الى بسمرك . وعلى بسمرك العربي ان يكون احد حكام الدول السورية . لذلك لم يجد القوميون بدا من تعليق امالهم ، مرة اخرى ، على الهاشميين ، لعل احدهم يتقلد الراية ويعمل للوحدة . ومرة اخرى خاب املهم الجديد لما اخذ (الاميران) عبدالاله وعبدالله يحولان الفكرة من مشروع قومي الى شأن خاص ، وينظران الى الدولة العربية الواحدة كامبراطورية هاشمية تستغل للمصالح العائلية وتستخدم ضد الدول العربية الاخرى (مثل مصر والسعودية) التي يكن الهاشميون لها عداء قبليا تقليديا، وتستخدم ، من جهة اخرى ، لتحقيق مصالح دولة اجنبية معينة تتضارب مصالحها مع العرب تضاربا بينا ، مع ان العرب ارادوا من الوحدة ان تكون سدا في وجه تلك المصالح .

خاب امل القوميين من جديد لما حول الهاشميان المذكوران المشروع الوحدوي الجزئي الى اداة تخدم الاغراض البريطانية في المنطقة بدلا من ان تكون اداة لتهيئة المواطنين لمنازلة تلك الاغراض . بل انهما حولا المشروع الى اداة تعتمد على التأييد البريطاني وتقوم على رضاه ومساعدته ، وتسقط

التأييد الشعبي من حسابها . وخاب امل القوميين لما رأوا النظام العتيد يقوم على نظام ملكي رجعي جامد ، قبلي النفسيات والمفاهيم ، يخشى التطور ويعارض التفتح الذهني ويمنع الحريات . وخاب املهم لما حول العاهلان الهاشميان فكرة الوحدة من عمل قومي تبرره المصالح والعواطف الشعبية والاوضاع السياسية والاقتصادية والمشاركة بالامال والظروف ، الى منحة وعدهم بها الحلفاء من قبل . وبكلام اخر : خاب الامل لما سقطت عن المشروع صفته الاصيلة وتحول الى امكانية حاجز يسد طريق الوحدة الشاملة .

الفرق بين الحاجز والسبيل ، بين العقبة والجسر ، هو الذي يرفع المشاريع الهاشمية من عداد المشاريع القومية الوحدوية ، على اختلافها ، ويضعها بين المحاولات التي يخشى الشعب ان تكون مؤامرات يعدها اعداؤه ليسلبوه حقوقه وخيراته ، عن طريق مقاومة سيره نحو الوحدة الشاملة التي تصون الحقوق والخيرات والحريات . اعتبر الشعب المشاريع الهاشمية حاجزا ، لا سبيلا ، لانها تقوم ، في الدرجة الاولى ، على تدعيم الكيانات التي خلقها الاستعمار بعد الحرب الاولى ، على تكبير بعضها وتضخيمه وتقويته ليقف بعزم اشد في وجه فكرة الوحدة .

بنيت الكيانات ، في الواقع، ليغتذي منها « الاثم الجاهلي » (وهو النزعة الفردية الضيقة الحدود الموجودة فيالنفسية والتراثالعربيين منذ ايامالجاهلية) ويترعرع ويمتد حتى يقاوم مطلب الوحدة الذي انتشر هذا القرن وهددالمصالح البريطانية وشريكاتها من المصالح الرجعية. غير ان مطلب الوحدة احتفظ بعدد من الانصار ، وظل يصارع الموت حتى تمكن ، في مطلع النصف الثاني من القرن ، ان يكتسب مناصرين جددا ، ذوي عقليات ومفاهيم متجددة ، واصبح بواسطتهم قوة تهدد المصالح البريطانية والمحلية الرجعية وتهدد فكرة الكيانات وفكرة التجزئة اكثر من اي وقت مضى .

ادرك اصحاب تلك المصالح الاجنبية والمحلية ان عليهم ان يطوروا مفهوم الكيانات ما دامت قد عجزت بشكلها المبدئي الاول (كما كان ١٩٢٠) عن قتل ذلك المطلب الخطر . ادركوا ان عليهم ان يحتفظوا بتلك الكيانات وان يقووا فكرة التجزئة انما من تحت اثواب وحدوية تخدع الشعب وتلهيه وتخفي الحقائق عنه . لذلك تبنوا فكرة الوحدة السورية ، وهي الفكرة القومية في الاساس ، وحولوها الى مشروع بانشاء امبراطورية هاشمية تتعهد عقلية الكيانات وتغرسها في نفوس المواطنين فتبعدهم قدر الامكان عن مطلب الوحدة الشاملة وتثير عداءهم ضد الكيانات العربية الاخرى ، في مصر وشبه الجزيرة، تحت ستار عدم واقعية الوحدة الشاملة وخيالية اهدافها وعدم تناسبها مع الظروف الحاضرة ، كما يقولون . اي انه اريد من الوحدة السورية ان تفصل بين العرب بدل ان تجمعهم ، وان تبعد اسية الغربية عن افريقية الشمالية ،

وان تشل التيار القومي وتقيده في البلد الذي كان مهده ، وتفسح المجال في الوقت نفسه لتيارات اخرى ضد العروبة ولقوميات مختلقة ركب بعضها في مختبرات غربية (كالقومية السورية) ولنظريات مختلفة (كالفكرة الوحدوية الاسلامية والفكرة الانعزالية المسيحية) .

ترتبط هذه المشاريع بالهاشميين لدرجة انها تربط الامة ومصيرها بعائلة معينة وتسخر مصالح الامة وامكاناتها . فيراد من الدولة المنشودة ان تكون ملكية ، وان يكون الهاشميون حكامها ، من قبل ان يتحد الشعب الذي ينكر عليه حق اختيار نوع الحكم وشخصية الحاكم . ويراد منها ان تكون سلاحا ضد الذين يعتقد الهاشميون انهم اعداؤهم ، من العرب ، ولو كان ذلك على حساب وحدة العرب ، ولو ادى ذلك ايضا الى تحويل العلاقات العربية الاخوية بين كيان واخر الى عداءات شخصية . اما مبرر قيام هذه الدولة فهو ، كما قلنا قبل قليل ، يخرج عن نطاق ارادة الشعب وحقه ، وينحصر في وعود بعث الانجليز بها الى الحسين ، ثم الى بعض ابنائه ، خلال الحرب الاولى وفي اعقابها ، وكأن الانجليز هم اصحاب البلاد ومقررو مصائرها . كان الهاشميون يأملون ، في استنادهم على هذا الاساس الاجنبي ، ان يستعيضوا عن الخسائر الخاصة التي منوا بها ، كسقوط عرش سورية من تحت فيصل وعرش العراق من تحت عبدالله قبل ان يجلس عليه . وكانوا يأملون ان يستخدموا الدولة العتيدة في التفريج عن عقدهم المركبة المكبوتة : عقدة الرفض ، رفض الشعب لهم في عدة كيانات والثورة عليهم . لم يكن فيصل وعبدالله وعبدالاله يجهلون ابدا انهم يجلسون على عروش لا ترتبط بالشعب ارتباطا اصيلا ولا يعود للشعب فضل صنعها .

هذه هي الاهداف اللاقومية للمشاريع الهاشمية الوحدوية في عهد فيصل وعبدالاله في العراق وعبدالله في الاردن : تثبيت عروشهم وتوسيع نفوذهم ، معارضة المبادىء القومية وطعنها من الخلف . اما الوسائل فانها لا تختلف في لا قوميتها عن الاهداف : تسقط الشعب من حسابها ، وتستخدم التمويه ، وتحجب عن الراي العام ما يدور في الظلام ، ولا تستشيره بما امره عائد اليه ، بل انها تزعم لنفسها اهدافا شعبية مزورة وتكتم اهدافا موجودة لا يرضى الشعب عنها . وهي تستمد العون المادي والمعنوي من الانجليز وتأخذ بركتهم خطوة بعد اخرى . واذ هي تقصي الشعب وتشل الاتجاهات والحركات الوطنية، تقرب منها حركات رجعية ذات ارتباطات مع المصالح الاجنبية وذات تاريخ مشبوه من يوم نشأتها . وهي تعتمد ، اخيرا ، على ما تقوم به هذه الحركات من مساع لتحقيق الوحدات المشبوهة، وسلاحها الاغتيال والانقلاب والتزوير في الانتخابات ورشوة الصحف ومسخ الشعارات وافساد السياسيين .

بالاضافة الى هذه الصفات ، وما لا بد ان ينتج عنها ، كان للمشاريع المذكورة اخطار اخرى تنبثق عنها وعن تحقيقها . اولها واكبرها ان بعض تلك المشاريع اعترف للصهيونيين بحكم جزء من فلسطين ليبنوا فيه دولة مستقلة او شبه مستقلة يتسللون منها تسللا شرعيا (شرعيا حسب مفاهيم اصحاب المشاريع الهاشمية) الى سائر انحاء « الوحدة السورية » ثم يتسللون ، تسللا غير شرعي ، الى سائر انحاء الوطن العربي . لقد اقترنت مساعي عبدالله لتحقيق مشروع سورية الكبرى بمساعيه لتقسيم فلسطين واعطاء اليهود حكما ذاتيا في القسم الاخصب من فلسطين اقترانا ربط المشروع الواحد بالاخر ربطا محكما . ثم لما حصل التقسيم وايده عبدالله واعترف به باكثر من شكل اخذ يعمل لمشروعه الوحدوي السوري على اساس قيام «اسرائيل» والاعتراف بها اعترافا واقعيا .

واعترفت المشاريع الهاشمية ، من جهة ثانية ، « بحق » الاتراك في المنطقة الشمالية من سورية ، شاملة كيليكية والاسكندرونة وانطاكية . وقد كان عبدالله يقوي علاقاته مع الاتراك ويشتري رضاهم بتأييده لهم في شمال سورية كلما كان ينشط بالدعوة لمشروعه . كذلك ايد الاتراك مشاريع العراق لضم سورية في السنوات التسع الاخيرة من حياة الهاشميين في العراق ، لان سياسة العراق الخارجية اهملت حقوق سورية في المنطقة اهمالا تاما .

ودعت المشاريع الهاشمية ، من جهة ثالثة ، الى تمزيق الميثاق الوطني بين الطوائف والجماعات اللبنانية المبرم منذ ١٩٤٣ ، والى ضم جزء من لبنان الى الدولة العتيدة وتحويل ما تبقى الى وطن طائفي ينعزل عن المجموعة العربية ويحتمي بالغرب . هذا ما جعل عبدالله ينجح ، في النصف الثاني من العقد الاربعيني ، في استمالة عدد من السياسيين الانعزاليين في لبنان ، من اعداء الميثاق الوطني ، الى صفه . واشترك مشروعا عبدالله ونوري السعيد ، في ذلك العقد ، بتقليص حدود لبنان الحاضرة واعادتها الى ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الاولى .

الخطر البارز الاخير للمشاريع الوحدوية الهاشمية هو فصل مصر عن المجموعة العربية والقاؤها في قوقعة افريقية كانت مصر قد اخذت تنفلت منها منذ الاربعينات بعد عزلة طويلة . قصد عبدالله من عزل مصر ان تظل بعيدة حتى لا تأخذ زعامة الدولة العتيدة ، اذ هي الامكانية العربية الكبرى . ولم يهتم للخسائر التي تتكبدها الفكرة القومية من جراء عزل كهذا . وان كان فصل العمل القومي في غرب اسية عنه في وادي النيل قد جاز في مطلع القرن حينما كان كل من الاقليمين منفصلا عن الاخر بمشاغله وهمومه وادارته وانظمته ووضعه الدولي فانه لم يعد يجوز بعد ان تفتحت مصر على واقعها العربي وبعد ان اتضح للعرب في الاقليمين ان لا ضمانة لنوال الاستقلال ولا

لصيانته بدون تضامن مشترك بين الاقليمين ، وان ليس هناك من حل لعشرات المشاكل العربية ، من سياسية واقتصادية واجتماعية ، الا بوحدة الاقليمين ، وان مصر ضمانة اكيدة لنجاح اي مخطط وحدوي يفكر العرب به ، بل هي الضمانة الاقوى .

يمكن تقسيم مساعي عبدالله ، اميرا ثم ملكا ، لتنفيذ مشاريعه الوحدوية في ما يعرف بسورية الطبيعية او الهلال الخصيب ، الى اربع مراحل : مرحلة الحرب العالمية الثانية حتى تأسيس الجامعة العربية ، ومرحلة ما بعد تأسيس الجامعة العربية حتى حرب فلسطين ، ومرحلة حرب فلسطين ، ومرحلة الانقلابات السورية العسكرية الثلاثة ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ . لكن هذا لا يعني انه لم تكن هناك مساع هاشمية اخرى خارج هذا المراحل الاربع . جرت محاولات للتوحيد تزعمها العراق اثر اغتيال عبدالله ثم اثر انتشار الحركة القومية العربية المتجددة في اواسط الخمسينات ، وانتهت بقيام « الاتحاد العربي » الهاشمي الذي لم يعش اكثر من نصف سنة .

اما الملك فيصل الاول فانه لم يسع لتحقيق المشاريع الوحدوية الا في فترات متقطعة فحسب . ذلك انه صرف السنوات العشر الاولى من حكمه في العراق في شبه عزلة عن قضايا العرب الاخرى خارج العراق . ولم يهتم لفكرة توحيد العراق وسورية ، وهي الفكرة التي راودت مخيلات القوميين في البلدين ، خوفا من ان يغضب الفرنسيين الذين عقد معهم اتفاقية شرف بالا يتدخل في شؤون سورية وهي تحت انتدابهم ، وخوفا من ان يغضب اخاه عبدالله الذي اعتبر نفسه صاحب الحق الوحيد بعروش سورية والعراق والاردن معا ! ولعل فشله في اخضاع الشعب في سورية خلال حكمه القصير في دمشق ، والمصير الذي لقيه بعد نفور وطنيي البلاد منه ، جعله يتردد في العودة الى سورية والتفكير بحكمها من جديد . لذلك لم يسجل عليه طيلة العقد العشريني اي مسعى من هذا القبيل الا حادثة واحدة فقط فسرها بعض المراقبين بانها كانت محاولة لتوحيد سورية والعراق معا ، او لجعل سورية مملكة هاشمية مرة اخرى واجلاس الملك علي او الامير زيد عليها . وقد جرى هذا المسعى في زيارة قام فيصل بها الى لندن وباريز في العام ١٩٢٦ . وتميزت الزيارة بمهادنة فيصل لفرنسة وتقربه منها ، حتى انه لام الوطنيين السوريين على ثورتهم ضد الانتداب ١٩٢٥ ودعا مجاهديهم الى القاء السلاح والتفاهم مع السلطات الفرنسية ، مما اغضب عليه اولئك الوطنيين .

غير ان تطورا خطيرا حصل في العراق في نهاية العشرينات وبدء الثلاثينات جعل فيصلا يخرج عن انكماشه ويفكر في توحيد العراق مع سورية وفلسطين ويبحث عن انصار لمشروعه في البلدين ــ وهو نجاح شركات النفط البريطانية في استخراجه من باطن الارض ، مما حول العراق الى بلد نفطي

يعتمد اقتصاده على هذه البضاعة الجديدة اكثر مما يعتمد على اي مصدر اخر . واذ كان العراق بعيدا عن البحر المتوسط ، ولم يكن له منفذ بحري يصدر منه النفط الى اسواقه في اوربة الا في البصرة البعيدة عن الاسواق الاوربية ، لم يبق امامه الا ان يفكر ببناء مراكز لتصدير نفطه على شواطىء المتوسط الشرقية ، اي فلسطين . فالمسافة البحرية بين حيفا وانجلترة هي نصف المسافة تقريبا بين البصرة وانجلترة عن طريق السويس . وكان الانجليز قد فكروا في اهمية الموانىء السورية والفلسطينية للعراق منذ ان اخذوا على عاتقهم امر تقسيم خريطة القسم العربي من اسية في السنة ١٩١٩ . دعا لويد جورج انذاك الى اعطاء العراق منفذا في خليج حيفا ، وكانت فلسطين ستقع تحت الانتداب الفرنسي او الدولي حسب مقررات اتفاق سايكس ـ بيكو السري . ولكن لما ذهبت فلسطين من نصيب الانجليز ، ثم ظهرت بوادر تفجر النفط في العراق ، اشرفت حكومة الانتداب البريطاني على توسيع ميناء حيفا ليصبح مركز تصدير النفط في المدينة الفلسطينية نفسها .

اذن فقد تجرأ فيصل ، في السنوات الاخيرة من عهده ، على ترديد فكرة الوحدة العراقية ـ السورية في الاجتماعات الخاصة وفي اتصالات سرية اجراها مع المسؤولين البريطانيين والفرنسيين . واخذ يجس نبضهم . وزار لندن وباريز مرة اخرى . ولقي ، لاول مرة ، رد فعل وديا خاصا في فرنسة . وتباحث مع وزير خارجيتها ، بريان ، في الامر مليا . واستقبله المسؤولون استقبالا فخما . وشرب احدهم ، في حفلة رسمية اقامتها الحكومة على شرفه ، نخب « ملك العراق وسورية معا » . اما سر هذا التودد فكان خوف السلطات الفرنسية من نمو الحركة الوطنية في سورية بعد ان اثبتت ثورة ١٩٢٥ معارضة الشعب للانتداب وتأييده للاحزاب الوطنية . ارتأت تلك الاوساط ان تطوق النضال الوطني باجلاس فيصل على العرش مقابل اعترافه بالانتداب وقبوله بالعمل تحت ادارته .

شجع ذلك الموقف فيصلا . فاخذ يقرب اليه دعاته واعوانه في سورية ويمولهم ولم يعد يعارض في دعوتهم له كما كان يفعل قبلا . واسس هؤلاء الاصدقاء حزبا سياسيا عرف بالحزب الملكي دعا لفيصل او لواحد من اخويه، علي وزيد ، وارسل برقيات بهذا المعنى الى عصبة الامم . وكان النواب البدو في اول مجلس نيابي في سورية (الذي التأم في صيف ١٩٣٢) من اكثر مشجعي الحزب الملكي . اما العناصر الوطنية فانقسمت بين مؤيد للفكرة وبين متردد ومتحفظ يخاف من اعادة التجربة المرة السابقة . وحتى حزب الاستقلال نفسه تعرض لهذا الانقسام . كانت غالبية رجاله المقيمين في سورية لا ترى مانعا من الاستعانة بفيصل ضد الانتداب الفرنسي . اما غالبية الاستقلاليين المقيمين في اوربة (وخاصة في سويسره) او في مصر فقد اصروا على ان

يكون الحكم العتيد جمهوريا يناسب عقلية العصر .

وتعاون فيصل ، في الوقت نفسه ، مع عدد من السياسيين الفلسطينيين، واغلبهم من بقايا احزاب دمشق الوطنية . وقد ابقى هؤلاء على امنية الوحدة العربية ، ولم يستسلموا للكيانات ولا سكتوا عن نظام الانتدابات . وبقيت فكرة بسمرك العربي تلعب في اذهانهم وتبني قصورا من رمل . شجعهم على الالتفاف حول فيصل من جديد ، بعد ان تخلى عنهم وتخلوا عنه في سورية ١٩٢٠ وبعد ان اختبروا لامبالاته بالمبادىء التي كانوا يرفعونها، ان رأوا حاجة العراق الاقتصادية ، على الاقل ، الى الوحدة مع جاراته المتوسطيات من اجل تسهيل تصدير نفطه . حاولوا استغلال هذه الحاجة والضغط على فيصل ، خاصة انهم لم يجدوا امكانية بسمرك في اي حاكم عربي اسيوي اخر . كان ملك الحجاز وامام اليمن قد خيبا الامال القليلة التي وضعت في فترات قصيرة عليهما ، وتخاصما وتحاربا بدل ان يهرعا لمساعدة اخوانهما في فلسطين وسورية . (تزعم الدعوة لهما في العالم العربي قبل بروز خيبة الامل ، الحاج امين الحسيني وهاشم الاتاسي وشكري القوتلي والامراء الارسلانيون) . اما عبدالله فكان الاستقلاليون قد فقدوا ثقتهم منه نهائيا منذ ان اجلاهم عن عمان . لذلك اعاد الوطنيون اتصالاتهم المقطوعة مع فيصل. بل انهم بايعوه مسؤولا عن القضية العربية في مؤتمر القدس ١٩٣١ وما تلاه من اجتماعات . واسسوا نواة حزب في فلسطين عرف باسم « حزب الاستقلال العربي » تراسه السكرتير السابق لفيصل ، عوني عبد الهادي . وبلغ تعلقهم بفيصل ان خلعوا الطرابيش والحطات والعقل ولبسوا « الفيصليات » التي كان فيصل قد نشر لبسها في العراق .

غير ان بريطانية لم ترحب بهذه المشاريع . خشيت من انتشار النفوذ الفرنسي في العراق ، واقتراب الخطر الفرنسي من ابار النفط فيه ، من جراء توحيده مع سورية . وخشيت من انتشار الدعوة الاستقلالية في العراق وفي فلسطين من جراء توحيد البلدين مما يهدد مصالحها ووعودها للصهيونيين . ولما فهم فيصل استحالة تحقيق هذه المشاريع لجأ ، في السنة الاخيرة من حياته ، الى الدعوة سرا لمشروع اخر : ان يعين على سورية احد اخويه العاطلين عن العمل ، دون توحيدها مع العراق ، بينما يضم كل من شرق الاردن وفلسطين للعراق في دولة ترسخ النفوذ البريطاني في المنطقة وتقبل بصك الانتداب على فلسطين الذي ينص ، فيما ينص عليه ، على تنفيذ وعد بلفر . كانت الحكومة البريطانية على استعداد للبحث في مشروع كهذا يرضيها وينفعها من جميع النواحي . ودعت فيصلا الى لندن للمناقشة. فلبى الدعوة، كعادته. ومر في عمان ، في صيف ١٩٣٣ ، وهو في طريقه الى لندن ، لاقناع اخيه بالفكرة . وصرح ، وهو هناك ، ان وحدة البلاد العربية (في اسية) ضرورية

ليس فقط لانها تهم العرب بل « لانها في الواقع تهم معظم الدول الاوربية . علينا ان نتذرع بجميع الوسائل التي تؤدي الى تحقيقها » . قصد بذلك القول ان يشير الى رغبة بريطانية وفرنسة بتحقيق المشروع .

لم يرق المشروع لهاشمي واحد حاربه بكل قواه : عبدالله . راى امير الاردن في المشروع كنزا اخر يسبقه اليه اخوه ، مثلما سبقه قبلا الى زعامة الثورة وعرشي سورية والعراق . وراى في تحقيقه تحقيرا جديدا له ، وتخفيضا لامارته في شرق الاردن الى منزلة ادنى مماكانتهي عليه. ولم يكن عبدالله بحاجة الى تحريض جديد حتى يثور على اخيه ويهاجمه . فقد سبق له ان ملأ اسماع الناس بانتقاداته اللاذعة ــ وهي انتقادات عبرت عما كان يشعر به نحو فيصل من حقد وحسد . لذلك اوعز الى جماعته في فلسطين (ممن اسسوا حزب الدفاع فيما بعد ، وكانوا من خصوم الحركة الوطنية) بمقاومة المشروع الفيصلي وفضحه لاحراج لابسي « الفيصليات » . ففعلوا ذلك واتهموا مشروع فيصل بالتفريط بجزء من فلسطين اذ هو يكتفي بضم القسم الشمالي من فلسطين (حيث تمر انابيب النفط) ، فقط ، الى الدولة العتيدة ، مما يعرض القسمين الاوسط والجنوبي من البلاد للتهويد .

انما هو القدر ، وليس عبدالله وجهوده ، الذي قضى على ذلك المشروع « التوحيدي » ، حينما شاء ان يلعب دوره : طويت ، بموت فيصل في ذلك الصيف عينه ، صفحة كبيرة من المشروع الفاشل ، لتحل محلها صفحات اخرى لعب عبدالله دور تسويدها في مدى عشرين سنة .

فكرة الوحدة السورية ــ العراقية عند عبدالله « حق » ناله منذ ١٩٢٠: حق بعرش العراق اخذه من المؤتمر الوطني في دمشق الذي انتخب نفسهبنفسه ولم ينبثق عن انتخاب شعبي حر ولا غير حر ، وحق بعرش سورية منحه عبدالله لنفسه لانه اعلن ذات يوم انه سيحرر سورية من الفرنسيين . اخذ عبدالله يطالب بهذين الحقين منذ ان اجلس على عرش الاردن كمنحه حرب لم يخضها ، في ١٩٢١ . وقد دعم مطالبته بوعد من لورنس ، كان يرويه ويكرره سنة بعد اخرى امام المئات من المستشارين والموظفين والزوار .

سر تمسك عبدالله بحقين مزيفين انه لم يقنع بشرق الاردن في يوم من الايام ولم يجد فيه ما يتناسب مع ما اعتقد في نفسه من مؤهلات وكفاءات. فشرق الاردن ، بالنسبة اليه ، بلد صحراوي في غاية الفقر ، ضعيف لا يقوى كيانه على الاستمرار يوما واحدا لو سحب الانجليز معونتهم عنه . وهو كيان ناقص يفتقر الى جميع المقومات الاقتصادية والادارية الضرورية لبلد ما. هو شبه كيان اذا ما قيس بالنسبة الى سورية او العراق او فلسطين ، وكل

منها بلد خيرات وتراث وماض وشهرة ووجود عالمي . هذا من الجانب الواحد . اما من الجانب الاخر فان عبدالله كان ينظر الى نفسه كوريث للثروات الهاشمية احق من فيصل : الثروات التي ضمت عرشي سورية والعراق فيما ضمته . فلماذا ، اذن ، لا يصل الى هذه الثروات ، ما دام العطاء من يد الانجليز ، وهم اصدقاؤه وهو رجلهم ؟

حلم عبدالله في ملك اوسع من الاردن منذ ان اعطي الاردن على طبق من فضة جاءه من حيث لا يعلم . حلم بتوسيعه من الشمال والغرب ، اي في سورية وفلسطين ، كخطوة اولى نحو اتحاد فدرالي مع العراق والحجاز يتولى هو رئاسته . ولتحقيق هذا الحلم سافر الى لندن في السنة الثانية لحكمه ، وعرض على مسؤوليها مشروع تأسيس دولة واحدة في فلسطين وشرق الاردن وسورية ولبنان تخضع لانتداب بريطاني - فرنسي مشترك ومباشر ، يجلس هو على عرشها ، ويؤسس اليهود لانفسهم في جنوبها دولة لها حكم ذاتي . ولكن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة انذاك لتوحيد رقعة جزأتها خصيصا لابعاد شبح الوحدة عنها ، حتى ولو كانت الوحدة العتيدة من صنع صديقها وتحت ادارته . فعاد عبدالله الى بلده متذمرا من حصته في تقسيم الممالك . وصمم على اثارة الانجليز بالتصرف كفتاة تخلى عنها صديقها فراحت تتودد الى غيره لعله يعود اليها . فاتصل بعدد ممن المسؤولين الفرنسيين . واجتمع بهم في عمان والقدس . وعرض عليهم خدماته . ومول تجارا وسياسيين وتجار سياسة في سورية ولبنان للدعوة له في الاوساط الفرنسية . واخذ يذيع انه توصل الى تفاهم تام مع الحكومة الفرنسية ، وان اعلان وحدة الاردن مع سورية بات مسألة ايام معدودة . وليبرهن للفرنسيين على ولائه لهم وتحرره من التبعية البريطانية ومن الحس الوطني الثائر على فرنسة ، وشى للمندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان، الجنرال سراي ، بخفايا واسرار الثورة العربية التي اشتعلت في سورية في ذلك الحين (١٩٢٥) . والواقع ان سراي فضح سر تلك الوشاية بنفسه في حديث مع صحافي كندي (١) .

-

لم تنطل الحيلة على السلطات البريطانية . ولكنها عطفت عليه وحاولت التعويض بمنحة جديدة ترفع معنوياته وتخدم مصالحها في الوقت ذاته . فضمت الى الاردن ، نهائيا ، منطقة العقبة ومعان وتبوك . ولعلها ارادت ان تلهيه عن اطماعه في الغرب والشمال بمكاسب جزئية في الشرق والجنوب . غير ان تلك المنطقة لم يكن يتلاعب بها بسهولة . تمرد النجديون على والده وعلى اخيه وطردوهما ، واحدا بعد الاخر ، من الحجاز ، وارعبوا عبدالله

---

(1) Pierre Van Passen, The Forgotten Ally (New York, 1943), P. 150.

ووصلوا الى قرب عمان . وادرك عبدالله ان لا امل له في ذلك الاتجاه مثلما كان من قبل قد ادرك ان لا امل له في الاتجاه الاخر، حيث الانجليز والفرنسيون وحيث اخوه فيصل . فاكتفى بالمطالبة بهذا البلد او ذاك ، وبالكلام عن جشع اخيه ، الى ان مات اخوه ، فاحيى الموت اماله ، ووجد نفسه الزعيم المؤهل لان يوجه المشاريع الهاشمية حيث شاء، اذ كان اخواه الاخران، الاكبر والاصغر، يعيشان في عزلة نسبية عن الاحداث . فذهب الى لندن وقدم لائحة مطاليبه مرة اخرى . واوعز اليه المسؤولون ان يدرسها مع العراقيين اولا . الا ان العراقيين ، وقد ادركوا مآربه ، صدوه واخرجوه من البلاد شبه مطرود . فصب غضبه على غازي ، وريث فيصل ، وظل يحقد عليه حتى مات . وقد اتهمه انه هو الذي الب عليه زعماء العراق خوفا على عرشه .

كان الشعب في سورية قد اشتد ساعده في ذلك الوقت واخذ يلح على سلطات الانتداب في طلب الاستقلال . وتجمع الوطنيون في كتلة قادت النضال الشعبي والسياسي واحرجت الفرنسيين وتحدت اساليبهم البوليسية وتطلعت الى العراق بعين ملؤها الامل بان يساعد سورية في محنتها ، وقد اصبح للعراق مركز دولي وانضم الى عصبة الامم وجلس على عرشه ملك شاب اذاع اصدقاؤه اخبار وطنيته وعروبته . فرأى عبدالله ان الفرصة قد سنحت . استغل تلك الحالة الحرجة وارسل مذكرة الى وزير الخارجية الفرنسية يقترح فيها تأسيس عرش هاشمي في سورية والاردن معا يضمن بقاء الانتداب وينزع سلاح المقاومة من الحركة الوطنية . ولكن الفرنسيين تذكروا فشل المحاولة التي سبق ان جرت مع فيصل من قبل من اجل الهدف نفسه . ولم يأخذوا المذكرة باهتمام . وتركوها بلا جواب .

لم يبق لعبدالله من امل غير فلسطين . وكان ، في الواقع ، يفضل عرش سورية على فلسطين ، لان البلد الاول اغنى واكبر، ولان الطمع به لا يزعج الانجليز ولعله يرضيهم ، ولا يزعج الدول الاخرى التي كانت تفكر لفلسطين بمصير اخر غير مرتبط بجاراتها العربيات ، ولان الحصول على سورية قد يؤدي في النهاية الى الحصول على فلسطين ، او على جزء منها ، حصولا سهلا وطبيعيا .

مع هذا راى عبدالله ان عرشا في فلسطين ، او في جزء منها ، خير من لا شيء . من هنا كان موقفه الودي من مشاريع التقسيم التي بحثت في اكثر من مناسبة في الثلاثينات ، وخاصة قبيل اعلان الحرب العالمية الثانية — وهي فترة صراع قوي جبار خاض العرب فيها معركة حاسمة مع الانتداب والصهيونية . وقد اشترط عبدالله ، مقابل تأييده تلك المشاريع تأييدا سريا احيانا وعلنيا احيانا اخرى ، ان يعطى القسم العربي من فلسطين في حال تنفيذ اي مشروع

منها . اي ان عبدالله لم يمنع نفسه عن استغلال ثورات فلسطين الوطنية لتحقيق احلامه الخاصة . كانت حجته (كما جاء في رسالة بعث بها في يونيو ١٩٣٨ الى رئيس الشبان المسلمين في مصر) اناحلامه التوسعية تلك انما هي « الحل الوحيد » لمشكلة فلسطين ، وانه ان لم يضم فلسطين الى امارته تهودت في سنتين .

لم يفز عبدالله بفلسطين ولا بجزء منها ، مع انه عارض ثوراتها الوطنية وايد السياسة البريطانية مدة طويلة . صدر ، في ربيع ١٩٣٩ ، الكتاب الابيض الذي حرم عبدالله من اماله . رفض الانجليز فيه فكرة تقسيم البلاد وقالوا بتشكيل حكومة واحدة . وكان قرارهم هذا خدعة جديدة ارادوا منها كسب ود العرب بينما كان العالم يقف على عتبة حرب تحتاج الدول الكبيرة فيها تأييد الشعوب الصغيرة التي تقع بين جبهتي القتال وليس لها مصلحة في اية جبهة منهما . رأى عبدالله ، والحالة هكذا ، ان يرجىء بحث مصير فلسطين الى ما بعد الحرب ، ما دام امر التقسيم قد ارجىء مؤقتا ، وما دامت حليفته مشغولة عنه بقضايا اخطر تضطرها لمراضاة الوطنيين العرب ولو الى حين .

تحول عبدالله ، لذلك ، الى سورية من جديد . ذلك انه كان يخشى ان يسعى وراء مشروعه في اتجاهين في وقت واحد . كان يترك امر سورية عندما يجد لنفسه فرصة في فلسطين ، ثم يهمل امر فلسطين عندما يرى بصيص امل في سورية او العراق .

ارسل الى اعوانه من سياسيي سورية ان يستغلوا ضغط الحركة الوطنية على سلطات الانتداب ويطالبوا بحل وسط : تحكيم عبدالله باعلانه ملكا على البلاد . لبت دعوته جماعة ابرز رجالاتها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم . وقامت بدعاوة قوية للفكرة . الا ان الكتلة الوطنية قاومتها لانها وجدت فيها تفرقة للوحدة الوطنية وتنزلا عن المطاليب الاساسية ، ولانها خافت ان يستبدل الانتداب الفرنسي بنفوذ فرنسي ـ بريطاني مشترك خلف امير رجعي . وردت الكتلة على المساعي الهاشمية بموقف سلبي حازم تجاه سلطات الانتداب التي استغلت اعلان الحرب واخذت تعتقل المناضلين وتحل احزابهم وتمنع اجتماعاتهم . شاهد هؤلاء المناضلون امل الانتصار يكاد يتحقق حينما عمت الاضطرابات البلاد وكاد المنتدبون يستسلمون للتيار الوطني . ولكنهم عادوا فشاهدوا الامل يخبو حينما ذعر الانجليز والفرنسيون من ذلك الموقف ، واسرعوا باحتلال سورية ولبنان وثبتوا الحكم الاجنبي من جديد .

استغل عبدالله الحملة وارسل بعض قواته للاشتراك بها . ولكنه مهد

لذلك العمل بمحاولة اخرى لتحقيق اماله : ارسل الى السلطات البريطانية مذكرتين طالب فيهما ان يعطى عرش سورية بعد ان سقطت فرنسة ولم يعد انتدابها على البلاد شرعيا . وقد ردت تلك السلطات على مذكرتيه بان الموقف غير مناسب لبحث الموضوع . والمذكرتان شهيرتان ، اذاعهما عبدالله بعد الحرب في كتاب اصدرته حكومته بعنوان « الكتا بالابيض حول سورية الكبرى » (٢) . وكتب الرد عليهما السير هرلد مكمايكل ، المندوب السامي في فلسطين وشرق الاردن . ومما دعا الحكومة البريطانية الى تأجيل البحث في الموضوع انها لم تكن على استعداد انذاك لاغضاب حكومة الفرنسيين الاحرار وحكومتي مصر والسعودية وشعبي سورية ولبنان ، في وقت كان العدو يحتل فيه حدود مصر ولم يكن يبعد كثيرا عن سورية او السعودية .

ثم ان الحكومة البريطانية كانت تفكر بمشروع اخر يضمن استمرار مصالحها في الوطن العربي في الحرب (وقوات روما تقترب من مصر) وفي عالم ما بعد الحرب ، ويعمل على جذب العرب الى جانبها بعد ان انحاز الراي العربي العام انحيازا عاطفيا نحو الالمان وراح يتغنى بانتصارات هتلر ، ويسهم في تخفيف واخماد القضية الوطنية التي عبر الراي العام بها عن موقفه من احتلال العراق وسورية ولبنان ١٩٤١ . ادركت بريطانية ان العرب آمنوا بعهد العراق الوطني (برئاسة الكيلاني) لانه سعى الى تحقيق الاهداف التي عجز الهاشميون عن تحقيقها (والتي عمل الهاشميون على افشالها في احيان كثيرة) . فالتفوا حول ذلك العهد واعتبروه امتدادا لثورتهم الاصيلة التي بترت وحرفت قبل خمس وعشرين سنة . لذلك حاولت بريطانية ان تتقرب ، هي الاخرى ، من الاماني العربية ، وان تدعي بانها تعمل عمل العرب انفسهم . فاعلنت انها تؤيد الوحدة العربية . بل انها تدعو العرب لبناء جامعة تلـــم شملهم ، وهي تساعدهم في ذلك مساعدة غير مشروطة .

جاء هذا الاعلان في النهار نفسه الذي انهت فيه القوات البريطانية احتلال العراق وبدات تستعد لاحتلال سورية . وهو توقيت محكم كاف لان يفضح النية وراءه ــ وبريطانية معروفة بهذه الازدواجية التقليدية : الطعن من جهة وتقديم الضمادات من جهة اخرى . وبعد تلك الحادثة بسبع سنوات كررت الاجراء نفسه : اعطت العراق والاردن استقلالهما واسهمت في انشاء دولة « اسرائيل » .

صدر الاعلان المذكور في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٩٤١ ، في خطاب القاه وزير الخارجية ، انتني ايدن ، في دار بلدية لندن . وقد جاء

---

(٢) طبع في عمان ١٩٤٧ .

فيه « ان لهذه البلاد صداقة عريقة مع العرب برهنت الايام عليها ، ولم تكن كلامية فقط . ان عربا كثيرين يأملون ان يحصلوا على وحدة اكثر من الوحدة الموجودة حاليا . وهم يأملون ان يحققوا ذلك بمساعدتنا . يجب الا يذهب ذلك الامل عبثا . يبدو لي ان تقوية العلائق السياسية والاقتصادية بين الدول العربية امر طبيعي ومطلب حق . لذلك فان حكومة جلالته تؤيد اي مشروع ينال الرضى العام تأييدا كاملا » (٣) .

قبل اسابيع قليلة من القاء هذا الخطاب كان رئيس الحكومة البريطانية، ونستن تشرتشل ، يبدي استخفافه بالمشاعر القومية عند العرب ويهزأ من انتقادات الذين عارضوا مشروعه لتسليح يهود فلسطين وتدريبهم على القتال (وكان بين المنتقدين اللورد لويد وزير المستعمرات والجنرال ويفل القائد العام في الشرق الاوسط والسير هرلد مكمايكل المندوب السامي في فلسطين وشرق الاردن) . ولكن ما ان ثار العرب في العراق ، وناصرهم العرب في سورية وفلسطين وشرق الاردن ، حتى ادرك تشرتشل حقيقة وقوة التيار العربي القومي ، وتبدلت ، بالتالي ، سياسة حكومته العلنية تجاه الاماني القومية . فالقى ايدن خطابا في مجلس العموم ، في السادس من مايو ، ناشد العرب فيه ان يلتفوا حول بريطانية لانها هي الصديق الذي يحقق لهم امانيهم .

كان رد فعل خطاب ايدن اواخر مايو سريعا جدا في العاصمة الاردنية. جمع عبدالله مجلس وزرائه ، في اليوم التالي ، واصدر بيانا ناشد العرب فيه ان يعلنوا وحدة البلاد السورية ما دام الانجليز يتكلمون عن الوحدة . وارفق بيانه بمذكرة رفعها الى الحكومة البريطانية . ثم كتب الى الوزير المقيم في الشرق الاوسط الجديد ، الفر لتلتن ، يدعوه لزيارة عمان . وحينما اجتمعا بعد شهرين (اواسط ١٩٤١) برر عبدالله مشروعه بانه السبيل الوحيد لضمان ولاء شعب سورية للحلفاء وخضوعه للاحتلال العسكري الحليف . وصارح عبدالله ضيفه بان الشعب يقف ضد الحلفاء بسبب هذا الاحتلال . وقال انه ، اي عبدالله ، هو الوحيد الذي يستطيع ان يقضي على « اعوان الشر » ، اي الوطنيين .

كرر الوزير البريطاني ما جاء في الرد الذي اصدرته الحكومة البريطانية على مذكرة عبدالله وارسلته اليه في اواسط يوليو ، وهو ارجاء البحث الى ما بعد الحرب . وحاول الوزير افهام عبدالله ان مشروع ايدن لا يقتصر على هذا الجزء من البلاد العربية ، وان وزير الخارجية انما يفكر برابطة تجمع بين عرب اسية وافريقية معا . الا ان عبدالله اصر على ان ينظر الى الموضوع من

---

(٣) نص الخطاب في جريدة التايمز في ٣٠ مايو ١٩٤١ .

زاويته الضيقة . فلم يترك مناسبة دون ان يدعو فيها لمشروعه . فخطب في افتتاح المجلس التشريعي في عمان ، في السادس من نوفمبر ١٩٤١ ، بانه سيوحد سورية والاردن مهما كان الثمن الذي سيتكبده . وكتب مذكرتين في المعنى نفسه الى لتلتن في الثالث والعشرين من نوفمبر ١٩٤١ والى المعتمد البريطاني في عمان في السادس من يناير ١٩٤٢ . وخطب في القدس ، في مارس ١٩٤٢ ، بانه سيضم فلسطين الى شرق الاردن سواء رضي « الاعداء » ام ابوا . واوعز الى انصاره في سورية ولبنان بمعارضة مرشحي الحركات الوطنية في الانتخابات التي اعلن الفرنسيون عنها ١٩٤٢ وجرت في السنة التالية ، وبمحاربة رجال الكتلة الوطنية في سورية والكتلة الدستورية في لبنان بنوع خاص . وكان عبدالله ، الى جانب ذلك كله ، يستغل ذكرى الثورة العربية ، في التاسع مع شعبان من كل عام ، ليطالب بالوحدة السورية ويذكر الناس بامجاد الاسرة الهاشمية وافضالها على العرب عموما وعلى السوريين خصوصا . وكان يعيد مزاعمه نفسها فـي خطب افتتاح دورات المجلس التشريعي .

اما الجناح الاخر من البيت الهاشمي ، العراق ، فقد استوحى مشروعا اخر من خطاب ايدن في التاسع والعشرين من مايو . وقد تحمس نوري السعيد للمشروع البريطاني حتى انه عين نفسه وزيرا لبلاده في مصر ليعمل على اقناع حكومة القاهرة بالفكرة . ومكث في هذه الوظيفة عدة اشهر يعمل للمشروع . لكن الحكومة المصرية لم تكن تميل الى تلبية اشارات بريطانية بتلك السهولة والسرعة ، وكانت تتحفظ في علاقاتها بالصراع الدموي بين الحلفاء والمحور ــ وهو تحفظ دفعت الوزارة ثمنه بعد وقت قصير ، اذ اقالها الانجليز وحملوا حزب الوفد الى الحكم بالقوة في الرابع من فبراير ١٩٤٢ . كما ان المسؤولين المصريين لم يرتاحوا لجهود نوري السعيد بشكل عام . وكانوا يشكون في نواياه . وقد عرفوه معارضا للوحدة العربية من قبل . فقد سبق له ان تزعم الحملة ضد مشروع الوحدة الذي قدمه الوفد السوري الى المؤتمر البرلماني العربي في القاهرة في اكتوبر ١٩٣٨ .

حينما ادرك السعيد فشله في مهمته عاد الى العراق « واقال » رئيس الحكومة واخذ محله في اكتوبر ١٩٤١ . واخذ يعمل لمشروع « عربي » يحقق امنية الوزير البريطاني ومصالح الهاشميين في آن واحد . واتصل بوزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الاوسط ، رتشرد كيسي ، وعرض عليه وجهة نظره : على بريطانية ان تدعم كيانا عربيا موحدا في اسية فقط ، وعليها ان تستغل ضعف فرنسة وتأخذ زمام المبادرة . وجدير بالذكر ان فرنسة كانت، في ذلك الوقت عينه ، تفكر في المسألة وتنظر اليها من زاويتها هي . فقد كتب المفوض الفرنسي العام في سورية ولبنان ، كاترو ، الى الجنرال دجول

ان تبني بريطانية لقضية الوحدة العربية جعلها تأخذ زمام المبادرة . لذلك فهو يقترح ان تدعو فرنسة الى هذه الفكرة وتنقل محورها من بغداد والقاهرة الى دمشق وبيروت ، فيقوى بذلك نفوذ فرنسة ويضعف نفوذ بريطانية وتتنافس العواصم العربية وتتصارع القوى الوطنية وهي تعتقد انها تعمل للوحدة بينما هي تبتعد عنها باشواط .

طلب كيسي من نوري السعيد ان يعرض مشروعه في مذكرة رسمية . فكتبها ورفعها اليه في اوائل ١٩٤٣ ونشرها في عدد محدود من النسخ في كتيب حمل اسمه لون غلافه (٤) . يذكر الكتاب المرء بمشروع اخر سبق ان وضعه قبل السعيد صديق حميم له ، الكولونيل س. ف. نيوكمب . دعا ضابط الاستخبارات البريطاني المذكور الى توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن في دولة واحدة تشكل مع العراق جامعة عربية . ويعطى المسيحيون في لبنان واليهود في فلسطين حكما ذاتيا . وتعلن البلاد تحت وصاية هيئة الامم . وتعقد الجامعة العتيدة معاهدة صداقة مع بريطانية تكفل مصالح بريطانية في المنطقة وتوكلها بامر حماية بلدي الجامعة .

عرف مشروع نوري السعيد باسم نظام الكمنولث العربي اولا . ثم اطلق عليه اسم الهلال الخصيب نسبة الى الشكل الجغرافي للجامعة العربية العتيدة . وكان الاثري الاميركي جيمز هنري برستد قد اطلق هذا الاسم على العراق وسورية منذ نصف قرن . واختار السعيد الاسم بالذات لانه يرضي انعزاليي العراق ولبنان الذين يتخوفون من الوحدة العربية ومن اسم سورية .

دعا المشروع لتأسيس دولة موحدة في سورية وفلسطين ولبنان وشرق الاردن ، ثم تأسيس جامعة عربية تقتصر على هذه الدولة والعراق ، انما تكون مفتوحة الابواب لمن شاء من الدول العربية الاخرى فيما بعد . ويكون للجامعة مجلس دائم يشرف على شؤون الدفاع والميزانية والسياسة الخارجية والمواصلات والجمارك وحماية الاقليات . ويعطى اليهود حكما ذاتيا في فلسطين مع ضمانة دولية ، وينفردون في ادارة شؤون الامن والمعارف والصحة . وتشرف على القدس لجنة خاصة تمثل الاديان الثلاثة وتؤمن حرية العبادة فيها .

لم يكن هناك فارق اساسي كبير بين مشروعي نوري السعيد و (الامير)

---

(٤) عرف باسم الكتاب الازرق . وهذا عنوانه بالانجليزية
Arab Independence and Unity (Baghdad, 1943).

عبدالله . كان اولهما يكمل ثانيهما . الا ان بندا واحدا في المشروع الاول لم يكن يرضي عبدالله : وهو ان الشعب في سورية هو الذي يقرر نوع الحكم في الدولة السورية العتيدة . فقد كان عبدالله يخشى الا يكون حظه كبيرا لو جرى استفتاء شعبي حر في اي كيان عربي حول شخصية الحاكم ونوع الحكم. كان يعلم موقف الحركات الوطنية منه لانه كان يعلم موقفه هو منها !

سار مشروعا سورية الكبرى والهلال الخصيب جنبا الى جنب ، مع اصطدامات قليلة وبسيطة ، في السنة ١٩٤٣ . واجتهد صاحباهما في اقناع بريطانية بتبنيهما . لكن بريطانية رفضتهما معا لانهما كانا يتعارضان مع مخططها بادخال مصر في الجامعة العتيدة بعد ان وضعت القوات البريطانية على مصر حكومة موالية للحلفاء. وفضلت بريطانية فكرة الجامعةعلى المشروعين المذكورين لان الجامعة تؤمن لها النفوذ في سبع دول او ثمان بينما انحصر المشروعان في نصف هذا العدد ، ولان فكرة الجامعة كما وضعتها بريطانية مطاطة جدا وشكلية بينما يدعو المشروعان الى وحدة كاملة لا تريدها بريطانية بأي شكل من الاشكال .

حمل المخطط البريطاني خطاب جديد لانتني ايدن في مجلس العموم . قال في اجابة على سؤال عن موقف الحكومة من قضية الوحدة العربية ، في الرابع والعشرين من فبراير ١٩٤٣ « يجب ان تأتي البادرة من العرب انفسهم. لم يقدم ، بعد ، اي مشروع ينال الرضى العام حسب علمي » (٥) . ما ان نشر الخطاب في البلاد العربية حتى بدأ اصدقاء بريطانية بين السياسيين والمفكرين يتعهدون الفكرة ويعملون لها . وقامت اكثر من مؤسسة شبه حزبية تنادي بالعروبة والوحدة يسيطر عليها سياسيون عرفوا باستلهام بريطانية في تفكيرهم عادة . ووضع احد مفكري فلسطين كتابا صدر بعد اسابيع من خطاب ايدن يحدد فيه معالم الجامعة العتيدة . ولان ايدن اراد مصر جزءا من الجامعة ، تكلم المؤلف العربي عن اهمية مصر في الجامعة اذ هي قلب الوطن العربي . ولكنه لم ينس ان يجاري التيار الهاشمي . فاعتبر البلاد السورية وحدة قومية ودعا الى قيامها كوحدة سياسية تامة (٦) .

سبق مصطفى النحاس (الذي فرض على مصر ، بالقوة، رئيسا للوزراء) زميليه العراقي والاردني وتلقف الاشارة قبلهما واعلن ، بعد خطاب ايدن بايام قليلة ، انه شرع في مباحثة المسؤولين العرب في امر الجامعة العتيدة ، ومع ان البادرة صدرت من لندن وان النية في المشروع ليست سليمة ، رحبت

---

(5) House of Commons Debates, 5th Series, Vol. 387, Col. 139.

(٦) يوسف هيكل ، نحو الوحدة العربية (القاهرة ، ١٩٤٣) .

الاوساط الوطنية بهذه المباحثات على امل ان تطهر الجامعة العتيدة نفسها بنفسها وتقضي بخدماتها للعرب على اصلها المشبوه . اما الهاشميون فقد فهموا خطاب ايدن رفضا لمشروعيهم واصرارا على ادخال مصر الجامعة ، مصر النحاسية ، وتسليمها الزعامة فيها. ومع هذا لبى نوري السعيد دعوة النحاس (باشا) وذهب الى مصر وعقد مع حكومتها سلسلة اجتماعات في قصر انطونيادس بالاسكندرية ، صيف ١٩٤٣ . فقد خشي ان يستمر النحاس في مباحثاته مع المسؤولين العرب دون العراق ان اصر العراق على المقاطعة . ولا شك ان الانجليز ضغطوا عليه للذهاب الى مصر .

اما عبدالله فكان اكثر سلبية . وعارض الفكرة بعنف . واصدر ، في الثامن عشر من ابريل ١٩٤٣ ، بيانا الى الشعب في سورية ، وهو على ابواب انتخاباته النيابية ، يدعوه للاشتراك في مؤتمر عزم على عقده في عمان لاعلان مولد دولة سورية الكبرى . لكن الشعب لم يكتف برفض الدعوة والاعراض التام عن المؤتمر ، بل حمل شكري القوتلي ، وكان زعيم الحركة الوطنية وخصما تقليديا للاطماع الهاشمية ، الى رئاسة الجمهورية ، واقصى عن مجلس النواب أغلب ازلام عبدالله . اضطر عبدالله ، عند ذلك ، انّ يتراجع . واوفد من يمثله في مباحثات الاسكندرية . ولكنه زود موفده ، رئيس الحكومة توفيق ابا الهدى ، بتعليمات تقضي بان لا يتراجع عن فكرة سورية الكبرى وبان يتقيد بمقررات المؤتمر الوطني في سورية في يوليو ١٩١٩ — اي اقامة عرش هاشمي في البلاد السورية . واعلن ابو الهدى عن التزامه بهذه المطاليب لرجال الصحافة ساعة وصوله الى مصر .

استمرت المباحثات مع الوفود الرسمية العربية عدة اشهر . فتوجه الى مصر ، بعد وفدي العراق والاردن الهاشميين، وفود سورية والسعودية ولبنان واليمن ، من اكتوبر ١٩٤٣ الى فبراير ١٩٤٤ . وكان الانجليز يقفون وراء تلك المحادثات. واشترك فيها اثنان من خبرائهم بالشؤون العربية، البرجدير ا. ن. كليتن (السير فيما بعد) والسير ولتر سمارت . وكان اولهما مستشارا للشؤون العربية للوزير المقيم في الشرق الاوسط . وكان ثانيهما الوزير الشرقي في السفارة البريطانية في مصر . وقد اشترك اولهما مع اخيه في الثورة العربية ، وصاهر ثانيهما عائلة عربية .

انتهت جهود الانجليز والمباحثات بعقد اجتماع تمهيدي حضره مندوبو الدول العربية في الاسبوع الاخير من سبتمبر ١٩٤٤ وضع فيه بروتوكول الجامعة . اما ميثاق الجامعة فقد وقع في الثاني والعشرين من مارس ١٩٤٥ . ولكن الاجتماعات لم تخل من المساعي الهاشمية لاستبدال مشروع الجامعة بالمشاريع الاقليمية . فعارض وفدا العراق وشرق الاردن مشروعا سوريا

لوحدة عربية شاملة . واشترط وفد شرق الاردن اعلان عبدالله ملكا على اية وحدة في اسية قبل القبول بها . وحاول نوري السعيد ربط الجامعة بميثاق سعد اباد .

قدم توفيق ابو الهدى الى المؤتمرين وجهة نظر اميره في الموضوع . وقد نشرها عبدالله فيما بعد في مذكراته (٧) . وجاء فيها عدد من النقاط التي تستحق التسجيل لانها تعبر عن رأي امير الاردن بالجامعة العربية كفكرة وكنظام ، من قبل تأسيسها :

اولا ، **يجب ان تتحد البلاد السورية قبل ان تدخل الجامعة** . انه لا يقبل بجامعة عربية سورية فيها غير موحدة تحت عرشه . ثانيا ، **يجب ان تتعهد بريطانية بحماية فكرة الجامعة وتأييدها** ، ان كان للجامعة ان تنجح . ثالثا، **ان حقه بعرش سورية يقوم على وعود منحها له الانجليز من قبل** . رابعا، **يجب تصغير لبنان وتحويله الى وطن طائفي** مستقل عن المجموعة العربية . خامسا ، **يجب ابقاء الاحتلال البريطاني للسودان** . سادسا ، **لا ضرورة لاقامة كيان عربي موحد ومستقل في ليبية**. سابعا ، **يجب العمل لمنع دخول السعودية واليمن الجامعة** . ثامنا ، **يجب القبول بتواصي اللجان البريطانية لفلسطين** .

هذه هي اراء ومقترحات وتمنيات بطل الثورة العربية ووريث امجادها كما سجلها بنفسه والعرب يسعون للتكتل في مؤسسة اوهى مما املوا به وهم يوقدون نار الثورة ١٩١٦ .

وحاول عبدالله، في الوقت ذاته، ان يمهد للجامعة بتكتل اقليمي هاشمي يقف بوجه الحكومتين السورية واللبنانية اللتين عارضتا مطاليب عبدالله في بلديهما وبوجه الحكومتين المصرية والسعودية اللتين ايدتا المعارضة السورية اللبنانية . لذلك وضع مذكرة رفعها الى حكومة العراق يعرض فيها رأيه بالجامعة العربية . ملخصها ان على البلدين ، بصفتهما الهاشمية « واجبات وتبعات : السير على سياسة هاشمية موحدة » وهي : العمل لوحدة سورية الكبرى ثم الهلال الخصيب . اما طريقة تحقيق هذين الهدفين فهي ابعاد اللبنانيين والسوريين عن المصريين والسعوديين ، ومساعدة انصار الهاشميين في البلدين . اما علة تمسك عبدالله بهذين المشروعين فهي ان **« الاتحاد العربي مسألة موهومة خطيرة »** يجب التخلي عنها (٨) .

ظل عبدالله ينظر الى الامور العربية من زاويته الضيقة الخاصة طيلة

---

(٧) عبدالله بن الحسين ، مذكراتي (القدس ، ١٩٤٥) ، ص ٢٣٧ — ٢٤٦

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٠ — ٢٥٣

عهده في الاردن . من وحي هذه النظرة كان يعارض عاهلا ويؤيد عاهلا . ومن وحيها كان يرضى عن بلد ويهاجم بلدا لان ابا حاكمه او جده كان صديقا لابيه او عدوا . والواقع انه اعترف بعلاقاته واهوائه الشخصية في سياسة الاردن باكثر من مكان من مذكراته . ولذلك كان يعارض اي تكتل عربي لا يكون هو اساسه ، خوفا من ان يهدد ذلك التكتل زعامته العربية . وكان كلما تقارب بلدان عربيان من بعضهما بعضا (كمصر والسعودية ، او سورية ولبنان) هرع الى العراق وتداول مع ابن اخيه في وضع خطة موحدة ضد التقارب الجديد ولعرقلته . حتى انه حول الجامعة ، بسبب مشاغباته ، الى مسرح لتفريق العرب عن بعضهم بعضا — ولا شك ان مسؤولين عربا اخرين اسهموا معه في ذلك .

ولم يكتم عبدالله ، في الوقت ذاته ، عدم ايمانه بالجامعة العربية ، لا لانها من ثمار الارادة البريطانية في الاصل ، ولا لانها مثلت حكومات رجعية قليلة الاتصال بالشعب ، ولا لان روابطها اضعف من ان تحقق امنية الوحدة ، بل لانه لم يكن يؤمن بان العرب امة واحدة حتى تكون لهم جامعة . وكان يسمي الجامعة « **جامعة الامم العربية** » . وقد هزء بها في مذكراته وخطبه . وكان يصفها بانها مجرد « اسم كبير ودعاية عريضة طويلة » (٩) .

غير ان عبدالله عرف ، من الجهة الاخرى ، بالجراة والمثابرة ، وهما فضيلتان ان لم يكونا سبيلا لهدف لا يراه الناس فضيلة بحد ذاته . وقد تميزت بهاتين الصفتين مساعي الملك الهاشمي من اجل تحقيق مشروع سورية الكبرى على حساب الجامعة العربية ، بل على انقاض الجامعة ، في السنوات الاولى من حياتها . ذلك انه ثابر على الاتصال بزعماء سورية ولبنان الذين كان لهم ارتباطات مادية وثيقة مع العائلة الهاشمية ، والذين عرفوا بعلاقاتهم مع السلطات البريطانية. واخذ يمطر الشعب في البلدين بوابل من المناشيروالبيانات والكتب التي حوت « وثائق » تثبت « حقه » في ملك البلدين . ولكنه لم يحصل الا على تأييد محدود جدا . فان استقلال البلدين في ١٩٤٣ وقف في وجهه . لقد حرس ذلك الاستقلال بناته الوطنيون الذين كانوا يؤمنون بالنظام الجمهوري ، وعلى راسهم رجال الكتلة الوطنية في سورية والكتلة الدستورية في لبنان . وقد عارضوا الاطماع الهاشمية وحذروا الشعب منها ، واشاروا الى واقع خضوع الاردن للنفوذ البريطاني . فاخذ عبدالله يفكر باسلوب جديد يزيل به تهمة التابعية ، وسعى للحصول على استقلال ، ولو اسمي ، من بريطانية ، ليحجب به ارتباطاته مع بريطانية ويقنع السوريين ان الانضمام للاردن لا يعني تفريطا باستقلالهم الذي كانوا في نشوة التمتع به .

---

(٩) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٢ ، ٢٤٩ .

كانت بريطانية ، حتى ذلك التاريخ ، اي حتى اواسط ١٩٤٥ ، تقف في معزل نسبي عن دعوتي سورية الكبرى والهلال الخصيب الصادرتين عن عمان وبغداد . لم تعارضهما معارضة فعلية جادة (ولو فعلت ذلك لانقطع الهاشميون عن ترديدهما) ولكنها لم تعمل لهما عملا كبيرا ، بل حاولت ارجاء البحث فيهما اكثر من مرة ، وان كانت وجدت فيهما مساعي لتفرقة الصفوف وبعث الاحقاد واثارة المخاوف بين العرب ، وهي مساع لم تكن تضايق بريطانية في اي وقت من الاوقات .

ما حمل بريطانية ان تتحفظ تجاه هذين المشروعين في سنوات الحرب العالمية،وعلى ان ترفض تحقيقهما وهي التي كانلها القدرة على ان تفعلبالعرب ما تشاء (فقد احتلت ثلاثة كيانات في مدى شهرين واقالت وزارة كيان رابع في مدى ساعتين) هو انها كانت خلال الحرب تفكر بالحصول على رقعة عربية موالية لها تتكتل بعض التكتل اكبر من الرقعة الهاشمية واسلم عاقبة منها . لقد انحصر المشروعان الهاشميان في الركن الشمالي من اسية العربية ، وهو اصغر من خمس البلاد العربية التي كانت تفكر بشيء من التكتل . ولم يكن تحقيق المشروعين الهاشميين يعني عدم ادخال اربعة الاخماس الاخرى (في شبه الجزيرة ووادي النيل) فحسب ، بل كان يعني ايضا اثارة ذلك القسم من الوطن العربي ضد بريطانية لانها شجعت على قيام مشروع لا يفيد الا عائلة حاكمة واحدة تخاصم العائلات والحكومات الاخرى . ولم تكن بريطانية ترغب في ايجاد خصم جديد وهي تبحث عن صديق حتى ولو كان هو الشيطان كما قال رئيس حكومتها . هذا ما دعا ايدن الى رفض المشروعين الهاشميين وتقديم بديل عنهما في شكل الجامعة العربية .

ونحن نلاحظ اثر المساعي البريطانية في انجاح مشروع الجامعة العربية في اسراع المسؤولين العرب الى تلبية الايعاز في مدى اشهر فقط ، ثم الى وصولهم الى اتفاق وعقد الميثاق قبل ان يسقط حزب المحافظين (وهو الذي اطلق شارة الانطلاق) عن الحكم . ونلاحظ ايضا ان تلك المساعي لم تقتصر على الحكومات . بل عملت على تأمين جو شعبي يؤيد فكرة الجامعة . لم يكن ذلك الامر صعبا ، والراي العام ينادي برابطة رسمية بين العرب منذ اكثر من ربع قرن . وقد عبر عن هذا المطلب القومي في ذلك الوقت بالذات عدد من المؤسسات التي قامت خلال الحرب ، وعرف مسؤولوها بشيء من الصداقة مع الموفدين البريطانيين في دنيا العرب ، وعلى رأسها جمعية الاتحاد العربي في مصر والمكاتب العربية في فلسطين وجمعيات اخوان الحرية في مصر والعراق و فلسطين وعدن وبعض الاحزاب السياسية في لبنان .

كانت الدعوة العربية ، بكلام اخر ، تحظى بتأييد بريطانية في النصف

الاول من الاربعينات . قال بها بعض من لم يعرف عنه العمل من اجلها، وبعض من عرف عنه العمل ضدها ، وبعض من اصبح على رأس معارضيها ، فيما بعد ، اي بعد ان زال تأييد بريطانية لها . وتأسست صحف وندوات وجمعيات تنادي بالوحدة وتتعاون مع السفارات والمفوضيات والقنصليات البريطانية في آن واحد . واستطاعت بريطانية ، بفضل هؤلاء ، ان تقطع الطريق على الدعاوة المحورية التي كانت قد برعت في تصوير المانية وايطالية نصيرتين للعرب ولمسألة الوحدة . واستطاعت بريطانية ايضا ان تأخذ زمام المبادرة من تلك الدعاوة بالفعل منذ ١٩٤٣ . فهي التي حرضت الحكومات العربية على تأسيس الجامعة . وهي التي ضغطت عليها لتوقيع الميثاق باسرع وقت وباقل تردد . وكان بعض موظفيها يحضر الاجتماعات الرسمية . بل كان بعضهم يحضر الاجتماعات السرية التي قصد منها معالجة اخطر المواضيع .

رمت بريطانية ، من ذلك العمل ، ان تزيل عن نفسها تهمة معاكسة المطاليب القومية العربية (وهي تهمة لم يعوزها دليل) وان تكسب رضى اكبر عدد ممكن من الحكومات العربية ، من طرف ، وان تكون مؤسسة تسهل عليها التدخل في شؤون العرب وتقرير مصائرهم وتمكنها من مد نفوذها من الدول الخاضعة لها من قبل (كالاردن والعراق ومصر الى حد ما) الى الدول غير الخاضعة (كسورية ولبنان والسعودية واليمن) ، من طرف ثان . يفسر هذا عوامل تفضيل بريطانية لفكرة الجامعة على المشروعين الهاشميين آنفي الذكر .

لكن الاحداث السياسية تطورت بعد انشاء الجامعة العربية في ربيع ١٩٤٥ تطورات حاسمة في البلاد العربية نفسها وفي العلاقات الدولية ، بحيث تبدلت سياسة بريطانية تجاه الجامعة تبديلات اساسية ، وانتقلت بريطانية من مؤيد للجامعة وشفيع الى معارض يسعى لتحطيمها . وتبدل ، بالتالي ، موقف بريطانية من المشاريع الهاشمية . فاخذت تدعمها وتعمل لها بعد ان كانت تتحفظ تجاهها .

لقد تبدلت الاوضاع السياسية داخل الوطن العربي . سقط حزب الوفد عن الحكم في مصر . وتحول ، بقواه الشعبية وقاعدته الواسعة ، الى معارض لبريطانية يتزعم الشارع في المطالبة بالجلاء التام والوحدة مع السودان. ولم تقبل حكومات مصر المتعاقبة باي حل اخر لا يحقق هذين المطلبين . وانسحبت القوات البريطانية من سورية ولبنان بعد ان شكاها البلدان الى مجلس الامن . وزال بانسحابها النفوذ الذي حاولت بريطانية فرضه على البلدين تحت ستار صداقتها التقليدية للحكومتين الوطنيتين وخصومتها التقليدية للاطماع الفرنسية. وازدادت نقمة الراي العام على الحكومة البريطانية بعد ان اتضح له سعيها لتهويد فلسطين واضاعتها . واصبحت « افضال »

بريطانية على الجامعة مثال السخرية . واخذ العرب ينظرون الى الجامعة ، في وضعها السابق ، كربيب للاستعمار ، خاصة بعد ان فشلت في تحقيق اي مبرر من مبررات وجودها . وانعكست نكبة فلسطين في قيام حركات عربية متحررة تعادي النفوذ البريطاني علنا وتتحدى المتعاونين معها من السياسيين المحليين وتنشط في انارة الشعب وفضح المساوىء . ولم يعد الشعب يرضى باي شكل من اشكال الاحتلال او الانتداب . لقد وجد نفسه ، بعد ان انتهت الحرب ، احق بالاستقلال من اي وقت مضى .

تعني هذه التطورات ان مركز بريطانية ، الرسمي والمعنوي ، تزعزع في السنوات الثلاث التي تلت انتهاء الحرب العالمية ، وتدهورت سمعتها الى الحضيض . حتى ان الجامعة نفسها لم تعد لعبة في ايدي النفوذ البريطاني . وتمرد امينها العام . واتخذت الجامعة لنفسها سياسة عدائية صريحة بفضل النفوذ المصري فيها وتأييد السعودية وسورية ولبنان لتحريض مصر . وتحول الهاشميون في الجامعة الى اقلية تشعر بالمضايقة في كل مكان .

وتبدلت ، من ناحية ثانية ، العلاقات الدولية واثرها في الوطن العربي . دخلت المنطقة الولايات المتحدة بصورة مرسومة ومنظمة واستطاعت السيطرة على بعض اوضاع المملكة العربية السعودية بشراء امتيازات النفط ، ثم تغلغلت في سورية ولبنان في الثلث الثاني من العقد الخمسيني . واستطاعت ان تزعزع ولاءات بعض اصدقاء الانجليز في البلدين الهاشميين وان تستثمر هذه الولاءات لصالحها . ودخلت روسية المنطقة في الوقت نفسه دخولا غير مباشر وبشكل مختلف ، بواسطة الاحزاب الشيوعية في بعض الاقطار العربية وبفضل تفاقم نفور العرب من سياسة الغرب في بلادهم . ادى لقاء هذه المصالح المتضاربة بين المعسكرين الى قيام صراع جبار بينهما على الارض العربية .

وحصلت تطورات اخرى ، ولو جزئية في بادىء الامر، في الفكرة العربية. اذ ان قيام الجامعة ، بالرغم من شكله وظروفه المشبوهة ، اسهم في تقوية العلاقات العربية ، وخاصة من حيث علاقات عرب افريقية بعرب اسية، وعرب شبه الجزيرة بعرب خارج شبه الجزيرة . فلم تعد الحركة العربية لقيطا يتيما لا يجد من يتبناه رسميا كما كانت قبل الحرب . وازدادت زعامة مصر في الوطن العربي حتى خشي الانجليز ان تحول الجامعة الهزيلة فكرة الوحدة السياسية الى حقيقة راهنة ، وان تمضي مصر في خطها العربي فتقيم لنفسها ولاخواتها كيانا مستقلا واحدا ، ولو في المدى البعيد .

بسبب هذه التطورات تراجعت بريطانية عن تأييدها للجامعة العربية وازدادت اقترابا من الهاشميين ليقفوا في وجه الكيانات التي تحررت من النفوذ البريطاني او اخذت تسعى نحو التحرر ، وفي وجه النفوذين الاميركي والروسي ، وفي وجه الجامعة العربية التي لم تعد عبدا يطيع ، وفي وجه مصر بالذات التي تمردت على عزلها السابق وحطمت جدارها الافريقي ، وليقفوا اخيرا في وجه التيار العربي الدافق الذي غذته الجماهير الشعبية وانطلاقات الطبقة الوسطى بدم جديد في عدد من الكيانات ، والذي حفزته نكبة فلسطين وفساد الاوضاع العامة على الثورة فاعطى الشعب املا جديدا .

وحدث ، في اواسط الاربعينات ، ان خلف العمال المحافظين في حكم بريطانية . وقد اراد العمال ان يدمغوا حكمهم بسياسة اخرى غير تلك التي سار المحافظون عليها منذ حوالي عشرين سنة . فامموا عددا من المرافق العامة ، وابدلوا نظام الضرائب ، والغوا بعض الاحتكارات ، وقووا سلطة القطاع العام ، وذلك في الميدان الداخلي . اما على الصعيد الخارجي فقد استبدلوا الامبراطورية بالكمنولث ، ومنحوا شبه القارة الهندية استقلالها .

ولم يكتف حزب العمال بالكف عن تأييد الجامعة التي عمل المحافظون على انشائها ثم لم تعد ذات فائدة للانجليز ، بل تظاهر الحزب بتأييد المطالب العربية التي سبق ان عرضت في المجالات الدولية والرسمية منذ سنوات . فارسلت حكومة العمال وفدا لمفاوضة مصر بخصوص استقلالها ووحدتها مع السودان . ودعت الى اكثر من اجتماع لبحث مستقبل فلسطين . واعلنت عن نيتها بانهاء الانتداب. وتبرعت بمنح كل من شرق الاردن والعراق استقلاله، وكان اولهما لا يزال تحت الانتداب منذ ١٩٢٠ وثانيهما تحت الاحتلال منذ ١٩٤١ . جرت المباحثات مع البلدين ١٩٤٦ – ١٩٤٨ . وانتهت بان تحول شرق الاردن الى مملكة ، وازدادت المساعدة البريطانية له ورفعت الى مبلغ مليوني جنيه سنويا . وعدلت معاهدة ١٩٣٠ مع العراق تعديلا لم يرض الشعب عنه فثار ومزق المعاهدة الجديدة قبل ان يصدق البرلمان عليها .

قصد حزب العمال من هذين الاستقلالين ان يبدو الحكم العمالي في الاعين العربية ، بفضلهما ، حكما تحرريا يستنكر الاستعمار والاحتلال بالفعل ويحطم الامبراطورية التي شادها المحافظون في القرن الماضي ويشارك الشعوب الصغيرة امانيها . وقصد الحزب ، ايضا ، ان يبدو الهاشميون كابطال استقلال حققوا اهداف الشعب بالتفاهم والتراضي مع الحليفة الكبرى ، بينما عجز الحكام والساسة السلبيون (مثل حكام مصر وقادة النضال الشعبي في فلسطين) عن ذلك لانهم لا يتمتعون برضى حكومة صاحب الجلالة .

وكان لهذه السياسة العمالية معنيان اخران يهمنا الانتباه لهما : التمهيد لتنفيذ مخطط حزب العمال لقضية فلسطين (وهو تقسيم فلسطين واقامة وطن يهودي قومي في قسم منها وضم القسم الاخر الى الاردن ، وهو ما اتينا على ذكره في مكان سابق) ، والتمهيد لتنفيذ مشروع سورية الكبرى الذي اعتبره المسؤولون البريطانيون بديلا ممتازا للجامعة العربية المتمردة بعض التمرد ، وذلك بجعل عبدالله ملكا دستوريا على الاردن ، بحيث تسقط حجج معارضيه في سورية بانه مجرد دمية بيد الانجليز .

هنا ، اذن ، حصل لقاء المصالح البريطانية مع المصالح الهاشمية في فكرة سورية الكبرى لقاء تاما . وبدأ ، بذلك ، العمل المشترك لتحقيق الفكرة. ونتج عن ذلك ان اخذ دعاة الوحدة العربية ، من اصدقاء بريطانية ، قبل ١٩٤٥ ، يشككون الناس بها بعد ١٩٤٥ ويدعون الشعب الى « التعقل والتروي » واستعمال « المنطق » واختيار المشاريع الاقليمية بدل الوحدة الشاملة . وانعكس هذا التحول في كتابات ومقررات صحف وجمعيات توقفت فجأة عن دعم الجامعة العربية وانحازت الى صف سورية الكبرى ، وكلها من ذوات الارتباط مع بريطانية والهاشميين .

قذف عبدالله باشارة الانطلاق في المرحلة الجديدة من مراحل مطالبته بسورية الكبرى ، من بعد ان ولدت الجامعة واصبح هو ملكا ، في خطاب القاه في افتتاح مجلس الامة في الحادي عشر من نوفمبر ١٩٤٦ ، دعا فيه الى الوحدة السورية كهدف رئيسي لحكومته . وتبنى المجلس هذا الهدف بطبيعة الحال ، وحمله وزير الخارجية الى القاهرة وعرضه على اول اجتماع لوزراء الخارجية في السادس والعشرين من ذلك الشهر . ولكن العرب رفضوه رفضا قاطعا . رفضه وزراء الخارجية باغلبية مطلقة . واستنكرته حكومتا سورية ولبنان استنكارا رسميا . واصدر زعماء الرأي العام في البلدين تصريحات قاسية ضد المشروع وضد عبدالله . وازرتهم الصحف والاحزاب وتظاهر عشرات الالاف من المواطنين بشكل لم يسبق له مثيل . وقد جمعت مجلة « الدنيا » في دمشق بعض الكتابات ضد عبدالله ومشروعه في كتاب قيم عنوانه « هذه هي سورية الكبرى » طبع في دمشق في العام ١٩٤٧ .

كانت حجة سورية ضد المشروع انه محاولة لعرقلة سير العرب نحو الوحدة الاصيلة ، وان الاردن لا يزال يخضع للنفوذ البريطاني بالرغم من معاهدة مارس ١٩٤٦ ، وان نظام حكمه الرجعي الملكي يتنافى مع ايمان الشعب في سورية بالديموقراطية والجمهورية وحرية الراي . اما لبنان فهدد بالانسحاب من الجامعة العربية ان لم يسحب عبدالله مطالبته بضم لبنان . فتراجع عبدالله ، وصرح وزير خارجيته في نوفمبر نفسه ان لبنان ليس جزءا من

المشروع العتيد . وتراشقت الحكومات والصحف والمجالس النيابية التهم والشتائم ، في سورية ولبنان والاردن ، خاصة بعد ان صرح ابراهيم هاشم ، رئيس الحكومة الاردنية، ان كيان سورية انما هو وليد الاستعمار اما كيان الاردن فوليد الثورة العربية . وكان عبدالله يلقي تصاريحه وخطبه بمعدل خطاب او تصريح واحد في الاسبوع . وكانت النار تزداد إشتعالا مع كل واحد منها .

حاول عبدالله ان يطوق رفض الحكومات العربية والراي العام لمشروعه بوسائل اخرى : كانت الوسيلة الاولى ايجاد مؤيدين للمشروع من بين السوريين واللبنانيين انفسهم . وقد اعتمد ، في هذه المحاولة ، على اصدقاء بريطانية من السياسيين التقليديين في سورية وعلى بعض السياسيين اللبنانيين المعروفين بانعزاليتهم وطائفيتهم وتخوفهم من الفكرة العربية ، وتمكن عبدالله من استدرار رضى عدد قليل من الصحف التي كانت تؤيد هاتين الجماعتين في البلدين . وقيل ان اموالا كثيرة وزعت في هذا السبيل . ولم يكن موظفو المفوضيتين البريطانيتين في العاصمتين السورية واللبنانية بعيدين عن مجرى الاحداث . انما المهم ان مؤيدي المشروع كانوا اقلية صغيرة ، وكانوا من دعاة الاقليمية ومعارضي الحركة العربية من قبل ذلك التاريخ . وقد فضح الشعب هؤلاء المؤيدين بعد ان اخذوا يترددون على عمان جماعات وافرادا . وانقلبت المحاولة ضدهم وازداد حصار الشعب لمساعيهم .

الوسيلة الثانية : الحصول على تأييد فعلي من العراق . فهو البلد الهاشمي الاكبر والاغنى ، وهو صاحب سمعة افضل من الاردن في الاوساط العربية والعالمية . ولم يكن غريبا ان يفكر البلدان بالتعاون ، وعاهلاهما من عائلة واحدة ، ولهما اهداف واحدة ، ويرتبطان بدولة مسيطرة واحدة . وقد ادركا ، بعد ان فشل سير كل منهما بمعزل عن الاخر ، ان المنافسة لن تجديهما نفعا امام تكتل اعداء مشروعيهما . لذلك قامت في قصري البلدين رغبة باقامة وحدة ما تعوض عن فشل المشروعين وتدفعهما الى الامام وتوحد جبهة البلدين ضد الجامعة العربية ودولها المعارضة لهما. فتبادل العاهلان الزيارات. وتباحث المسؤولون في القضية من جميع نواحيها . ولكن الفكرة فشلت لسببين رئيسيين : معارضة الشعب العراقي ، بصحافته واحزابه ، لعبدالله الذي وجدوا فيه رمزا للخضوع لبريطانية، وخوف عبدالله من ان يذوب الاردن في الكيان الجديد ويذوب معه نفوذه وتصبح السيطرة لعبدالاله ونوري السعيد. فتمخضت الفكرة، بعد مباحثات طويلة، عن معاهدة تحالف واخوة في الخامس عشر من ابريل ١٩٤٧ — وكانت معاهدة عادية لا جديد فيها .

اما الوسيلة الثالثة فلجأ عبدالله اليها بعد فشل الوسيلتين السابقتين.

وهي دعم مركز الهاشميين المتزعزع داخل منطقة سورية الكبرى نفسها بتأييد دولة مجاورة : تركية . فعقد العراق معاهدة معها في التاسع والعشرين من ابريل ١٩٤٦ . وعقد الاردن معاهدة مماثلة في الحادي عشر من يناير ١٩٤٧ . وقد اراد الهاشميون من الارتباط مع تركية ان يهددوا سورية التي عصتهم بعدوها التقليدي الذي خطف منها اجزاءها السليبة في الشمال وهدد حدودها. وانسجم هذا المخطط مع فكرة الاحلاف العسكرية التي اخذت الكتلة الغربية تسعى لها بعد الحرب العالمية لتطويق الاتحاد السوفيتي . غير ان سورية ولبنان ومجموع الدول العربية الاخرى رفضت هذا المخطط وعارضته واعتبرته ركيزة جديدة للاستعمار في ديار العرب . وبينما كان الهاشميون يتبادلون الزيارات مع حكام تركية ويتحدون الشعور القومي كان الشعب يستنكر تعدي تركية على اراضي سورية وتهديدها المستمر . ولم يكتف عبدالله بان زار تركية في ذلك الظرف بالذات ، بل انه اخذ يخطب ، في عمان وفي تركية، مادحا حكومتها ومسؤوليها ويغمز من حكومة سورية ومسؤوليها . وحرص ان يمر بالمنطقة المسلوبة من سورية ، بالاسكندرونة بالذات ، في طريق ذهابه الى انقره وفي طريق عودته ، كانها ارض تركية صميمة .

تابع عبدالله حملته في سبيل مشروعه بفضل هذه الوسائل الثلاث . ولم يترك مناسبة دون ان يستغلها لمحاولة ضم سورية الى « الوطن الام » . وتشجع في العام ١٩٤٧ فدعا سياسيي سورية ولبنان الى زيارة عمان لبحث الامر معه شخصيا ، بالرغم من ان غالبيتهم سبق ان اعلنت معارضتها له ، وشكته الحكومتان الى مجلس الجامعة العربية . وكانت الجامعة قد بدأت تنشغل بقضية فلسطين التي تطورت تطورا خطيرا بعد ان قرر الانجليز الانسحاب ونوى الصهيونيون تاسيس دولتهم بالقوة وايد اغلب اعضاء الامم المتحدة القرار البريطاني والتآمر الصهيوني . وجد عبدالله في تأزم القضية الفلسطينية فرصة جديدة للدعوة لمشروعه . وكان هذا الاستغلال لاخطر القضايا العربية السياسية الحديثة هو الوسيلة الرابعة والاخيرة من مجموع الوسائل التي اعتمدها في النصف الثاني من الاربعينات لتحقيق حلمه . اخذ يذيع ان لا حل لقضية فلسطين الا في انشاء دولة سورية الكبرى . واعلن ذلك رسميا في الثاني والعشرين من ديسمبر ١٩٤٧ ، اي بعد ثلاثة اسابيع من صدور قرارات الامم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكان عبدالله ينظر الى مشروع التقسيم بعين الرضى : رآه يكمل مشروع سورية الكبرى وينسجم مع امانيه. وعلى هذا الاساس كان قد ايد عددا من مشاريع التقسيم من قبل ذلك التاريخ ، كما مر بنا من قبل . يكفي هنا ان نربط بين المشروعين ونقول ان عبدالله خاض حرب فلسطين ١٩٤٨ كاجراء لتنفيذ التقسيم ولتوسيع رقعة الاردن لتشمل ضفتي النهر ، وكخطوة نحو تحقيق مشروع سورية الكبرى . ولذلك يصعب جدا فصل القضية الفلسطينية عن هذا المشروع

الاقليمي . فان تطورات تلك القضية بعد ١٩٤٧ انما كانت من صميم المرحلة الثالثة من مراحل تطور العمل للمشروع المذكور .

اغتنم عبدالله فشل العرب في منع الصهيونيين من انشاء دولتهم في الحرب القصيرة التي دارت بين الطرفين اواسط ١٩٤٨ ، فضم القسم العربي من فلسطين الى مملكته ، حسب اتفاق مسبق كان قد عقده مع البريطانيين والصهيونيين ، بالرغم من ان الجامعة العربية كانت قد قررت في ابريل ١٩٤٨ بان تدخل الجيوش العربية في القضية لا يعني احتلال فلسطين بل هو يقتصر على ازالة الخطر الصهيوني وترك البلاد لابنائها ، وبالرغم من ان الدول العربية الاخرى تقيدت بتلك القرارات وايدت حكومة عموم فلسطين التي انبثقت عن مؤتمر الحركات الفلسطينية السياسية في العشرين من سبتمبر ١٩٤٨ .

تم ذلك الضم اللاشرعي بالنسبة الى قرارات الجامعة العربية على خطوات : رفض عبدالله الاعتراف بحكومة عموم فلسطين ، واعلن عصيان المنطقة التي احتلها جيشه في فلسطين لتلك الحكومة في الخامس من اكتوبر ١٩٤٨ . واوعز الى رجاله واعوانه فاجتمعوا في مؤتمر في اريحا بايعوه فيه بالملك في اليوم الاول من ديسمبر . والغى الاحتلال العسكري وحوله الى ادارة مدنية تابعة للحكومة الاردنية مباشرة في السابع عشر من مارس ١٩٤٩ . واستبدل ، اخيرا ، اسم شرق الاردن بالمملكة الهاشمية الاردنية ، ثم شكل اول حكومة تضم وزراء فلسطينيين في الثاني من مايو ١٩٤٩ . وجرت اول انتخابات نيابية في فلسطين وشرق الاردن معا في العشرين من ابريل ١٩٥٠ . وفي الرابع والعشرين من ذلك الشهر اجتمع المجلس النيابي ووافق على الضم واعلنه رسميا . وغاب اسم فلسطين ، وولد لقب « الضفة الغربية » .

هكذا حقق عبدالله ، في عشرين شهرا ، الخطوة الوحيدة التي استطاع ان يخطوها في سيره نحو سورية الكبرى منذ انْ اجلسه الانجليز اميرا على شرق الاردن ١٩٢١ . وقد رافق هذا التحقيق الجزئي مسعى كبير قام به نفر من اصدقاء البيت الهاشمي (وقد عرفوا بصداقة تقليدية مع بريطانية ايضا ، او ، على الاقل ، مع بعض مبعوثيها في البلاد العربية) لتوطيد فكرة الوحدة الاقليمية ، المنحصرة جغرافيا في سورية الكبرى او الهلال الخصيب ، ولربط هذه الوحدة بالعرش الهاشمي وبالتحالف الدائم مع الغرب ، كسبيل وحيد لحل مشكلة فلسطين وانقاذ العرب من نكبتهم الكبرى ، على حد زعمهم . ومع ان اصحاب هذا المسعى عرضوه في كتب وصحف بدت كأنها بعيدة عن السياسة ، وبدت مقترحاتهم وكانها ايمان نظري مجرد عن اي هدف سياسي معين ، كان المسعى في الواقع استغلالا اخر لنكبة العرب لمصلحة المشاريع الوحدوية الاقليمية غير الاصيلة ، استغلالا لما حل بالعرب من فقدان الثقة

بانفسهم وقواهم واهدافهم وقوميتهم ، ومن استسلام لروح يائسة انهزامية تقبل باية فكرة تبرق في الافق ، دون التعمق في اصولها ونتائجها البعيدة .

لا حاجة بنا هنا ان نطيل في وصف نكبة الفكرة العربية اثر ١٩٤٨ . وقد سبق لي ان عالجت الموضوع في كتاب الفكرة العربية في مصر (١٠) . يكفي ان نعيد الى الاذهان ان تلك النكبة كانت اخطر ما مني العرب به حديثا ليس فقط لضياع جزء غال من الوطن بل ايضا للخطر الذي هدد الفكرة القومية ذاتها وكاد يقضي عليها لاول مرة منذ نشوئها قبل قرن من الزمان . وقد ارتفعت ، بسبب النكبة ، صيحات تنعي العروبة وتشمت بها . وقام في مصر من يؤكد فرعونيتها من جديد ، ويدعوها الى التخلي عن العرب والعروبة بعد تجربة مرة .

اما النكسة في اسية العربية فقد كانت اخطر ؛ اذ لم تكن مجرد حركة فكرية وراي غير مسؤول كما حصل في مصر ، بل ارتبطت الدعوة لهابالسياسات العليا التي لم تكن تؤمن بالوحدة العربية ولم تكن تريدها . عبق الجو ، في اعقاب الحرب الفلسطينية ، بدعوات متماثلة منظمة مقصودة تزرع الشك بالعقيدة العربية واهدافها وتقويه وتدعو الى نظريات مصطنعة في القومية . وكان انطون سعادة ، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه ، اول من تصدى للعقيدة العربية في تلك المحنة ، في سلسلة مقالات نشرتها له صحيفة بيروتية مطلع العام ١٩٤٩ — وكان احد صاحبي الجريدة عضوا مسؤولا في حزب عربي قومي كان قد تأسس ابان « عطف » بريطانية على الحركات العربية في النصف الاول من الاربعينات .

لم يكن الهجوم على العروبة مستغربا من سعادة . كان الرجل قد اسس حزبه في ١٩٣٢ لاثبات عدم وجود امة عربية ووجود امم عربية متنافرة القومات متضاربة المصالح مختلفة الصفات . وكان منذ ان اسس الحزب وهو يخوض معركة عقدية ضد القومية العربية في سورية ولبنان وفلسطين . وفي ١٩٤٨ وجد في النكبة مجالا لزرع دعوته من جديد ، وقد كادت تبور لان اغلبية الشعب رفضتها . وكان سعادة قد حالف الملك عبدالله والانجليز منذ ان عاد من اميركة الجنوبية ، حيث كان هاربا خلال الحرب لميوله النازية وعلاقاته بالمحور ، ودعا للهاشميين والانجليز واستفاد منهم ومن مساعداتهم المالية بشكل خاص ، بعد ان انكسر المحوريون وانقطع مورده السابق منهم . هذا مع ان القيمين على حزبه في غيابه الطويل كانوا قد رسموا منهجا وطنيا استقلاليا للحزب ، وعارضوا الاطماع الهاشمية . والواقع ان افضل دراسة في تفنيد مشروع سورية الكبرى انما كتبها احد المسؤولين الكبار في الحزب

---

(١٠) انيس صايغ ، الفكرة العربية في مصر (بيروت ، ١٩٥٩) فصل ١٤ .

في غياب سعادة . الا ان سعادة بدل موقف الحزب ، وسار به في طريق التعاون العلني مع الهاشميين والخفي مع الانجليز . كان سعادة ، في الحقيقة، يحلم بأن يترأس حكومة الدولة السورية العتيدة بينما يجلس عبدالله على عرشها ويقف الانجليز وراء العرش كما كانوا يقفون في العراق والاردن . من اجل هذا المخطط عدل سعادة ، بعد عودته ، مبادىء حزبه الاساسية تعديلا كبيرا بحيث ضم العراق الى « الوطن السوري » . وكان العراق ، قبل ١٩٤٧، خارج « الوطن » تماما. فان ثروته النفطية لم تكن تكفي لاغراء سعادة بان يطمع بها حينما كان يضع مبادىء حزبه الاساسية في مطلع الثلاثينات .

يتلخص راي سعادة في سلسلة مقالاته بان العروبة « قضية خاسرة في سورية ، مضيعة لكل مجهود تقوم به الامة السورية لحفظ كيانها ووطنها وتحقيق مطالبها في الحياة ... » وهي « مرض نفسي شوه العقل السوري والادراك والمنطق... » وبان « العقلية العربية اللاتعميرية في سورية الطبيعية وصلت بالقضية الفلسطينية الى الكارثة ... » . اما الحل فهو ، بطبيعة الحال ، اقامة الوحدة السورية ، والقضاء على القومية العربية ، وطرد مصر من اسية العربية « باستعادة » سيناء الى الوطن « السوري » (١١) .

التقى سعادة في دعوته الى الوحدة الاقليمية مع صحيفة لبنانية نشأت في اعقاب الحرب الاخيرة ووالت الهاشميين في العراق والاردن . واذ ان هذه الصحيفة كانت ، ولا تزال ، تنادي بالعروبة وتحمل شعاراتها ، عكس سعادة ، اختلف اسلوبها عن اسلوب سعادة في الدعوة للمشاريع والاسرة الهاشمية . وقد نشرت الجريدة عشرات المقالات والافتتاحيات في تأييد المشروعين الهاشميين منذ نهاية حرب فلسطين ، وخاصة في السنوات الخمس الاولى بعد تلك الحرب .

بررت الجريدة دفاعها عن المشروعين الهاشميين، بان « الحدود الجغرافية والاعتبارات الواقعية تحول دون التفكير بغيرهما قولا وعملا . فليس بالامكان ان نبحث في توحيد سورية مع مصر او السعودية مع الاردن قبل الجمع بين سورية والعراق والاردن الا اذا امكن توحيد الجميع في آن واحد » . ولم تستطع الجريدة ان تنفي اعتقاد الناس بعلاقة الانجليز بهذه الحملة التي وصفتها بقولها «هناك اتجاه شعبي قومي نحو الهلال الخصيب وهناك مصر والسعودية تحاربان الاتجاهين حربا شعواء » فقالت في احد اعدادها « يقول خصوم الهلال الخصيب ، هذه مناورة بريطانية . انها محاولة للقضاء على سورية

---

(١١) جريدة كل شيء (بيروت) اعداد شهري فبراير ومارس ١٩٤٩ .

المستقلة وادماجها في دولة يسودها الانجليز . ان الهاشميين يعرضون على العرب مشروع سورية الكبرى او الهلال الخصيب فماذا يعرض عليهم العلويون والسعوديون ضد ذلك غير السلبية ؟ هل لديهم مشروع اتحادي يجتذب الخلص من انصار القضية العربية ؟ وكيف يصدق الناس التهويل بالانجليز والانجليز في مصر والاميركيون في السعودية كالانجليز في العراق والاردن ؟ »
نشر هذا الراي في اليوم الثاني عشر من ابريل ١٩٤٩ ، اي بعد اقل من اسبوعين من انقلاب حسني الزعيم ، حينما كان زعيم سورية الجديد يتباحث مع الهاشميين لتوحيد سورية مع بلديهما . وكانت الجريدة قد كتبت سلسلة افتتاحيات في تبرير ضم فلسطين وفي الدفاع عن فكرتي الهلال الخصيب وسورية الكبرى في اعقاب حرب فلسطين ، وخاصة بين السابع والخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٤٨ . ثم نشرت مجموعة المقالات في كتاب وزع على نطاق واسع سنة ١٩٥٤ .

وفي الوقت نفسه نشرت احدى دور النشر في بيروت كتاب « عبرة فلسطين » للسيد موسى العلمي ، احد ساسة فلسطين وممثلها في الجامعة العربية في السنين الاولى من حياة الجامعة . مثل الكثيرين من مؤيدي الهاشميين ، تحول العلمي اليهم بعد تجربة صداقة المحور في اول الحرب ، وكان احد الهاربين ، مع وطنيي فلسطين ، الى بغداد في عهد الحكم الوطني فيها . وتراس ، بعد انتهاء الحرب ، مكاتب الدعاية العربية التي سبق الاشارة اليها ، وكانت على اتصال بالانجليز والهاشميين . كما كان العلمي ، في الوقت نفسه ، من مؤيدي الدكتور ماجنس ، اي من الذين اعتقدوا ان حل قضية فلسطين انما هو بيد « المعتدلين » من العرب والصهيونيين معا . والكتاب (١٢) دراسة مقتضبة للمشكلة الفلسطينية . وقد راج واعيد طبعه بعد ثلاثة اسابيع من صدور الطبعة الاولى ، وترجم الى الانجليزية . لكن الذي ضمن له اهتمام الكتاب والمعلقين الغربيين بوجه خاص (حتى اصبح من اكثر الكتب العربية السياسية المترجمة الى الانجليزية رواجا في الغرب) هو مجاراة الكاتب للراي التقليدي الغربي بان الوحدة العربية غير ممكنة ، ولذا يجب استبدالها بمشروع الهلال الخصيب . هذا مع ان الكاتب يعتبر التجزئة سببا رئيسيا في النكبة ثم يدعو للتجزئة كعلاج لها . وهو يشكو من الاستعمار كسبب اخر للنكبة ولكنه يتجاهل دور الاستعمار في بناء دولة الهلال الخصيب . وبالرغم من كل المواقف الهاشمية في فلسطين يعدد الكاتب عوامل النكبة دون ذكر تلك المواقف بل دون الاشارة لها .

لم تقل نكسة العروبة خطورة عن نكبة فلسطين بقيام الشكوك حولها

---

(١٢) موسى العلمي ، عبرة فلسطين (بيروت ، ١٩٤٩) .

ونشاط الدعوات الاقليمية التي راحت تطعن باهدافها . ومهما كانت علاقة الهاشميين بهذه الدعوات كانوا مستفيديين منها بالدرجة الاولى ، اذ سهلت عليهم عملية عرقلة الوحدة الشاملة ودعت الى توسيع الرقعة التي يجلسون على عرشها .

في هذه الظروف بالذات عبرت النقمة الشعبية التي حصلت اثر نكبة فلسطين عن نفسها في الجمهورية السورية بشكل اخر غير الكتابات كما في مصر ولبنان . عبرت عن نفسها بانقلاب عسكري اطاح بحكومة الكتلة الوطنية التي احتكرت الحكم منذ ١٩٤٣ ووضع مكانها حكما عسكريا في شخص قائد القوات المسلحة (الزعيم) حسني الزعيم ، في الثلاثين من مارس ١٩٤٩ . وقد لحق به انقلابان اخران في تلك السنة نفسها . وكانت الانقلابات الثلاثة ذات علاقة بالسياسة الهاشمية . فقد رحب الهاشميون بسقوط عهد القوتلي، وثيق الصلة بالسعودية ومصر ورمز الجهاد ضد سورية الكبرى ، وابدوا استعدادهم لحماية العهد الجديد ومساعدته بينما كان الزعيم يعتقل رجال العهد السابق ويحل البرلمان والاحزاب ويعلن نفسه رئيسا للدولة . والواقع ان علاقات الزعيم مع الهاشميين كانت قوية من قبل حصول الانقلاب . ويقال انه كان يجتمع بضباط عراقيين في بادية الشام ويدرس معهم خطة الانقلاب لما كان قائدا لمنطقة الجزيرة . ويقال ايضا انه كان بين الضباط السوريين الذين اتصل عبدالله بهم ، بالسر ، في ١٩٤٨ وحرضهم ضد الكتلة الوطنية . ولم يعرف عن الزعيم انه كان صاحب اتجاه قومي يزعج الهاشميين او يتعارض مع مصالحهم ، بل كان يعرف بصداقته التقليدية مع الغرب ، حتى انه نفي من سورية اثر الاستقلال عقابا على خدماته للانتداب .

المهم ان العراق والاردن رحبا بحسني الزعيم ، ولم يأبها للغيوم التي احاطت بانقلابه . حاولا استغلال الانقلاب لمصلحة مشروعيهما التوسعيين . فارسل نوري السعيد وزيره المفوض في بيروت الى دمشق في اليوم الثاني للانقلاب لمقابلة الزعيم ومباحثته بتوحيد البلدين ما دام وطنيو البلد قد اصبحوا في السجن وتفرق النواب في بيوتهم . واعلن الوزير الجديد للخارجية السورية ، عادل ارسلان ، رغبة سورية في الاتحاد مع العراق ، في الثالث من ابريل . وتلقف العراق الدعوة وارسل وفدا عسكريا الى دمشق لبحث الموضوع ، ثم جاء السعيد الى العاصمة السورية بنفسه في منتصف ابريل .

كادت فكرة الهلال الخصيب تتحقق ، ولو جزئيا ، لولا عوامل اخرى فرضت نفسها بسرعة وقلبت مجرى التيار . منها رفض الشعب في سورية لفكرة الوحدة مع العراق ما لم يتحرر العراق اولا من النفوذ البريطاني . ومنها نفور السوريين العام من النظام الملكي . ومنها ضغط مصر والسعودية على

حسني الزعيم لكي لا يبدل سياسة البلاد ولا يفرط باستقلالها . كذلك تدخل الفرنسيون والاميركيون خوفا من توسيع رقعة النفوذ البريطاني . وكان لفرنسة منزلة خاصة عند الزعيم بفعل صداقة قديمة . اما الولايات المتحدة فاستخدمت اغراءاتها المالية . ومن اثار تلك الاغراءات ان وقع الزعيم على اتفاق مرور انابيب النفط السعودي في سورية ، وقبل قبولا مبدئيا بفكرة ضم سورية الى حلف غربي متوسطي . اما السبب الرئيسي في تبدل موقف الزعيم من الهاشميين فكان انه خشي ان يخسر مكانته الكبرى في الكيان الذي اصبح مؤخرا زعيمه الاوحد بعد ان يضم هذا الكيان الى العراق او الاردن او كليهما . لذلك اخذ يفكر بسورية كبرى لا هاشمية ، سورية كبرى تدين له هو بالرئاسة . ولعل هذا هو ما حمله على تأييد محاولة انطون سعادة الفاشلة لقلب نظام الحكم في لبنان في يونيو من تلك السنة .

توترت العلاقات بين الزعيم والهاشميين فجأة ، بعد ثلاثة اسابيع من حصول الانقلاب . وتبادل الفريقان الاتهامات . واغلقا الحدود وحركا الجيوش وتأهبا لقتال كاد ينشب اواخر ابريل . واستغل عبدالله عيد الجيش في الاردن ، في الخامس والعشرين من مايو ، وخطب ضد الكيان السوري ، ودعا جيش بلاده الى ضم سورية واعلانه خليفة على المسلمين . واخذ هاشميو العراق يحرضون اصدقاءهم بين السياسيين السوريين ضد العهد الجديد ويغرونهم على الاطاحة به بعد ان تبين للناس عدم اتزان الزعيم ولهوه وكبته للحريات وتصرفاته المشبوهة . ونجحوا اخيرا في كسب بعض ضباط الجيش فقاموا بانقلاب مسلح في الرابع عشر من اغسطس ١٩٤٩ . وخلع حسني الزعيم واعدم مع رئيس حكومته بعد محاكمة صورية خاطفة . واعلن عن مولد حكم جديد .

كان من اوائل اعمال العهد الجديد الذي ترأسه (الزعيم) سامي الحناوي والذي حكمته حكومة تميل الى الهاشميين برئاسة هاشم الاتاسي ان بدأت الاتصالات مع العراق من جديد لتحقيق وحدة البلدين . ودعم الحزب الحاكم، حزب الشعب الموالي للانجليز والممول من اقطاعيي سورية ورأسمالييها وخاصة في منطقة حلب ، فكرة الوحدة . وكان الحزب المذكور قد استغل تذمر الشعب من مساوىء حكم القوتلي الادارية ومن فضائح حرب فلسطين واستثمارات الشركة الخماسية ، فنشط للدعوة للقضاء على الحكم الجمهوري والحاق البلاد بالعراق . اي انه ايد مشروع الهلال الخصيب ضمنا . ورحب الحزب بزيارة الوصي على عرش العراق لدمشق . غير ان الشعب لم يجار حكومته . فخذل حزب الشعب في الانتخابات النيابية التي اريد منها اظهار ولاء السوريين للهاشميين . وقامت في مجلس النواب جبهة جمهورية قاومت المحاولات الهاشمية الى ان اطاح الجيش مرة اخرى بالعهد القائم ، في التاسع عشر من

ديسمبر ١٩٤٩ ، وعزل القادة العسكريين السابقين بتهمة تعريض استقلال البلاد للخطر والتعاون مع الاستعمار والتآمر مع البيت الهاشمي على مصلحة البلاد . وسلم قائد الانقلاب الثالث ، اديب الششكلي، الحكم للجبهةالجمهورية وسافر الى مصر والسعودية في يناير ١٩٥٠ ليعيد ربط ما انقطع من علاقات ايام النفوذ الهاشمي .

هكذا فشل الحلم الهاشمي مع انه كاد يتحقق مرتين في سنة واحدة . فاستقال نوري السعيد ، في يناير ١٩٥٠ ، تحت الضغط الشعبي في العراق، وخلفته حكومة حاول وزير خارجيتها ، مزاحم الباجحي ، ان يتنصل من مسؤولية الطمع بسورية والاساءة الى المشاعر العربية . فزار مصر وعرض عليها ميثاقا بعدم التدخل في شؤون سورية مدة خمس سنوات . غير ان الوصي على العرش رفض التوقيع على التعهد واقال الوزير . وقد قيل ان الباججي حدد مدة التعهد بخمس سنوات الى ان تكون مدة الوصاية قد انتهت اعتقادا منه بان الطمع بسورية انما هو طمع شخصي عند عبد الاله . وكان الود بين الوصي والوزير مفقودا . وعرف عن الوزير حسن علاقاته بالاوساط الوطنية في العراق وخارجه .

زاد في نكبة الحلم الهاشمي ان فشلت بريطانية في الحصول على موافقة حليفتيها الغربيتين الكبيرتين ، الولايات المتحدة وفرنسة ، على مشاريعها المشتركة مع الهاشميين . عارض مندوبا هاتين الحكومتين في مؤتمر وزراء الخارجية الذي انعقد في لندن في شهر مايو ١٩٥٠ فكرة الاتحادات الاقليمية التي عارضها الشعب وشجعها الانجليز . وصدر عن المؤتمر البيان المعروف بالثلاثي يقترح ، بصورة غير مباشرة ، قيام حلف اسلامي شرقي واسع ضد الشيوعية ، بدل الهلال الخصيب. كان المشروع انتصارا لوجهة النظر الاميركية على حساب المخطط البريطاني ــ الهاشمي . واننا نلاحظ اثر هذا التطور طيلة العقد الخمسيني : تحفظ الانجليز ، بعد ١٩٥٠ ، في تأييد مشروع سورية الكبرى الى ان سقط حلف بغداد ١٩٥٨ .

كانت الحملة لضم سورية الى المعسكر الهاشمي ١٩٤٩ عراقية في الدرجة الاولى . ذلك ان عبدالله كان لا يزال مشغولا في تثبيت حكمه فوق القسم العربي الذي احتله من فلسطين ، ولان سورية كانت تنظر الى العراق نظرة اكثر جدية من نظرتها الى الاردن . لكن هذا لا يعني ان عبدالله تخلى عن مشروعه . حاول ان يجرب حظه في لبنان بينما كان العراقيون يلتهون بسورية . فاجرى اتصالات مع انطون سعادة ، زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذي كان يطمع هو الاخر ، شأن عبدالله وحسني الزعيم ، بتأسيس كيان سوري موحد يدين له بالزعامة . وامد الملك الهاشمي زعيم

القوميين بمال وسلاح قليل ليثور على حكومة لبنان التي كانت لا تزال برئاسة بطلي الميثاق الوطني الذي وقف في وجه الاطماع الهاشمية ، بشارة الخوري ورياض الصلح . ومع ان كلا الحاكمين المتخاصمين ، الملك عبدالله وحسني الزعيم ، اشتركا في مساعدة سعادة فشلت ثورته فشلا ذريعا ولم ينجح رجاله الا في احتلال ثلاثة مخافر صغيرة . وقبض على زعيم الثورة واعدم وستة من اعوانه . وقد كشفت الحكومة اللبنانية في ١٩٦٢ عن وثيقة بحوزتها تعلن عن حلف عقده الملك عبدالله وسعاده قبيل محاولة انقلاب صيف ١٩٤٩ للعمل المشترك لاقامة دولة سورية موحدة يملكها الاول ويحكمها الثاني « مدى الحياة » . وللاتفاقية ملحق بدستور ونظام الدولة العتيدة . وتحدد الوثيقة واجبات كل من الملك والحزب القومي لتحقيق المشروع : يقوم الحزب بالانقلابات وبمحاربة الحكومات القائمة ، بينما يمده الملك بالسلاح اللازم .

عاد عبدالله يحلم بسورية مرة ثانية . واذ ازعجه ان يستبد العراقيون ، ايام الحناوي ، بالمسألة السورية ولا يستشيرونه ولا يشركونه بالمغانم اوعز الى بعض انصاره بالمطالبة بان يدخل الاردن في الاتحاد العراقي ــ السوري العتيد . ونشط زميل لهم في تمويل الصحف الموالية للهاشميين لكي تنادي بعبدالله بدل عبد الاله ، اي لتقف في وجه صحف حزب الشعب التي كانت من جانب العراق . واوفد عبدالله وزير معارفه ، (وكان هو المختص بشؤون سورية الكبرى حتى عرف باسم وزير سورية الكبرى) الى سورية لاستمالة الاقلام في الصحف والاصوات في البرلمان . غير ان الشكلي استلم الحكم قبل ان يكون لهذه الاموال اي مفعول كبير .

وحاول عبدالله ان يستميل الشيشكلي نفسه بالاموال . وعرض عليه مبالغ كبيرة . ولكنها لم تبلغ ما عرضه عليه السعوديون . فاتصل عبدالله بالحكومة السورية ووافق على مشروعها باقامة اتحاد فدرالي عربي شرط ان تكون الرئاسة له . وكان رئيس الحكومة ، الدكتور ناظم القدسي ، قد عرض المشروع على مجلس الجامعة العربية وفشل لان اغلبية الاعضاء شكوا في نياته ــ وكان القدسي نائبا لرئيس حزب الشعب الموالي للانجليز ولهاشميي العراق . ولم يستطع القدسي الا ان يرفض تبني عبدالله لمشروعه . فغضب الملك الهاشمي واخذ يتهم السوريين بتدبير مؤامرة لاغتياله ، وسمى بعض الشبان السوريين والفلسطينيين كاعضاء في جمعية قال انها تريد قتله بتحريض من حكومتي سورية والسعودية .

صحت مخاوف عبدالله في العشرين من يوليو ١٩٥١ ، حينما اطلق شاب فدائي عدة رصاصات على رأس العاهل الاردني وصدره قتلته ودحرجت جسده الصغير على درجات المسجد الاقصى في القدس ، من دون ان يتحقق

حلمه القديم بعرش سورية الكبرى .

وكان عبدالله ادرك قبل مقتله ان لا امل له في سورية ، وان الحل الاصوب لمشكلة الكيان الاردني هو اتحاده مع العراق نفسه . وتردد في اواسط ١٩٥١ انه ينوي السعي من جديد مع العراق لتحقيق الاتحاد بين البلدين . ايد الانجليز المسعى ، للاسباب القديمة نفسها (تقوية الجبهة الهاشمية ضد مصر ، وتقوية الحلف مع تركية) ولسبب اخر : خشي الانجليز ان يخلف عبدالله ولي عهده ابنه طلال الذي كانت ميوله القومية تخيف الانجليز وهاشميي بغداد على السواء . ولكن عبدالله قتل قبل ان يبرز المشروع للوجود . ويعتقد انه دعا رياض الصلح الى زيارته في عمان لمباحثته في الامر والاتفاق عليه ، بصفة الصلح شخصية حيادية وصديقا لكافة الاوساط العربية. وانتهت تلك الزيارة ، التي لا تزال تفاصيلها سرية ، بمقتل الصلح ثم بمقتل عبدالله في الاسبوع نفسه . ويعتقد صهر سابق لرياض الصلح ان الملك كان جادا في حديثه مع الصلح حول المشروع وان تحقيقه كاد ينجح لو لم يستلم توفيق ابو الهدى الحكم اثر مقتل الملك (١٣) . ذلك ان العراق حرك مشروع الاتحاد مع الاردن بعد القتل مباشرة . وكانت هي المرة الاولى التي يبادر العراق فيها الى طلب الوحدة بعد ان كان من قبل يتحفظ بشأنها خوفا من ربط مصيره بالاردن الفقير ، ولكره الاوساط الشعبية داخل العراق لعبدالله بشكل خاص . الا ان مقتل عبدالله جعل العراق يشعر ان فراغ العرش الاردني سيسهل عليه حكم الاردن ، وسيريح الانجليز من طلال ومشاعره الوطنية . جاء الرفض ، هذه المرة ، من رئيس الحكومة الاردنية ، توفيق ابي الهدى ، الذي قاوم المشروع العراقي بمساعدة زوج طلال ، الملكة زين ، وباموال السعودية. ونجح في المحافظة على العرش الاردني وفي عزل طلال وتنصيب ابنه القاصر انذاك ، حسين ، صيف ١٩٥٢ . الا اننا يجب الا نبالغ في تصوير رغبة العراق في ضم الاردن انذاك ، لانها كانت محدودة على كل حال ، مع ان بعض الاوساط في الاردن حاولت ان تضخم تلك الرغبة لتستدر عطف الوطنيين عليها لفترة من الزمن . ذلك ان نوري السعيد كان يخشى دائما ان يستنفد ضم الاردن جزءا كبيرا من خزينة الدولة ، وكان يحرص الا يحصل مثل هذا الضم قبل ان يضم الكويت ، الغني جدا والقادر على سد عجز الميزانية الاردنية. ولهذا السبب عمل السعيد كثيرا في نصف السنة الاخير من حياته على اقناع الكويت بدخول الاتحاد الهاشمي .

مرة اخرى ، انصب تفكير هاشميي العراق على سورية بعد الفشل في

---

(١٣) ناصر الدين النشاشيبي ، ماذا جرى في الشرق الاوسط (بيروت ، ١٩٦٢) ، ص ٣٥٨ — ٣٦٨ .

الاردن . وزاد في الطمع بها ان مدت اليها انابيب النفط الضخمة ، واصبحت مركزا رئيسيا لتصدير النفط الى اوربة . وكان اديب الششكلي لا يزال يحكم البلاد بيد فولاذية : بطش بالاحزاب وحلها ، وبالصحف واوقفها ، وبالسياسيين وسجن بعضهم ونفى بعضا اخر . وازداد اعداؤه . فاتصلت السلطات العراقية ببعض هؤلاء واستضافت عددا منهم على ارضها ، ومولت الاخرين الذين عملوا في سورية بالسر . واستطاعت ان تكسب الى جانبها الحزب الوطني نفسه، خصم العراق التقليدي ووريث الكتلة الوطنية ، اللاهاشمية . وقد فضحت محاكمات الثورة في العراق في العام ١٩٥٨ اتصالات عدد من الزعماءالسوريين، وبعضهم من رجال الحزب الوطني ، بهاشميي العراق . نتج عن تلك المحاولات ان قطع الششكلي علاقاته بالعراق . وسجن العشرات من انصارها ، اوائل ١٩٥٤ . فتكتل اعداؤه وانصار الهاشميين واسقطوه في الخامس والعشرين من فبراير ١٩٥٤ بمعاونة فئات ناقمة اخرى على حكمه ، عسكرية ومدنية . غير ان الشعب استمر يتهم العراق بتدبير المؤامرات ضد البلاد حتى وهو يحتفل باسقاط الششكلي عدو الهاشميين . فحاولت الحكومة العراقية ان تنقذ سمعتها وقدم فاضل الجمالي مشروعا باسمها لتحويل الجامعة العربية الى دولة فدرالية . ولكن اغلب الدول العربية رفض المشروع واعتبره امتدادا للمساعي القديمة لعرقلة اعمال الجامعة .

نشأ عند عبدالاله ولع خاص بعرش سورية بعد ان بلغ الملك الصغير سن الرشد واستلم الحكم فعلا في اول مايو ١٩٥٣ ، وبعد ان جلس الحسين على عرش الاردن في اليوم نفسه وسد باب الامل بوجه عبدالاله في ذلك الاتجاه — وكان من اول اجراءات الملك حسين انه رفض البحث في مذكرة عراقية بتوحيد البلدين . كانت سورية ، بالتالي ، هي المجال الوحيد لعبدالاله . شجع نوري السعيد اميره في ذلك ليتخلص من نفوذه وليخرجه من العراق الى سورية ، وكان الخلاف بينهما قد بدأ يشتد، كل منهما يسعى لان يكون صاحب السيطرة الاول على الملك الشاب . فاخذت السلطات العراقية ترشو قبائل الحدود العراقية — السورية ، وتثيرها ضد الحكومات السورية التي استلمت السلطة بين ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، ليجد العراقيون وسيلة للتدخل بواسطتها . واخذت السلطات المذكورة ، من جهة اخرى ، تنفق على الاحزاب والجماعات الموالية للغرب عموما وللانجليز خصوصا ، من حساب حلف بغداد الذي تكون في العام ١٩٥٥ ودعمته الولايات المتحدة ماليا .

ازدادت تلك المحاولات وتفاقم خطرها بعد اناعلن ممثلو سورية ومصر اتحاد بلديهما في اول وحدة قومية في تاريخ العرب الحديث ، وسندت

باعلان الاتحاد العربي بين العراق والاردن لمواجهة الدولة القومية الجديدة . غير انها فشلت كلها وسقط الاتحاد مع سقوط هاشميي العراق تحت رصاص افراد من الشعب الغاضب الثائر في صباح الرابع عشر من يوليو ١٩٥٨ .

ان هناك ملاحظات لا بد من استخلاصها من هذا الاستعراض الطويل للمساعي التي قام بها بعض افراد الاسرة الهاشمية ، عبدالله وعبدالاله، لتحقيق رغباتهم العائلية على حساب امنية الوحدة العربية ورغما عن ارادة الشعب .

اولها ان تلك المحاولات كانت عائلية خاصة في معظم الاحيان . قلما كان الشعب يشترك بها . بل كان يقف ضدها ويعارضها في معظم الكيانات العربية ، وخاصة الكيانات المعنية بالامر مباشرة . وكانت المحاولات تأتي من فوق ، ولا تنبثق عن احاسيس الشعب ورغباته. وكانت تنهج اساليب مشبوهة ولا ديموقراطية .

ثانيها ان المصالح بين الهاشميين قلما كانت تلتقي ، وان الصراع بين العاهل الواحد والاخر كان اقوى ، في بعض الاحيان ، من صراع البيت الهاشمي مع اخصامه .

ثالثها ان القصد من هذه المشاريع لم يكن تحرير البلاد العربية من الاستعمار وتعزيز استقلالها بقدر ما كان ضمها الى مناطق النفوذ البريطاني . فالعمل على ضم سورية ولبنان اخذ يظهر بعد استقلالهما ، ١٩٤٣ . وفكر العراق بضم الاردن لما جاء طلال الى الحكم بعهد وطني نسبيا . واخذ عبدالله القسم العربي من فلسطين وسكت عن الجزء السليب .

رابعها ان المشاريع لم تكن من ضمن المخطط القومي لتوحيد العرب . بل كانت من خارجه ، ولعرقلته احيانا ، او لتحديه على الاقل . ولعل الاتحاد الهاشمي في فبراير ١٩٥٨ ابرز مثال على ذلك . فان كافة الاخطار ، وعلى رأسها « اسرائيل » ، لم تحمل هاشميي العراق على قبول الاتحاد مع الاردن في مدة سبعة وثلاثين عاما . ولا حملتهم عليه المبررات القومية التي وعاها العرب مدة خمسين عاما على الاقل . بل كانوا يتهربون من الاتحاد خوفا على مكاسبهم الخاصة . ولكن لما حقق العرب نواة الوحدة الحقيقية ووقفت الحركة العربية على قدميها واثبتت وجودها في الميدان العالمي ، انذاك فقط تنادى هاشميو العراق الى الاتحاد مع الاردن ، لا ليسهلوا تلك الوحدة ويغذوا نواتها ويسندوها بل ليعارضوها وليقتلوها في مهدها . كان الاتحاد العربي الذي رد به هاشميو العراق على قيام الجمهورية العربية المتحدة محاولة اخيرة لضرب اضخم انتصار سياسي حققته الحركة العربية منذ نشأتها . لكن

الضربة خابت . وانهار الاتحاد على رأس مؤسسيه العراقيين بعد خمسة اشهر فقط .

وكما قلت في مكان سابق من هذا الفصل ، انالتكتل الاقليمي داخل الوطن العربي ليس شرا بحد ذاته ، بل هو خير ما دام تحقيق الوحدة الكاملة الشاملة من المتعذر حاليا . انما شرطه ، ليكون خيرا ، ان يكون خطوة نحو ذلك الهدف البعيد ، والا يكون عقبة في اي شكل او حال . ان التكتل الاقليمي الذي يتجاهل عن قصد ويعزل جهة معينة من الوطن ويحصر نفسه في جهة اخرى لا بد ان يفشل ، ولا بد ان يكون من خارج المخطط القومي العام . كان من المعقول سابقا ان ينحصر التكتل في الهلال الخصيب لانه كان منطقة الوعي والحماس للقضية العربية وكان الاجدر بالقيادة ، بينما كانت مصر في عزلة وغير مهيأة للعمل العربي . اما الان فقد تبدل الوضع ، بعد ان انبثقت عن امال الشعب واحاسيسه قيادة جعلت من مصر عضوا طبيعيا وضروريا لاي تكتل اقليمي ضروري للتمهيد للوحدة الشاملة . ان اخراج مصر من هذه النواة يعرض النواة للعقم والاندثار . ومثلما كانت الاوضاع تفرض ان تكون النواة في الهلال الخصيب ، قبل عقود من الزمن ، تفرض الاوضاع اليوم ان تكون مصر والهلال الخصيب ، او بعض الهلال الخصيب ، مهد هذه النواة ان اريد لها ان تنضج وتنتج ، وان تستأصل جرثومة « اسرائيل » من جسم الوطن العربي الواحد .

حمد يوسف الدويش

المحتويات

مؤلفات انيس صايغ

لبنان الطائفي
(بيروت ، دار الصراع الفكري ، ١٩٥٥)

الاسطول الحربي الاموي في البحر الابيض المتوسط
(بيروت ، ١٩٥٦)

جدار العار
(بيروت ، ١٩٥٧)

سورية في الادب المصري القديم
(بيروت ، ١٩٥٨)

الفكرة العربية في مصر
(بيروت ، ١٩٥٩)

تطور المفهوم القومي عند العرب
(بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦١)

في مفهوم الزعامة السياسية : من فيصل الأول الى جمال عبد الناصر
(بيروت ، المكتبة العصرية وجريدة المحرر ، ١٩٦٥)

الهاشميون والثورة العربية الكبرى
(بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٦)

الهاشميون وقضية فلسطين
(بيروت ، المكتبة العصرية وجريدة المحرر ، ١٩٦٦)

اشاعات الزعيم الروسي [illegible]

[قا]ل عبد الله : للعرب بأنه سيهتموا بالقليل حتى يأتيهم الكثير.

و .. .. أشار على فلسطين من قريب ها من أكثر

من عدو حاقد.

[illegible] الذي قتل عبد الله في يوم ٢٠/٧/١٩٥١م،

[illegible] كان يحرك (فيصل ابن الحسين بن علي) وهو أكبر [illegible]

[illegible] صحابة [illegible] ذلك جوار العقبة يوم ٤/يونيو/١٩١٨